

٢٨٠ ٢/٢٨.١٤٠

سجل تحت رقم: ٢٩٥

تاريخ: ٢٠١٨

الرقم:

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان -

٠٦

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم اللغة العربية وآدابها

شعبة الدراسات البلاغية والتقدية بين أصالة التراث والمعاصرة

الموضوع:

التضام في القرآن الكريم في سورتي هود و طه

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في البلاغة والتقد

إشراف

أ. الدكتور: محمد عباس

إعداد الطالب

بوضيف محمد الصالح

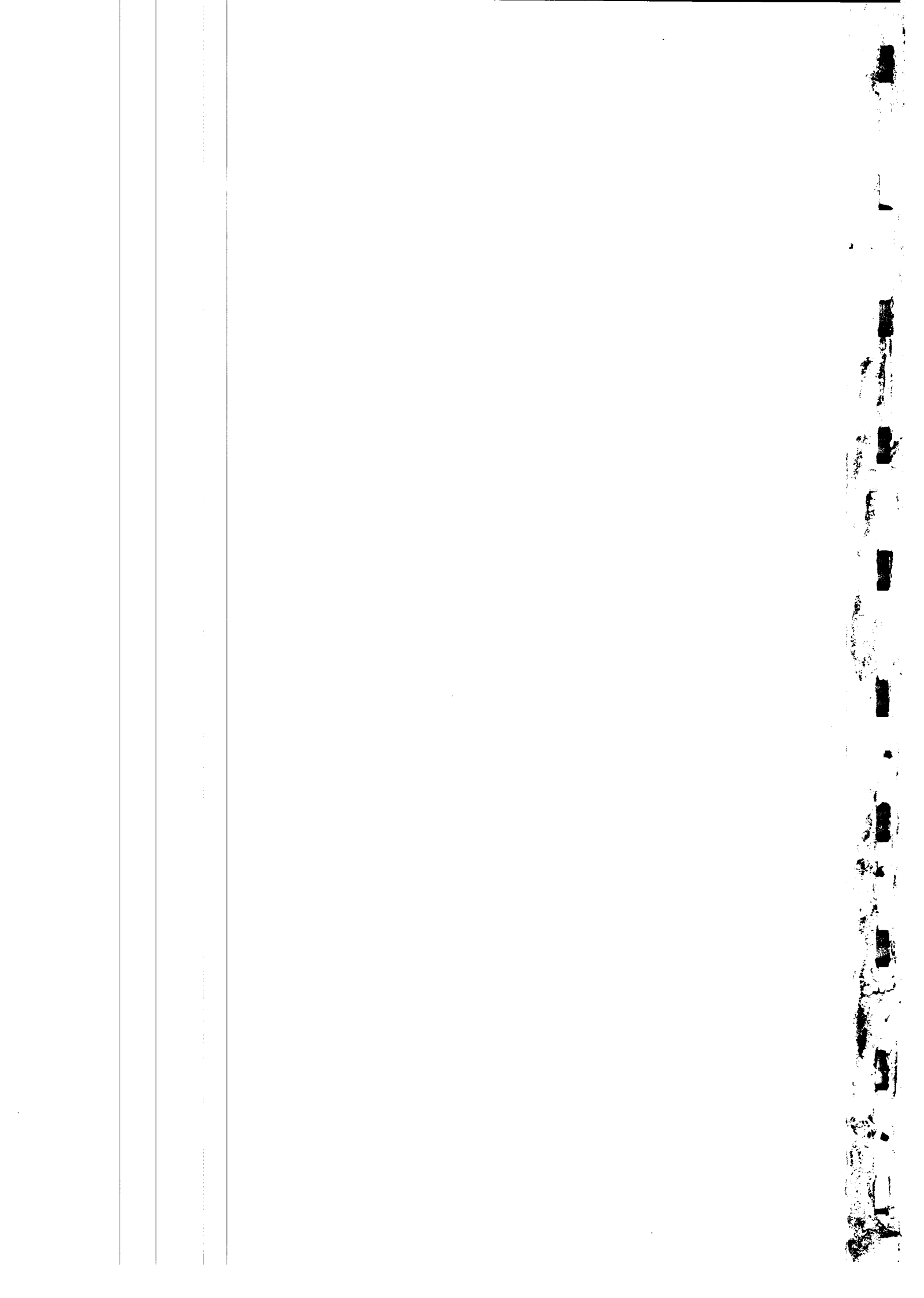
أعضاء لجنة المناقشة

رئيسا	جامعة تلمسان	أستاذ التعليم العالي	أ.د/ عبد الجليل مرتاض
مشرفا	جامعة تلمسان	أستاذ التعليم العالي	أ.د/ محمد عباس
عضوا	جامعة تلمسان	أستاذ التعليم العالي	أ.د/ محمد طول
عضوا	جامعة تلمسان	أستاذ محاضر	د/ محمد محيي الدين
عضوا	جامعة سيدي بلعباس	أستاذ محاضر	د/ عبد الجليل منقور

السنة الجامعية

1430هـ/1431هـ

2009م/2010م





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ :

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ

وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة هود- الآية 120]

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا

[سورة طه- الآية 99]

إِنَّهُ كَلَّمَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ وَشَرُفَ؛ صَعُبَ مَسْلَكَهُ وَطَالَ
طَرِيقُهُ وَكَثُرَتْ عَقَائِبُهُ. [أبو حامد الغزالي].

كلمة شكر:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:

فلي معالي الغبطة والحبور أن أشكر لأستاذي الكريم؛ الأستاذ الدكتور محمد عباس حسن
صنيعه وإعانتته وما قدّمه طوال هذه المدّة، وأن أشكر لأعضاء لجنة المناقشة وأساتذتي الكرام كلّ
حرف منحوني إياه، كما أتقدّم بأسمى معاني الشكر والتقدير إلى الزملاء، وإلى موظفي المكتبات
بتلمسان والجزائر العاصمة والرباط... ثمّ أيّها المعنيّ هنا:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثني وفوق الذي نثني

إهداء

إلى والديّ اللّذين أهديا إليّ قلمًا، وإلى أليّ أساتديّ السّنين سأكبر
أهدي هذا العمل.

مَقَامَاتُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ؛ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ
وصحبه أجمعين وبعد:

فإنَّ المتأمل في هذه اللغة العربية الشريفة يجدها تختصّ بنظام تركيبّي دقيق، حاول لغويونا منذ القديم الكشف عنه وتحديد قواعده كلّما دعت الحاجة إلى ذلك، ولئن ظهرت هذه المحاولات في شكل ملاحظات عابرة بوضع جملة من القواعد تضبط أواخر الكلمات، وتُسلم المتكلم من الخطأ؛ فإنّها سرعان ما تطوّرت لتشمل مجالات نحويّة وبلاغيةً انفردت بدراسات قائمة بذاتها، يقلّ نظيرها في لغات أخرى، والملاحظ في هذا النظام اللغويّ يدرك أنّه يكتسب خاصية الترابط والانسجام من ذلك التآليف العجيب بين الحروف والكلمات والجمل، حتّى إذا اتّسع المجال خرج هذا التآليف في نسيج لغويّ محكم يتناوله موضوع اصطلاح عليه بمفهوم التضام.

وإنّ اتّساع هذه اللغة العربية وشموليتها أهلها بحقّ لأن تكون لغة اصطفاها الله ترجمانا لوجيه ولغة رسالته إلى خلقه، وكفى بالقرآن الكريم إماما بجميع علومها وميادينها إذ لا يزال ملاذ العلماء وميادهم الفسيح للبحث والتنقيب، ولا تزال موضوعاته تشغل بال الدارسين.

وفي رحاب هذا كانت دراستنا، واستقرّ موضوع بحثنا موسوماً بالتضام في القرآن الكريم في سورتي هود وطه، وإذا كان بحثنا في القرآن الكريم هدفاً مقصوداً ورجاءاً منشوداً منذ مدّة؛ فإنّ لأستاذنا المشرف يدا بيضاء وراء هذا البحث، حيث يعود هذا الاختيار إلى اقتراح أستاذنا الكريم وضبطه لفكرة التضام وتحديد مجال البحث في سورتي هود وطه، كما يعود إلى قراءتنا البسيطة لموضوع التضام في بعض الدّراسات الحديثة، ومحاولة إفراجه بدراسة على حده، أمّا ما يخصّ وقوفنا على سورتي هود وطه فإنّه يعود إلى أحاديث نبويّة وقصص إسلام بعض الصّحابة الكرام تلقيناها في مراحل دراسية سابقة، على أمل أن نفصل هذه الأسباب في فصولها اللاحقة، انطلاقاً من إشكالية ينهض بها البحث مفادها: ما مدى أن يتجاوز بحث التضام في القرآن الدّراسة النحويّة والقرائن اللفظيّة التي نشأ في أحضانها إلى دراسة الأساليب التركيبيّة البلاغيّة الجمالية؟ ثمّ ما هي إمكانيّة عدّ موضوع التضام بحثاً في الإعجاز، شأنه في ذلك شأن نظريّة النظم التي تبحث في الطّرق الممكنة لضّمّ الجمل ورفضها وتأليفها؟

إنّ طبيعة الموضوع فرضت علينا منهاجاً هو المنهج الوصفي التحليلي، باعتبار أنّ الدّراسة تخضع تارة في بعضها إلى مسائل نحوية وبلاغية دون أحكام أو تعليل، وهي تارة أخرى تعتمد على عرض النّصوص بغرض التّطبيق والتحليل، ولقد رافقتنا في الدّراسة مجموعة من المصادر والمراجع الرّئيسة، فمن القديم الكتاب لسيبويه، والإنصاف لابن الأنباري، وإعجاز القرآن للباقلاني، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، والبرهان للزّركشي، ونظم الدرر للبقاعي وتفسير الكشاف للزّمخشري، وتفسير روح المعاني للألوسي، ومن الحديث المعتمد في الدّراسة كتبُ تمام حسنّ وبخاصّة كتابه اللّغة العربيّة معناها ومبناها، إلى جانب بعض كتبه الأخرى كالبيان والخصّاصة التّحوية، ومن المراجع أيضاً معجم المصطلحات البلاغية لأحمد مطلوب. أمّا أهمّ الصّعوبات التي تعرّضت طريق البحث فلعلّها تكمن في صعوبة التّعامل مع مختلف أقوال العلماء ولا سيما ما يتعلّق بتفسير القرآن الكريم وأوجهه البيانية، كما تكمن أهمّها في دقّة المسالك وتداخل الحقول تصوّراً واصطلاحاً.

هذا ما وُفقنا إلى الوصول إليه، وليس في وسعنا إلّا أن نتقدّم أوّلاً بالحمد لله الذي أن شرفنا بالانتساب إلى هذه الأمة الجليلة، وعلى أن فتق ألسنتنا على لغتها الشريفة الأصيلية، وعلى أن رزقنا من بيّاتها ما يستقيم به لساننا، ثمّ أن نسجّل شكرنا وامتناننا الكبيرين لأستاذنا المشرف؛ الأستاذ الدكتور محمّد عبّاس، على تفضّله بالإشراف، وتجنّسه عناء القراءة والتّصحيح والمتابعة مادحين فيه صبره وخصاله، كما نشكر لأساتذتنا الكرام توجيهاتهم ونصائحهم واكلّ حرف علّمونا إيّاه.

وعلى الله قصد السبيل.

بوضيف محمّد الصّالِح

تيسمّيلت في: الأربعاء 24 جمادى الأولى 1430هـ

الموافق لـ: 20 ماي 2009م.

الفصل الأوّل

التّضامّ، أصوله وامتداداته.

1. مفهومه ومجالاته.
2. التّضامّ في الموروث التّحويّ.
3. التّضامّ في الموروث البلاغيّ.
4. التّضامّ في التّرسّ الآسانيّ الحديث.

إنّ المقصود بالتّضامّ أن يستلزم أحد
العنصرين التّحليليين التّحويين عنصراً
آخر، فيُسمّى التّضامّ في هذه الحالة
"التّلازم" أو يتنافى معه فلا يلتقي به
فيُسمّى "التّنافي". [تمام حسن: اللّغة
العربيّة، معناها ومبناها - ص 216]
وهو بهذا المعنى أقرب إلى اهتمام
دراسة العلاقات التّحوية والقرائن
اللفظية منه إلى دراسة الأساليب
التركيبية البلاغية الجمالية.

أولاً: مفهومه ومجالاته.

1. التعريف اللغوي والاصطلاحي:

التضام لغة:

التضام مصدر من الفعل "ضَمَمَ"، جاء في كتاب العين: «الضَمُّ: ضَمُّكَ الشَّيْءَ إِلَى الشَّيْءِ وَضَامْتُمْ فَلَانَا أَي: قَمْتُمْ مَعَهُ فِي أَمْرٍ وَاحِدٍ». ومنه الضُّمَامُ: كُلُّ شَيْءٍ يُضَمُّ بِهِ شَيْءٌ إِلَى شَيْءٍ. والإضمامة الجماعة من الناس¹، ومن معاني الضم الاشتمال، تقول: تضامَّ القوم إذا انضمَّ بعضهم إلى بعض، واضطَمَّتْ عليه الضلوع أي: اشتملت².

وقد أرجع ابن فارس اجتماع "الضاد" و "الميم" إلى أصل واحد يدل على ملاءة بين الشيئين. يقال: هذه إضمامة من خيل أي: جماعة³. والضمُّ أيضا اجتماع الشيء إلى الشيء فضمام الشيء الشيء انضمَّ معه، ومنه الضُّمَامُ: كُلُّ مَا ضُمَّ بِهِ شَيْءٌ إِلَى شَيْءٍ. قال الشاعر⁴:

فألقي القومَ قد شربوا فضموا أمام القومِ منطقتهم نسيفُ

أي: إنهم اجتمعوا وضموا إليهم ورجلهم⁵. ومما تدلُّ عليه هذه المادة اللغوية كذلك معنى

1 الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ): كتاب العين - تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي - د ط - د ت - ج 07 - ص 16، 17.

2 اسماعيل بن حماد الجوهري (ت 393هـ): تاج اللغة وصحاح العربية - تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار - بيروت - دار العلم للملايين - ط 04 - 1990م - مج 06 - ص 1972، 1973.

3 أبو الحسن أحمد ابن فارس (ت 395هـ): معجم مقاييس اللغة - تحقيق و ضبط: عبد السلام محمد هارون - بيروت - دار الجليل - د ط - د ت - مج 03 - ص 357.

4 أبو ذؤيب الهذلي: الذبوان - تحقيق و شرح: سهام المصري - بيروت - دمشق - عمان - المكتب الإسلامي - 1419هـ / 1998م - ص 170.

5 أبو الحسن ابن سيده (ت 458هـ): المحكم والمحيط الأعظم - تحقيق: عبد الحميد هنداوي - بيروت - منشورات محمد علي بيضون - ط 01 - 1421هـ / 2000م - مج 08 - ص 166.

المعانقة والانطواء¹، فقولك: ضمنتُ الشيء إلى الشيء، وضممته إلى صدري ضمةً: عانقته. وانضمَّ إلى كذا انطوى عليه. وأرسلت فلانا وجعلتُ غلامه ضميماً لي، والضمُّ أيضاً القبض². قيل: «قبضَ الشيء إلى الشيء، وضمَّه إليه يضمُّه ضمًّا فانضمَّ وتضامَّ، ضمنتُ هذا إلى هذا فأنا ضامٌّ وهو مضموم». واضطمَّ الشيءَ جمعه إلى نفسه³.

والمعاني نفسها تكررت فيما بعد في المعاجم والقواميس الحديثة، فقد جاء في المعجم الوسيط أن فلانا ضمَّ الأشياء بمعنى جمعها وقبض بعضها إلى بعض⁴، وضمَّ الشيء إلى الشيء: أضافه إليه، واضطمَّ انضمَّ إليه، واشتمل وانطوى. وانضمَّ الشيء اجتمع بعضه إلى بعض، والضميم المضموم إلى غيره.

إذا كانت المعاني اللغوية التي حملتها هذه المادة المعجمية - مادة ضم - تدلّ في مجملها على عبارات الاجتماع، والملاءة والقبض، و المعانقة والإضافة والانطواء والاشتمال، فإننا سننقلها إلى جانب الاصطلاح لنرى مدى التقارب أو التباعد بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي.

التضام اصطلاحاً:

إذا كانت اللغة هي المتن الذي يأخذ منه الاصطلاح مادته؛ فإنه لا بدّ أن نحتكم في تعريف التضام اصطلاحاً إلى مادته اللغوية، وأن نتخب من مفردات هذه المادة ما يناسبه ويجرّده عن دلالة اللغوية، بغية اكتساب دلالة اصطلاحية تخصّه من جهة، ومن جهة أخرى فإننا سنعتمد في تعريفه كتابات وإشارات بعض المؤلفين وتحديداتهم له.

1 أبو القاسم جاز الله محمود الزمخشري (ت538هـ): أساس البلاغة - حققه وقدم له ووضع فهرسه: مزيد نعيم وشوقي المعري - بيروت - مكتبة لبنان ناشرون - ط 01 - 1998م - ص 487، 488.

2 جمال الدين أبو الفضل ابن منظور (ت711هـ): لسان العرب - بيروت - دار صادر - ط 06 - 1417هـ - 1997م - مج 12 - ص 357.

3 مجد الدين الفيروز آبادي (ت817هـ): القاموس المحيط - ضبط وتحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي - إشراف: مكتب البحوث والدراسات - بيروت - دار الفكر - ط 1420هـ / 1999م - ص 1020، 1021.

4 المعجم الوسيط: قام بإخراج هذه الطبعة: إبراهيم أنيس، وعبد الحليم منتصر، وعطية الصوالحي، ومحمد خلف الله أحمد - أشرف على الطبع: حسن علي عطية، ومحمد شوقي أمين - بيروت - دار الفكر - ط 01 - ص 544.

يجعل تمام حسّان¹ فهم التضام ممكنا من وجهين، ويلخصهما على هذا النحو :

الوجه الأول: إنّ التضام هو الطّرق الممكنة في رصف جملة ما، فتختلف طريقة منها عن الأخرى، تقديمًا وتأخيرًا، وفصلاً ووصلاً، وهلم جرا، وقد أطلق عليه اصطلاح "التّوارد" فقال: «يمكن أن نطلق على هذا الفرع من التضام اصطلاح التّوارد»²، بيد أنّ هذا الوجه بهذا المعنى أقرب إلى اهتمام دراسة الأساليب التركيبيّة البلاغيّة الجماليّة منه إلى دراسة العلاقات النّحويّة والقرائن النّظريّة.

الوجه الآخر: إنّ المقصود بالتضام أن يستلزم أحد العنصرين التحليليين النّحويين عنصراً آخرًا؛ فالضام في هذه الحالة "التّلازم"³، أو تنافه معه فلا يلتقي به، فيسمّى "التّنافه"⁴.

والتضام في نظره ليس اتّصال اللّواصق بالكلمة، فاتّصال اللّواصق ضمّ جزء كلمة إلى بقية هذه الكلمة؛ بل هو تطلّب إحدى الكلمتين للأخرى في الاستعمال على صورة تجعل إحداهما تستدعي الأخرى، فياء التّداء كلمة مستقلة وليست جزء كلمة، والعلاقة بينها وبين المنادى علاقة

¹ تمام حسّان عمر (أبو هاني): أحد الأساتذة المتميّزين في الأدب العربي في "دار العلوم" بالقاهرة، رحل إلى لندن ليناقش رسالة الماجستير في موضوع "لهجة الكرنك" ثم رسالة الدكتوراه في موضوع "لهجة عدن"، يدرّس مادّة "النحو" منذ سنة 1959م، من تصانيفه: مناهج البحث في اللّغة، نشر سنة 1955م، كتاب "اللغة بين المعيارية والوصفية" نشر سنة 1958م، ثم كتاب "اللغة العربية معناها ومبناها" في حدود 1973م. أخذ عن: مبارك عبد القادر: آراء تمام حسّان في نقد النحو العربي - مخطوط رسالة ماجستير - إشراف: عبّاس محمّد - جامعة تلمسان - قسم اللّغة العربيّة وأدائها - 2002م/2003م - ص 10. ويعدّ كتاب "مفاهيم ومواقف في النّصّ القرآني" آخر ما صنّف إذ تبلغ تصانيفه ما يزيد عن خمسة عشر كتابًا، يقطن حاليًا بشارع 206 شركة شيل. المعادي - القاهرة.

² تمام حسّان: اللغة العربية معناها ومبناها - القاهرة - عالم الكتب - ط 04 - 1425هـ / 2004م - ص 216.

³ ستكون لنا وقفات مع مثل هذه المصطلحات فيما يستقبل من البحث إن شاء الله، نحو مصطلحات: "التلازم" و"التنافي" و"التوارد" و"الافتقار" و"الرتبة" والعلامة الإعرابية و"الصيغة" والسّمات و"القرائن الشّكلية" وغيرها.

⁴ تمام حسّان: السابق - ص 217.

التضام، لا علاقة للإصاق¹. وعلى هذا المعنى والمقصود قد أقام تمام حسن في كتابه "اللغة العربية معناها ومبناها" دراسته بالوصف والتحليل، وحصر مباحث التضام على هذا الوجه الأخير بالخصوص دون الوجه الأوّل؛ الأمر الذي تنهض به إحدى إشكاليات هذا البحث.

نلاحظ أنّ تعريفه للتضام وفهمه له صاحبه معاني الاستلزام والرصف، وهي معان قريبة من معاني الملاءة والقبض والإحكام التي وجدناها تتكرّر في التعريف اللغوي.

وقد يعني التضام: «إيراد كلمتين أو أكثر لخلق معنى أعمّ من معنى أيّهما؛ كضمّ حرف النداء أو حرف الجرّ إلى الاسم، أو ضمّ الصلة إلى الموصول، أو ضمّ فعلي الشرط إلى الشرط»² وهو بهذا المفهوم يعدّ من العناصر البارزة التي تكوّن نظام تأليف العبارة في اللغة العربية، ومن هنا: «تبرز أهمية التضام باعتباره ظاهرة شكلية كبرى تصوّر أسلوب تألف الكلمات في اللغة ثم استخدام صورة التألف في إعطاء المعنى العام للتركيب الكلامي»³ ومردّد عدّه إحدى الظواهر الشكلية أنّه يشترك مع العلامة الإعرابية والرتبة والصيغة في كون كل واحدة منها من السمات الشكلية التي يتعرّض موضوعاتها في الغالب للأجزاء التحليلية من التركيب الكلامي، بيد أنّه يتعلّق بالسياق، في حين إنّ بقية السمات الشكلية تتعلّق بمكوّنات السياق، ومادام يعدّ من السمات الشكلية فإنّه يعين على تحديد مواقع الكلمات بين أقسام الكلام، فالكلمة التي تكون بعد حرف النداء مثلا لا تكون إلاّ اسما، والعلاقة بين حرف النداء والمنادى علاقة تضام⁴.

والتضام أيضا هو الترابط الأفقي الطبيعي بين الكلمات أو رفقة الكلمات وجيرتها لكلمات أخرى في السياق، نحو: "أهلا وسهلا"، وقد تطوّر هذا المفهوم⁵، فأصبح يعني دخول

1 المرجع السابق - ص 94.

2 فاضل مصطنى السّاقى: أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة - تقديم: تمام حسان - القاهرة - مكتبة الخانجي - دط - 1397هـ / 1977م - ص 195.

3 المرجع نفسه - ص 196 وما بعدها.

4 المرجع نفسه - ص 196.

5 نادية رمضان النجار: أبحاث نحوية ولغوية؛ القسم الأوّل - الإسكندرية - دار الوفاء للنشر - ط01 - 2006م - ص 15.

الكلمة في سياق مقبول مع الكلمات الأخرى، نحو الفعل "أطلق" في قولك: "أطلق لحيته" ونحو: "أطلق ساقيه للريح" ونحو: "أطلق له الحبل على الغارب" ولكل منها معنى سياقيّ يخالف غيره. إن التضام من خلال هذه الآراء والتعريفات وعلى هذا التقدير سيتعلّق موضوعه بالتلازم بين العناصر اللغوية لتكوين الجمل والتراكيب وسيكون إحدى العلاقات التركيبية الأفقية في النحو العربي، ميداً أن دراستنا لموضوع التضام ستكون دراسة بلاغية أكثر منها نحوية، كما سبق بيانه في مقدّمة البحث.

1. التضام قرينة لفظية:

إن المقصود بالقرينة عموماً: «الأمر الدال على شيء من غير استعمال فيه، وقيل هي أمر يشير إلى المطلوب، فيها نعرف الحقيقة من المجاز ونعرف المقصود بالألفاظ المشتركة، ونعرف الذّكر والحذف وخروج الكلام عن ظاهره، وما إلى ذلك ممّا يحتمل أكثر من دلالة»¹، والقرينة هي الدلالة اللفظية أو المعنوية التي تمحض المدلول وتصرفه إلى المراد منه مع منع غيره من الدخول فيه وقد تكون لفظية أو معنوية أو حالية²، فهي عنصر مهم لفهم الجملة. أمّا إذا خصصناها وميّزناها عن مجموعة من القرائن الأخرى وقلنا هذه قرينة لفظية فإنّ منحنى الدراسة يختلف عن معناها السابق، وسيرتبط موضوعها بقضايا التعليق النحوي، الذي تصدّى له جملة من العلماء أمثال تمام حسان حين راح يبحثه بالتفصيل في كثير من مؤلفاته³ تحت عناوين "العلاقات السياقية" والقرائن اللفظية" و"القرائن المعنوية" و"تضافر القرائن"، وجعل التعليق الفكرة الرئيسة في النحو العربي، لأنّ فهمه يقود حتماً إلى الغاية الكبرى من التحليل الإعرابي، إذ التأمّل في هذه القرائن يقود في أغلب الأحيان إلى متاهات الأفكار الظنيّة التي لا تتصل اتصالاً مباشراً بالتفكير النحوي⁴.

1 فاضل صالح السامرائي: الجملة العربية والمعنى - بيروت - دار ابن حزم - ط01 - 1421هـ / 2000م - ص 60.

2 محمد سمير اللبدي: معجم المصطلحات النحوية والصرفية - ص 186. أخذنا عن: عبد الجبار توامة: القرائن المعنوية في النحو

العربي - مخطوط رسالة دكتوراه - جامعة الجزائر - معهد الآداب واللغة العربية - 1995م - ص 17.

3 تمام حسان: اللغة العربية، معناها ومبناها - ص 188.

4 المرجع نفسه - ص 182.

يقسم تمام حسان قرائن التعليق إلى قرائن لفظية وأخرى معنوية؛ كلاهما تعرف من المقال لا من المقام، وجعل تحت كل قرينة منهما عناصر وفروعاً.

01- القرائن المعنوية في أبسط تعاريفها: «هي معاني النحو أو العلاقات السياقية»¹ وتشمل الإسناد والتخصيص والنسبة والتبعية والمخالفة².

02- القرائن اللفظية: هي ما يقدمه علما الأصوات و الصّرف للنحو من قرائن صرفية ونحوية³ وتشمل: الإعراب والرتبة والصيغة والمطابقة والربط والتضام والأداة والتغمة⁴.

ولا بأس أن نستعرض هذه القرائن اللفظية⁵ بشيء من الإيجاز:

(1) العلامة الإعرابية: إن ما دفع التحاة إلى البحث في العامل الذي يحدث الإعراب هو بروز هذه العلامات الإعرابية في العربية الفصحى.

(2) الرتبة: وصف لمواقع الكلمات في التراكيب، والرتبة نوعان؛ رتبة محفوظة تخصّ النحو لأن أي اختلال بمسّها يجعل التركيب مختلفاً غير مقبول، ورتبة غير محفوظة تخصّ البلاغة، إذ اهتمّ به علم المعاني الذي بين أغراض التقديم والتأخير ضمن دراسة الأسلوب لا التركيب الأمر الذي ينهض به أحد مباحث هذه الدراسة إن شاء الله.

(3) الصيغة: قرينة يقدمها علم الصّرف للنحو، وهي المبنى الصّرفي للأسماء والأفعال والصفات.

¹ أحمد محمد قنّور: مبادئ اللسانيات - بيروت - دار الفكر المعاصر - دمشق - دار الفكر - ط02 - 1419هـ - 1999م - 228. وحسين رفعت حسين: الموقعية في النحو العربي - تقديم: تمام حسان - عالم الكعب - ط01 - 2005م - ص 19.

² تمام حسان: اللغة العربية، معناها ومبناها - ص 192.

³ أحمد محمد قنّور: السابق - ص 228.

⁴ تمام حسان: السابق - ص 192 وما بعدها.

⁵ أحمد محمد قنّور: السابق - ص 331 وما بعدها.

(4) المطابقة: دورها توثيق الصلة بين أجزاء التركيب، وتكون في الشخص والعدد والعلامة الإعرابية والتنوع والتعيين¹.

(5) الربط: قرينة تدل على اتصال أحد المترابطين بالآخر.

(6) التضام: قرينة لفظية، لأنها ذات أثر في انسجام العناصر النحوية ولأنها تحدّد وظائفها، وما تشير إليه من معان في السياق النحوي، ومن الأمثلة على ذلك أن اسم الموصول وصلته يمثلان عنصرين لا يقوى أحدهما على الاستغناء عن الآخر أو الحلول محله، فقولك: "جاء الذي أحبه" يعني انصراف معنى الصلة إلى "الذي" مباشرة دونما تطرّق احتمال كونها خبراً أو صفة أو حالاً... لأنها جزء متمم للموصول لا يُغنى عنه، كما أن الموصول مفتقر لهذا الجزء - أي الصلة - افتقاراً واضحاً، كذلك الشأن بين المضاف والمضاف إليه، فالظرف الذي يُهيأ للإضافة لا بدّ من الاتّصال بالمضاف إليه، وإن لم يكن اسماً صريحاً، فقد يأتي بعد تركيب نحوي مستقل يحل محل المفرد لأن الفائدة لا تتم إلا به، نحو قوله تعالى: ﴿وَالسَّلْمُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ﴾² فيظهر من الآية الكريمة أنّ المضاف والمضاف إليه - وهو جملة هنا - لا يقوى على الانفراد بالمعنى، لأنّ المعنى شركة بين الجزأين معاً³.

(7) الأداة : قد تكون وسيلة للربط، أو تعبيراً عن التضام، أو دليلاً عن الرتبة، أو عاملاً يؤثر في العلامات الإعرابية.

(8) التّغمة: وهي الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة في السياق⁴.

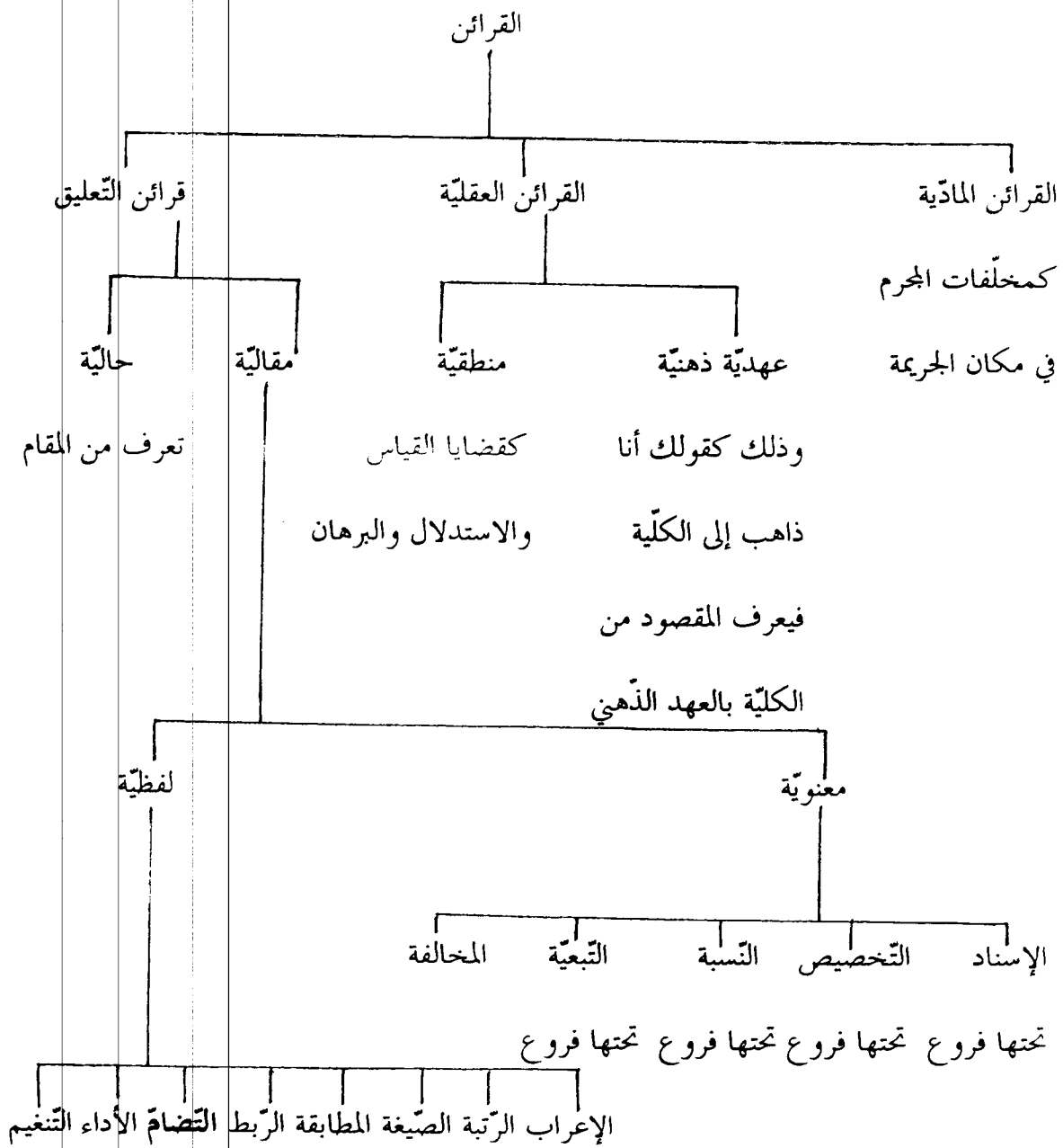
¹ المرجع السابق - ص 331... 333.

² سورة مريم - الآية 33.

³ أحمد محمد قنّور: مبادئ اللسانيات - ص 335... 337. وحسين رفعت حسين: الموقعية في النحو العربي - ص 21.

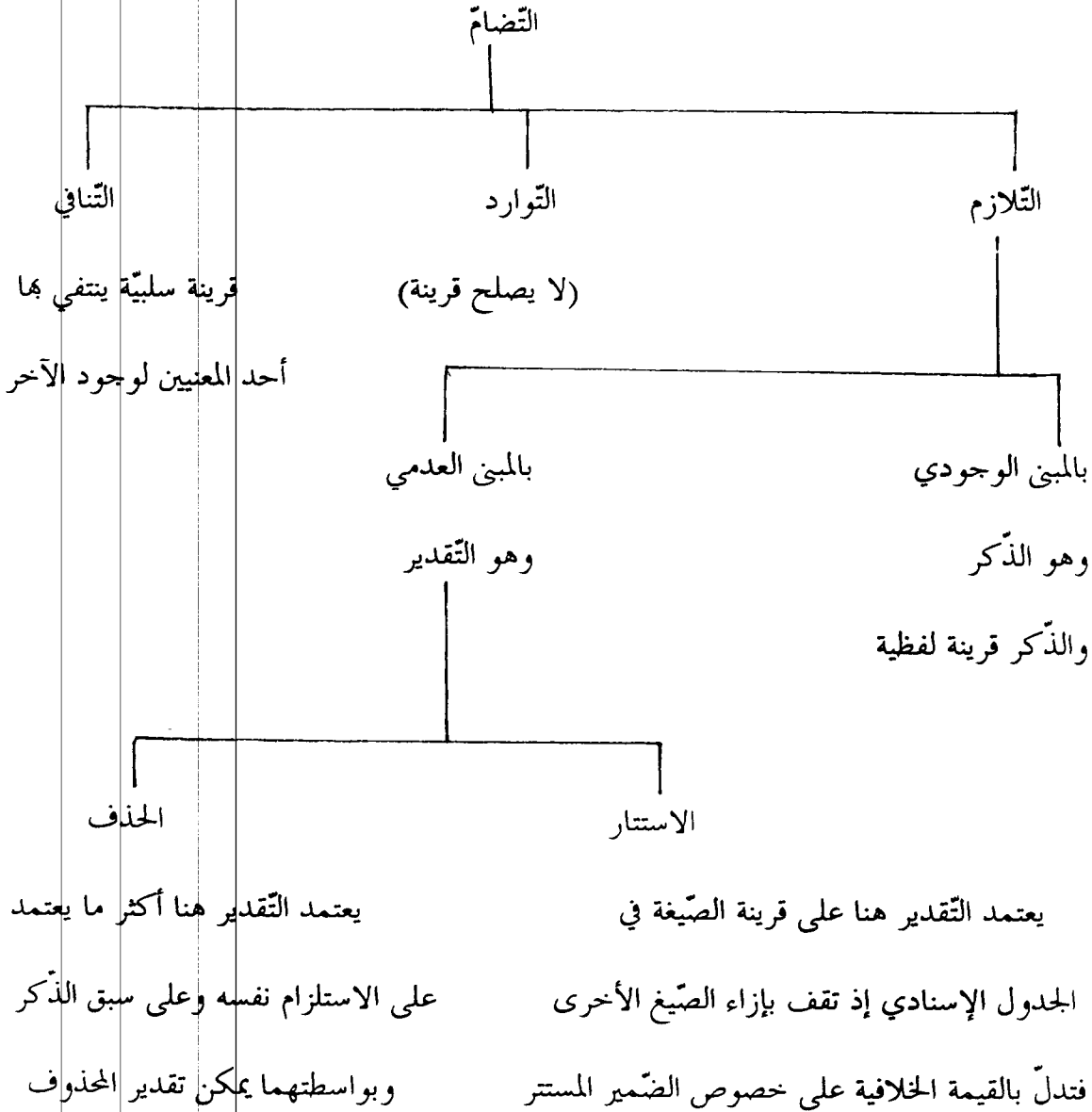
⁴ المرجع نفسه - ص 338.

والجدول الموالي يوضح مجموع هذه القرائن¹:



1 تمام حسان: اللغة العربية، معناها ومبناها - ص 192.

وتندرج تحت قرينة التضام كذلك مجموعة أخرى من القرائن المتداخلة مع عنوانه، لها علاقة به، يبرزها هذا الجدول¹:



1 المرجع السابق: ص 222.

وسنقفّ على سبيل المثال عند بعض الأمثلة الخاصّة بكون التضام قرينة لفظية:

إنّ عدّ التضام قرينة لفظية يعني أنّ الذي يتطلّب جملة ما هو الذي يحدّد معناها ف: «الموصول مثلاً قرينة على أنّ الجملة التي بعده صلة، وأنّه لو لم يتقدّمها الموصول لصلحت بصورتها الخبرية أن تكون صفة إذا تطلّبها الموصوف أو حالا إذا تطلّبها صاحب الحال، أو خبراً إذا تطلّبها المبتدأ، أو في محلّ جرّ بالإضافة إذا تطلّبها الظرف»¹... وأنّ الاسم الواقع بعد الأدوات التي لا تدخل إلّا على الأفعال في الإشتغال لا يكون إلّا منصوباً على المفعولية لفعل محذوف مقدّر يفسّره المذكور، لأنّه لو ارتفع لكان مبتدأ، ولعدّت هذه الأدوات داخلة على الأسماء على عكس حظّها من التضام²، على أنّه سيكون لنا مبحث من مباحث هذا الفصل نخصّصه للتضام في الدرس التحويّ نحاول فيه أن نوسّع بعضاً من هذه الجوانب إن شاء الله.

ما دام الحديث عن التضام من الجانب النحويّ والأخطاء التي ضربها المصنف الترتيبية نحوية خالصة فلا غرو أن نذكر تعداد مختلف مصادر القرائن التحوية وأن نذكر ما تشتمل عليه قرينة التضام التحوية.

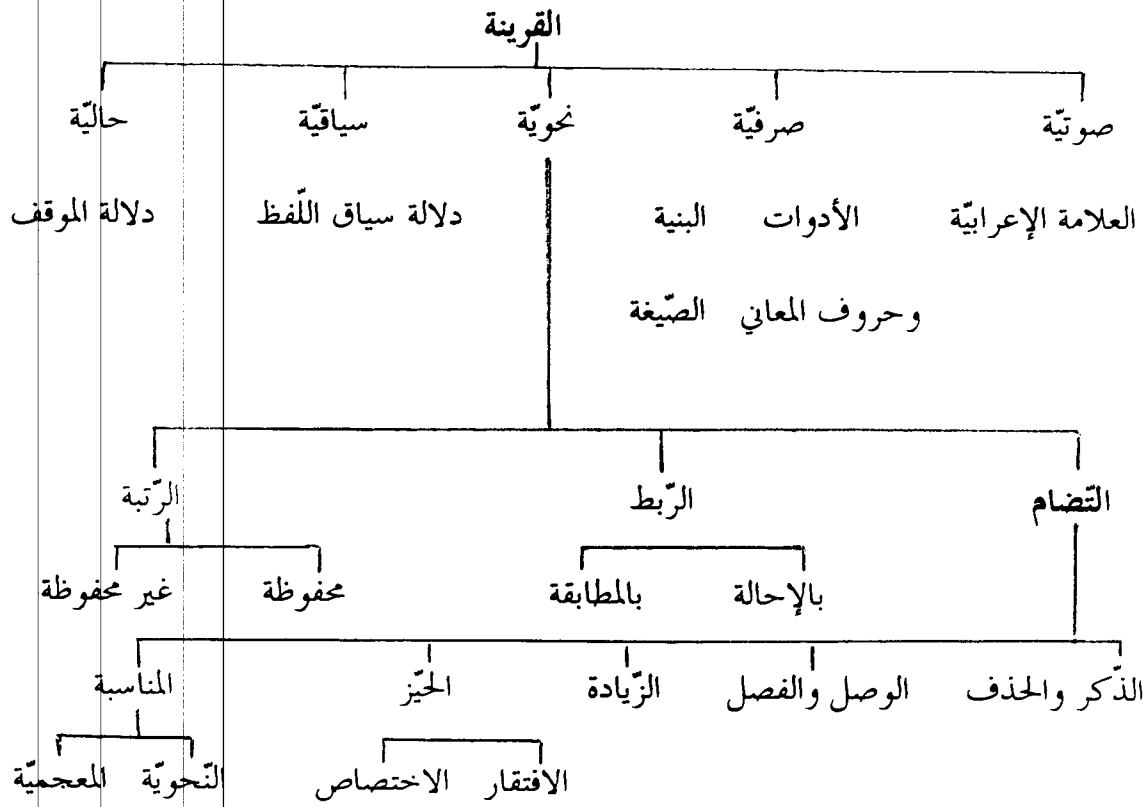
إنّ للقرائن التحوية خمسة مصادر هي: «النظام الصوّتيّ، والنظام الصّرفيّ، والنظام النحويّ ودلالة السياق، والدلالة الحالية»³، والقرينة التحوية تندرج تحتها ثلاث قرائن هي: التضام والرّبط والرّتبة. وقرينة التضام بدورها تندرج تحتها خمسة مباحث هي: الذّكر والحذف، والفصل والوصل، والزيادة، والحيز بنوعيه - الافتقار والاختصاص - والمناسبة بنوعيهما كذلك - النحوية والمعجمية - وفيما يلي جدول⁴ يصرّح بمجموع مصادر هذه القرائن .

¹ تمام حسّان: اللّغة العربيّة، معناها ومبناها - ص 223.

² المرجع نفسه - ص 224.

³ تمام حسّان: الخلاصة التحوية - القاهرة - عالم الكتب - ط 01 - 1420 هـ / 2000 م - ص 22.

⁴ المرجع نفسه - ص 24.



وإذا كان تأليف الجملة تحكمه تلك المبادئ والقواعد التي تتوقف عليها إفادة الكلام وأن تأليف الجملة من مفرداتها لا يتم بالمصادفة فإن: «الكلمة في الجملة يغلب أن تتطلب كلمة أخرى تقع في حيزها بشروط خاصة تتصل بإحدى القرائن كالإعراب أو الرتبة أو التضام أو الربط»¹ وإذا كان جانب الإعراب مثلاً قد فسّر بفكرة العمل التحوي حيث الكلمات يعمل بعضها في بعض نصياً أو جراً أو بفكرة العمل المعنوي حيث لم يوجد العامل اللفظي فإن هذا الأمر هو ما دعا النحاة إلى الاعتراف بفكرة الحيز المحدد لوظيفة الكلمة²، والذي عدّوا طابعه بين الافتقار والاختصاص والمناسبة النحوية والمعجمية، يقول تمام حسان: «... ومعنى كل ما تقدم أن التضام قرينة على المعنى بحسب ما يرهص به حيز اللفظ من افتقار إلى لفظ آخر أو اختصاص به أو مناسبة بين هذا اللفظ وغيره أو مفارقة بين اللفظين»³، وما حدا كذلك بتمام حسان أن يلاحظ أن

¹ المرجع السابق - ص 80.

² المرجع نفسه - ص 80.

³ المرجع نفسه - ص 81.

القدامي بالغوا في الارتكاز على قرينة الإعراب، لذلك نجده يربط دراسة العلاقات بين المعاني التحوية بواسطة ما دعاه بالقرائن اللفظية والقرائن المعنوية، حتى إذا تسنى لنا فهم فكرة التعليق على هذا النحو فإنه حينئذ استطيع القضاء على ما سماه خرافة العمل التحوي أو العوامل التحوية إذ يقول: «التعليق هو الفكرة المركزية في النحو العربي، وأن فهم التعليق كاف وحده للقضاء على خرافة العمل التحوي والعوامل التحوية، لأن التعليق بواسطة القرائن يحدد معاني الأبواب في السياق»¹، إلا أنه مثلما لا يكتفي الطبيب بدرجة الحرارة ليحدد المرض حين تراه يكشف بالسماعة وينظر في العينين ويطلب من المريض فتح فمه فإن القرائن التحوية أيضا: «مثلها مثل مدرس المتعدد... ننظر في...؟»² رسالة المؤلف هذه لا يمكن أن تكون إلا...³ الجمل، إذ يمكن أن تكون الجملة ملبسة لبسا مفرطا في أكثر الأحوال حتى مع مساعدة السياق، والذي يحكم الجملة في هذا هو العوامل... بالإضافة إلى وسائل أخرى مثل التأكيد والسكنة أو طبقة الصّوت، ومثل الترتيبات المتميزة»³ سواء في الدرس العربي أو الغربي لأن هذه العوامل - التي تقابلها كلمة: operators عند الغربيين - لا يقصد بها هؤلاء الغربيين أكثر من قرائن التعليق اللفظية⁴.

3. أقسام التضام:

يمكن أن يقسم التضام إلى ضربين؛ تضام معجمي وتضام نحوي:

1. التضام المعجمي:

إن مفردات المعجم تنتظم في طوائف معينة، تقع كلّ واحدة مع ما يناسبها، إما عن طريق تواردها مع بعضها مع بعض، وإما عن طريق تنافر بعضها مع بعضها الآخر، فلكل طائفة منها طابعها

¹ تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها - ص 198، 199.

² يضرب تمام حسان هذا المثال لتوضيح فكرة تضافر القرائن التحوية؛ تمام حسان: عنوان المقال: اللغة والتقد الأدبي - عنوان المجلة: فصول، مجلة التقد الأدبي - العدد 01 - المجلد 04 - 1983م - ص 120.

³ مصطفى حميدة: نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية - مكتبة لبنان ناشرون - الشركة المصرية العالمية للنشر لوغمان - ط 01 - 1997م - ص 32، 33.

⁴ المرجع نفسه - ص 34.

الخاصّ: «الذي يطبع أسماءها وأفعالها بسمة خاصةً تجمعها تحت ظل معنوي واحد»¹، فالأفعال مثلا طوائف تتوارد كلّ طائفة منها مع طائفة خاصة من الأسماء وتتأفر مع طائفة الأسماء الأخرى إذ من غير المقبول أن يقال: «انكسر الخيط»² لأنّ في الخيط من المرونة ما يحول بينه وبين الوصف بالكسر، و هذا النوع من الجمل التي تكون سليمة من جهة البنية النحوية و فاسدة من جهة المعنى قد اصطلح عليه تمام حسان: «الإحالة المعجميّة»³ التي يقصد بها أن يكون بناء الجملة صحيحا بخلاف معناها الفاسد نحو قولك أيضا: «جلس الكرسيّ على زيد»، وليس كذلك من المناسبة المعجمية أن تقول: «صرخ اللّون»، لأنّ الصّراخ يسند في الحقيقة إلى كائن حيّ ذي حنجرة تصدر منها الأصوات، ويبيّن تمام حسان هذا فيقول: «من الأفعال ما يتطلب فاعلا عاقلا نحو فهم وقرأ وخطب وأرشد، ومنها ما يتطلب فاعلا مهاجما نحو هزم وافتتال وافترس، ومنها ما يتطلب فاعلا حيّا وإن كان دون تخصيص نحو أكل وشبع وشرب وصاح..»⁴ والمناسبة إذا كانت غير معجمية وغير مقبولة قد سمّاها في أكثر من بحث: "المفارقة"⁵ وجعلها فرعا على التّوارد، وأنّ الكلام فيها يأتي من جهة الكلام في المناسبة المعجمية بين كلمة وكلمة أخرى دون كلمة ثالثة، لأنك إذا علّقت فعل القراءة بلفظ الحجر في قولك: «قرأ الحجر دم الغزال» فأنت واجدٌ هذه المفارقة جليّة لا تحتاج إلى دليل؛ فلا الحجر يقرأ، ولا هو يقرأ الدم، ولا الدّم ممّا يخضع لعملية القراءة، ولا التّحفة من ذوات الدّماء، وهكذا: "تندم علاقة التضام بين مفردات الجملة"⁶، بيد أنّ من البلاغيين من يبيّن بعضا من هذه المفارقة وعرض مغزاها وأرشد إلى جدواها بواسطة تغيير نوع العلاقة من عرفية

¹ تمام حسان: الخلاصة النحويّة - ص 81.

² تمام حسان: البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنصّ القرآني- القاهرة- عالم الكتب- ط01- 1413هـ/1993م. - ص 155 و156، إلى جانب عدد من الأمثلة التي استدلت بها في هذا المجال نحو: "دهنت المسوء بزيد"، و نحو "فهم الحجر المسألة".

³ تمام حسان: اللغة والنقد الأدبيّ - مجلّة: فصول- مجلّة النقد الأدبي- المجلد 04- العدد 01- سنة 1983م (أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر) - ص 126. وينظر أيضا: البيان في روائع القرآن - ص 156.

⁴ تمام حسان: الخلاصة النحوية - ص 81.

⁵ تمام حسان: اللغة والنقد الأدبي (المقال السابق) - ص 126.

⁶ تمام حسان: الخلاصة النحوية - ص 81.

معجمية إلى علاقة فنيّة، بمعنى أنّهم: «أرشدوا إلى جدواها في أسلوب المجاز لأنّ هذا الأسلوب يعتمد على العلاقة والقرينة، ولكلّ منهما أثره في علاج هذه المفارقة»¹، وبالتالي يمكن أن نغير من قولنا: «صرخ اللّون» إلى نحو قولنا: «هذا لون صارخ»²، والذي تظهر فيه العلاقة فنيّة غير معجمية عرفية، وهنا يتجلّى دور العلاقة بين المعنيين الذي يسمح بتخفيف وقع المفارقة بعد أن جعل بينهما رحماً وقرباً، ويتجلّى معه دور القرينة الذي يسمح أيضاً باستبعاد فكرة المفارقة بسبب دلالتها على عدم إرادة المعنى الأصلي، لأنها: «كانت مبنية على زعم إرادة هذا المعنى الأصليّ، فأما وقد أُريد معنى غير المعنى الأصليّ المعجمي فلا مجال للقول بالمفارقة وإن بنى عليها المجاز»³، وقد اقترنت مفاهيم التضام المعجمي على هذا الأساس كثيراً. بمعنى قول البلاغيين: «إسناد الفعل إلى من هو له أو إلى غير من هو له»⁴ وربطهم المجاز بإسناده إلى غير من هو له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصليّ الذي هو له في الأصل، لأنّ التراكيب السابقة التي مرّت معنا في هذه الأمثلة تشتمل على كلمات متنافرة، ولو بقت على هذه الحالة لفقدت عنصر الإفادة، ولا تُسَمّت بالإحالة⁵، على الرّغم من أنّها حققت صحّة التركيب التحوي الذي يوجّه إعرابها ويمكنه.

بعد هذا التنظير للتضام المعجمي لزمنا أن نورد بعض الأمثلة النحوية والشروط التي تضبط

هذا النوع من التضام:

1- جاء في شرح المفصل: «إنّ المصدر هو المفعول الحقيقيّ، لأنّ الفاعل يحدّثه ويخرجه من العدم إلى الوجود، وصيغة الفعل تدلّ عليه، والأفعال كلّها متعدّية إليه سواء كان يتعدّى الفاعل أو لم يتعدّه نحو: "ضربت زيدا ضرباً، وقام زيد قياماً"، وإنّما سُمّي مصدراً لأنّ الفعل صدر عنه، وأخذ

¹ المرجع السابق - ص 81.

² تمام حسان: مقال: اللغة والنقد الأدبي - ص 126.

³ تمام حسان: الخلاصة النحوية - ص 82.

⁴ نادية رمضان النجار: أبحاث لغوية ونحوية؛ القسم الأول - ص 16، أمّا ما يتعلّق بمباحث الإسناد والمجاز البلاغية فينظر

المبحث الثالث من هذا الفصل بحول الله وقوّته.

⁵ المرجع نفسه - ص 16.

منه»¹، معنى هذا أن المفعول المطلق يُشترط فيه أن يشارك فعله في مادة اشتقاقه، وأن يتعدى إلى مفعوله.

2- التأكيد يكون على ضربين؛ لفظي ومعنوي، اللفظي يكون بتكرير اللفظ أو الجمل وذلك نحو "ضربت زيدا زيدا" ونحو "ضربت زيدا ضربت زيدا"، أما المعنوي فيكون بتكرير المعنى دون لفظه نحو قولك "رأيت زيدا نفسه"²، فالتوكيد اللفظي لا يكون إلا مع تكرير اللفظ.

3- إضافة الشيء إلى نفسه مما لا يصح، وذلك من قبل أن الغرض من الإضافة التعريف والتخصيص، والشيء لا يعرف بنفسه... والتضامات إنما يقع بين شيئين كل واحد منهما غير الآخر، وهي على ضربين؛ "إضافة محضة" و"غير محضة"، والإضافة المحضة بدورها على ضربين؛³ إضافة اسم إلى اسم هو بعضه لبيان جنس المضاف لا لتعريف شخصه، ويقدر ذلك بـ "من" نحو: "ثوب خز، وباب ساج"، والثاني إضافة اسم إلى اسم غيره بمعنى اللام لتعريف شخص المضاف وتخصيصه بالتعريف، نحو "غلام زيد"، عرفت الغلام بإضافتك آناه علم معرفة.

4- إذا أفاد الفعل مشاركة أو تسوية أو مخالفة وجب أن يكون فاعله مثنى أو جمعا أو معطوفا عليه، نحو: "تضارب الرجال" و"تضارب الرجال" و"تضارب عمرو وزيد"⁴.

إذا خيف اللبس لزم الربط⁵، نحو قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنفَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيَ آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ

أَجْدُ عَلَيَّ هُدًى "النار" ⁶، فتكرّر ذكر النار بدلا من "عليها".

¹ موقف الدين ابن يعيش التحوي(ت643هـ): شرح المفصل - بيروت - عالم الكتب - د ط - د ن - ج 01 - ص 110، 109.

² ينظر: المصدر نفسه - ج 03 - ص 41، 40.

³ المصدر نفسه - ج 03 - ص 09، 08.

⁴ نادية رمضان التجار: أبحاث لغوية ونحوية - القسم الأول - ص 16.

⁵ زين كامل الخويسكي: مواضع اللبس عند النحاة والصرفيين - ص 190. أحذا عن: نادية رمضان التجار: السابق - ص 17.

⁶ سورة طه - الآية 10.

5- لا يأتي المطاوع إلا من فعل يمكن لمفعوله أن يتأبى على قبول الحدث، فلا يجوز "انقتل، أو انضرب"، لأن معنى المطاوعة «أن تريد من الشيء أمراً ما فتبلغه إما بأن يفعل ما تريده إذا كان مما يصح منه الفعل، وإما أن يصير إلى مثل حال الفاعل الذي يصح منه الفعل و إن كان مما لا يصح منه الفعل»¹. نحو: قطعت الحبل فانقطع وكسرت الحب فانكسر، ألا ترى أن الحبل والحب لا يصح منهما الفعل.

6- (أن) المصدرية لا تدخل على فعل لا مصدر له، نحو: عسى، بئس، نعم، ليس. لكونها أفعالاً جامدة غير مشتقة.

وسيكون لنا مبحث خاص بالمصطلحات المتعلقة بالتضام من مثل: التوارد، والتنافي، والافتقار، والاختصاص.

2. التضام التحوي:

علاقة تنشأ بين عنصرين تحليليين داخل منظومة نحوية إما عن طريق الاستلزام فيسمى التضام في هذه الحالة "التلازم" وإلا فيتنافى فلا يلتقي به فيسمى عندئذ هذا التضام "التنافي"، فإذا استلزم أحد العنصرين النحويين الآخر فإن هذا الأخير يستدلّ عليه بإحدى طريقتين²:

- قد يدلّ عليه مبنى وجودي على سبيل الذكر.

- قد يدلّ عليه مبنى عدمي على سبيل التقدير الاستتار أو الحذف³.

وطريقة الذكر الأولى يكون فيها هذان العنصران المتلازمان المذكورين في المنظومة الكلامية إما ذكر اختصاص وإما ذكر افتقار.

1 أبو الفتح عثمان ابن جني (ت393هـ): المنصف، شرح كتاب التصريف للمازني - تحقيق: إبراهيم مصطفى - عبد الله

أمين - وزارة المعارف العمومية - إحياء التراث العربي - ط1 - 01 - 1973م - ج01 - ص 71.

2 نادية رمضان النجار: أبحاث لغوية ونحوية - ص 18.

3 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها - ص 216.

أما طريقة العدم (الحذف) ففيها يستدلّ بقرائن سبق الذّكر أو الاستلزام على العنصر غير المذكور في النصّ إمّا لاستتار واجب أو لحذف¹.

وأكثر ما ظهر هذا التضام النّحوي بوضوح² إذا كان بين التّابع والمتبوع والمفسّر والمفسّر والتميّز والمميّز، والضّمير ومرجعه، وتحمل الضمير وعدمه، والمطابقة بين العنصرين والرّتبة بينهما، والفصل والوصل، والافتقار والاختصاص والاقتران، والعامل والمعمول.

أنواع التّضام النّحوي:

سبق أن ذكرنا أنّ التّضام يستدلّ عليه بطريقتين؛ طريقة الذّكر وطريقة الحذف، وأنّ الطّريقة الأولى هي الصّورة الإيجابية لهذا التضام، وتكون إمّا بالاختصاص وإمّا بالافتقار، وهذا ما نعنيه بأنواع التّضام النّحوي.

1. الاختصاص:

هو ظاهرة من ظواهر استعمال العناصر التركيبيّة يأتي في صورة التضام الإيجابية، ومعناه: «أن يدخل الحرف على مدخوله بعينه وإن كان له بسبب لفظه لا بسبب معناه»³، ومادام هذا العنصر من صفات الحروف والأداة فإنّ الأداة مثلا: «إمّا أن تدخل على نوع معيّن من الكلمات لا تتعداه فتسمّى مختصّة كاختصاص إنّ وأخواتها بالدخول على الأسماء، واختصاص حروف الجرّ بذلك أيضا، واختصاص الجوازم بالدخول على المضارع، وإمّا أن تصلح الأداة للدخول على مختلف أنواع الكلمات مثل (ما) النافية وأدوات الاستفهام فتكون غير مختصّة»⁴.

1 نادية رمضان النجار: أبحاث نحوية ولغوية - ص 18.

2 ينظر: البيان في روائع القرآن: تمام حسان - ص 153.

3 تمام حسان: الخلاصة النحوية - ص 80.

4 تمام حسان: البيان في روائع القرآن - ص 155.

ومن المختصة مثلا أدوات النفي التي لا تؤثر إعرابا بدليل قول النحاة: «نسلم أن الحرف لا يعمل إلا إذا كان مختصاً»¹، أو إن «الحرف إنما يعمل إذا كان مختصاً»²، وقد حاول تمام حسان استنباط بعض القواعد الخاصة بضميمة الاختصاص منطلقاً من استقراء بعض كتب النحو في الأصول ومسائل الخلاف، وسنقف بدورنا عند هذه الأمثلة من خلال هذه الأبحاث والقواعد التي وضعها النحاة، وغيرها، محاولين وضع نماذج من اختصاص الأفعال والسماء والحروف.

● اختصاص الأفعال:

- الأفعال تختص بالتصرف³.
- الأفعال تختص بقاء التأنيث⁴.
- الأفعال تختص بالجزم وعلامته السكون⁵.
- تختص (أفعل) بنصب التكرات بعدها على التمييز⁶.
- تختص الأفعال بدخول نون الوقاية، يقول ابن الأنباري: «ونون الوقاية إنما تدخل على الفعل لا الاسم، ألا ترى أنك تقول في الفعل أرشدني وأسعدني.. ولا تقول في الفعل: مرشدني.»⁷.
- تختص الأفعال بنون التوكيد، في حين تختص الأسماء بـ إنّ واللام.

1 ابن الأنباري، أبو البركات (ت577هـ): الإنصاف في مسائل الخلاف، بين البصريين والكوفيين - تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد - بيروت - مكتبة صيدا العصرية - د ط - 1419هـ/1998م - ج01 - ص 75.

2 المصدر نفسه - ج01 - ص 73.

3 المصدر نفسه - ج01 - 126. وينظر: الأصول: تمام حسان - ص 224.

4 ابن الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف - ج01 - ص 104.

5 بهاء الدين ابن عقيل (ت769هـ): : شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك - تحقيق: محمد محيي الدين - بيروت - المكتبة العصرية - صيدا - 1426هـ/2005م - ج01 - ص 26 و ج2 - ص 335..

6 ابن الأنباري: السابق - ج01 - 129.

7 المصدر نفسه - ج01 - ص 80

● اختصاص الأسماء:

- تختصّ الأسماء بالنداء¹.
- تختصّ الأسماء بدخول (إنّ) وأخواتها.
- تختصّ الأسماء بالخفض، و احتجّ الكوفيون على أنّ (بئس ونعم) اسمان بدليل دخول حرف الخفض².
- تختصّ الأسماء بعلامات التثنية بخلاف الأفعال، يقول الأنباري: " والتثنية تكون للأسماء لا الأفعال"³.
- تختصّ الأسماء بالتصغير⁴.

● اختصاص الحروف:

- إنّ (إنّ) المشدّدة من عوامل الأسماء، و(إن) المخفّفة من عوامل الأفعال⁵، فكل واحدة مختصّة بما تعمل فيه.
- تختصّ (الأمّ) و (من) بالقسم مع لفظ الجلالة، بدليل قول النحاة: "اعلم أنّ من العرب من يقول: من ربّي لأفعلنّ ذلك. ومُن ربّي إنك لأشّر. يجعلها في هذا الموضع بمترلة الواو والباء.. ولا يدخلونها في غير ربّي.."⁶.

1- المصدر السابق ج01 - ص 99.

2 المصدر نفسه - ج01- ص 75.

3 المصدر نفسه - ج01- ص 80.

4 المصدر نفسه - ج01- ص 127. وينظر: تمام حسان : الأصول - ص 224.

5 ابن الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف - ج01- 195.

6 سيويه، أبو بشر عمرو بن عثمان(ت180هـ): الكتاب - تحقيق: عبد السلام هارون- ط01- 1411هـ/1991م- ج03- ص 498.

- تختص حروف التّصّب بالدخول على المضارع¹.
- تختص بعض حروف الجرّ بالدخول على أفعال بعينها، نحو الحرف (في) الذي يختص بالفعل: دخل للدلالة على الأزمنة والأمكنة².
- تختص الحروف (إنّ وإذ ولو وإذا) بالشرطية ويكثر حذف الفعل بعد (إذا)³، وكذلك التّحضيض (ألا، هلاً، لولا، لوما) بحذف الفعل بعدها⁴.

2. الافتقار:

- معنى الافتقار: «أنّ لفظاً ما لا يستقلّ بالإفادة ولا يوقف عليه في الكلام غالباً وإتّما يتطلّب في حيّزه لفظاً آخر لا غنى له عنه، وهذه هي السّمة المشتركة بين الألفاظ الدّالة على معنى عامّ حقّه أن يؤدّي بالحرف»⁵، وهو قسمان:
- افتقار متّصل: أن يكون للفظ بحسب الوضع وهو: «افتقار العناصر التي لا يصحّ إفرادها في الاستعمال وإن صحّ ذلك عند إرادة الدراسة والتحليل، مثال ذلك افتقار حرف الجرّ إلى المجرور وحرف العطف إلى المعطوف وحروف الاستثناء إلى المستثنى»⁶.
 - افتقار غير متّصل: سُمّي غير متّصل لأنّ الافتقار هنا غير منسوب إلى الكلمة، فحين تقع الكلمة موقعها للتعبير عن الباب لا يكون الافتقار للكلمة لأنّها غير مفتقرة بحسب الأصل. وإتّما الافتقار للباب، فكلّ كلمة تقع هذا الموقع يفرض عليها الباب هذا النوع من الافتقار⁷.

1 المصدر السابق - ج01 - ص 208.

2 إبراهيم السامرائي: الفعل زمانه وأبنيته - بغداد - مطبعة العاني - د ط - 1966م - ص 84.

3 تمام حسان: البيان في روائع القرآن - ص 248.

4 ينظر: الكتاب - سيبويه - ج01 - ص 98 . و ج01 - ص 268.

5 تمام حسان: الخلاصة النحوية - ص 80.

6 تمام حسان: البيان في روائع القرآن - ص 154.

7 المرجع نفسه - ص 154.

وإذا ما رجعنا إلى الموروث التحوي قليلا نجد نصوصا لقضية الافتقار تسمية ومفهوما، فمن استعمالات الافتقار تسمية على الأقل افتقار الأعداد إلى ما بينها لأن «الأعداد لما كانت مبهمة كالمقادير افتقرت إلى ما بينها»¹، ومن تعريفات الافتقار في استعمالات التحويين:

قول ابن هشام والأشموني على ألفية ابن مالك في باب المعرب والمبني حين يقول هذا

الأخير:

والاسم منه مُعْرَبٌ ومبنيٌ لشبهه من الحروف مُـديني

كالشبه الوضعي في اسمي جئتنا والمعنوي في متى وفي هنا

وكناية عن الفعل بلا تأثر وكافتقار أصـلا

يقول ابن هشام: «الشبه الاستعمالي.. كأن يفتقر افتقارا متأصلا إلى جملة»² وضرب أمثلة على ذلك من افتقار المضاف إلى المضاف إليه، ومن كلام الأشموني: «كافتقار أصلا ويسمى الشبه الافتقاري وهو أن يفتقر الاسم إلى الجملة افتقارا مؤصلا أي لازما كالحرف في: إذ، وإذا وحيث والموصولات الاسمية، أما ما افتقر إلى مفرد كـ"سبحان" أو إلى جملة، لكن افتقارا غير متأصل أي غير لازم كافتقار المضاف في نحو قوله تعالى: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾³، إلى جملة بعده فلا يُبْنَى، لأن افتقار (يوم) إلى الجملة بعد ليس لذاته وإنما هو لعارض كونه مضافا إليها، والمضاف من حيث هو مضاف مفتقر إلى المضاف إليه، ألا ترى

1 عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ): المقتصد في شرح الإيضاح - تحقيق كاظم بحر المرجان - الجمهورية العراقية منشورات وزارة الثقافة والإعلام - د ط - 1982م - مج02 - ص 729.

2 ابن هشام الأنصاري (ت671هـ): أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك - تحقيق: محمود مصطفى الحلوي، أحمد سليم الحموي - بيروت - مؤسسة التاريخ الإسلامي - دار إحياء التراث العربي - ط01 - 1418هـ / 1998م - ج01 - ص 60، 61.

3 سورة المائدة - الآية 119.

أن (يوم) في غير هذا التركيب لا يفتقر إليها نحو: هذا يوم مبارك¹، ومما يترتب على مبدأ الافتقار ألاّ يُستغنى بحرف العطف عن المعطوف ولا بالحروف المصدرية عن الفعل ولا بالموصول عن الصلّة، وعكس الافتقار في مصطلح التّحاة "الاستغناء" إذ إنّ «اللفظ قد يستغني بنفسه عن غيره كاستغناء الفعل اللازم عن المفعول به»². و من قواعد الاستغناء التي قد تجدها مبثوثة في كتب النّحو المتقدّمة هذه الأمثلة وما عداها كثير:

- الفعل لا بدّ له من فاعل، لأنّ الفعل والفاعل بمترلة الشيء الواحد³.

- افتقار المبتدأ إلى الخبر⁴.

- الجار يفتقر إلى ما يتعلّق به لأنّ «حروف الجرّ لا بدّ لها من شيء تتعلّق به»⁵.

- افتقار الصفة إلى الموصوف⁶، إذ لا يجوز «الفصل بين الصفة والموصوف لأنهما كشيء واحد بخلاف المعطوف والمعطوف عليه»⁷.

- افتقار المحذوف إلى دليل الحذف⁸.

- افتقار حروف العطف إلى معطوف والجر إلى المجرور وحروف الاستثناء إلى مسثنى⁹.

1 الأشموني: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك في النحو والصرف - على هامش: حاشية الصبان على شرح العلامة الأشموني - مصر - مطبعة السعادة - 1343هـ - ج 01 - ص 50.

2 تمام حسان: الخلاصة النحوية - ص 80.

3 ابن الأنباري: الإنصاف - ج 01 - ص 80، 79. وتمام حسان: الخلاصة - ص 80. وكتابه: الأصول، دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، النّحو. الفقه. البلاغة - الهيئة المصرية العامّة للكتاب - 1982م - ص 225.

4 ابن الأنباري: السابق - ج 01 - ص 245.

5 المصدر نفسه - ج 01 - ص 246.

6 ينظر: شرح الأشموني - ج 01 - ص 50.

7 جلال الدّين السيوطي: الأشباه والنظائر في النّحو - اعتنى به: محمد فاضلي - الجزائر - أبحاث للنشر والتوزيع - ط 01 - 2007م - ج 01 - 649.

8 تمام حسان: الأصول - ص 225. وكتابه: الخلاصة النحوية - ص 80.

9 تمام حسان: البيان في روائع القرآن - ص 154.

- افتقار المضاف إلى المضاف إليه¹.
- افتقار الأسماء الموصولة إلى جملة الصلة فالموصول ما لا يتم حتى تصله بما بكلام عده تام.. والموصول وحده اسم ناقص².
- افتقار جملة الصلة والتعت والحال والخير إلى ضمير يعود إلى مرجع مذكور أو متصّد أو مدلول عليه في السياق³.
- افتقار فعل التعجب إلى اسم نكرة ف « (أفعل) إذا كان اسماً لا ينصب إلا التكرات خاصة على التمييز نحو قولك: زيد أكبر منك سناً»⁴.
- أسماء ليست ظروفًا تفتقر إلى الإضافة فيما بعدها وهي على ضربين لازمة وغير لازمة⁵.
- افتقار الاسم إلى الجملة كالحرف كما في: إذ وإذا وحيث⁶.
- تطلب (كلا وكتنا) مضافاً إليه⁷.
- افتقار المبهمات إلى ما يخصّصها⁸.

التضام السلبي:

إلى هنا نكون قد استعرضنا أهمّ العناصر التركيبية لظاهرة التضام في صورتها الإيجابية مكتفين بعنصرين؛ الاختصاص والافتقار، على أن تكون لنا وقفة مع التوارد في مبحث على حده، وقبل ذلك يلزمنا أن نشير إلى الصورة المقابلة للاختصاص والافتقار، أي الصورة السلبية للتضام

-
- 1 ابن هشام: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك - ج 01 - ص 61.
 - 2 ابن يعيش: شرح المفصل - ج 01 - ص 150.
 - 3 تمام حسان: الخلاصة النحوية - ص 80.
 - 4 ابن الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف - ج 01 - ص 132.
 - 5 ابن يعيش: السابق - ج 02 - ص 128، 128.
 - 6 ينظر: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك - ص ج 01 - ص 50.
 - 7 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها - ص 218.
 - 8 عبد القاهر الجرجاني: المقتصد في شرح الإيضاح - مج 02 - ص 729.

كالتنافي والتنافر. وما دنا سابقا اكتفينا بذكر العناصر التركيبية التي يجسدها الاختصاص والافتقار فإننا كذلك نكتفي بإيراد مفهوم التنافي الذي يُعدّ من ظواهر استعمال العناصر التركيبية.

إن موضوع التضام في النحو لا يخلو من أمرين؛ إمّا أن يستلزم أحد العنصرين التحوين عنصرا آخر، وحينئذ يُسمّى هذا النوع منه "التلازم"، وإمّا أن يتنافى معه وحينئذ يُسمى "التنافي" وبالتالي فالتلازم عكس التنافي، وإن أُدخل تحته باعتباره قسيما له. وهو: "قرينة لفظية سلبية يمكن بواسطتها أن نستبعد من المعنى أحد المتضامين عند وجود الآخر، فإذا وجدنا (أل) استبعدنا معنى الإضافة المحضة"¹، وقواعد هذا عند النحاة: «قواعد سلبية لا تخلو من (لا) النافية كقولهم: لا يدخل الحرف على الحرف»²، ومن شواهد هذا في الدرس التحوي هذه الأمثلة:

- لا تجتمع علامتا تأنيث في كلمة واحدة، فالأصل في جمع مسلمة وصالحة: مسلمتات وصالحات؛ إلا أن واحدة من التائين تدلّ على ما تدلّ عليه الأخرى من التأنيث، وتقوم مقامها فلم يجمعوا بينهما، وحذفت التاء الأولى أولى لأنّ في الثانية زيادة معنى³، وقالوا: مسلمات وصالحات.

- لا تجتمع أداة النداء مع الاسم المعرف بـ (أل) إلا في وجود أيها أو آيتها⁴.

- استبعاد معنى الإضافة في وجود (أل) التعريف، كما لا يجمع بين التنوين والإضافة بقسميها⁵.

- في وجود كلا وكلتا نستبعد فيما أُضيف إليهما أن يكون اسما مفردا أو جمعا أو نكرة، وهذا معنى قول ابن مالك:

لفهم اثنين معرّف بلا تفرّق أضيفَ كلتا وكلا

1 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها - ص 221.

2 تمام حسان: البيان في روائع القرآن - ص 155.

3 ابن الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف - ج 01 - ص 20 و ص 43.

4 ابن يعيش: شرح المفصل - ج 02 - ص 08.

5 تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها - ص 221.

إذ لابدّ من إضافة كلتا وكلا إلى ضمير يطابق المؤكّد، ومنه قول ابن عقيل: «ومن الأسماء الملازمة للإضافة لفظاً ومعنى كلتا وكلا، ولا يضافان إلاّ إلى معرفة مثنى لفظاً أو معنى»¹.

- لا يدخل حرف الجرّ على الجمل المحكيّة أو الأفعال أو الضّمائر².

- لا وجود لخبر للمبتدأ في وجود لولا³.

- لا يجمع بين العوض والمعوّض⁴، وفيه شاهد أورده ابن الأنباري للعبّاس بن مرداس⁵:

أبا خراشة أما أنتَ ذا نفرٍ فإنّ قومي لم تأكلهم الضبّعُ

والتقدير فيه: أن كنتَ ذا نفرٍ، فحذف الفعل وزاد(ما) على (أن) عوضاً عن الفعل والذي يدلّ على أنّهما عوض عن الفعل أنّه لا يجوز ذكر الفعل معهما لئلاّ يجمع بين العوض والمعوّض.

- الحرف لا يتعلّق بالحرف⁶.

- لا يدخل العامل العامل⁷.

- لا يجتمع ساكنان⁸.

- لا يوصف الضّمير ولا يضاف⁹.

1 شرح ابن عقيل - تحقيق: محمد محيي الدّين - ج2- ص90 و ص192. وينظر: شرح الأشموني - ج01- ص196.

2 ابن الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف - ج02- ص570.

3 تمام حسان: البيان في روائع القرآن - ص221.

4 تمام حسان: الأصول - ص227.

5 ينظر الدّيونان - جمع وتحقيق: يحيى العبدوري - بغداد - نشر مديرية الثقافة - د ط - 1968م - ص128. وينظر: الإنصاف

في مسائل الخلاف: ابن الأنباري - ج01- ص71.

6 ابن الأنباري: السّابق - ج01- ص280.

7 المصدر نفسه - ج01- ص48.

8 تمام حسان: الأصول - ص227.

9 تمام حسان: البيان في روائع القرآن - ص155.

- لا يجمع بين علامتي تعريف¹.
 - لا يعطف الاسم على الفعل².
 - لا يجتمع الضّدان كالتنوين والإضافة³.
 - ألا تتوالى في الأصل أربع حركات⁴.
 - لا تعمل عوامل الأسماء في الأفعال ولا عوامل الأفعال في الأسماء⁵.
 - لا يقع الإعراب على أحرف المعاني⁶.
 - لا يؤكّد الظاهر بالمضمر⁷.
 - لا تجرُّ (حتى) إلا ما كان آخرًا أو متصلاً بالآخر⁸.
- نحو قوله تعالى: ﴿سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ﴾⁹ ، كمثال على ما كان متصلاً بالآخر، أمّا ما
ما كان آخرًا فنحو: أكلت السمكة حتى رأسها، وفي هذا يقول ابن مالك¹⁰:
- للاتها حتى ولامٍ وإلى ومن وباء يفهمان بدلا

1 المرجع السابق - ج01 - ص 343.

2 تمام حسان: الأصول - ص 227.

3 المرجع نفسه - ص 228.

4 المرجع نفسه - ص 228.

5 ابن الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف - ج01 - ص 195، 196.

6 المصدر نفسه - ج01 - ص 167.

7 تمام حسان: السابق - ص 228.

8 شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك - تحقيق: محمد محي الدين - ج02 - ص 192.

9 سورة القارعة - الآية 05.

10 شرح ابن عقيل - ج02 - ص 192.

وقد أجاز بعضهم: أكلت السمكة حتى رأسها، أي ورأسها. وقولك: رأسها، أي ورأسها مأكول، ونحو قول جرير¹:

فما زالت القتلى تمجُّ دماءها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

وفي كلّ هذه الحالات تفيد أنّ ما بعدها غاية ونهاية.

4. التضام والتوارد والمصاحبة اللغوية:

01. التوارد والتضام:

التوارد في اللغة من ورد يرد، جاء في لسان العرب: «ورد فلان وروداً بمعنى حضر، وورد الماء وورد عليه أشرف»²، أما اصطلاحاً فهو: «اتفاق شاعرين على معنى واحد يريدها جميعاً بلفظ واحد من غير أخذ ولا سماع»³، أو أن يقول شاعر بيتاً فيقوله آخر من غير أن يسمعه⁴، وقد يعني توارد الخواطر والأذهان⁵.

بيد أنّ التوارد الذي نبخته في هذا الموضوع بخلاف هذه التعاريف والمفاهيم، إذ لا يعدو ما اصطلاح عليه تمام حسن المرادف للتضام من الناحية البلاغية والمعجمية.

إنّ دراسة المعنى المعجمي تتعدّد وتتراوح بين عدّة قضايا وأبواب منها ما يُعرف بالحقول المعجمية ومنها الترادف والتضاد والمشارك اللفظي، والتوارد، ثمّ إنّ بعض الوحدات المعجمية تنتظم مع بعضها الآخر بغرض تكوين عبارة إذا ما كانت: «مشحونة بسمات دلالية وسمات

1 تموج: تمور، الأشكل: متغير اللون. ينظر: الديوان - بيروت - دار صادر - دط - 1398هـ / 1978م - ص 367.

وينظر: كتاب الجمل في النحو: عبد القاهر الجرجاني - ص 86.

2 ابن منظور: لسان العرب - مج 03 - ص 558. 561.

3 أحمد مطلوب: معجم مصطلحات النقد العربي القديم - لبنان - مكتبة ناشرون - ط 01 - 2001م - ص 192.

4 أسامة بن منقذ (ت 584هـ): البديع في البديع في نقد الشعر - حققه وقدم له: عبد آ. علي مهنا - بيروت - دار الكتب العلمية - ط 01 - 1407هـ / 1987م - ص 217.

5 القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت 366هـ): الوساطة بين المتنبي وخصومه - تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد الجاوي - مطبعة عيسى بابي الحلبي - د ط - 1386هـ / 1966م - ص 52.

صرفية و سمات نحوية وقيود توارد»¹، وما يعيننا من تلك الأبواب وهذه العناصر كلها مبحث التوارد.

لقد سبق أن أشرنا إلى الصورة الإيجابية لقرينة التضام من جانبي الاختصاص والافتقار وإلى الصورة السلبية لها من جانب التنافي، وأرجأنا الحديث عن التوارد والتنافر باعتبار أن الاختصاص والافتقار والتنافي من ظواهر استعمال العناصر التركيبية، وأن التوارد من ظواهر استعمال العناصر المعجمية.

إن المقصود بالتوارد هو: «أن بعض الكلمات يرد مع بعضها الآخر ولا يرد مع بعض ثالث»² وهو: "نصيب العلاقات المعجمية في تحقيق الدلالة النحوية أو الإفادة من الجملة"³ وأنه أحد المفاهيم التي تشكل قرينة التضام إلى جانب التلازم والتنافي، والكلام على التوارد يأتي من جهة الكلام في المناسبة المعجمية بين كلمة وأخرى دون ثلاثة⁴؛ فمفردات المعجم تتوارد بعض طوائفها مع بعض، وتتنافر مع أخرى، وقد أورد تمام حسان بعضاً من هذه الأمثلة نخالها توضّح هذا المقصود حيث يقول: «إن كلمة جلاله تتوارد بالإضافة مع كلمة واحدة هي (المَلِك) وأن كلمة الصديق تتوارد بالوصفية مع كلمات مثل: الوفيّ والحميم، وأن كلمة دجلة ترد بواسطة العطف مع كلمة الفرات، وأن كلمة الطواف تتوارد مع كلمة (حول الكعبة)، كما أن السعي يكون بين الصفا والمروة»⁵، ومع ذلك لم يجعل التوارد صالحاً أن يكون قرينة نحوية⁶ وإن كان ذا نفع عظيم في دراسة الأساليب الاستعمالية والتركيبية البلاغية؛ لأن التوارد متى قصد به الطرق الممكنة في رصف جملة ما واختلفت طريقة منها عن الأخرى تقديمًا وتأخيراً وفضلاً ووصلاً فإنّه

1 مصطفى حميدة: نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية - ص 112.

2 تمام حسان: الأصول - ص 336.

3 تمام حسان: اجتهادات لغوية - القاهرة - عالم الكتب - 2007م - ص 65. وتمام حسان: إعادة وصف اللغة العربية ألسنيا - مجلة اللسانيات في اللغة العربية - جامعة تونس - 1987م - ص 162. أخذنا عن: اسماعيل غازي اسماعيل دويدار: قرينة التضام في القرآن الكريم، مخطوط رسالة ماجستير - جامعة القاهرة - كلية دار العلوم - 1425هـ / 2004م - ص 03.

4 تمام حسان: اللغة والنقد الأدبي - مجلة فصول - ص 126.

5 المرجع نفسه - ص 336.

6 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها - ص 222.

أقرب إلى اهتمام التراكيب البلاغية الجمالية منه إلى العلاقات النحوية والقرائن اللفظية¹، بخلاف التلازم الذي يُعدّ الوجه الثاني لقرينة التضام اللفظية في جانبها النحوي.

وعلى الرغم من أن تمام حسّان قد أفاد من أصحاب النظرية التحويلية في فهم معناه حيث أشار في أحد أبحاثه إلى هذا الأمر فقال: «أفدت في عرض فكرة التوارد من أفكار أصحاب النحو التوليدي»²؛ إلا أنه يبقى صاحب الفضل في اصطلاحه في الدرس النحوي، إذ كثيراً ما نراه يتردّد في أبحاثه ودراساته.

إنّ التوارد قد يستعمل في اصطلاح النحاة بمعنى "الاجتماع"³، ومن ذلك استدلالهم على عدم توارد الواو مع الفاعل - أي عدم اجتماعهما - في نحو: جاؤوا الأولاد، لأنّه لا يمكن توارد فاعلين للفعل نفسه، ولأنّ الواو هنا ضمير بمعنى أنّها اسم، بخلاف مذهب المازني⁴ الذي يرى أنّها علامة أي أنّها حرف.

02. التوارد والمصاحبة اللغوية:

إنّ للتوارد - بغضّ النظر عن هذه الاستعمالات - تداخلا مع استعمالات أخرى لدى بعض الباحثين، فمنهم من يصطلح عليه اسم "المصاحبة اللغوية" التي تشير إلى «القرينة التي يمكن من خلالها انتظام الكلمات معاً، وإلى القيود المستعملة لبيان كيفية تضام الكلمات معاً، مثل حروف الجرّ ومعمولها»⁵، هنا نلاحظ كيف أنّه انتقل بنا من استعماله المصاحبة اللفظية إلى القيود إلى التضام، بعد أن ترجم المفردة الإنجليزية *collocation* بالمصاحبة اللغوية⁶، التي تشمل

1 المرجع السابق ص 216. وينظر كتابه: مقالات في اللغة والأدب - عالم الكتب - ط1-1427هـ/2006م - ص 135.

2 من خلال مقال لتّمّام حسّان ضمن كتابه: اجتهادات لغوية - ص 61 - وينظر: قرينة التضام في القرآن الكريم : اسماعيل غازي اسماعيل دويدار ص 229.

3 ابن يعيش: شرح المفصل - ج03 - ص 87.

4 عبد القادر الفاسي الفهري: اللسانيات و اللغة العربية، نماذج تركيبية - بيروت - منشورات عويدات - ط01 - 1986م - ص 334.

5 صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة التصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكيّة - القاهرة - دار قباء - ط01 - 1421هـ/2000م. ج01 - ص 41.

6 المرجع نفسه - ج01 - ص 42. في حين يترجم تمام حسّان هذه المفردة بالتضام .

عنده العناصر المعجمية السابقة: الترادف والتضاد، وعلى هذا الأساس فإنّ المصاحبات اللغوية بين أجزاء الجملة الواحدة أو أجزاء النص هي نوع من الاتساق المعجمي¹، وبالتالي فمعنى المصاحبة المعجمية الذي يعني: «توارد زوج من الكلمات بالفعل أو القوة نظراً لارتباطهما بحكم هذه العلاقة أو تلك»² يُظهر لنا جلياً مدى التداخل بين المصطلحين، فكلا الاستعمالين يعني المفهوم نفسه.

5. مظاهره ومتعلقاته:

تبيّن أنّ التضام تتقاسمه ثلاثة مفاهيم: تلازم العنصرين التحوين أو تنافيهما أو تواردهما إلاّ أنّ هذا الاستعمال الأصلي المتمثّل في الالتزام قد يعدل إلى استعمال آخر يخالف القياس التحوي يُصطلح عليه الاستعمال العدولي³، وهذا الاستعمال العدولي يُمثّل له في نطاق كلّ قرينة على حده؛ منها الحذف والفصل والاعتراض، والإحالة، والمفارقة.

- الحذف: ويكون لأحد المتلازمين⁴، حذف أحد ركني الجملة، إذ لا يستغني أحدهما عن الآخر أو حذف ما يتطلّب التركيب نحو: حذف الرّابط أو المفعول أو الصفة أو الموصوف.

- الفصل: كذلك بين المتلازمين أو ما يتطلّب التركيب وصله من العناصر اللغوية.

فالأوّل نحو: إنّ في السّويداء رجالا، والثّاني كحذف حرف العطف بين الجمل⁵.

- الاعتراض: إذا كان الفصل يتمّ بواسطة العنصر المفرد أو حذف ما يربط الجملتين فإنّ

1 المرجع السابق-ج01- ص42. و محمد الخطّابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب - 1988م- ص

237. وينظر: مقالات في اللّغة والأدب: تمام حسان - ص 138.

2 صبحي إبراهيم الفقي: علم اللّغة التّصّي بين النّظرية والتّطبيق، دراسة تطبيقية على السّور المكيّة -ج01- ص42.

3 يعرف تمام حسان الاستعمال العدولي بأنّه خلاف الأصلي وهو الاستعمال الفني المقصود من حيث هو تصرف أدبي يخالف القياس التحوي، ومعنى ذلك أنّ الاستعمال الأصلي التّزام والاستعمال العدولي حرّية- ينظر: مقاله: اللّغة والتّقد الأدبي- مجلّة فصول- مج04- ص 122.

4 المرجع نفسه - ص 123.

5 المرجع نفسه .

الاعتراض يتمّ بواسطة الجملة لا المفرد¹.

- الإحالة²: فرع على التنافي التحوي أو المعجمي، فمن الإحالة التحوي دخول حرف الجرّ على الفعل أو حرف الجزم على الاسم، ومنها تشويش رتبة عناصر الجملة، نحو: زيد على جلس الكرسيّ، أمّا الإحالة المعجمية فأن يصحّ بناء الجملة ويفسد معناها نحو: جلس الكرسي على زيد.
- المفارقة: فرع على التوارد، والكلام فيها يأتي من جهة الكلام في المناسبة المعجمية³.

علاقات التضام: co-occurrence relation

إنّ علاقات التضام علاقات داخلية موجودة بين عناصر من داخل نمط معيّن⁴، وإنّ مجموعة من العلاقات التي تنتمي إلى أقسام مختلفة من أقسام الكلام قد يسمح أو يتطلّب تواجد كلمة من قسم آخر لكي يكون الجميع جملة أو جزء معيّنًا من جملة، هذا ما يقصده روبرت⁵ بعلاقات التضام التي جعلها تشكل مع علاقات الترتيب ما يُسمّى العلاقات الساناجمتية في مقابل العلاقات البرادجمتية، وسنخصّص الحديث عن علاقات التضام من بين مجموع هذه العلاقات تاركين تفصيلها إلى المباحث الموالية.

تؤدّي علاقات التضام دورا رئيسا في تحديد أقسام الكلام، ففي عبارة «إنّ التّسيم يداعب الأشجار الوارفة» نلاحظ أنّ «كلّ قسم من أقسامها لابدّ أن يكون رابطا طالما أنّه يتضام ويتعلّق بما يسبقه أو يتلوه من الكلمات بأحد صور التعلّق سواء بالتضام المباشر أو بالتضام في وجود كلمات أخرى⁶، فالمباشر قد يكون بالأدوات، وغيره قد يكون دون أدوات، وفي هذا المثال

1 المرجع السابق - ص 125.

2 المرجع نفسه - ص 126.

3 المرجع نفسه - ص 126.

4 نلاحظ أنّ المؤلف هنا استعمل لفظة "نمط" لأنّه يعيّن من دراسته أن تكون دراسة بنيوية، لذلك نجد استعماله متكرّرا لهذه المصطلحات وغيرها. جلال شمس الدّين: الأنماط الشّكلية لكلام العرب، نظرية وتطبيقا، دراسة بنيوية - الإسكندرية - مؤسسة الثقافة الجامعية - د ط - 2005م - ج 01 - ص 435.

5 المرجع نفسه - ج 01 - ص 150.

6 المرجع نفسه - ج 01 - ص 143، وهنا نلاحظ تداخلا كبيرا في المصطلح فقد ترادف عند المصطلحان: التعلّق والتضام من جهة، والرّبط والترابط والتضام من جهة أخرى في أكثر من موضع، ثمّ استعماله للأداة بدل الحرف مثلا.

نستطيع اعتبار كلمة (النسيم) رابطة، فقد ربطت كلمة النسيم الأداة (إنّ) بالفعل (يداعب) لأنك تقول: إنّ النسيم، كما تقول: النسيم يداعب، أو تقول مباشرة: إنّ النسيم يداعب، وبالمثل: النسيم يداعب/يداعب الأشجار. وبالمثل أيضا: يداعب الأشجار/الأشجار الوارفة. فإذا أدخلت الأداة (إنّ) تشكّل لك: إنّ النسيم يداعب الأشجار الوارفة. فتكون عبارة على أحسن ما يكون الترابط، وقد لا ترابط كلمة ما مع ما يجاورها مباشرة، لكن قد ترابط معها بعد أن ينضمّ لهما كلمة ثالثة¹، وبالتالي فهذه العلاقة لا تعمل على ربط عنصر واحد بالعنصر الذي يليه فقط؛ بل قد تعمل مع علاقة الاستلزام على ربط أكثر من عنصر بعنصر آخر، لينتج في الأخير نمط أكبر حجما وكلام أطول استمرارا وتسلسلا، ومن العلاقات التي تعمل من خلال علاقات التضام والترتيب: علاقات الاستلزام - التطابق - عدم التطابق²، على أنّ أهمّ هذه العلاقات علاقة الاستلزام، وهذه بعض صورها:

- سوف: لا بدّ أن يأتي بعدها فعل مضارع أو الأداة (لا)، أي إنّ بينها وبين الفعل المضارع - أو الأداة - التالي لها علاقة تضام وترتيب واستلزام.

- قد: لا بدّ أن يأتي بعدها فعل ماضٍ أو مضارع.

- من تلك الصّور والحالات ما يكون بين مجموعة من العناصر معا وعنصر آخر نحو: إذا جاء عليّ ذهبنا إلى المسرح.

- من العلاقات ما نجده في هذه السلسلة (على هذا النحو) فالعنصر (النحو) لا يتضام مجرورا مع العنصر (هذا) إلّا في وجود العنصر (على)، وذلك لانعدام العلاقة الإعرابية، إذاً بين العنصرين (هذا النحو) و(على) علاقة استلزام. والعنصر (هذا) لا يتضام مجرورا مع العنصر (النحو) إلّا في وجود العنصر (على) سابقا عليهما، وهذا يعني أنّ "علاقة الاستلزام تعمل داخل علاقتي التضام والترتيب"³ لذلك كانت فرعا عليهما، وهنا يظهر أمر آخر هو أنّ العلاقة بين

1 المرجع السابق - ج01 - ص 143.

2 المرجع نفسه - ج01 - ص 166 وما بعدها.

3 المرجع نفسه - ج01 - ص 169.

الأداة(على) والإشارة (هذا) في هذه السلسلة علاقة ترابط¹، في حين إن العلاقة بين (هذا) و(التحو) ليست مباشرة إلا في وجود (على) سابقا لهما، فالعلاقة بين (هذا النحو) و (على) تشابك، فالتشابك « ضرورة تضام أكثر من عنصرين معا بحيث يتكوّن لدينا نسق مغلق»²، وعلامة (+) في المثال الموالي هي التي تعبّر عن الأنماط المتشابكة:

[(على هذا) + (التحو)] أو قولك: [(كان) + (الموضوع) + (مناسبا)]

القاعدة التحوية والتضام:

المصدر: بالاعتماد على الأصل في النحو العربي - « تلاك القاعدة السابقة على القود والتعريفات كقاعدة رفع الفاعل ونائب الفاعل والمبتدأ وتقدم الفعل على الفاعل وتقدم الموصول على صلته، وافتقار الحرف إلى مدخوله كقول النحاة: "الأصل في الصفة أن تصبح الموصوف" فالقرينة هنا قرينة تضام، ونحو: الأصل في المعارف ألا توصف، وأن حرف الخفض لا يدخل على حرف الخفض »³، فهذه الأمثلة وغيرها هي نماذج من مجموعة من القواعد التي تدور حول ما تتحقق به الإفادة من القرائن.

ومما تتناوله هذه القواعد في كتب الخلاف وأصول النحو تتناول أصول القرائن « كالإعراب والإعمال والبناء والرتبة والتقدم والتأخير والإفراد والتركيب والافتقار والاستغناء والتقدير والتصرف والتغيير والتأثير والتضام والتناقض والحذف والزيادة والوصل والفصل والتوسّع والضرائر والتنقل والتعلق والإضمار والاختصاص والقوة والضعف »⁴، وهذه القواعد التوجيهية في مجموعها تجمل في هذه الثلاثة؛ القواعد الاستدلالية، القواعد المعنوية، القواعد المبنوية، ومرادنا تبيان قواعد التضام التي نجدها ضمن القواعد المبنوية المنقسمة كذلك إلى قسمين؛ تحليلية

1 المقصود بالترابط أن علاقة التضام بين عنصر واحد وعنصر تال هي علاقة دون حاجة إلى تضام عنصر ثالث معهما. المرجع السابق - ج01 - ص 170.

2 المرجع نفسه - ج01 - ص 171.

3 تمام حسان: الأصول - ص 131، 132.

4 المرجع نفسه - ص 209.. 211.

وتركيبة، وما التضام إلا عنصر من عناصر القواعد التركيبية¹، لأنه تركيب وبناء، ومثلما وقفنا على بعض النماذج من قواعد الاختصاص والتنافي والافتقار لا بأس أن نقف على نماذج أخرى لقواعد التضام على سبيل المثال لا الحصر:

- الحرف لا تعلق بالحرف.
- لا يجوز الفصل بين حرف الجزم والفعل باسم لم يعمل فيه ذلك الفعل.
- عوامل الأفعال لا تعمل في الأسماء وعوامل الأسماء لا تعمل في الأفعال.
- قد تكون الحروف في موضع المبتدأ ولا تعلق بشيء، نحو: بحسبك درهم².

6. عوارض التضام :

إن للتضام عوارض تتمثل في قسمين رئيسين هما الفصل والاعتراض.

أولاً: الفصل: وهو نوعان؛ فصل نحوي، وآخر بلاغي³، أما البلاغي فيكون بحذف حرف الربط الذي يربط جملة بأخرى، والفصل ينم دائماً عن موقف انفعالي قد يكون خوفاً أو غضباً أو استعجالاً أو استغراباً أو تعجباً، وهو من المواقف الجدوية⁴، وله ما له من خصوصية المقام تجعله شيئاً آخر غير مجرد حذف حرف العطف، فهو وسيلة نحوية تختلف عن الفصل النحوي، أما الفصل النحوي فهو الفصل بين أجزاء الجملة المتلازمة أو المرتبطة برابط السياق بعنصر من عناصر الجملة غير أجنبي عنها، فإذا كان بكلمة مفردة فهو فصل، وإذا كان بجملة فهو اعتراض، والتحاة يكرهون الفصل بأجنبي في حين إنهم يميزون الاعتراض بجملة أجنبية لما لها من إفادة معنى جديد تضيفه إلى التركيب⁵، ولما لها من استقلال في الفهم يحول دون نسبتها إلى مجرى

1 القواعد التركيبية من بين مجموع ما سبق ذكره من القرائن: الأعمال - الاختصاص - الافتقار - الاستغناء - التغيير - التأثير -

التضام - الحذف - التنافي - الفصل . المرجع السابق - ص 210.

2 المرجع نفسه - ص 226.

3 تمام حسّان : البيان في روائع القرآن - ص 175.

4 المرجع نفسه - ص 180.

5 نادية رمضان التجار: أبحاث نحوية ولغوية - ص 180.

الكلام، وتما يوصف بالمتلازمين¹ الأداة ودخولها، الفعل والفاعل، المضاف والمضاف إليه
هو المتبوع وتابعه بصورة عامة.

الفصل التحوي:

• الفصل بين الفعل والفاعل والمفعول به:

إن العلاقة بين الفعل والفاعل شبيهة بعلاقة الجزء بالكل، فلا يجوز الفصل بينهما بأجنبي
وأجاز التحاة هذا النوع من الفصل إذا كان الفاصل غير أجنبي نحو قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾²، فصل بين الفعل وفاعله لإفادة
تقييد التسيح بالجار والمجرور، ثم بالفاعل بين الجار وصفاته لئلا تطول بين ركني الجملة بما ليس
من أركانها³، وقد يفصل بالمفعول والظرف والجار والمجرور بين الفعل والفاعل نحو: «حضر
القاضي اليوم امرأة» بإسقاط علم التأنيث من الفعل لأن الفاصل سد مسد علم التأنيث بالاعتماد
على دلالة الفاعل⁴.

ومنه الفصل بالمفعول بين الفعل وفاعله نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ

لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾⁵ لئلا يعود

الضمير على متأخر لفظا ورتبة، ثم فصل بين المفعول وصفته بالفاعل لئلا تطول الشقة بين ركني
الجملة بواسطة الفضلة⁶.

1 ينظر: البيان في روائع القرآن - تمام حسان - ص 176، 177.

2 سورة الجمعة - الآية 01.

3 تمام حسان: السابق - ص 176.

4 ابن يعيش: شرح المفصل - ج 05 - ص 91، 92.

5 سورة الأنعام - الآية 158.

6 تمام حسان: السابق ص 178.

ومنه الفصل بين فعل الأمر (آتوني) ومفعول (قطرا) بجواب الأمر في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾¹. وهذا الفصل لم يكن اعتراضا مع كونه مستوفيا للشروط بسبب أنه جملة أجنبية.

● الفصل بين التابع والمتبوع:

أ- الموصوف وصفته: نحو قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾²، فصل بينهما (لفظ الجلالة) وفاطر بابتداء مؤخر (شك)، لأن الفصل بالصفة المركبة من الإضافة بين الخبر المقدم والمبتدأ المؤخر ليصير الكلام: "أفي الله فاطر السماوات والأرض شك" هذا الفصل يضعف ما بين الخبر المقدم والمبتدأ المؤخر من رابطة ويجعل التركيب قلقلًا³، ونحو قوله تعالى ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمٌ الْغَيْبِ﴾⁴.

ب- بين المتعاطفين: نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾⁵، أي كفى بالله ومن عنده علم الكتاب للشهادة بيني وبينكم، ففصل بين التمييز وما تعلق به من ظرفية بين المتعاطفين⁶، ونحو قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾⁷، ففصل بين المتعاطفين بالمفعول الثاني، ولا يقال فصل بين نائب الفاعل والمفعول الثاني لأن الفعل من أخوات (أعطى) ومفعولها ليسا متلازمين، لأنه ليس بينهما علاقة

1 سورة الكهف - الآية 96.

2 سورة إبراهيم - الآية 10.

3 تمام حسان : البيان في روائع القرآن - ص 179.

4 سورة سبأ - الآية 03.

5 سورة الرعد - الآية 43.

6 تمام حسان : السابق - ص 176.

7 سورة هود - الآية 60.

إسناد ملحوظة كالتي بين مفعولي (ظن) ، ومنه الفصل في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾¹، حيث كان تركيب الاستثناء فاصلا بين المعطوف وغايته، لأن للتهي في هذه الآية غايتين تمثلان على هذا النحو: وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون. ولا جنبا حتى تغتسلوا، ومنه الفصل بالمصدر المنصوب على معنى الأمر، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾² وبإلوالدين إحسننا³ لأن المصدر لو تقدم فليل: واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وإحسانا بالوالدين؛ لظنه السامع معطوفا على "شيئا" أي: لا تشركوا به شيئا ولا تشركوا به إحسانا بالوالدين³. فبرّ الوالدين لا ينبغي أن يكون على حساب عبادة الله وحده.

ت- الفصل بين التوكيد والمؤكد، نحو قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدَّتْ أَنْ تَقْرَأَ آيَاتِنَا وَلَا تَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾⁴.

● الفصل بين المتضايين: إن من الفصل بين المتضايين ما هو جائز في السعة خلافا للبرصيين في تخصيصهم ذلك بالشعر مطلقا، فجائز في السعة ثلاث مسائل:

أ- أن يكون المضاف مصدرا والمضاف إليه فاعله نحو قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ﴾⁵، وقول الشاعر⁶:

1 سورة النساء - الآية 43.

2 سورة النساء - الآية 36.

3 تمام حسان : البيان في روائع القرآن - ص 179.

4 سورة الأحزاب - الآية 51.

5 سورة الأنعام - الآية 137.

6 البيت لم يُسمّ قائله، روي عند: ابن هشام: أوضح المسالك ج03- ص 134. الأشموني: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك- ج02- ص 208. الصبان: حاشية الصبان على شرح الأشموني- ج02- ص 208. البغات مفعول به منصوب بالمصدر (سوق)، ووجه الاستدلال أن (سوق) مضاف إلى (الأجدال) من قبيل إضافة المصدر إلى فاعله وهو جائز عند الكوفيين.

عتوا إذا أجنبناهم إلى السّلمِ رافةً فسقناهم سَوْقَ البِغَاثِ الأَجَادِلِ

وقول الشّاعر¹:

فَزَجَّجْتُهَا بِمِزْجَةِ زَجِّ القُلُوصِ أَبِي مِزَادِهِ

وإمّا ظرفه كقول بعضهم: تركُ نفسِكَ وهوها سعيُّ لها في رداها².

ب- أن يكون المضاف وصفا والمضاف إليه مفعوله الأول والفاصل مفعوله الثاني: نحو قول الشّاعر³:

فَرِشْنِي بِخَيْرِ لَأَكُونَنَّ وَمِذْحِي كِنَاحَتِ يَوْمَا صَخْرَةٍ بِعَسِيلِ

وقول الآخر⁴:

مَا زَالَ يُوَقِّنُ مَنْ يَوْمُكَ بِالْغِنَى وَسِوَاكَ مَانِعٌ فَضْلَهُ الْمُحْتَاجِ

ج- أن يكون الفاصل القسم: نحو: " هذا غلام والله زيد"، حكى ذلك الكسائي، وحكى أبو عبيدة: « أن الشّاة لتجتزّ فتسمع والله صوت ربّها⁵»، وما سوى ذلك فمختصّ بالشّعر، وقد جاءت المسائل ثلاثاً عند الصّبّان والأشموني⁶.

1 ابن يعيش: شرح المفصل - ج 03 - ص 19.

2 المصدر نفسه - ج 02 - ص 206.

3 البيت لم يُسمّ صاحبه. رشني: قوّي وأصلح حالي. العسيل: المكسة. ووجه الاستدلال أن (ناحت) مضاف إلى (صخرة) من قبيل إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله، وهذا جائز في السّعة. ابن هشام: أوضح المسالك - ج 03 - ص 135.

4 لم يُسمّ صاحبه. يؤمك: يقصدك. مانع: خير المبتدأ (سواك). فضله: مفعول به باسم الفاعل وهو مضاف. الهاء: مضاف إليه. المحتاج: مضاف إليه. وموضع الشّاهد أن (مانع) مضاف إلى (المحتاج) من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله الأوّل، وقد فصل بينهما بمفعوله. ينظر: المصدر نفسه - ج 03 - ص 136.

5 شرح الأشموني - ج 02 - ص 208.

6 حاشيته على شرح الأشموني - ج 02 - ص 208.

وجاءت أربعاً عند ابن هشام¹، ومهما يكن؛ فإنّ الفصل بين المضاف والمضاف إليه قبيح لأتھما: «كالشيء الواحد، فالمضاف إليه من تمام المضاف، يقوم مقام التنوين، فكما لا يحسن الفصل بين التنوين والتنوين كذلك لا يحسن الفصل بينهما»².

● الفصل في أسلوب المدح والذم:

يقول تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾³، في الآية فصل بالجرور بين الضمير في (بئس) وميمه (بدلاً)، والتقدير: بئس بدلاً للظالمين ذرية إبليس⁴. والمقصود بالذم ذرية إبليس وحذف للدلالة عليه.

● الفصل بين الفعلين والمتعجب منه:

إنّ لم يتعلّق الفصل بهما فلا يجوز اتّفاقا الفصل بين المعمول وعامله الضعيف الأجنبي، فلا يجوز: لقيته فما أحسن زيدا، على أن يتعلّق أمس بليقته، وكذا إنّ تعلّق بهما وكان غير ظرف نحو: ما أحسن قائما زيدا، وذلك لأنّه نوع تصرّف في علم التعجب، وأمّا بالظرف فمنعه الأخفش والميرد وأجازاه الفراء والجرمي وأبو علي والمازني، نحو: ما أحسن بالرجل أن يصدق، أحسن اليوم يزيد. ويجوز الميرد: ما أقبح بالرجل أن يفعل كذا⁵.

1 لأن كثيرا من النحويين زعم أنّه لا يفصل بين المتضاميين إلا في الشعر، والحق أنّ مسائل الفصل سبع: منها ثلاثة جائزة في السعة، مرت معنا، والأربعة الباقية تختص بالشعر: الفصل بالأجنبي - الفصل بفاعل المضاف - الفصل بنعت المضاف - الفصل بالتداء. ينظر: أوضح المسالك - ج3 - ص 135، 136.

2 ابن يعيش: شرح المفصل - ج3 - ص 19.

3 سورة الكهف - الآية 50.

4 البيان في إعراب غريب القرآن: ابن الأنباري - ج2 - ص 112. أخذنا عن: نادية النجار: أبحاث نحوية ولغوية - ص 33.

5 أبو العباس الميرد (ت 285هـ): كتاب المقتضب - تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة - القاهرة - 1399هـ/1979م - ج4 - ص 178.

● الفصل بين كم ومميّزها:

يجوز الفصل بين كم ومميّزها بالظرف وحروف الجرّ جوازا حسنا من غير قبح نحو: كم لك غلاما، وكم عندك جارية، ولا يحسن ذلك فيما كان معناه من الأعداد نحو: عشرين وثلاثين ونحوهما من الأعداد المنوّنة، والفصل بينهما إن كانت كم مستحقّة للتمكّن في الأصل بحكم الاسمية ثمّ منعت بما أوجب البناء لها فصار الفصل.

وإنّ من الشواهد على اختلاف الإعراب بعد الفصل أيكون منصوبا أم مجرورا قول القطامي¹: **كم نالني منهم فضلا على عدم إذ لا أكاد من الإقتار أحتمل**

فلما فصل بـ (فضل) عدل إلى لغة من ينصب لقبح الفصل بين الجار والمجرور²، والتقدير في هذا البيت: كم فضل، إلا أنّهما لما فصل بينهما بـ (نالني منهم) نُصب (فضلا) فرارا من الجار والمجرور³، وسيبويه لا يوجز ذلك إلا في ضرورة شعر، حيث يقول: «وإن شاء رفع فجعل (كم) المرار التي ناله فيها الفضل فارتفع بـ (نالني) فصار كقولك: كم قد أتاني زيد، فزيد فاعل، وكم مفعول فيها، وهي المرار التي أتاه فيها»⁴.

وإذا كان الفصل في هذه التماذج وغيرها جائزا عند النحاة؛ فإنّ الفصل في مواطن أخرى غير جائز، ومن هذه التماذج والأمثلة ما يلي:

- عدم الفصل بين (لا) ومدخولها الفعل المضارع، نحو قول لبيد بن ربيعة⁵.

ولقد علمت لتأتين منيّي إن المنايا لا تطيشُ سهامها

- عدم جواز الفصل بين الفعل والعامل فيه باسم.

1 ديوانه - ص 30. أخذنا عن: المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية: إميل بديع يعقوب - لبنان - دار الكتب العلمية -

ط 01-1417هـ / 1996م - مج 06 - ص 274.

2 ابن يعيش: شرح المفصل - ج 04 - ص 129، 131.

3 ابن الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف - ج 01 - ص 306.

4 الكتاب - ج 02 - ص 165.

5 رواية البيت في المعلقة: صادف منها غرة فأصبها. ينظر الديوان - بيروت - دار صادر - دط - ص 171.

- لا يجوز أن تفصل بين الاسم وبين إن وأخواتها بفعل.

- لا يجوز أن تقول: لم زيدًا يأتك¹.

- لا يجوز الفصل بين الصفة والموصوف لأنهما كشيء واحد بخلاف المعطوف والمعطوف عليه².

ثانياً: الاعتراض:

إن ما سبق الكلام عنه في عوارض التضام لم يخرج عن دائرة الفصل التحوي الذي قوامه الفصل بين المتلازمين بفاصل هو دون الجملة، أمّا إذا كان الفصل بالجملة، وكانت هذه الجملة أجنبية ولا محلّ لها من الإعراب وكانت مستقلة بمعناها وإفادتها فإنّ هذا النوع من الفصل يُسمّى الاعتراض، فالاعتراض أن « يأتي في أثناء الكلام كلام أو بين كلامين متلازمين معنى بجملة أو أكثر لا محلّ لها من الإعراب لنكتة سوى رفع الإبهام³، والجملة المعترضة التي تتوسط بين أجزاء الجملة المستقلة لتقرير معنى يتعلّق بها أو بأحد أجزائها مثل: زيد طال عمره قائم⁴، وقد جوّز النحاة الفصل بها لما لها من استقلال في الفهم يحول دون نسبتها إلى مجرى الكلام، لأنّ الجملة المعترضة في كلّ أحوالها تعبير عن خاطر طارئ من دعاء أو قسم أو قيد بشرط أو نفي أو نهي أو تنبيه، وهو جار عند العرب مجرى التأكيد، فلذلك لا يشنع عليهم، ولا يُستنكر عندهم أن يعترض به بين الفعل وفاعله، والمبتدأ وخبره⁵، فالمقصود بالاعتراض: « اعتراض مجرى التّمط التركيبي بما يحول دون اتّصال عناصر الجملة بعضها ببعض اتّصالاً تتحقّق به مطالب التضام التحوي فيما بينها⁶ ومن الأمثلة على هذا الاعتراض ما يلي:

1 ينظر: الكتاب: سيبويه - ج3- ص 110.

2 جلال الدين السيوطي: الأشباه والنظائر في النحو - ج1- ص 649.

3 السيد الشريف الجرجاني(ت816هـ): التعريفات - وضع حواشيه: باسل عيون السّود- بيروت- دار الكتب العلمية-

ط02-1424هـ/2003م- ص34.

4 المصدر نفسه - ص 83.

5 أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص - حقّقه: محمّد عليّ النّجار- بيروت- عالم الكتب- ط01-1427هـ/2006م- ص 267.

6 تمام حسّان: البيان في روائع القرآن - ص 184.

- الاعتراض بجملة الشرط المحذوفة الجواب لتعظيم هذا القسم وتفخيمه ثم لبيان جهلهم لهذه الحقيقة، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَتَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾¹، وهنا اعتراضان:

أ- بين فعل القسم (لا أقسم) وجوابه (إنه لقرآن كريم) بجملة: إنه لقسم لو تعلمون عظيم.

ب- بين قسم الموصوف و (عظيم) صفته بجملة الشرط (لو تعلمون).

- الاعتراض في النداء: نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْأَلَأَلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَنَّكَ

يَنْشُوعِبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرَيْبِنَا﴾²، ليكون التهديد بالإخراج أكثر توجهًا إلى شعيب عليه السلام، وإن شاركه أتباعه في تلقي التهديد.

- الاعتراض لإعلان التوحيد والترهيب في نحو قوله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ ۚ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾³.

إن من عوارض التضام ما يلاحظ في بعض الجمل التي لا تحتاج إلى عاطف يعطفها عليها، فكما لا يجوز أن تضم التوكيد على مؤكّد بضامّ كذلك لا يجوز أن تضمّ الجملة المترلة من التي قبلها مترلة التوكيد بعاطف لأنها تتصلّ بها اتصالاً داخلياً وهو أقوى من الاتصال الخارجي لأن: «التوكيد هو عين المؤكّد والصفة عين الموصوف»⁴، والواو لا تقع بين الشئ وبين نفسه، وإنما تقع بين متغايرين متناسبين، كما تقول: لقيت فلانا نفسه، فلا تدخل الواو بين التوكيد والمؤكّد.

إنّ ما يقع في حيز القول في ظاهرة التضام الشئ الكثير، فإلى جانب الفصل والاعتراض هناك جوانب أخرى نحو الحذف والزيادة وإدخال اللفظ على غير مدخوله، والتضمين، واستغناء

1 سورة الواقعة - الآية 76. ينظر: تحريجها عند: ابن جني: السابق - ص 267.

2 سورة الأعراف - الآية 88.

3 سورة الأنعام - الآية 106.

4 محمد محمد أبو موسى: دلالات التراكيب، دراسة بلاغية - القاهرة - مكتبة وهبة - ط 02 - 1408 هـ / 1987 م -

أحد العنصرين عن الآخر والشروط التركيبية الضرورية لتأليف ألفاظ السياق مما قد يخرجنا عن موضوع البحث بعيداً، وحسبنا ما جئنا به، لأن مظاهر عوارض التضام متعددة وكثيرة لا تستطيع دراسة أو دراستان أن تحيط بها.

7. قرينة التضام بين قرائن التعليق التحوي:

يُعدّ التضام من أهمّ القرائن التحوية التي تعرّض لها تمام حسان بالبحث والتفصيل، وإذا ما جئنا إلى الاصطلاح التحوي بين مجموع تلك القرائن فإننا نجد تمام حسان نفسه يرجع بنا إلى موروثنا التحوي ليكشف عن موقع هذه القرينة بين غيرها، إذ يقول: «ولقد حاولت في كتابي (اللغة العربية معناها ومبناها) أن أكشف عن قيمة هذه الظاهرة، ظاهرة التضام في النحو العربي فأتضح لي أنها واحدة من القرائن اللفظية الدالة على المعنى التحوي، شأنها في ذلك شأن العلامة الإعرابية، والمطابقة والربط بالضمير أو بالحرف والرتبة والأداة والتغمة في الكلام المنطوق، ومن هنا كان مني أن أعطيت هذه الظاهرة لفظها الاصطلاحي (التضام) التي دلت بها عليها وقسمتها إلى ثلاثة أقسام؛ التلازم، التوارد والتنافي»¹، وليس أمر التضام وحده هو المعروف في تراثنا التحوي بهذا المفهوم، وإنما يتسع الأمر ليشمل هذه القرائن التحوية، وهو ما يؤكده عبد اللطيف حماسة بقوله: «ينبغي أن نشير إلى أن نجاتنا - رحمهم الله - لم يغفلوا عما نسميه القرائن التحوية، فلقد وجدت لديهم مبثوثة في الأبواب التحوية المختلفة موزعة عند تعريف الأبواب المتعددة، وأحياناً توجد في صورة شروط خاصة ما في أدائها لوظيفة نحوية خاصة»²، يقول ابن مالك:

الحال وصف فضلة منتصبُ مفهَم في حال كفراداً أذهب³

إن تعريف ابن مالك: «يتضمّن عددا من القرائن الخاصة لهذه الوظيفة التحوية، فكون الحال (وصفاً) تحديداً للصيغة وهي قرينة لفظية، وكونه (فضلة) رتبة، لأن الفضلة رتبها التأخير

1 تمام حسان: التضام وقيود التوارد - مجلّة المناهل - العدد السادس - السنة الثالثة - رجب 1396هـ / يوليو 1976م -

ص 110، 111. أخذنا عن: إسماعيل غازي إسماعيل دويدار: قرينة التضام في القرآن الكريم - مخطوط رسالة ماجستير -

القاهرة - كلية دار العلوم - 1425هـ / 2004م - ص 07.

2 العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث - القاهرة - دار الفكر العربي - د ط - د ت - ص 112.

3 ابن عقيل: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك - تحقيق محمد محيي الدين - ج 02 - ص 242.

وهي قرينة لفظية، وكونه (منتصب) علامة إعرابية وهي قرينة لفظية، وكونه (مفهما في حال) ملابسة وهي قرينة معنوية، وهكذا لو تتبنا بقيّة الأبواب التحوية»¹، إلا أنّ من حاول أن يسلك التحو العربي في إطار القرائن التحوية بحيث يمثّل نظرية متكاملة فتّمّام حسان عمر في كتابه "اللغة العربية معناها ومبناها" وقد قسّم هذه القرائن إلى نوعين؛ قرائن معنوية (العلاقات السياقية) وهي خمس، ولها فروع؛ فقرينة الإسناد وتشمل المسند والمسند إليه، وقرينة التخصيص وتشمل التعدية والغائية والمعية والظرفية والتأكيد والتحديد والملابسة والإخراج والتفسير، وقرينة النسبة وتشمل معاني الحروف والإضافة، وقرينة التبعية وتشمل التعت والعطف والتوكيد والإبدال، وقرينة المخالفة. أمّا اللفظية فهي: العلامة الإعرابية، الرتبة، الصيغة، المطابقة، والربط، والتضام، والأداة، والتنغيم.

وهذه القرائن المعنوية واللفظية يصطلح عليهما القرائن المقالية لأنها تُعرف من المقال لا من المقام، وإنّ فهم الجملة متوقّف ضرورةً: «على فهم هذه القرائن ودورها في إحكام نسيج الجملة»² لأنّ الجملة: «نسيج محكم متشابك، وهي تمثّل خلية حيّة من جسم اللغة... وكلا النوعين من القرائن اللفظية والمعنوية يتعانقان بحيث يتوقّف فهم إحداها على فهم الأخرى»³، فقرينة التضام مع أهميتها الكبرى في نظم وتأليف عناصر الجملة وتحديد أركانها لا يمكن أن يُنسب إليها «الفضل وحدها في الدلالة على المعنى التحوي وهي بمعزل عن القرائن الأخرى في سياق الجملة»⁴، فليس لواحدة من هذه القرائن حقّ الاستقلال بمفردها في بيان المعنى التحوي.

1 عبد اللطيف حماسة: العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث - 112.

2 المرجع نفسه 114.

3 المرجع نفسه - ص 111.

4 إسماعيل غازي إسماعيل دويدار: قرينة التضام في القرآن الكريم - ص 13.

ثانيا: التضام في الموروث التحوي:

1. أقسام الكلم:

إن الظاهرة التحوية بصفة عامة يمكن تمثيلها في جزأين كبيرين؛ الأول منهما تجسده الكلمات، والآخر يتمثل في العلاقات، والمشكلة ليست في الوحدات نفسها، وإنما في نظام تصنيفها الذي خالف فيه كثير من اللغويين المعاصرين نحاتنا القدامى خلافا بعيداً¹، فبعد أن استقر عند التحاة في الموروث العربي أن الكلم ثلاثة أقسام؛ اسم وفعل وحرف، أتخذت مناهج جديدة لدراسة اللغة، وأصبح ما يعرف بالمنهج الوصفي سائداً في الدراسات الغربية والعربية على حد سواء، وكان نتيجة ذلك أن كثُر الخلاف في مسائل نحوية متعددة ترأسها قضية تقسيم الكلم في العربية حيث « قَدِمَ هذا الدرس الوصفي لأقسام الكلم مسلّمات متعدّدة؛ منها اعتمادها على المنطق والفلسفة، وعدم صلاحيتها للدرس اللغوي الوصفي، وقيامها على ثمانية أقسام على ما انتهت إليه لغويات الحضارة اللاتينية وساد القرون الوسطى، بعد أن كانت قد وصلت إلى عشرة أقسام على يد اليونانيين، وهذا ما انعكس في درسنا العربي المعاصر، وذلك في كتاب (اللغة العربية معناها ومبناها) «²، وسنعرض بشكل مختصر أهم المحاولات لتقسيم الكلم في العربية.

إن معرفة نوع الكلمة يقود بالبحث إلى معرفة المعاني التي تتضمنها الجملة في ضوء معرفة القرائن الأخرى³، وبالتالي فمسألة التفريق بين أقسام الكلم تعدّ أساساً في تعيين المعنى المقصود في الجملة.

إذا بدأنا تقسيم الكلم منذ القديم فإننا نستحضر دراسات أرسطو أولاً وطريقة تناوله، والحق أن أرسطو لم يتناول الكلام تناولاً مباشراً، ولم يعرض له في موضع واحد. لقد « تعرّض للاسم onoma في كتابه (العبارة).. ثم تحدّث عنها وعن أشياء أو شيء من بينها يُسمّى الرابطة

1 محمد عبد العزيز عبد الدائم: النظرية اللغوية في التراث العربي - القاهرة - دار السلام - ط 01 - 1427هـ / 2006م - ص 211.

2 المرجع نفسه - ص 112.

3 كريم حسين ناصح الخالدي: نظرية المعنى في الدراسات التحوية - الأردن - دار صفاء - ط 01 - 1427هـ / 2006م - ص 179.

syndesmoi في البلاغة والشعر، وهذا التقسيم لم يستمر في الدرس اليوناني»¹، ولعلّ مردّ ذلك أنّ «أرسطو لم يدرس اللغة للغة، بل درس اللغة للفكر، ولذلك فدراسته لبعض الظواهر اللغوية لم تكن إطلاقاً ذات نية ولا علاقة بالبحوث اللغوية، بل كانت جزءاً من المنطق والفلسفة»²، فحديثه عن الرابطة مثلاً لم يضيف شيئاً إلى ما كان يسمّيه التّحاة العربُ الحرفَ لدى البصريين أو الأداة لدى الكوفيين، وإذا ما سلّمنا أنّه تحدّث عن أقسام الكلم فلأنّها «ترتبط عنده بالقضية وكل قضية تتكوّن من اسم وفعل ورابط»³، أمّا الدرس العربي فقد ظهرت فيه آراء وتقسيمات أخرى وتأتي محاولة إبراهيم أنيس⁴ «أول مقارنة تنقد أسس النحو العربي ومنهجه نقداً يترع إلى الشمول بهدف أن يغيّر منهج البحث اللغوي»⁵، حيث نادى هو وجماعة من المحدثين بضمّ علم المعاني إلى علم النحو، ومن هؤلاء مهدي المخزومي، أحد تلامذته، الذي يعدّ أوّل من طلق أفكار أستاذه وتوسّع فيها، يقول: «دارسون آخرون سُمّوا بعلماء المعاني، وهم التّحاة الحقيقيون فيما أزعّم، وهم الذين دفعوا بالدرس النحوي إلى أمام وقدّموا للدارسين فيه نتائج طيّبة خليقة بأن يستفاد منها»⁶، وفيما يخصّ جانب تقسيم الكلم فإنّ مناهج الدراسة اختلفت حسب منهج كلّ واحد من المحدثين في تحديد المعايير المستعملة في التّفريق بين الكلمات، ومن هؤلاء المحدثين:

1- إبراهيم أنيس: حيث قسّم الكلم إلى أربعة أقسام، يقول: «وَقَّ المحدثون إلى تقسيم رباعي أحسب أنّه أدقّ من تقسيم التّحاة الأقدمين، وقد بنوه على تلك الأسس الثلاثة التي أشرنا إليها؛ الاسم، الضمير، الفعل، الأداة»⁷.

1 عبده الرَّاجحي: النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج - بيروت - دار النهضة العربية - د ط - 1979م - ص 79.

2 عبد الجليل مرتاض: في رحاب اللّغة العربية - الجزائر - بن عكنون - ديوان المطبوعات الجامعية - ط 01 - 2004م - ص 16.

3 المرجع نفسه - ص 16.

4 ينظر كتابه: إحياء النحو - ط 02 - 1413هـ / 1992م - القاهرة.

5 عبد الحميد السيد: دراسات في اللسانيات العربية، بنية الجملة العربية، التراكيب النحوية والتداولية، علم النحو وعلم المعاني - عمان - دار الحامد للنشر - ط 01 - 1424هـ / 2004م - ص 183.

6 ينظر كتابه: النحو العربي، نقد وتوجيه - بيروت - دار الرائد العربي - ط 02 - 1406هـ / 1986م.

7 عن هذه الأسس يقول: "من رأينا أنّه يجب أن نتخذ في تحديد أجزاء الكلام وتعريفها أسساً ثلاثة: المعنى، الصيغة، وظيفة اللفظ في الكلام" ينظر: من أسرار اللغة - القاهرة - مكتبة الأنجلو المصرية - ط 07 - 1985م - ص 292 - 294.

2- تمام حسّان: وكانت بدايته الأولى مع كتاب "مناهج البحث في اللغة" حيث يقول: «إذا قسّمنا الكلمات العربية على هذه الأسس الخمسة المذكورة¹، فسنجد أن هذه الأقسام التي تنتج من ذلك أربعة: الاسم، الفعل، الضمير، الأداة»²، إلاّ أنّه أعاد النظر في هذا التقسيم بعد مدّة، وخرج بتقسيم آخر جعل فيه للكلم سبعاً أقسام: الاسم، الصفة، الفعل، الضمير، الخالفة، الظرف والأداة³.

3- محمّد صلاح الدّين مصطفى: قسّم الكلم إلى ستّة أقسام؛ الاسم، الفعل، الوصف الظرف، الضمير، الأداة⁴.

4- فاضل مصطفى الساقى: وتعدّ آراؤه امتداداً لآراء أستاذه تمام حسان، حيث وضع كتاباً قسّم في الكلم من حيث الشكل والوظيفة⁵.

إنّ الملاحظ في تقسيم تمام حسان مثلاً يجد أنّه اعتمد على معايير معنوية وأخرى شكلية⁶.

ونتيجة لهذا الاعتماد أصبحت أقسام الكلم سبعة بدلا من ثلاثة⁷، ونحائنا القدامى لم يقدّموا تقسيماً وحيداً للكلمة، وإنّما قدّموا اثنين، جاء كل واحد منهما بحسب الغرض منه، قدّموا

1 هذه الأس الخمسة هي: الشكل الإملائي المكتوب، التوزيع الصرفي، الأسس السياقية، المعنى الأعم أو معنى الوظيفة، الوظيفة الاجتماعية. ينظر: مناهج البحث في اللغة - الدار البيضاء - دار الثقافة - د ط - 1407هـ / 1986م - ص 229.

2 المرجع نفسه - ص 236، 237.

3 اللغة العربية معناها ومبناها - ص 90.

4 في كتابه: النحو الوصفي في القرآن الكريم - القاهرة - مؤسسة علي جراح الصباح - د ط - د ت - ص 36.

5 ينظر كتابه: أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة - تقدم تمام حسان - القاهرة - مكتبة الخانجي - د ط - 1497هـ / 1977م.

6 المعنوية هي: التسمية - الحدث - الزمن - التعليق - المعنى الجملي، أما الشكلية فهي: الصورة الإعرابية - الرتبة - الصيغة - الجدول - الإلصاق - التضام - الرسم الإملائي. ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها - ص 88.

7 ممّا يلاحظ أنّ تقسيم تمام حسّان يقرب من التقسيم الفرنسي و الإنجليزي ، فأقسام الكلم في الفرنسية تسعة؛ الاسم - الضمير - أداة التعريف - الصفة - الفعل - الظرف - حرف الجر - أداة ربط الجمل - صيغة المتأنث (اسم الفعل)، وفي الإنجليزية ثمانية هي: الاسم - الضمير - الصفة - الفعل - الظرف - حرف الجر - حرف العطف - التعجب ... فاللغات الثلاثة تشترك في خمسة أقسام: الاسم - الفعل - الصفة - الضمير - الظرف، وكذلك الفارسية لها تسعة أقسام، ينظر كتاب: مبادئ اللسانيات: أحمد محمّد قدّور - ص 174.

تصنيفا عاما يضم أقسام الكلمة الرئيسية دون فروعها، وآخر تفصيليا ذكروا فيه ما لكل قسم من أقسام الكلمة الرئيسية من أقسام فرعية كأقسام الاسم الفرعية التي تتمثل في الضمير والصفة والظرف، وزادوا على ذلك فذكروا الأقسام الفرعية لكل قسم فرعي، كحديثهم عن المشتق العامل والمشتق غير العامل، وحديثهم عن أقسام الصفة (المشتق العامل التي تتمثل في اسم الفاعل، وصيغة المبالغة، الصفة المشبهة، وأقسام الضمير) وحسبنا أن ليس ثمّة قسم عرضه هذا التقسيم الجديد لم يدركه التحاة¹، ولئن كتب مصطفى السّاقى كتابه مراعيًا فيه الجانب الشكلي والوظيفي لتقسيم الكلام فقد فاته أن العرب قد: «سلكوا منهاجًا تتآزر في الشكلية والوظيفية والدلالية»² وحقّ للزجاجي أن يقول: « ليس ثمّة قسم رابع»³، لأنّ تقسيم نحائنا القدامى يظهر أنّه الأقرب لوظيفة اللغة.

ومهما تعدّدت وجهات الرأي حول تقسيم الكلم، فإنّ هذا البحث منوط بأن يتناول أقسام الكلم في ضوء قضية التضام، وليس البحث في دقة هذا التقسيم أو ذاك إذ الجدل فيه كثير والكتابات متضاربة قد يجمعها مفهوم واحد⁴ أوضحه ابن السراج بقوله: «الاسم ما دلّ على معنى مفرد.. والفعل ما دلّ على معنى ذليّ من.. أما الحرف فلم يزيدوا على ما حدّه به سيبويه⁵ شيئًا مفيدا سوى اختلافهم في دلالاته على المعنى إذ عدّوا ذلك ناقصا، لأنّ الفعل يدلّ على معنى والاسم كذلك لذا زادوا في غيره لأنّ الاسم والفعل جاء المعنى في أنفسهما، والحرف ليس كذلك لأنّه لا معنى له إلاّ باسم أو فعل ينضمّ إليه»⁶، وهذا الذي اطمأنّ إليه البحث في تقسيم الكلم على على أنّنا حين ننتقل إلى تطبيق قرينة التضام على أقسام الكلم فسيُدفعنا البحث دفعا إلى الاستعانة

1 ينظر: النظرية اللغوية في التراث العربي: محمد عبد العزيز عبد الدائم - ص 211، 212.

2 عبد الجليل مرتاض: في رحاب اللغة العربية - ص 17.

3 الإيضاح في علل النحو ص 42، أخذنا عن: المرجع نفسه - ص 28.

4 كريم حسين ناصح الخالدي: نظرية المعنى في الدراسات النحوية - ص 179.

5 إذ يقول في باب: علم ما الكلم من العربية: "فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل..أما ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعل فتحو: ثم، وسوف، وواو القسم ولام الإضافة ونحوها". ينظر: الكتاب -- ج 01 - ص 12.

6 أبو بكر بن السراج: الأصول في النحو - تحقيق: عبد الحسين الفتلي - بيروت - مؤسسة الرسالة - 1405هـ / 1985م -

ج 01 - ص 36.

بتلك الأقسام كلها متقفين في ذلك آثار النتائج التي خرج بها تمام حسّان عند حديثه عن أقسام الكلم بين التراث والحداثة، وقد أجملها في حدود الأنواع الآتية:

- 1- بواكير عربية نبتت في أرض التراث.
- 2- أفكار أجنبية حديثة وفي التراث ما يشبهها.
- 3- فهم عربي حديث يصحّ فهمها قديما في التراث¹.

ففيما يخصّ الفرق بين التقسيمين أنّ النظرة الحديثة كشفّت عن عموم في مفهوم الاسم لدى النحاة يشمل أقساما أخرى كالصفات والضمائر والظروف، وأنّ الفعل اتسع فشمّل بعض الخوالب والنواسخ، وأنّ مفهوم الأداة في الفهم الحديث يشمل الحروف والنواسخ كما فهمها النحاة، على الرغم من أنّ الحرف والأداة عند نحائنا القدامى يتجه إلى معنى واحد يفيد في غيره فكلاهما: «يحدّد أنّه ما دلّ على معنى في غيره بتوظيفه داخل التركيب اللغوي واقترانه بعناصر الجملة»²، فالقضية على الأقلّ في جانبها هذا قضية مصطلح³، فالبصريون يستعملون الحرف، في حين إنّ الكوفيين يستعملون الأداة للتعبير عن بعض الأبواب النحوية كأدوات الاستفهام والشرط مثلا.

2. التضام في الأبواب النحوية:

إنّ للتضام أثرا بالغ الأهمية في انسجام العناصر النحوية، إذ إنّ هذه القرينة: «تحدّد وظائفها وما تشير إليه في السياق النحوي»⁴ وسنكون هنا بصدد البحث في أقسام الكلم وبعض الأبواب النحوية في ضوء قرينة التضام وستطرّق إلى العناصر الآتية: التضام في الجملة الاسمية والجملة الفعلية والجملة الشرطية، والتضام في الحروف، وإلى التضام في التقسيم السباعي الجديد للكلم، وستتخذ

1 تمام حسان: عنوان المقال: اللغة العربية والحداثة - مجلّة فصول، مجلّة النقد الأدبي - مج 04 - العدد 03، أبريل، مايو، يونيو - 1984م - ص 133.

2 عمر ديدوح: الأدوات العاملة في التراكيب العربية، دراسة لسانية سورية - مخطوط رسالة دكتوراه - جامعة تلمسان - 2003م/2004م - ص 111.

3 لمزيد من التفصيل في المصطلحات النحوية واستعمالات النحويين يُنظر: كتاب: المصطلح النحوي، نشأته وتطوّره حتّى أواخر القرن الثالث الهجري - محمد الفوزي - الجزائر - ط 03 - 1983م.

4 أحمد محمد قدّور: مبادئ اللسانيات - ص 331.

كتاب "المقتصد في شرح الإيضاح" نموذجاً لدراسة التضام في الموروث التحويي، وبعدها نتطرق إلى قضية الترخص في التضام.

01. التضام في الجملة الاسمية:

أ- المبتدأ والخبر¹: يتضح المبتدأ والخبر بعدد من القرائن بعضها معنوي وبعضها لفظي، فمن القرائن المعنوية العهد والإسناد، ومن اللفظية البنية والتضام والترتبة والإعراب، أما قرينة التضام فتشمل الافتقار والاختصاص والمناسبة والذكر والحذف والإظهار والإضمار.

- من قبيل الافتقار قول ابن مالك:

والخبرُ الجزءُ المتمُّ الفائدهُ كاللهُ برُّ، والأَيادي شاهدُه²

إذ لا غنى للمبتدأ عن الخبر.

- ومن قبيل الاختصاص أنه إذا جرى الضمير على غير من هو له وجب إظهاره مخافة اللبس ففي قولنا: "زيد عمرو ضاربه"، يتبادر إلى الفهم أن الضارب هو عمرو، فإذا قصد المتكلم أن الضارب هو زيد، قال: "زيد عمرو ضاربه هو". أما نحو: "زيد هند ضاربهما" يفهم من ذلك على الرغم من عدم إبراز الضمير؛ ولكن: «من ثوابت النحو العربي الاطراد ومن ثم ظل إبراز الضمير واجبا»³ فيقال: "زيد هند ضاربهما هو" وهذا هو معنى قول ابن مالك:

والمفردُ الجامدُ فارغٌ وإنْ يُشتقُّ فهو ذو ضميرٍ مُستكين⁴

وأبرزنه مطلقاً حيث تلاً ما ليس معناه له محصلاً

1 وهما عند سيبويه: "ما لا يغني أحدهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بداً" ينظر: الكتاب - ج 01 - ص 23.

2 بهاء الدين بن عبد الله بن عقيل: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك - تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد - القاهرة - دار

التراث - د ط - دت - ج 01 - ص 201.

3 تمام حسان: الخلاصة التحوية - ص 106.

4 ابن عقيل: السابق - ج 01 - ص 205، 206.

- ومن قبيل المناسبة المعجمية قول ابن مالك:

ولا يكون اسمُ زمانٍ خبراً عن جثةٍ وإن يُفدَ فأخبراً¹

ومعنى المناسبة المعجمية: "أن يكون الخبر صالحاً لأن يسند إلى المبتدأ"²، فلا يجوز مثلاً أن نقول: "السماء تحتنا" لعدم المناسبة.

- ومن قبيل الذكر والحذف يقول ابن مالك:

وحذف ما يُعلمُ جائزٌ كما تقول: زيدٌ بعد من عندكما؟

وفي جواب كيف زيد؟ قل دنف فزيد استغني عنه إذا عُرِف

وبعد لولا غالباً حذفُ الخبرِ حتم، وفي نصّ يمين إذا استقرّ

وبعد وار عيئتَ مفهوم مع كمثل: كلّ صانع وما صنع

وقبل حال لا يكون خبراً عن الذي خبره قد أُضمِرَا

كضربي العبدَ مسيئاً، وأتم تبيني الحقّ منوطاً بالحكم³

- ومن قبيل التضام في باب المبتدأ والخبر تعدد الخبر للمبتدأ الواحد، يقول ابن مالك:

وأخبروا باثنين أو بأكثرأ عن واحدٍ كههم سراً شعراً⁴

ب- نواسخ الجملة الاسمية:

● كان وأخواتها: تُربط الجملة المنسوخة بـ"كان وأخواتها" بقرائن هي: البنية، التضام، الربط، الإعراب، وفيما يلي ارتباطها بقرينة التضام بإيجاز.

1 المصدر السابق - ج1- ص213.

2 تمام حسان: الخلاصة النحوية- ص106.

3 ابن عقيل: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك - ج1 - ص243، 246.

4 المصدر نفسه - ج1- ص256.

إنّ ممّا يمكن أن يندرج تحت عنوان التضام في نواسخ الجملة الاسمية: الافتقار، الاستغناء، المعاقبة، الحذف، الزيادة.

فـ"كان وأخواتها" قد تكون تامّة فتكتفي بمرفوعها وقد تكون ناقصة فتدخل على المبتدأ والخبر، ومثلها في أخواتها المنقولة جميعاً عدا: فتى وليس وزال؛ الذي مضارعه يزال، فلا تكون إلاّ ناقصة تفتقر إلى منصوبها، وهو المقصود من قول ابن مالك:

ومنع سبقِ خبرٍ ليسِ اصْطَفِي و ذو تمام ما برفعٍ يكتفي

وما سواه ناقصٌ، والتقص في فتى، ليس، زال دائماً قُفي¹

- وقد تأتي زائدة كزيادتها بين المبتدأ والخبر، أو بين الفعل ومرفوعه، أو بين الموصول وصلته أو بين الموصوف وصفته، «وكلّ عنصرين بينهما علاقة تضام»²، نحو "ما كان أحسن زيّداً، ولم يوجد كان أحسن منه"، ومثل قول الشاعر:

فكيف إذا مررتَ بدارِ قومٍ وجيرانٍ لنا كانوا كرام³.

وإلى هذا يشير ابن مالك:

وقد تُزادُ كان في حشو: كما كان أصحَّ علمَ ما تقدّما⁴

- وقد تحذف مع اسمها ويبقى خبرها بعد إن الشرطية، وبعد لو، وبعد أن، إذا تعاقبتها "ما" نحو: "أمّا أنت غنيّاً فأنا غير فقير"، يقول ابن مالك:

ويحذفونها ويبقون الخبر وبعد "إن" و"لو" كثيراً إذا اشتهر⁵

1 المصدر السابق - ج 01 - ص 277.

2 تمام حسان: الخلاصة النحوية - ص 116.

3 البيت للفرزدق من قصيدة له يمدح فيها هشام بن عبد الملك، وقيل يمدح سليمان بن عبد الملك. ينظر: الدويان - شرح وتحقيق: كرم البستاني - بيروت - دار صادر - دط - دت - مج 02 - ص 290. وينظر: شرح ابن عقيل - ج 01 - ص 289.

4 شرح ابن عقيل - ج 01 - ص 288.

5 المصدر نفسه - ج 01 - ص 293.

وبعد "أن" تعويض ما عنها ارتكب كمثل "أما أنت برأ" فاقسرب¹

• "ما" و"لات" و"إن" التافية المشبهات بـ"ليس":
أوّلا(ما):

- "ما" تدخل على الأسماء والأفعال.

- قد يتصل خبرها بالباء الزائدة، نحو قول ابن مالك:

وبعد ما وليس جرّ البا الخبر وبعد لا ونفي كان قد يجز²

- العطف على خبرها: ما زيد قائما بل قاعد، ما زيد قائما ولا قاعد.

ثانيا (لا):

- قد يتصل خبرها بالباء الزائدة.

- لا تدخل إلا على نكرة، نحو قول ابن مالك:

في التكرات أعملت كليس(لا) وقد تلي (لات) و(إن) ذا العملا³

ثالثا(لات):

- تدخل مع "ما" في معنى الحين.

- لا يذكر اسمها وخبرها معا، والأكثر حذف الاسم، يقول ابن مالك:

وما لـ"لات" في سوى حين عمل وحذف ذي الرفع فشا، والعكس قل⁴

- خبرها منصوب دائما.

رابعا (إن):

- تدخل على النكرة والمعرفة.

1 المصدر السابق - ج01- ص 296.

2 المصدر نفسه - ج01- ص 308.

3 المصدر نفسه - ج01- ص 313.

4 المصدر نفسه - ج01- ص 312.

• إنَّ وأخواتها:

إنَّ هذه الأدوات من حيث التضام «تدخل الجملة الاسمية فينتصب المبتدأ في حيزها ويسمى اسمها، ويرتفع الخبر، إما مقترنا باللام المزحلقة من موقع الابتداء أو غير مقترن بها»¹، وهو ما عناه ابن مالك بقوله:

لـ إنَّ، أن، ليت، لكن، لعلْ كأن، عكس ما لكان من عمل²

• لا التافية للجنس: أحكامها من حيث التضام على هذا النحو:

أولاً: تدخل على النكرتين، يقول ابن مالك:

عمل "إنَّ" اجعل للا في نكره مفردةً جاءئك أو مكرّره³

ثانياً: تقع في جملة بسيطة أو ذات تابع، يقول ابن مالك:

وركّب المفرد فاتحاً كلا حول ولا قوّة، والثاني اجعل⁴

ثالثاً: تسبقها الهمزة جوازا نحو: ألا خوف عندك من الموت، يقول ابن مالك:

وأعطِ "لا" مع همزة استفهام ما تستحقّ دون الاستفهام⁵

رابعاً: تنفي الجنس.

02. التضام في الجملة الفعلية:

يتكوّن تركيب الجملة الفعلية من فعل وفاعل، أو فعل ونائب فاعل، فأما الفعل والفاعل

من حيث التضام فتوضّحه هذه النقاط:

1 تمام حسان: الخلاصة التحوية - ص 119.

2 ابن عقيل: شرح ابن عقيل - ج 01 - ص 344.

3 المصدر نفسه - ج 02 - ص 05.

4 المصدر نفسه - ج 02 - ص 07.

5 المصدر نفسه - ج 02 - ص 20.

- الفعل مفتقر إلى فاعل كما في قول ابن مالك:

الفاعل الذي في مرفوعي (أتى زيد) (منيرا وجهه) (نعم الفتى)¹

ومن تضام الفعل والفاعل قول ابن مالك:

والأصل في الفاعل أن يتصلا والأصل في المفعول أن ينفصلا²

مشيرا بذلك إلى: « تضام الفعل والفاعل، وعدم وجود علاقة تضام بين الفعل والمفعول به »³.

- قد يحذف الفعل إذا دلّ عليه دليل، وإلى هذا أشار ابن مالك:

ويرفعُ الفاعلَ فعلًا أضميرا كمثل: زيدٌ في جواب من قرأ⁴

- الفعل يستتر في صورة الفعل ولا يحذف.

أما نائب الفاعل من حيث التضام فإنّ الفعل المبني للمفعول مفتقر إلى نائب الفاعل يعقب

الفاعل بعد تحول بنية الفعل، ولا يجوز تعدده.

يقول ابن مالك: ينوبُ مفعولٌ به عن فاعلٍ فيما له كنيلاً خيراً نائلاً⁵

03. ظنّ وأخواتها: يقول ابن مالك:

انصب بفعل القلب جزأى ابتداءً أعني: رأى، خال، علمتُ، وجدأ

ظنّ، حسبتُ، وزعمتُ، مع عدّ حجا، درى، وجعل اللذ كاعتقد

وهب، تعلم، والتي كصيرا أيضا بها انصب مبتدأ وخبيرا⁶

1 المصدر السابق - ج 02 - ص 74.

2 المصدر نفسه - ج 02 - ص 96.

3 مصطفى الساقى: أقسام الكلام العربي - ص 11.

4 شرح ابن عقيل - ج 02 - ص 85.

5 المصدر نفسه - ج 02 - ص 111.

6 المصدر نفسه - ج 02 - ص 28.

فظنّ وأخواتها من حيث التضام يدخل كلّ واحد من هذه الأفعال على المبتدأ والخبر فينتصبان بعده بالمفعولية نحو: ظننتُ زيدا حاضرا، ويصدق ذلك على كلّ تصرّفات الأفعال إلا: هب، وتعلم، لأنّهما يلزمان صيغة الأمر دائما.

04. التعدّد في جملة التعت: فمن حيث التضام إنّه «إذا اتّضح المعنى دون التعت أو المنعوت وقام الدليل على حذف أحدهما جاز الحذف نحو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِيَةٍ غَضَبًا﴾¹، أي: غير معيبة»². نحو قول ابن مالك:

وما من المنعوت والنعته عُقِلَ يجوز حذفه وفي التعت يقل³

05. التوكيد:

أولاً: من حيث التضام أنّه يتمّ التوكيد بواسطة التكرار، نحو: من جهل قدره فهو مهين مهين. وهذا معنى قول ابن مالك:

وما من التوكيد لفظي يجي مكرّراً كقولك: (ادرُجي ادرُجي)⁴

ثانياً: لا يجوز تكرار الضمير المتصل إلاّ متصلاً بما صاحبه نحو: والله إنك إنك لفاضل، وهو ما يريدُه ابن مالك بقوله:

ولا تُعدّ لفظ ضمير متّصل إلاّ مع اللفظ الذي به وُصِل⁵

1 سورة الكهف - الآية 79.

2 تمام حسان : الخلاصة النحوية - ص 177.

3 ابن عقيل: شرح ابن عقيل - ج 03 - ص 205.

4 المصدر نفسه - ج 03 - ص 213.

5 المصدر نفسه - ج 03 - ص 215.

ثالثاً: وكذلك حال الحرف المؤكّد إذا تكرر¹ نحو المثال السابق، ونحو: في الدار في الدار زيد،
ونحو قول ابن مالك:

كذا الحروف غير ما تحصّلا به جواب: كنعم، وكبلى²

06. التضام في الحروف:

لقد درس القدماء من النّحاة الحرف على أنّه جزء قاصر لا يمكن إلاّ أن يكون تابعا للجزأين من الكلام³، وكلّ من تعرّض للحرف لم يخرج عن المعنى العامّ لهذه التعريفات، سوى ابن مالك الذي يعرفه «بالعلامة الصّفرية أو العدمية من حيث إنّها ما سوى الاسم والفعل»⁴، حين قوله:

سواهما الحرف كهل وفي ولم فعل مضارع يلي لمركبشم⁵

فتعريف النّحاة يعني أنّ معنى الحرف متوقّف على تضامّه مع كلمة أو كلمات آخر بعكس الأسماء والأفعال التي تدلّ على معان في نفسها، أمّا مترلته في السياق النحوي فإنّ دوره في الجملة يقوم به تضام الجملة وترباطها وتقوية الضعيف من أجزائها، بخاصّة حروف الجر التي تعتبر واسطة بين عامل الجملة والاسم المجرور كما يجعلهما «يرتبطان» بمحور الجملة ارتباطاً معنوياً، كارتباط الجزء بكلّه أو الفرع بأصله⁶ باعتبار أنّ السياق النحوي «وحده هو الذي يضيفي على الحرف

1 تمام حسان: الخلاصة النحوية - ص 177.

2 ابن عقيل: شرح ابن عقيل - ج 03 - ص 215.

3 يعرفه سيويوه بأنّه "ما جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل" ينظر: الكتاب - ج 01 - ص 12. ويعرفه السهيلي بأنّه "ما دلّ على معنى في غيره، وليس يفهم العرب من الحرف ذلك المعنى". ينظر: نتائج الفكر في النحو - تحقيق: محمّد البنا - دار الرّياض للنشر - ط 02 - 1404هـ / 1984م. والحرف ما جاء لمعنى ليس فيه معنى اسم ولا فعل نحو: هل، وبلى، وقد، وثمّ. ينظر: كتاب: الجمل في النحو: عبد القاهر الجرجاني - شرح ودراسة وتحقيق: يسري عبد الغني عبد الله - بيروت - دار الكتب العلمية - ط 01 - 1410هـ / 1990م - ص 41. فتعريف السهيلي يعني أنّ معنى الحرف متوقّف على تضامّه مع كلمة أو كلمات آخر، بعكس الأسماء والأفعال التي علة معان في نفسها.

4 الصادق خليفة راشد: دور الحرف في أداء معنى الجملة - ص 36.

5 شرح ابن عقيل - ج 01 - ص 23.

6 رمون طحان: الألسنية العربية - ج 02 - ص 27. أحذا عن: الصادق خليفة راشد: السابق - ص 41.

قيمة خاصّة فيما يتعلّق بالجمل»¹، وباعتبار أنّ الحروف بخاصّة حروف الجرّ إنّما يجيء لتوصيل بعض الأفعال إلى الأسماء² وفقاً لما يراه بعض النحاة.

- نماذج من التضامّ في الحروف:

بين الجار والمجرور: إنّ الفصل بين حرف الجرّ والاسم المجرور في الاختيار غير جائز، أمّا في الاضطراب فقد يفصل بظرف أو مجرور كقولك: إنّ عمرا لا خير في اليوم عمرو. وقولك: ليس إلى منها النزول سبيل، وتُدّر الفصل بينهما في النثر بالقسم نحو: اشتريته بوالله درهم³.

07. الجرّ بعد الحرف: من الحروف ما هو أصلي وما هو منقول، فمن الأصلية مفرد ومركب ومن المنقول ما هو عن الظرفية وما هو منقول عن الفعلية.

الأصلية: المفردة: الباء، التاء، الكاف، الواو، اللام. والمركبة: من، عن، في، كي، ربّ، إلى، على، متى، حتّى.

المنقولة: عن الظرفية: مذ، منذ. وعن الفعلية: حاشا، عدا، خلا.

أمّا من حيث تضامّها فإنّ هذه الحروف مختصّة بالأسماء، ولبعضها اختصاصات فرعية كما يلي:

أ- (كي): تدخل على "ما" الاستفهامية فيقال: كيمه، بهاء السكّت، وعلى المضارع المنصوب بعد "أن" المضمر، أي: على مصدر مؤوّل من "أن" الناصبة والفعل، نحو: ذاكرتُ كي أنجح⁴.

ب- (مذ، منذ، حتّى، الكاف، الواو، ربّ، التاء): تدخل على الظاهر دون الضمير إلاّ "مذ" و"منذ" فقد يدخلان على الفعل أو يُرفع ما بعدهما.

1 المرجع السابق - ص 43.

2 عبد القاهر الجرجاني: المتصد في شرح الإيضاح - مج 01 - ص 274، 275.

3 شرح الأشموني على ألفية ابن مالك في النحو والصرف - ج 01 - ص 178.

4 تمام حسان: الخلاصة النحوية - ص 169.

ج- (ربّ): تختصّ بالدخول على الأسماء، إلى جانب أنّه يختصّ بالدخول على النكرة فقط يقول سيبويه: «ربّ لا يقع بعدها إلا نكرة»¹ وهو حرف جرّ يجزّ ما بعده.

08. (ما): لها حالات متعدّدة، فقد تكون اسماً في: الاستفهامية- الشرطية- التعجّبية- الموصولة وقد تكون حرفاً إذا كانت نافية أو مصدرية مؤوَّلة مع الفعل، وقد تقع في حالات أخر زائدة وهذه الزائدة تنقسم إلى قسمين؛ كافة عن العمل، وغير كافة²، فالكافة هي التي تدخل على الجمل الواقعة تحت تأثير عامل من العوامل فتفصل بينه وبين ما عمل فيه، وتلغي أثره الإعرابي، وهي كافة عن عمل الرفع، وعن عمل النصب وعن عمل الجرّ.

• الكافة عن عمل الرفع: وهي المتصلة بالأفعال الثلاثة (قلّ، كثر، طال) فإذا ما تضامت (ما) مع أحد الأفعال أدّى هذا التضام وحقق هدفاً يتمثّل في: «صلاحية الفعل بأن يليه ما لم يكن يليه بدونها»³، فلا يُعقل أن يقال: «قلّ يرح اللبيب».

وأصل البيت:

قلّما يرح اللبيب إلى ما يورث المجد داعياً أو مجيئاً⁴

• الكافة عن عمل النصب والرفع: وهي التي تتصلّ بآن وأخواتها، وشواهد هذا كثيرة في القرآن الكريم، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾⁵، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ

1 الكتاب- ج01- ص 427.

2 الصادق خليفة راشد: دور الحرف في أداء معنى الجملة- ص 53.

3 المرجع نفسه - ص 53.

4 البيت بلا نسبة، ينظر المعجم المفصّل في شواهد اللّغة العربية: إميل بديع يعقوب- مج01- ص 08. وينظر: معني اللّبيب

عن كتب الأعراب: جمال الدين بن هشام- تحقيق: صلاح عبد العزيز علي السيد- القاهرة- دار السلام- ط01-

1424هـ/2004م- ص413. و. جلال الدين السيوطي: شرح شواهد المعني- دُيّل بتصحيحات وتعليقات العلامة الشيخ

محمد محمود بن التلاميذ التركي الشنقيطي- بيروت- منشورات دار مكتبة الحياة- د ط - د ت - ص 717.

5 سورة التغابن - الآية 15.

إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴿١﴾¹، فقد أدى هذا التضام إلى عدم إعمال هذه الأحرف.

• الكافة عن عمل الجرّ: وهي كثيرا ما تدخل على (رُبّ) فتكفّها عن العمل وتمنع تأثيرها في الجملة وتسمح بوقوع الفعل بعد (رُبّ) نحو قوله تعالى: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾²، فحين تضامها مع (رُبّ) تفقد خصائصها، فتلغي عملها وهو الجرّ، وتلغي اختصاصها بالأسماء وتؤهلها لمضامة الفعل³، وإمكانية وقوع الحرف بعدها بعدما كانت تختصّ بالدخول على التكرة، نحو: ربّما الرجل ذاهب.

وأمثلة تضامها مع بعض الحروف وسلبها عملها كثيرة، فمنها تضامها مع (الكاف) فتكفّها عن العمل غالبا، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُهُ كَمَا هَدَيْتَكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾⁴، على أنه وردت ما الكافة عاملة وهي في حالة تضام مع (الكاف) كما في قول الشاعر:

ونصر مولانا ونعلم أنه كما الناس مجروم عليه وجارم⁵

- أو مضامتها لـ "الباء" مع بقاء عملها نحو قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾⁶ وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفِّرْتُمْ بِعَايَتِ اللَّهِ وَقَتَلْتُمُ الْآنبيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾¹.

1 سورة النساء - الآية 171.

2 سورة الحجر - الآية 02.

3 ابن هشام: معني اللبيب عن كتب الأعراب - ص 185.

4 سورة البقرة - الآية 198. وينظر تخريجها في: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك - قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه: إميل بديع يعقوب - بيروت - دار الكتب العلمية - 1418هـ/1997م - ج 01 - ص 356.

5 الشاعر عمرو بن براق، ينظر: معني اللبيب عن كتب الأعراب: السابق - ص 92. و شرح شواهد المعني: السيوطي - الصفحات: 202، 778، 500، 150. وشرح ابن عقيل: السابق - ج 01 - ص 362.

6 سورة آ عمران - الآية 159. وينظر تخريجها في شرح ابن عقيل - ج 01 - ص 360.

- وتدخل بعد (بعد) التي هي ظرف مبهم يلزم الظرفية دائما نحو قول الشاعر:
أعلاقة أمّ الوليد بعدما أفنان رأسك كالثغام المخلص²

- وتدخل بعد (حيث) وهذا التضام يحدث تركيبا غير الترتيب الأول الذي كانت فيه ظرف مكان-حيث- مضافة غالبا إلى الجملة، وهذا التغيير من جانبيين³:
* من حيث النوع: ينقلها من الاسمية إلى الحرفية وتصير مع (ما) بمتزلة إنما وكأئنا.

* من حيث الوظيفة: يؤدي تضامها وظيفة حرف الشرط، وتصبح جازمة لفعلين نحو قول الشاعر:

حيثما تستقيم يقدر لك الله نجاحا في غابر الأزمان⁴.

- وتدخل بعد (إذ) و (إذا) ظرف زمان للوقت الماضي، لازم الإضافة إلى جملة، وتتصل به (ما) فتنتقله من الظرفية إلى الحرفية، ويصبح حرف شرط جازما لفعلين، يقول العباس بن مرداس:
إذ ما أتيت على الرسول فقل له حقا عليك إذا اطمأن المجلس⁵

والصحيح ما ذهب إليه سيوييه لخواص الحرفية فيها ولا دليل على القطع باسميتها⁶، إذ يقول: " (إذ) تكون حرف شرط إذا قرنت بـ (ما) "⁷، إلى جانب العديد من الأمثلة الخاصة بتضام الحروف في الدرس النحوي؛ ومن هذه الأمثلة ما جاء في "الكتاب":

1 سورة النساء - الآية 155.

2 الشاعر هو المرار بن منقذ الأسدي. الثغام: شجر إذا يس صار أيضا، والمخلص من النبات المختلط ربطه بيابسه. ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني: أحمد بن عبد النور المالقي - تحقيق: أحمد محمد الخراط - دمشق - مطبوعات مجمع اللغة العربية - د ط - 1394 هـ - 314. وينظر: مغني اللبيب ص 419، وشرح وشواهد المغني ص 722.

3 الصادق خليفة راشد: دور الحرف في أداء معنى الجملة - ص 57.

4 ينظر: مغني اللبيب - ص 391. وشرح شواهد المغني - ص 181.

5 العباس بن مرداس في غزوة حنين. المجلس: الناس. اطمأن: سكت. ينظر: الديوان - 72. والشاهد فيه المجازة بـ "إذ" بدليل وقوع الفاء في الجواب - ينظر: الكتاب: سيوييه - ج 03 - ص 57.

6 المالقي: رصف المباني - ص 60.

7 الكتاب - ج 03 - ص 56، 57.

❖ اعلم أنك لا تفصل بين (لا) و النفي، كما لا تفصل بين (من) وبين ما تعمل فيه، وكذلك أنه لا يجوز أن تقول: «لا فيها رجل»، كما أنه لا يجوز لك أن تقول: «في الذي جوابه: "هل من فيها رجل؟"»¹.

❖ الحروف العوامل: لا يجوز لك أن تفصل بينهما وبين الأفعال بشيء، فلا تقول: «لم زيدٌ يأتك»²، وهي الحروف العوامل في الأفعال الجازمة.

❖ لا يجوز الفصل بين الجار والمجرور بمشوّ³.

❖ باب الحروف التي لا يليها إلا الفعل⁴ نحو:

- قد: لا يفصل بينها وبين الفعل بغيره.

- سوف: لأنها بمتلة السين، وإثما هي إثبات لقولك: «لن يفعل».

- ربّما، وقلّما وأشباههما، وجعلوا (رُبّ) مع (ما) بمتلة كلمة واحدة.

- إلاً، لولا، ألا: ألزموهنّ (لا) وجعلوا كلّ واحدة مع (لا) بمتلة حرف واحد.

التضام في كتاب "المقتصد في شرح الإيضاح" لعبد القاهر الجرجاني:

نودّ في هذا المبحث أن نستقري بعض حالات التضام من خلال بعض المسائل التحوية في كتاب المقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجاني وهذه المسائل المنتقاة هي: المدح والذم والتعجب والظرف والأداة.

1- المدح والذم: لقد اصطلح "تمام حسان" على التّوع من الأساليب «الخوالف»⁵

وهو مبنى تقسيمي جديد، ويعني ما كان أسمائه التّحاة أفعال المدح والذمّ وأسماء الأفعال وصيغة التعجب وأسماء الأصوات، أما من حيث التّضام فإنه خالفة المدح والذم تفتقر إلى أنّها تتضام مع

1 المصدر السابق - ج 02 - ص 276.

2 المصدر نفسه - ج 03 - ص 110.

3 المصدر نفسه - ج 03 - ص 110.113.

4 المصدر نفسه - ج 03 - ص 114.

5 اللغة العربية معناها ومبناها - ص 113.

فاعل يستغرق الجنس، وهذا الفاعل إما أن يكون ظاهراً باللام أو معرفاً به كقولك: نعم الرجل زيد ونعم غلام الرجل زيد، وإما مضمراً مميّزاً بنكرة نحو: نعم رجلاً زيداً¹.

إن المخصوص بهذا المدح والذم ينبغي أن يكون مجانساً لفاعل نعم وبفس فلا تقول: نعم الرجل فرس زيد.

2- التعجب: هذا النوع أحد الأنواع الأربعة التي قسّمها "تمام حسان" للحوالف²، فمن حيث تضامها فإن هذه الخالفة تفتقر إلى الأداة (ما) في صيغة التعجب (ما أفعل) وإلى الباء في صيغة (أفعل بـ) وأن لكل من الأداة مع هذه الصيغة رتبته المحفوظة فلا تتقدم الخالفة على الضميمة أو الأداة في الصيغة الأولى، كما لا تتقدم الضميمة (الباء) على الباء في الصيغة الأخرى³.

3- الظرف: الظروف كما يراها تمام حسان: «مبان تقع في المبيئات غير المتصرفة بأقرب الوشائج بالضمائر والأدوات»⁴ ويمكن التمثيل لها على النحو الآتي:

ضرف زمان: إذ، إذا، لما، أيان، متى.

ضرف مكان: أين، أتى، حيث.

والظرف «عنصر أساس أيضاً من عناصر التشكيل الصرفي ... بيد أن التحاة - ومنهم عبد القادر الجرجاني - توسّعوا في الظروف كثيراً فعاملوا بعض الأبنية الأخرى معاملة الظروف فسأدت هذه الأبنية داخل سياقها أو تشكيلها اللغوي، وظائف الظروف واستوعبت من وجهة الترتيب كل خصائصها ومميزاتها»⁵، أما من حيث التضام فإنها ذات افتقار متأصل إلى الإضافة، ولكنها تختلف فيما بينها فـ (إذ، ولما، وحيث) لا تتضام إلا مع الجمل على عكس (متى) و(أيان) و(أين)

1 المقتصد في شرح الإيضاح - مج 01 - ص 363. وينظر: الجمل في النحو - ص 63.

2 يقسم تمام حسان الحوالف إلى أربعة أنواع: خالفة الإخالة (اسم الفعل) - خالفة الصّوت (اسم الصّوت) - وخالفة التعجب - خالفة المدح والذم. ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها - ص 113...115.

3 المقتصد في شرح الإيضاح: مج 01 - ص 373. و الجمل في النحو - ص 64.

4 اللغة العربية معناها ومبناها - ص 119.

5 تامر سلوم: نظرية اللغة والجمال في التقدي العربي - سوريا - اللاذقية - دار الحوار للنشر - ط 01 - 1983م - ص 85.

و(أئي) التي تتضام مع المفرد والجملة، ومن تضامها أيضاً أن بعضها يختص بتضامه مع الأداة (ما) نحو: (متى، أين، حيث، وإذا وإذا).

يقول عبد القاهر الجرجاني: «والظروف التي يجازى بها: (متى، أين، وأئي وأي، وحيثما، وإذا ما) ولا يجازى بحيث، ولا بـ (إذ) حتى يلزم كل منهما (ما). تقول: متى تأتته آتته - هذا الكلام لأبي علي الفارسي - وأن هذه الظروف بمثالة السماء التي تقدم ذكرها في القصد في الجحازة بهذا الاختصار والإنجاز. فإن قلت: أين تقم أقم اشتمل على سائر الأمكنة»¹.

4- الأداة: وهي من عناصر التشكيل الصّرفي أيضاً، وهي «مبنى تقسمي يؤدي معنى التعليق»، لأن التعليق بالأداة من أشهر أنواع التعليق في اللغة العربية الفصحى، فمن حيث النظام فإنها «تفتقر إلى التضام مع بنائها أو تركيبها، لأنها لا تنتقل بأنفسها وتقتضي دائماً شيئاً ينضم إليها وبعبارة أوضح: لأنه لا معنى لها خارج التركيب أو السياق»² فأدوات الجمل تفتقر إلى ذكر الجملة بعدها³ وأدوات العطف لا تفيد إلا مع المعطوف والجر إلا مع المحرور... ولا تظهر مزاياها وخصائصها من غير أن ينظر إلى مكانها في التركيب وإلى موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض⁵.

ومن تضام هذه الأدوات الذي يميزها عن الضمائر والظروف أنها أشدّ تأصلاً في حقل لرتبة منهما، فأدوات الجمل مثلاً لها الصدارة في تركيبها، ومرتبة حروف الجر دائماً التقدم على محرور⁶ وحروف العطف على المعطوف⁷ وحرف القسم على المقسم به وواو المعية على المفعول مفعول معه وواو الحال على جملة الحال.

- 1 المقتصد في شرح الإيضاح - مج 02 - ص 1111. وينظر: نظرية اللغة والجمال في النقد العربي: تامر سلّوم - ص 86.
- 2 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها - ص 123.
- 3 تامر سلّوم: السابق - ص 91.
- 4 عبد القاهر: المقتصد في شرح الإيضاح - مج 1 - ص 671.
- 5 المصدر نفسه - مج 2 - ص 822.
- 6 المصدر نفسه - مج 2 - ص 937.
- 7 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها - ص 107.

التضام في التقسيم السباعي للكلم:

ستناول التضام في تقسيم تمام حسان السباعي الجديد للكلم سالكين في ذلك طريقته التي عرض بها تقسيمه هذا في (كتابه: اللغة العربية معناها ومبناها).

1. الفعل من حيث التضام:

تختص الأفعال بقبول التضام مع (قد، سوف، ولم ولن ولا الناهية)، وتلك الأدوات التي قرّر النحاة أنها مختصة بالدخول على الأفعال كأدوات المستعملة في الجمل الشرطية، وحين يكون الفعل لازماً يصل إلى ضميمته بواسطة حرف خاص من حروف الجر يحدّد معنى السياق على أن الأفعال تشارك الصفات في أن كلاً منهما يضاف المرفوعات والمنصوبات في حالتي الإسناد والتعدي، فمن المعلوم أن لكل فعل فاعلاً، وقد يتعدى الفعل مفعول¹ واحد أو مفعولين أو ثلاثة إذا اقتضى المعنى والسياق .

وتتضام كذلك الأفعال مع حروف الجزم (لما ولا في النهي واللام في الأمر وإن ولو بشرط والجزاء)² وتتضام مع أن ولن وكفي وإذن، ومن ذلك أيضاً تضامها مع مفعولها بواسطة خمرة والتضعيف³.

2. الاسم من حيث التضام:

تتضام الأسماء مع الأدوات النداء⁴ و واو المعية وإلا في الاستثناء وواو القسم، ومن تضامها أيضاً وقوعها دون غيرها من أقسام الكلام مضافاً⁵، وافتقار المبهمات⁶ منها إلى ضميمة

1 مصطفى الساقى: أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة - ص 197.

2 عبد القاهر الجرجاني: المقتصد - مج 2 - ص 1091. والشرط والجزاء عند الجرجاني في باب المجازاة: مج 2 - ص 1095.

3 تامر سلوم: نظرية اللغة والجمال في النقد العربي - ص 76.

4 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها - ص 94. وعبد القاهر الجرجاني: السابق - مج 02 - ص 753.

5 عبد القاهر الجرجاني: السابق - مج 02 - ص 870. وتمام حسان: السابق - ص 94. وتامر سلوم: السابق - مج 01 - ص 66. وعبد القاهر الجرجاني: السابق - مج 02 - ص 870.

6 الأقسام المبهمة تشمل: الأعداد، والموازن، والمكائيل، والجهات، والأوقات، والمقاييس. ينظر: أقسام الكلام العربي - مصطفى الساقى - ص 197.

الإضافة أو التمييز أو الوصف حيث يقول عبد القاهر الجرجاني: «إن الأعداد لما كانت مبهمه كالمقادير افتقرت إلى ما يبينها، والتبيين يكون على ضربين أحدهما أن يكون بالإضافة والثاني أن يكون بالمنصوب»¹، وأما الصفات والضمائر وإن كانت تشارك الأسماء في بعض تضامها فإنها تتميز عنها في الإضافة مع الصفات .. وأن النداء معها لا يكون إلا على تقدير مخاطب أو مشار إليه، أما الصفات بعد النداء فتكون على تقدير موصوف محذوف نحو: يا ضارباً، إذا قصد بها الإيهام والشيوع².

3. الصفة:

وهي صفة الفاعل³ وصفة المفعول والصفة المشبهة⁴ وصيغة المبالغة والتفضيل، ومن تضامها أنها لا تعمل عمل أفعالها إلا إذا كانت نكرة بمعنى الحال أو الاستقبال، وأنها تفتقد في تضامها⁵ هذا إلى اعتمادها على موصوف أو مبتدأ أو ذي حال أو حرف استفهام أو نفي.

تتشارك الأسماء والصفات من حيث التضام في كون الصفات تقبل النداء، وأن تكون مسنداً إليه فاعلاً أو نائب فاعل أو في قبولها التنوين، وأن تكون مضافاً أو مضافاً إليه⁶، وتتشارك مع الأفعال في أن تكون مسنداً، وأن تكون متعدية أو لازمة فتضام المفعول به مباشرة أو بواسطة الحرف، وهذه المشابهة ووقوعها بين الأفعال والأسماء هو ما حدا بتمام حسان أن يجعلها قسماً قائماً بذاته بين أقسام الكلم على حده⁷.

1 المقتصد في شرح الإيضاح - مج 02 - ص 729.

2 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها - ص 94 . وتامر سلوم: نظرية اللغة والجمال في النقد العربي - ص 66 .

3 عبد القاهر الجرجاني: السابق - مج 01 - ص 505.

4 المصدر نفسه - مج 01 - ص 532.

5 تامر سلوم: السابق - ص 70.

6 عبد القاهر الجرجاني: السابق - مج 01 - ص 344 عند حديثه عن نائب الفاعل. وتمام حسان: السابق -

ص 102. وتامر سلوم: السابق - ص 70.

7 تمام حسان: السابق - ص 102. وتامر سلوم: السابق - ص 71.

4. الخالفة:

وهي « كلمات تستعمل في أساليب إفصاحية، أي في الأساليب التي تستعمل للكشف عن موقف انفعالي ما والإفصاح عنه وهي قريبة الشبه بما يسمونه في الإنجليزية exclamation وهذه الكلمات أربعة أنواع: خالفة الإخالة وخالفة الصوت وخالفة التعجب وخالفة المدح والذم»¹.

5. الضمير:

إن للضمائر دوراً مهماً في تماسك الكلمات بعضها ببعض فمن المعلوم « أن الضمائر تمثل عامل ربط اللاحق بالسابق»²، أما من حيث التضام فإنها تضام الأدوات في حالة النداء³ والقسم⁴ والاستفهام والتوكيد وهي تضام كذلك حروف الجر⁵ والعطف⁶ والاستثناء⁷. ومن الأمثلة قولك: (يا هذا) و(والذي نفسي بيده لأدافعن عن وطني) و(أأنت الذي تريد الاستشهاد)⁸، في مثال النداء والقسم على الترتيب، ومن ذلك أيضاً أن الضمائر الموصولة تحتاج إلى تضام الصلة، ويحتاج الضمير إلى ضميمة المرجع وحين يكون الضمير المتصل مضافاً إليه يكون بحاجة إلى ضميمة المضاف⁹.

6. الظرف والأداة:

قد سبق أن وقفنا عند هذين القسمين في المبحث السابق.

1 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها - ص 113. وقد مرّت معنا نماذج تخصّ هذا القسم.

2 هدى عطية عبد الغفار: السجع القرآني، دراسة أسلوبية - مخطوط رسالة ماجستير - جامعة عين شمس - كلية الآداب - القاهرة - 2001م - ص 217.

3 تمام حسان: السابق - ص 113.

4 عبد القاهر الجرجاني: المقتصد في شرح الإيضاح - مج 02 - ص 862.

5 المصدر نفسه - مج 02 - ص 822.

6 المصدر نفسه - مج 02 - ص 937.

7 المصدر نفسه - مج 02 - ص 699.

8 مصطفى الساقى: أقسام الكلام العربي - ص 198.

9 مصطفى الساقى: السابق - ص 198. وتامر سلوم: نظرية اللغة والجمال في النقد العربي - ص 80.

الترخُّص في التضام:

لا مشاحة في أن اللغة أوسع من النحو الذي لا يعدو أن يكون قواعد أنيط بها تنظيم ما يطرد من اللغة لأهما تشمل إلى جانب ذلك المطرد الشاذ والقليل والنادر، والتركيب القرآني «يُسم بحرية اللغة لا بقيود النحو فيتحدى قواعد النحاة عند أمن اللبس، يفعل ذلك لأغراض بيانية معينة فيصل إلى هذه الأغراض دون تضحية بوضوح المعنى .. والقرآن نزل بلساني عربي مبین، لا نحو عربي مبین»¹، وهكذا «امتدت تراكيبه على رحاب اللغة، ولم ينحسب في بوتقة القواعد النحوية، فالقرآن يهيمن على اللغة كلها ما أطرد منها وما لم يطرد»²، وعن مدى سماح اللغة بهذا بهذا الترخُّص يقول عبد اللطيف حماسة: «ينبغي أن يكون واضحا منذ البدء أن ليس المقصود بالترخُّص هو فتح الباب على مصراعيه أمام العبث في علاقات الجملة وقرائنها اعتمادا على فهم المعنى وعدم اللبس»³، ومعنى هذا أن الترخُّص يعدّ في لغة التقدر كسرا للبناء يُؤتى به لغرض معيّن ومعناه أيضا أن اللغة لا تترخُّص في قرائن الجملة جزافا، بل يكون ذلك في موقعا خاصة يمكن التسج على منوالها أو - على تعبير النحاة - يقاس عليها⁴، ولقد أُسْمِيَ تمام حسان الترخُّص بسدل التوسّع الذي شاع في اصطلاح النحاة⁵، والترخُّص والتوسّع أو الضّرورة عند قيام الضّرورة أو لزوم ما لا يلزم هي ما يُعرف في الموروث البلاغي، وهو ما يقابل مصطلح "الانحراف" في البلاغة الجديدة، وقد عبّرت عنه البلاغة العربية بالعدول، ميد أن اختيار القدماء تعبير العدول أدقّ من لفظة الانحراف التي «تشمل إيجاءات إضافية لا تتناسب مع طبيعة اللغة الشعرية، ولعلّ أهمّ هذه الإيجاءات هو إيجاء الخطأ، هو أمر غير وارد في تعبير العدول»⁶، أمّا اختيار البحث للترخُّص فمرّجه إلى ما تحمله الكلمة من معنى ضمني يحتم وجود سبب أو آخر وراء الخروج عن القاعدة الأصلية في النظام اللغوي، وآته - الترخُّص - ما عُرف باسم الشّدوذ والقلة والتدرة، وطابعه العام

1 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها - ص 227.

2 المرجع نفسه - ص 283.

3 العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث - ص 321.

4 المرجع نفسه - ص 324.

5 تمام حسان: اللغة العربية والحدائنة - مجلّة فصول - مج 04 - ع 03 - 1984م - ص 134.

6 هدى عطية عبد الغفار: السجع القرآني، دراسة أسلوبية - ص 156.

أنه مخالف لقواعد عمل القرائن النحويّة اللفظيّة، ومرتكزه هو المبدأ العام الذي يُسمّى «تضافر القرائن»¹، وفائدة تضافر القرائن ضمان أمن اللبس مع الترخّص في إحدى القرائن إذا لم يتوقّف عليها المعنى. وفيما يلي بعض الأمثلة التي استدلتّ به "تمام حسان" على الترخّص في التضامّ باعتباره قرينة لفظيّة .

● كل ما دلّت عليه قرينة أمكن حذفه.

● ورد إسقاط صلة الموصول في قول الشاعر:

نحن الأولى فاجمع جمو عكّ ثمّ وجههم إلينا²

● ورد حذف المبتدأ من الجملة الحالية في قول الشاعر:

فلمّا خشينا أظافيرهم نجوت وأرهنهم مالكا³

● قد تسقط الضميمة التي بعد الظرف وينون الظرف نحو: حينئذٍ، وقول الشاعر:

فساغ لي الشرابُ وكنت قبلاً أكاد أعلّ الماءَ الفرات⁴

● قد تسقط ضميمة المرجع كما في ضمير الشأن نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

الظالمون﴾⁵.

ولعلّ أوضح مظاهر الترخّص في هذه القرينة قضية الفصل بين المتضامين، كالفصل بين المضاف والمضاف إليه، والتمييز والمميّز، والفصل بين الجار والمجرور، والفصل بين (لم) ومجزومها وبين أداة الشرط وفعل الشرط المجزوم، والفصل بين (لن) ومنصوبها، والفصل بين (كم) ومميزها

1 تمام حسان: المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة - مجلّة فصول - مجلّة التقدي الأدبي - الهيئة المصريّة العامّة

للكتاب - - مج 07 - العددان 03 و 04 - أبريل، سبتمبر - 1987م - ص 28.

2 البيت في الأصل: نحن الأولى جمع جموعك. ينظر: ديوان عبيد بن الأبرص - بيروت - دار صادر - د ط -

1418هـ/1998م - ص 142. وينظر: اللغة العربية معناها مبناها: تمام حسان - ص 239.

3 الشاعر هو عبد الله بن همام السلولي. ينظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك - ج 02 - ص 279.

4 البيت ليزيد بن الصّنعق - ينظر: المعجم المفصل في شواهد اللّغة العربيّة: إميل بديع يعقوب - مج 07 - ص 449. ينظر: اللغة

العربية معناها مبناها: تمام حسان - ص 239.

5 سورة الأنعام - الآية 21 .

والفصل بين حرف العطف والمعطوف، و من هذه الشواهد على الفصل بين المضاف والمضاف إليه قول ذي الرمة: **كَانَ أَصْوَاتٌ مِّنْ إِيغَالِهِنَّ بِنَا** **أَوَاخِرِ الْمَيْسِ أَصْوَاتُ الْفَرَارِيحِ**¹
وقول أبي حية النميري:

كَمَا خُطَّ الْكِتَابُ بِكَفِّ يَوْمًا **يَهُودِيٌّ يُقَارِبُ أَوْ يُزِيلُ**

إن معظم هذه النماذج التي يُفصل فيها بين المضاف والمضاف إليه من الشعر وذلك «لحاجة الشعر في بنائه الفني إلى مرونة وضع الكلمات مع مراعاة انسجامها مع القواعد النحوية»²، وما ينبغي أن نعرفه أن هذا الترخّص ليس ضرباً من البحث في القواعد وإهداراً لها؛ ولكن هذا التضام اللغويّ هو الذي «يسمح ببعض الترخّص في القرائن التي تعمل متعاونة على تماسك الجملة، على أن هذا الترخّص نفسه جزء من النظام اللغوي يُسَمَّحُ به في الموضع المعين لأداء غرض مخصوص»³ وتبقى الدعوة ملحة في الحاجة بنا إلى محاولة الكشف عن أسرار هذا الترخّص ومعرفة دلالاته.

3. صلة التضام بالدراسة النحوية:

ليس من اليسير أن نحاول الرّبط بين الدراسة النحوية وموضوع التضام، وأن نرجع بهذا الأخير إلى دراسات النحاة السابقين لأسباب كثيرة أهمها كثرة المفاهيم وتعدّد الرؤى وتداخل الدراسات، ولعلّ أبرز المخالات التي تقترب من موضوع التضام من هذه الناحية هي قضايا التركيب والدلالة والإعراب.

لقد وجد المتقدمون «أن تصوّر اللغة أو فلسفتها يحتاج إلى تعديل أساسي، ورأوا أن الاهتمام بموضوع تأليف الكلمات وربطها وتنظيمها يكفل توضيح القيم الكامنة في كثير من الشعر»⁴، ورأوا كذلك أن «دراسة الظرف أو الضمير أو الأداة بمعزل عن التركيب أو السياق

1 ديوان ذي الرمة: شرح أحمد الباهلي، رواية أبي العباس ثعلب - تحقيق: عبد القدوس أبي صالح - بيروت - مؤسسة الإيمان - ط01 - 1982م - ص 696.

2 محمّد عبد اللطيف حماسة: العلامة الإعرابية في الجملة بين القدم والحديث - ص 336.

3 المرجع نفسه - ص 237.

4 تامر سلّوم: نظرية اللغة والجمال في النقد العربي - ص 26.

محاولة مشكوك في قيمتها وأنه لا يمكن لأي تحليل أن يفصلها عنه.. واهتموا بأجزاء العبارة الأدبية وما تنطوي عليه من تعريف أو تنكير أو تقديم أو حذف أو فصل ووصل أو تأكيد¹، وإذا ما أريد الاستدلال على هذه القيم وجماليتها فإننا نُلقي عبد القاهر الجرجاني² يلحّ في دراساته على معاني النحو والاهتمام بالتركيب النحوي، وقد راح يقارب بين قوله تعالى: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾³، وبين اشتعل شيب الرأس" أو "اشتعل الشيب في الرأس، ورأى أنّ نشاط الاستعارة الجمالي يجب أن يُتذوّق في ضوء التركيب النحوي المستخدم في تركيبها، ويلحّ على أنّ الاهتمام بمعاني النحو يكفل توضيح فاعلية اللغة والشعر فضلا عن فاعلية الاستعارة⁴، وستكون لنا وقفة إزاء علاقة التضام بمعاني النحو ونظرية النظم في المبحث الخاصّ بالموروث البلاغيّ، على أنّنا نحاول في هذا المبحث أن نخرج من مجال النحو والتركيب اللغوي باعتبار أن دراسة النحو وموضوع التضام ذات خاصية مشتركة بينهما لأن دراسة النحو تفرض علينا ملاحظة العلاقات المتشابهة في الجمل بعضها ببعض⁵، الأمر الذي ينهض به موضوع التضام إذ إنّ التركيب يحمل في تعريفه مفهوم الضمّ⁶.

ومادام الحديث عن التركيب فإنّ: «بناء اللغة ووظيفتها يظللان رهن إدراك خاصية التركيب الذي تقوم عليه، ولذلك تعذر التّفاذ إليها من غير باب علم التركيب أساسا»⁷ وهنا

1 المرجع السابق - ص 26.

2 دلائل الإعجاز: اعتنى به: محمد علي زينو - بيروت - مؤسّسة الرّسالة ناشرون - ط 01 - 1426 هـ / 2005 م - ص 90.

3 سورة مريم - الآية 04.

4 تامر سلوم: نظرية اللغة والجمال في النقد العربي - ص 282.

5 ينظر: اللغة بين المعيارية والوصفية: تمام حسّان - القاهرة - مكتبة الأنجلو المصرية - د ط - 1958 م - ص 158.

6 يقول ابن منظور في مادّة (ركب): "ركب الشيء: وضع بعضه على بعض، وقد تركّب وتراكب. تراكب السحاب:

صار بعضه فوق بعض". لسان العرب - بيروت - دار صادر - ط 06 - 1417 هـ / 1997 م - مج 01 - 423. ووردت

بمعنى أن يتبع شيء شيئا، ويفيد الضم والالتام في نظام واحد، وهو يرد للتراكم ووضع الشيء على الشيء نفسه، فركّب

الشيء إذا ضمّه إلى غيره فصار شيئا واحدا في المنظر، يقال: ركّب الفضّ في الخاتم وركّب السنّان في الرّمح، وركّب الكلمة

أو الجملة. ينظر: المعجم الوسيط - القاهرة - دار المعارف - ط 03 - 1973 م - ج 01 - ص 281.

7 عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية - الدار التونسية للنشر - المؤسّسة الوطنية للكتاب - د ط - أوت

1986 م - ص 149.

يتجلى بوضوح دور التركيب والنظام اللغويين، إذ بناء اللغة وتركيبها وتضام الكلمات يشكّل ما يُسمّى النظام، وهذا النظام منطلقه البنية المتشكّلة كذلك من تضام الحروف والأصوات الكلمات فإذا تعدّدت وصارت بنى يتماسك بعضها إلى بعض تماسكا كلياً، ثم ارتصفت أفقياً وعمودياً في تجاور حيناً، وتراكب حيناً آخر تأسست منضدة متكاثفة لها طواعية الإذعان إلى قوانين علم التصنيف المعرفي، وعندئذ تتحوّل البنى المترابطة إلى نظام¹، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى فإنّ «تجميع عناصر الكلمات المفردة لا بدّ أن يتسم بالتآلف من حيث الصّوت، ومن حيث الدلالة ومن حيث التركيب ليأخذ صورة النّظم المتكامل»²، وإذا كان التركيب على قدر كبير من الأهمية وذا صلة بالتضام فإنّ الأمر نفسه حين يتعلّق بموضوع التضام بموضوع الدلالة، إذ ليس من المعقول أن تضمّ الكلمات والحروف كيفما جاءت وعلى أيّ جهة أردت، وإنّما على أصول ثابتة، وعلى قواعد تملّحها عليك اللغة والنظام مراعيًا في ذلك جانب الدلالة والمعنى والوضوح.

إنّ التحو كفيف بأن يحقّق الهدف النّظمي دون إغفال للجوانب الدلالية، وإنّ غياب التركيب النحوي يؤدّي بالضرورة إلى فقدان الجوانب الدلالية³، ولذلك طالب البيويون مثلاً في حلقتهم اللسانية ببراغ أن تتأزر كل من العناصر الصّوتية والصّرفية والمعجمية والنحوية جنباً إلى جنب على نحو متبادل لتكوين بنية⁴، وهنا يلاحظ أنّ هذا الأمر ليس مقصوراً على النحو العربي؛ بل إنّ النظام النحوي عند الغربيين لا يركّز على مستوى واحد من العبارة، ولكن أيضاً على المدلول⁵، بل ويجب أن نكون واعين للمركبات الدلالية والصّوتية المتصلة اتصالاً وثيقاً بالإطار التركيبي لتكون معه كلاً متكاملًا⁶، وهذا المعنى الدلالي لا يكون بتضافر وظيفة البنى التحليلي -

1 المرجع السابق - ص 33.

2 محمّد عبد المطلب: النحو بين عبد القاهر وتشومسكي - مجلّة فصول، مجلّة النّقد الأدبي - الهيئة المصريّة العامّة للكتاب - مج 05- العدد 01 - أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر - 1984م - ص 30.

3: المرجع نفسه - ص 29.

4 ينظر: في عالم النصّ والقراءة: عبد الجليل مرتاض - الجزائر - ديوان المطبوعات الجامعية - د ط - 2007م - ص 218.

Jean-Louis CHISS; Jacques FILLIOLET; Dominique MAINGUENEAU: 5
LINGUISTIQUE FRANCAISE; initiation a la problématique
structurale.syntaxe.communication.poétique - CLASSIQUES HACHETTE.PARIS .P
158.

Ibidem - p 108. 6

النظام الصوتي والصرفي والتحويلي - ومعنى الكلمة المفردة؛ المعنى المعجمي، مضافا إليهما القرينة الاجتماعية - المقام - أي إن «كل ذلك يصنع المعنى الدلالي»¹، وفي الجهة المقابلة للمعنى الدلالي هناك المعنى الوظيفي الذي نود أن نقرنه بالتضام من حيث إن التضام استلزام عنصر نحوي تحليلي لعنصر نحوي آخر سواء على مستوى كلمة واحدة وكلمة واحدة أخرى أو كلمة واحدة وكلمات أخرى، ولتبيين الفرق بين الإعراب والمعنى الدلالي يضرب تمام حسان هنا مثلا بيت شعر:

قاصّ التجينُ شِحاله بتريسه فإخى فلم يستف بطاسية البرن²

حيث يمكن أن تعرب النص بنجاح تام، فهو مستوف للمطالب الشكلية حتى من الناحية العروضية، إذ البيت من بحر الكامل، إلى غير ذلك من النصوص التي يستدل بها في أكثر من موضع³، وإن كان غرضنا حين استدللنا بهذا المثال غير ما يقصده تمام حسان، فهو يقصد الوصول إلى عملية التعليق انطلاقا من وضوح المعنى الوظيفي دون الحاجة إلى المعجم أو المقام، أما مقصودنا فعلاقة تضام الحروف والكلمات بالمعجم والدلالة والإعراب، خلافا ربّما لمن يرى⁴ أن تلك الحركات الإعرابية لم تكن تحدّد المعاني بين أذهان العرب، وأنها لا تعدو أن تكون حركات يحتاج إليها في كثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها ببعض، لأنه إذا كان الإعراب لا يفيد معنى فكيف تميّز نحو قولنا: لا تكذب تدخل النار، فإنه يلزم رفع (تدخل)، ولا يصحّ جزمه، لأن المعنى سيكون: إن لا تكذب تدخل النار، وهو لا يصحّ⁵، وهنا تظهر علاقة الإعراب بالمعنى وهنا يظهر مدى استلزام المعنى الوظيفي والدلالي معا في عملية التضام، وأنه لا يمكن بحال من الأحوال الاعتماد على أحد هذه العوامل دون الآخر أو الفصل بينها والاكتفاء ببعضها، فعملية التضام

1 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها - ص 112.

2 المرجع نفسه - ص 183.

3 على سبيل المثال له نصّ مطوّل على هذه الشاكلة يقول في بعض منه: "إن الذي يرى خواطر التاريخ المقبل، وما تنطوي عليه قماريل التزغات الدقيقة، لابد أن تبهره أحلام الواقعية التي تمتد على روافد التاريخ، ولقد كان الانسان في كل ناحية من نواحي الوشائج الفارحة في التطور العاطفي قائما بالقسط بين التية والطوية في تعامله مع الآخرين..." ينظر كتابه: الأصول - ص 322.

4 يرى إبراهيم أنيس أن الحركات الإعرابية ليس لها مدلول. ينظر كتابه: أسرار اللغة - ص 237.

5 فاضل صالح السامرّائي: الجملة العربية والمعنى - ص 34.

تتطلبها جميعاً دون استثناء، كما يبيّن الكفوي علاقة التركيب بكلّ من مصطلحي التأليف والترتيب، يقول: «التركيب ضمّ الأشياء المؤتلفة كانت أولاً مرتبة أو لا، فالمركب أعمّ من المؤلف والمرتب مطلقاً»¹، وقد جاء في كتاب التعريفات أن «التركيب جمع الحروف البسيطة ونظمها لتكون كلمة»².

ولا يخرج معنى المقابل الإنجليزي للتركيب وهو كلمة structure عما تقرّر لها لغة في العربية، إذ إن لفظ structure مشتقّ من الفعل اللاتيني ، ويفيد تراسك trask أن التركيب «بمجموعة العلاقات الأفقية syntagmatic relation التي تحمل بين عناصر جملة أو جزء فرعي لها، وبتعبير آخر هو الطريقة التي توضع فيها هذه العناصر من أجل صياغة الجملة أو جزء منها»³ وهو علم قائم بذاته يتأسّس في نظرنا على معرفة العلاقات بين الوحدات المكونة للقول باعتبار معانيها⁴، وليس مرادنا أن نبرز دور الدراسات التي أبدتها النحاة في وقت مبكر ومقارنتها لما استُحدث من نظريات جديدة إذ أصبح التركيب في الدراسة الألسنية يختصّ بدراسة بنية الجملة وتركيبتها وتحديد نوعية العلاقات النّاطمة لها⁵، أو دراسة علاقات النّظام اللّغوي، وإنما محاولة الرّبط بين مفهوم التضامّ من جهة ودراسة العلاقات بين الوحدات التركيبية للجملة مثلاً ليتبيّن من خلالها فهم تشكّل هذه الوحدات في بنية متواصلة ومتماسكة نحويّاً ودلاليّاً.

علاقة التضامّ ببعض القرائن الأخرى:

يمكن أن تتضح هذه العلاقة فيما يكون بين الإسناد والتضام من جهة، وبين الرتبة والتضام من جهة أخرى، لأن الإسناد قرينة معنوية مهمّة ودراسته «في الأساليب العربية وأنماط الجملة

1 كتاب الكلّيات - ص 288. أخذنا عن: محمد عبد العزيز عبد الدّائم: النظرية اللغوية في التراث العربي - ص 288.

2 الشريف الجرجاني: التعريفات - ص 60.

3 المرجع نفسه - ص 254.

4 سعدي الزبير: العلاقات التركيبية في القرآن الكريم، دراسة وظيفية - مخطوط رسالة دكتوراه دولة - جامعة الجزائر - معهد اللغة العربية وآدابها - 1410هـ / 1989م - ص 46.

5 أحمد غرس الله: الجملة الفعلية البسيطة - 35. أخذنا عن: لحسن بلشير: التركيب وعلاقته بالنحو - مجلّة المصطلح - جامعة تلمسان مختر: تحليلية إحصائية في العلوم الانسانية - ع 01 - مارس 2002م. - ص 215.

السائدة في التعبير اللغوي الفصيح من شأنها أن تميّط اللثام عن أسرار التركيب وأسس البيان»¹ إذ الإسناد في عرف النحاة عبارة عن ضمّ إحدى الكلمتين إلى الأخرى على وجه الإفادة التامة، وفي اللّغة إضافة الشّيء إلى الشّيء²، وإذا كان التضام يحمل معاني الاستلزام والجمع والارتباط فإنّ الإسناد من حيث المصطلح كذلك يقصد منه الرّبط الدلالي بين أجزاء الجملة الذي يجعلها كلاماً مفيداً يؤدّي معنى، وهو يقوم على أمرين متلازمين يساند أحدهما الآخر؛ التركيب اللغوي، القائمة الدلالية منه، وهو عند أهل البلاغة «ضمّ كلمة إلى أخرى، على وجه يفيد بثبوت إحداها في الأخرى أو نفيها عنها»³، وهنا تتجلّى العلاقة بينهما ناهيك عن المصطلحات المستعملة نفسها من ضمّ، واستلزام، ونفي، وقد مرّت معنا في أكثر من مرّة، فكون الإسناد قرينة يعني أنّ له علاقة مع التضام بطريقة أو أخرى دون الرجوع به إلى مجاله النحوي الذي يبحث في المسند والمسند إليه والعلاقة بينهما فذاك بحث على حده.

فعلاقة قرينة الرتبة بقرينة التضام إذا ما حاولنا إيجادها فنحن ملزمون بالنظر إلى المحور الأفقي لدراسة اللّغة لأنّه يرتبط بعلاقات أجزاء التركيب بعضها ببعض الذي يشمل فيما يشمل رتبة الكلمة⁴، وبالنظر أيضاً إلى بعض النصوص النحوية كقول ابن الأنباري: «والاسم لا تتقدّم صلته عليه، ولا يفرق بينها وبينه»⁵، ولعلّ هذه العلاقة تتضح إذا اتبعنا التّماذج التي مثّل بها في التضام بين الموصول وصلته، و التّوكيد والمؤكّد، والتّمييز عن الفعل، وهو من قبيل ما يُعرف بالرتبة المحفوظة، ومنه أيضاً تقدّم حرف الجر على المجرور، والمضاف على المضاف إليه، والفعل

1 مبروك زيد الخير: العلاقات الإسنادية في القرآن الكريم وأثرها في البلاغة والإعراب - كلىة الآداب - جامعة الجزائر - 2008/2007م - ص أ من المقدّمة.

2 عدنان بن ذريل: اللّغة و الأسلوب - مراجعة وتقديم: حسن حميد - الأردن - مجدولاي للنشر والتوزيع - ط02-1427هـ / 2006م - ص 218.

3 الشريف الجرجاني: التعريفات - ص 27.

4 تمام حسان: المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة - مجلّة فصول ، مجلّة النّقد الأدبي - مج 07 - ع 04/03 - ص 23.

5 الإنصاف في مسائل الخلاف - ج01 - ص 174.

على الفاعل، في مقابل الرتب غير المحفوظة كرتبة المبتدأ والخبر، والفاعل والمفعول به، والمفعول به والفعل¹.

ولقد تنبّه نحائنا إلى ملاحظة « دور الرتبة في الجملة ولكنهم لم يعالجوها في مبحث مستقل؛ بل توزعت على جميع أبواب النحو، ولعلّ هذا التوزيع يسبّب تضافر القرائن»². ولا بأس أن نستعرض أهمّ الفروق التي تفصل بين قرينتي الرتبة والتضام:

- في حالة التضام ندرس حالة واحدة فقط، وهي هل يمكن أن تتضام الكلمة (س) مع الكلمة (ص)، أمّا في الترتيب فإننا ندرس أحوالا أخرى هي: ما مدى إمكانية أن تأتي (ص) قبل (س) وهل هذه الإمكانية جائزة أم واجبة؟.

- إنّ التضام دائما يكون بين كلمتين متتابعين، أمّا الترتيب فقد يكون بين كلمتين متتابعين أو متباعدين³.

وهو ما حوّل لنا أن نبحث في العلاقة بين هذه القرينة وقرينة التضام، لأنّهما من أبرز التي أولاهما النحاة القدامى اهتماما كبيرا باعتبارها مؤشرا أسلوبيا ووسيلة إبداع، وتقليب عبارة واستجلاب معنى أدبي⁴، بخاصة في التركيب القرآني.

التضام والمنهج الشكلي:

لم يهمل النحو العربي الجانب الشكلي قديما، فقد أولى به اهتماما إلى جانب المعنى لأننا «نجد كثيرا من الأوصاف التي تعتمد على الشكل إلى جانب تلك المعتمدة على المعنى غير أنّه جعل المعنى أساسا للتصنيف، أمّا الشكل فهو فرع على المعنى»⁵، وعلى الرغم من اعتماد النحو معيار الشكل فإنّ هذا المنهج التحليلي الشكلي للغة لا يصلح أن يطبّق على القرآن، إذ «لكلّ

1 اللغة العربية معناها ومبناها - ص 207.

2 عبد اللطيف حماسة: العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث - ص 314.

3 جلال شمس الدين: الأنماط الشكلية لكلام العرب، نظرية وتطبيقا، دراسة بنيوية - ج 01 - ص 117.

4 تمام حسان: البيان في روائع القرآن - ص 91.

5 جلال شمس الدين: السابق - ج 01 - ص 30.

مستوى لغوي نُظّمه وأنساقه»¹، أمّا التّماذج الماثوثة في كتب التّحو والمعتمدة أحيانا هذه المعايير الشّكلية فإنّنا نجدّها على هذا التّحو:

- المبتدأ اسم مرفوع يقع في أوّل الجملة غالبا وخيره إذا كان مفردا عادة ما يأتي بعده مرفوعا.
- لا يتغيّر موضع المبتدأ بالنسبة للخبر إلّا بشروط.
- الفاعل مرفوع رتبته بعد الفعل ولا يتقدّم إلّا بشروط.
- الابتداء أن يقع الاسم في أوّل الكلام وهو وضع شكلي²، إلى غير ذلك من الأمثلة.
- ولا نعدم أن نجد كبار النّحاة يعتمدون معيار التّضام، وهو معيار شكليّ في تحديد بعض المسائل النّحويّة وتصنيفها، فابن مالك مثلا ينحو منحى شكليا يقتصر عليه في تقسيم الكلم حيث يقول في تحديد الاسم مبتعدا عن فكريّ الحدث والذّات المعتمدتين على المعنى إذ يقول:

بالجرّ والتّنوين والنّدا وألّ ومسنديّ للاسم تمييز حصل³

وفي تحديد الفعل يقول:

بتا فعلتَ وأتتَ ويا افعليّ ونون أقبلنّ فعل ينجلي⁴

فأنت ترى أنّه استعمل هذه الخاصيّة لتحديد أقسام الكلم وهو معيار شكليّ.

والأمر نفسه حين استعمل هذا المقياس في تحديد الحرف حين قال:

سواهما الحرف كهل وفي ولم فعل مضارع يلي لتركبشم⁵

فالأسماء تقبل مثلا تضام ياء النّداء إليها، أمّا الأفعال المضارعة فيمكن مثلا تمييزها بقبولها التّضام مع (لم) التي تسبقها، وبهذا تبين أن ابن مالك اتّخذ التّضام وهو معيار شكليّ وسيلة من

1 المرجع السابق - ج01 - ص 22.

2 المرجع نفسه - ج01 - ص 30.

3 ينظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك - تحقيق محمد محي الدين - ج01 - ص 16.

4 المصدر نفسه - ج01 - ص 22.

5 المصدر نفسه - ج01 - ص 23.

وسائل الكشف عن أقسام الكلام، والاعتماد نفسه كذلك اتخذها ابن هشام في تعريف الاسم إذ يقول: «الاسم ما يقبل أل أو التداء أو الإسناد إليه»¹، على الرغم من اهتمامه الشديد بالمعنى في تقسيم الكلم، إذ يقول: «ودليل الحصر أن المعاني ثلاثة؛ ذات وحدث ورابطة للحدث بالذات»² وقد حدّد أقسام الكلم مصرّحاً أن: «الكلمة جنس تحته هذه الأنواع الثلاثة لا غير - اسم وفعل وحرف - أجمع على ذلك من يُعتدّ بقوله»³، فهو يعتمد معيار التضام في تحديد الاسم وهو معيار شكلي، وكذا في تعريف المضارع إذ يقول: «علامات المضارع أن يقبل دخول (لم) كقولك: لم يقم، لم يقعد، ولا بدّ من كونه مفتوحاً من أحرف (نأيت) نحو: نقوم، تقوم، أقوم، يقوم»⁴ وهو معيار شكلي. ومن الذين اعتمدوا معيار الشكل في تحديد الاسم والفعل والحرف عبد القاهر الجرجاني، إذ يعرف الاسم بقوله: «الاسم ما دخله التنوين، نحو: زيد، والألف واللام نحو الرجل وحرف الجرّ نحو: بزيد، وجاز الإخبار عنه نحو: خرج زيد»⁵، ويعرّف الفعل بقوله: «ما دخله: قد، والسين، وسوف نحو: قد قام، وتاء الضمير وواوه وألفه، وتاء التأنيث الساكنة نحو: نعمت، بسّست، وحرف الجزم نحو: لم يضرب»⁶، ويعرّف الحرف جامعاً بين الشكل والمعنى بقوله: «الحرف ما جاء لمعنى ليس فيه معنى اسم ولا فعل نحو: هل، وبل، وقد، وثم»⁷. وكلّها وسائل شكلية تعبّر عن علاقات تضام هذه الأقسام مع باقي الجزاء النحويّة والكلمات والحروف.

1 شرح شذور الذهب - مراجعة وتصحيح: يوسف الشيخ محمد البقاعي - ص 29.

2 المصدر نفسه - ص 27.

3 خالف هذا لإجماع جعفر بن صابر حيث زاد قسماً رابعاً سمّاه الخالفة، أي خليفة الفعل ونائبة في معناه وعمله وزمنه وأراد به اسم الفعل نحو: هيات، وأف، وصه، غير أنّ ابن هشام لم يأخذ برأيه، لأنّ اسم الفعل يدخل في باب الاسم. ينظر:

المصدر نفسه - ص 26.

4 المصدر نفسه - ص 29.

5 كتاب الحمل في النحو - ص 37.

6 المصدر نفسه - ص 38.

7 المصدر نفسه - ص 41.

ثالثاً: التضام في الموروث البلاغي.

لقد بات من الضروري العودة بالدراسات إلى أصولها الأولى وإنجازات السابقين ومصادرهم ولا يمكن لنا بحال من الأحوال أن نضرب صفحاً عن تلك الدراسات، وما يكون لنا حقاً « إذا كنا من أولي الألباب أن نلوي رؤوسنا إعراضاً عن كنوز هي عمر هذه الأمة ومركب جوهرية من مركبات ثقافتنا »¹، ولقد آثرنا من هذا الإنجاز الضخم التراثين التحوي والبلاغي لما لهما من صلة بينهما وبين موضوع التضام، ولقد تطرقنا إلى قرينة التضام وموقعها في الدراسات التحوية التي انبثقت منها مفهوماً واستعمالاً². مروراً إلى الدرس البلاغي في محاولة الرجوع بالتضام إلى الجذور البلاغية وإبراز أهم المحطات الكبرى المتعلقة بالتضام في مباحث البلاغة وتاريخها، وقبل أن نشرع في هذه المباحث رأينا من الواجب ذكر اجتهادات التراث البلاغي وأسبقته وبعض القضايا بإيجاز.

إن الدرس البلاغي يشمل اجتهادات كثيرة، وعودتنا للتنقيب في التراث « ليس من باب التعصب له، ولا من جراء تأثير وهم التأصيل الذي نازع الكثيرين »³ ولكنها ستكون مرجعية تراثية نستند عليها في أثناء كلامنا عن علم المعاني والتضام، ونظرية النظم ومباحث التضام ثم لسانيات النص والتضام فيما بعد.

منذ نزول القرآن بدأت الدراسات تزداد يوماً بعد يوم، فكانت هناك إرهابات تلوح في أفق الثقافة العربية في شكل أسئلة وأجوبة « أغلبها تتعلق بمعنى الكلمة المفردة والبيت المفرد ثم بدأت تنمو هذه الدراسة شيئاً فشيئاً حتى تجمعت في التفاسير وبعض الشروح الشعرية وشروح الأحاديث »⁴ ثم تكاثفت الدراسات وتوسعت حتى انتقلت إلى دراسة التصوص من الداخل

1 سعد عبد العزيز مصلوح: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، آفاق جديدة - جامعة الكويت - فهرس مكتبة الكويت الوطنية - ط1 - 01 - 2003م - ص 224.

2 إذ لا تعدو أن تكون دراسة تمام حسان لقرينة التضام دراسة نحوية خالصة.

3 - رياض مسيس: لسانيات النص، حول بعض المفاهيم والمرجعيات والأبعاد. مجلة الميرز - بوزريعة - الجزائر - عدد خاص بالملتقى الوطني حول "دور اللسانيات في العلوم الانسانية" فيفري 2002م - ص 162.

4 سالم علوي: الدرس التحوي بين التنظير والتطبيق - مجلة اللغة والأدب - جامعة الجزائر - ع05 - 1994م - ص 167.

وملاحظة العلاقات المؤلفة للكلام، وعلاقة الكلم بعضها ببعض، فتشكّلت هناك عوامل ضرورية لدراسة النص¹، منها معرفة التأليف الذي يقتضي التناسق والتجانس والتلاحم كما تتلاحم اللحمة في التسيج ومعرفة معاني النحو وتوحيه و الربط بين النص وقائله، إلى غير ذلك من العوامل التي يمكن ملاحظتها في هذا الشأن، وقد كانت الدراسات القرآنية ملاذ العلماء وراحتهم، والموارد العذب الزلال الذي تصدق فيه هذه الدراسات المرتبطة بإعجازه على اختلاف وجوهه سواء تعلّق الأمر بالمفردة القرآنية أو الجملة وما تجده فيها من التلاؤم والاتساق الكاملين بين كلماتها، وبين تلاحق حركاتها، فالجملة في القرآن تجدها: « مؤلفة من كلمات وحروف وأصوات يستريح لتألفها السمع والصوت والتطق، وسيكون من تضامها نسق جميل ينطوي على إيقاع رائع ما كان لو نقصت من الجملة كلمة أو حرف أو اختلف ترتيب²»، وإنّ هذا التلاؤم والتآلف والاتساق والتلاحق بين المفردات والجملة ليعدّ الرّحم الواصلة بين مباحث البلاغة وموضوع التضام الذي تنوّعه هذه العناصر: منزلة التضام بين وجوه الإعجاز - التضام في ضوء نظرية السننم - أثر السياق في عملية التضام - التضام والمصطلح البلاغي.

• مدخل عام على علم المعاني:

المعاني جمع معنى، ومعنى كل شيء كما في لسان العرب: «محتته وحاله التي يصير إليها أمره. والمعنى والتفسير والتأويل واحد... وعنيّتُ بالقول كذا: أردت. ومعنى كلّ كلام: مقصده»³، والمعنى أيضا: «الصورة الذهنية من حيث إنّه وُضع بإزائها اللفظ، أي من حيث تقصد من اللفظ، وذلك إنّما يكون بالوضع»⁴. أمّا معنى علم المعاني فإنّه ذلك العلم الذي يُعرف به أحوال اللفظ العربي التي يُطابق بها مقتضى الحال، والمراد بأحوال اللفظ ما يشمل أحوال الجمل وأجزائها، فأحوال الجمل كالفصل والوصل والإيجاز والإطناب والمساواة، وأحوال أجزائها أحوال

1 المرجع السابق - ص 169.

2 محمود السّيد شيخون: الإعجاز في نظم القرآن - القاهرة - مكتبة الكليات الأزهرية - ط 01 - 1398هـ / 1978م - ص 86.

3 ابن منظور: مادة (عنا) - مج 15 - ص 122.

4 محمّد علي التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون - تقديم وإشراف ومرجعة: رفيق العجم - تحقيق: علي دحروج - لبنان - مكتبة ناشرون - ج 02 - ص 1600.

المسند إليه والمسند والإسناد، ومتعلقات الفعل، وهو من المصطلحات التي أطلقها البلاغيون على المباحث البلاغية المتعلقة بالجملة وما يطرأ عليها من تقديم وتأخير، أو ذكر وحذف، أو تعريف وتنكير، أو قصد وخلافه، أو فصل ووصل، أو إيجاز وإطناب ومساواة¹، وقد كان الأوائل يكتفون باستعمال كلمة المعاني مضافة إلى القرآن أو إلى الشعر فيقولون: معاني القرآن أو معاني الشعر، ولم يستقر علم المعاني إلا بعد فترة من الزمن كان قد ظهر فيها ما يعرف بمعاني النحو والنظم، ويُعدّ كتاب "الأدب الصغير" أول مصدر يشير إلى تسمية الصياغة والنظم التي صيغت فيما بعد في نظريات أعقبتها دراسات قائمة بذاتها.

يقول ابن المقفع (ت142هـ) موازيا بين نظم الكلام ونظم القلائد والفصوص: «فليعلم الواصفون أن أحدهم وإن أحسن وأبلغ ليس زائدا على أن يكون كصاحب فصوص وجدّ ياقوتاً وزبرجدا ومرجانا فنظمه قلائد وسموطا وأكالييل ووضع كلّ فصّ موضعه، وجمع إلى كلّ لون شبهه وما يزيده بذلك حسنا فسُمّي بذلك صائغا رقيقا، وكصاغة الذهب والفضة صنعوا منها ما يعجب الناس من الحلّي والآنية»²، ليتلخّص مفهوم النظم في كون الألفاظ موضوعة في مواضعها، حاله حال الصائغ الواضع كلّ فصّ موضعه الأليق به، أمّا عبارة (معاني النحو) التي وردت في المناظرة التي جرت بين أبي سعيد السّيرافي (ت368هـ) وأبي بشر متىّ بن يونس في مجلس الوزير أبي الفتح، والتي رواها أبو حيان التوحّيدي (ت414هـ)³؛ فلعلّها أقدم الإشارات إلى هذا المصطلح بمعناه القريب من البلاغة، في حين يُعدّ ابن فارس (ت395هـ) أول من أطلق عبارة "معاني الكلام"⁴ على مباحث الخير والإنشاء التي أصبحت أهمّ أبواب علم المعاني.

1 أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها - لبنان - مكتبة ناشرون - ط02 - 1996م - ص 631.

2 الأدب الصغير - بيروت - دار صادر - د ط - د ت - ص 12، 13.

3 مما جاء عنه: "فقال أبو سعيد: معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقنضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقدم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنّب الخطأ من ذلك". ينظر كتابه: الإمتاع والمؤانسة - صحّحه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين، أحمد الزين - بيروت - د ط - د ت - ج01 - ص 121.

4 ينظر كتابه: الصّاحي في فقه اللّغة العربية وسنن العرب في كلامها - علّق عليه ووضع حواشيه: أحمد حسن بسج - بيروت - دار الكتب العلمية - ط01 - 1418هـ/1997م - ص 133.

كلّ هذه المعاني والتسميات والملاحظات العابرة شكّلت نظرية قائمة بذاتها كان لعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) الفضل في التّهوض بها في حلّة جديدة ودراسة على حده بخاصّة في كتابه "دلائل الإعجاز"، على أن علم المعاني الذي سّماه عبد القاهر معاني التحو أو التّظّم لم تُشر إليه كتب البلاغة الأولى، ولم يُستعمل بمعناه المعروف إلاّ على يد السّكاكي (ت626هـ) إذ يقول: «علم المعاني هو تتبّع تراكيب الكلام في الإفادة وما يتّصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره»¹، وليس القول بأنّ السّكاكي صاحب الفضل في ظهور المصطلح يعني إهدار تلك القرون السّابقة له، بل إنّ مباحث علم المعاني لم تُعدّ يوماً من الدّراسة، بل كانت "مدرجة ضمن الحلقات الموسوعية لعلمائنا القدامى"²، والإشكالية التي تبقى محلّ نقاش هي أنّنا لا نتمكّن من عقد صلة بين معاني التّضام وعلم المعاني دون التّطرّق إلى قضايا التّظّم والإعجاز أو دون الاستشهاد بالتّصوص البلاغية من التراث العربي، فإذا تمكّنا من استقراء هذه التّصوص آن لنا التّطرّق إلى مباحث التّضام انطلاقاً من مباحث علم المعاني في الجانب التّطبيقي في الفصلين الثاني والثالث من هذه الدّراسة.

• منزلة التّضام بين وجوه الإعجاز:

نبغي في هذا الفصل أن نقف عند بعض إشارات العلماء في إعجاز القرآن من جهة البلاغة، ومحاولة إثبات أنّ التّضام بمفهومه الشامل الذي يعني الجمع والتأليف والربط والتعليق جزء لا يتجزأ من خصائص أسلوب القرآن ومميّزات مفرداته وتراكيبه.

وهذه الوقفة سوف لا تكاد تتجاوز ظلال قضية الإعجاز، إذ ليس من مهمّة البحث في التّشأة والتّطور والمذاهب والآراء، فلعلّ بحثاً آخر ينهض بها، وإنّما البحث منوط أن يميّط اللّثام عن بعض التّصوص المتعلّقة بأسلوب القرآن بتضام حروفه وكلماته وجمله.

1 كتاب مفتاح العلوم - بيروت - دار الكتب العلمية - د ط - د ت - ص 70.

2 محمّد حسين علي الصّغير: علم المعاني بين الأصل النحوي والموروث البلاغي - بغداد - وزارة الثقافة والإعلام - ط01 - 1989م - ص 50. ومن هؤلاء العلماء الفراء، أبو عبيدة، الجاحظ، القاضي الجرجاني، الرماني، الخطابي، العسكري.. وستكون لنا وقفة عند هؤلاء العلماء في مباحث مقبلة.

إن مسألة إعجاز القرآن ووجوهه شغلت كثيرا من العلماء منذ فجر الإسلام، وتعددت رؤاهم لها، وتشعبت أفكارهم فتنوعت الدراسات وتوسّعوا فيها على قدر تنوّع مناحي نظرهم فحصرها بعضهم في أربعة وجوه وبعضهم في عشرة أو أقلّ أو أكثر¹، ومهما حاولنا أن نخرج برأي في قضية الإعجاز ومعرفة كنهه فإنّ محاولتنا لاشكّ ستبوء بالفشل لأنّ للبلاغة « وجوهاً مثلثة ربّما تيسّرت إمّاطة اللّثام عنها لتجلّى عليك أمّا نفس وجه الإعجاز فلا »². ولكن على الرّغم من ذلك فإنّ وجه الإعجاز الذي يخدم هذا الموضوع هو كونه معجزا في ألفاظه وأسلوبه وأن الحرف الواحد منه في موضعه من الإعجاز الذي لا يغيى عنه غيره في تماسك الكلمة، والكلمة في موضعها من الإعجاز في تماسك الجملة، والجملة في موضعها من الإعجاز في تماسك الآية، وهو معجز في بيانه ونظمه³، وقد أردنا قضية الإعجاز أوّلا قبل كلّ قضية بلاغية لها علاقة بموضوع التضام بسبب أنّ «الدراسات السّاعية إلى بيان الإعجاز القرآني - كانت - سببا مباشرا في تطوّر الدّرس البلاغي ونضج مباحثه المختلفة إذ يرجع الفضل في وضع كثير من الأسس التي قامت عليها

1 يذكر القاضي عياض (ت544هـ) أن القرآن معجز من أربعة وجوه: "حسن تأليفه، صورة نظمه العجيب، الإخبار عن المغيبات، إخباره عن القرون السالفة". ينظر: الشّفا بتعريف حقوق المصطفى - خرّج أحاديثه: أحمد بن أحمد محمد بن يحيى المعروف بالشّمّني - القاهرة - دار ابن المهيم - ط01 - 1427هـ/2006م - ص 237 وما بعدها. ويجعل القرطبي (ت671هـ) الإعجاز من عشرة وجوه. ينظر تفسيره: الجامع لأحكام القرآن - بيروت - دار إحياء التراث العربي - 1405هـ/1985م - ج01 - ص 71، 75. ويذهب السكاكي إلى أنّ وجوه الإعجاز أربعة ثمّ أضاف وجها آخر خامسا رآه أحسنها، فقال: "هذه أقول أربعة يحمّسها ما يجده أصحاب الدّوق أنّ وجه الإعجاز هو أمر من جنس الفصاحة والبلاغة ولا طريق إلى هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العلمين؛ المعاني والبيان" ينظر: كتاب مفتاح العلوم - ص 243. لمعرفة وجوه الأعجاز كذلك ينظر كتاب: البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي (ت794هـ) - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة - مكتبة دار التراث - ط03 - 1404هـ/1984م - ج02 - ص 93. وينظر: الإتيقان في علوم القرآن: جلال الدّين السيوطي (ت911هـ) - عناية خالد العطار - بيروت - دار الفكر - ط01 - 1423هـ/2003م - ج02 - ص 467، 469. ومن المحدثين الذين كتبوا في وجوه الإعجاز: محمّد عبد: تفسير القرآن الكريم (النار) - مصر - مطبعة المنار حيث جعل الإعجاز من سبعة وجوه. أمّا عبد العظيم الزرقاني فيجعل الإعجاز من أربعة عشر وجها. ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن - دار إحياء الكتب العربية - عيسى الباي وشركاه - ط03 - د - ج02 - ص 228.

2 السكاكي: السابق - ص 196.

3 متاع القطن: مباحث في علوم القرآن - القاهرة - مكتبة وهبة - ط10 - 1417هـ/1997م - ص 254.

الدراسات البلاغية بعد ذلك»¹، ولئن كان التضام بوصفه قرينة لفظية من القرائن النحوية فإنه في جانب الدرس البلاغي لا يعني ما يعنيه في جانبه النحوي، وكنا قد أشرنا في مقدّمة البحث أن الدراسة في جانبها البلاغي ستنحو منحى غير الذي كانت عليه.

يورد القاضي عياض نصّا نستشفّ منه ذلك الرّبط والتضام الذي يحصل بين كلمات القرآن وحروفه عند حديثه عن قصص القرآن وأخباره، يقول: «ثمّ هو في سرد القصص الطّوال وأخبار القرون السّوالف التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام ويذهب ماء البيان آيةً لتأمّله من ربط الكلام بعضه ببعض، والتّام سرده وتناصف وجوهه كقصّة يوسف على طولها»، فإذا كان الفصحاء يعجزون عن الكلام ويحبّون أثناء عرض القصص والأخبار وسرد بعضها إلى بعض فإنّ القرآن لم يتّصف بما يوصفون به البتّة، ولك أن ترى حسن ارتباط بعضه ببعض وضمّ بعض كلمه إلى بعض، وهذا هو حال القرآن وديده في كلّ تركيب منه، وإنّ روابط الألفاظ والمعاني من الحروف والصّيغ، ثمّ طريقة النّسق والسّرد في الجملة ووجه الحذف والإيجاز في القرآن «على أمّته وليس فيه اضطراب أو التواء، ولا يجوز فيه عذر ولا تسويغ وهو منه بحيث يدعو بعضه إلى بعض ويريد بعضه بعضا، ممّا ينفي التّصنّع والتّكلّف والمحاولة»²، وما أمر هذه العبارة الأخيرة عن مفهوم قرينة التضام عند تمام حسان ببعيد؛ فكلاهما استدعاء كلمة لأخرى استلزاما وتواردًا، تفصح عنه كلمتا: يدعو، ويريد. فمن الأولى الاستدعاء ومن الأخرى التوارد، وزاد الرّافعي أن قال: «مما ينفي عنه التّصنّع والتّكلّف والمحاولة» فلم يدع مجالاً للشكّ في شيء، وأنّ القرآن انفرد نظمه عن كلام العرب بروح التّركيب إذ تراه ينظر إلى نظم الكلمة وتأليفها، ثمّ إلى تأليف هذا النّظم، فمن ههنا يتعلّق بعضه على بعض، وخرج في معنى تلك الرّوح صفة واحدة؛ هي صفة إعجازه في جملة التّركيب³. وقد رأينا قبلا علاقة التّركيب اللّغوي بمعاني التضام في جانبها النحوي، وهاهي تلتقي مع النّظم والتأليف في الاحتمالات نفسها حتّى يصعب الفصل بينها وتمييز بعضها عن بعض، وأنّ

1 كما الدّين المرسي وأحمد المصري: دراسات في الإعجاز القرآني - الإسكندرية - دار الوفاء - ط01 - 2007م - ص 16.

2 مصطفى صادق الرّافعي: إعجاز القرآن والبلاغة العربية - القاهرة - مؤسسة المختار - ط01 - 1423هـ / 2003م - ص 203.

3 المرجع نفسه - ص 191.

جهات التضام التي رأيناها في القواعد النحوية بين الحروف والكلمات والجمل لتكرّر في سرّ إعجاز القرآن بالتّظم بدءاً من الحروف وأصواتها إلى الكلمة وحروفها إلى الجمل وكلماتها.

وهكذا كاع القوم أن يأتوا بمثل هذا النّظم والتأليف وأن الانسان: « يطمع أن يخرج له ديوان كامل التّقسيم والترتيب، جيّد التّسيق، مترابط متماسك في جملة وتفصيله كلمة وحرفاً حرفاً، فذلك أمنية لا يظفر المرء منها إلا بعكس ما تمّنى¹».

• التضام في ضوء نظرية التّظم:

الجذور البلاغية لمادّة (ضمم) ومعانيها:

ارتبطت مادّة (ضمم) بموضوع البلاغة وإعجاز القرآن في كثير من نصوص اللّغويين القدامى²، دالة على معاني الجمع والتأليف³، ولعلّ ارتباطها بالوجه الذي له يقع التفاضل في فصاحة الكلام من أقدم تلك النصوص وأبرزها، يقول القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت415هـ) في بيان هذا: « اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات، وإنما تظهر في الكلام في الضّم على طريقة مخصوصة، ولا بدّ مع الضّم من أن يكون لكلّ كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصّفة بأن تكون بالمواضع التي تتناول الضّم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع⁴، فما تكاد تنهي النّصّ حتى تجزّم أن أكثر الكلمة تردّداً فيه كلمة (ضمّ) والتي تلتقي في أكثر من معنى مع ما يدلّ عليه التضام من جمع وائتلاف وتماسك والتمام بين الكلمات، فمزيّة الفصاحة - على اختلاف مفاهيمها عند البلاغيين - ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمعنى الضّم والتضام، وبهذا التضام تظهر وتبيّن بخلاف ما إذا بقيت فرادى معزول بعضها عن بعض، وقد

1 محمد عبد الله دراز: الثبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن - الكويت - دار القلم - د ط - 1957م - ص 153.

2 ليس من مهمّة البحث تتبّع هذه المادّة اللّغوية تاريخياً، وإنما الاكتفاء ببعض الإشارات العابرة والاستعمالات الوفيرة لجملة من العلماء أمثال القاضي عبد الجبار وعبد القاهر الجرجاني وأضرابهما..

3 من ذلك ما قاله أبو هلال العسكري: "وحسن الرّصف أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكّن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التّقدم والتأخير والحذف والزيادة إلاّ حذفاً لا يفسد الكلام ولا يعمي المعنى، ويضمّ كلّ لفظة منها إلى شكلها وتضاف إلى لفقها". ينظر: كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر - بيروت - دار الكتب العلمية - 1409هـ/1989م - ص 179.

4 المغني في أبواب التوحيد والعدل - قوّم نصّه: أمين الخولي - القاهرة - مطبعة دار الكتب - ط 01-1380هـ/ 1960م - ج 16 - ص 199.

وازي ابن طباطبا(ت422هـ) بين النسخ والتنظم وجعل كلاهما بمعنى واحد هو ضمّ الكلمات بعضها إلى بعض متّفقة مع معاني النحو أو النظم بمعناه البلاغي، ومتّفقة مع الوزن، أي على البحر المبني¹ عليه الشعّر، و من أطف ما تقرأ عن الضمّ والتضام في القرآن الكريم قول ابن سنان الخفاجي(ت466هـ): «ويكون القرآن في الطبقة العليا لما ضامّ تأليف حروفه من شروط الفصاحة التي التّأليف جزء يسير منها»²، ومن النصوص المبكّرة التي تستعمل الضمّ بمعنى المجاورة والتأليف والرّصف قول عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ) إثر تحليله لهذه الأبيات:

ولما قضينا من مَنَى كلّ حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدّت على دهم المهاري رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيّ الأباطح

يقول الجرجاني: «حتّى إن فضل الحسنة يبقى لتلك اللفظة ولو ذُكرت على الانفراد وأزيلت عن موقعها من نظم الشاعر، ونسجه وتأليفه وترصيفه، وحتّى تكون في ذلك كالجوهرة التي هي - وإن ازدادت حسنا بمصاحبة أخواتها واكتست بمضامّة أترابها - فإنّها إذا جليت للعين فردة، وتركت في الخيط، لم تعدم الفضيلة الذاتيّة والبهجة التي في ذاتها مطوية والشذرة من الذهب تراها بصحبة الجواهر لها في القلادة، واكتنافها لها في عنق الغادة، وصلتها بريق حمرة، والتهاب جوهرها بأنوار تلك الدرر التي تجاورها، ولألاء اللآلئ التي تناظرها وتزداد جمالا في العين..»³، وقد استدلّ غير واحد بهذا النص وغيره من نصوص عبد القاهر، وقارنها بما استُحدث في الدّراسات المعاصرة وربط نظرية عبد القاهر في النّظم بما جدّ في الدّراسات الحديثة⁴، على أن وجهتنا حتّى الآن هي استعمالات قدامى البلاغيين معلني التّضام واحتمالاته.

1 عيار الشعّر: دراسة وتحقيق وتعليق: محمد زغلول سلام - الإسكندرية - منشأة المعارف - ط03 - دت - ص 32.

2 سرّ الفصاحة - بيروت - دار الكتب العلميّة - ط01 - 1402هـ/1982م - ص 100.

3 الأبيات في ملحق ديوان كثير عزة - تحقيق: إحسان عباس - بيروت - دار الثقافة - ط01 - 1971م - ص 525. أسرار

البلاغة - صحّحه وعلّق على حواشيه: السيد محمد رشيد رضا - القاهرة - مكتبة ابن تيمية - د ط - دت - ص 15.

4 لبيان أن مصطلحات المجاورة والنظم والمصاحبة هي ثمرة جهود عبد القاهر ودراسته ينظر: قضايا التّفد الأدبي بين القسم والحديث: محمد زكي العشماوي - بيروت - دار النهضة العربيّة - 1404هـ/1984م - ص 293. وينظر: المرايا المقعّرة،

في هذا السابق نلاحظ استعمالات لمواد لغوية كثيرة مقارنة المفهوم كالتأليف والرّصف والمصاحبة والتضام والتجاور وكلها ذات صلة مباشرة بموضوع التضام في القرآن الذي يعالج تماسك الحروف والكلمات، وتراصّها وتراصفها ومصاحبة بعضها بعضا وتأليفها على وجه هو غاية في الإعجاز، ومن مرادفات مادة (ضمم) التي يستعملها عبد القاهر في الاستدلال على التأليف مادة (نضد) حيث يقول: "الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف ويعمد بها إلى وجه دون وجه من الترتيب والتركيب، فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدّا كيف جاء واتفق وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني، وفيه أفرغ المعنى وأجري وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبنسقه المخصوص أبان المراد نحو أن تقول في (قفا نبك من ذكرى وحبيب ومزل): مزل، قفا، ذكرى، من، نبك، حبيب. أخرجته من كمال البيان إلى محال الهذيان"¹، فقولته نضده ونظامه يعني: ضمّ بعضه إلى بعض متّسعا أو مركوما وقد أجراه في تركيب الكلام تجوّزا²، فأنت ترى كيف أردف التّضد بالنظام وكيف أن الألفاظ لم تكن لتفيد في شيء بعيدا عن التأليف، وأنّ التأليف هو المزيّة في إفادة الألفاظ. ومن المصطلحات البلاغية التي تعني التضام بين الكلمات والجمل مادة لفق في نحو هذا النص: «... وأنّ الأولى لم تلق الثانية في معناها وأنّ السّابقة لم تصلح أن تكون لفقاً للتالية في مؤدّاها»³، وإن كان التّفليق يعدّ من السرقات بحيث يلفق الشاعر بيته من عدّة أبيات لغيره؛ فإنّ مادّته اللّغوية تتصل اتّصالا وثيقا بمعنى التضام، فقولك: لفتت الثوب ألق لفقاً بمعنى أن تضمّ شقّة إلى أخرى فتخطيها، ولفق الشقّتين ضمّ إحداها إلى الأخرى فحاطهما.. وكلاهما لفقان ماداما مضمومتين⁴، فلاحظ المعاني اللّغوية التي تحملها هذه

نحو نظرية نقدية عربية: عبد العزيز حمودة- الكويت- سلسلة عالم المعرفة- العدد 272- مطابع الوطن- 1422هـ/2001م- ص 255. 257.

1 أسرار البلاغة - ص 01، 02 من فاتحة الكتاب.

2 من كلام المحقّق - ص 02. وينظر مادة (نضد) في لسان العرب: ابن منظور: حقّقه وعلّق عليه ووضع حواشيه: أحمد عامر حيدر- راجعه: عبد المنعم خليل إبراهيم- بيروت- منشورات محمد علي بيضون- ط01- 1424هـ/2003م- مج03- ص 519.

3 عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز- ص 51.

4 ابن منظور: لسان العرب - مج10- ص 397.

المادّة واستعمال عبد القاهر له في جانب البلاغة لترى أن معنى لفق مرادف- إن جاز ذلك- لمعنى التضام والجمع والنّظم والتأليف.

وتلتقي معاني الضّم والتضام مع معاني النّظم ورسومه الذي به تنتظم أجزاء الكلام وتلتئم في هذا النص الذي جاء به الخطابي(ت388هـ) لبيان أن النّظم وجه من وجوه إعجاز القرآن حيث يقول: «أما رسوم النّظم فالحاجة إلى الثقافة والحدق فيها أكثر لأنّها لجام الألفاظ وزمام المعاني وبه تنتظم أجزاء الكلام ويلتئم بعضه فتقوم له صورة في النفس يتشكّل بها البيان»¹، وليس قوله: "يلتئم بعضه بعضاً" بعيداً عن كون التضام استلزام كلمة لأخرى حتّى تلتئم وتصبح كالأشياء الواحد بحيث لا يفصل بينهما، فهذا التص على الرّغم من تعريفه لرسوم النّظم وأثرها في الألفاظ والمعاني إلا أن استعماله لكلمة اللّجام والزّمام والالتزام ليوحي بما توحي دلالة التضام نفسها، ولك أن تبحث في دلالات هذه الكلمات لتدرك هذه الملاقاة، وكلّها نصوص تدور في فلك إعجاز القرآن اللّغوي والبلاغي على وجه الخصوص.

وفي باب التأليف والائتلاف يورد صاحب "الطراز" نصّاً طويلاً يجمع فيه بين الائتلاف ومعنى الضّم والملاءة مستدلاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۗ﴾ وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ²، حيث يقول: «..وهكذا حال الضّمّ فإنّه يُحرق كبد الانسان ويؤفد في فؤاده النار، والضحى يحرق جسده الظاهر، فلأجل هذا ضمّ كلّ واحد منهما إلى ما له به تعلق لتحصل المناسبة»³، فلم تجئ الآية: فإنك لا تجوع فيها وتضمّ وإنك لا تعرى ولا تضحى، بل أراد مناسبة أدخل من ذلك فجاء في هذا الصّدّد بكلمتي (ضمّ) و(تعلق) فضمّ كل واحد منهما إلى ما له به تعلق شديد الصّلة بمقولة التضام وعينها، وهو ما يعرب عنه نصّ آخر له: «فالألفاظ الرّائقة بمزلة الدرر واللآلئ وهو علم المعاني، وتأليفها وضمّ بعضها إلى بعض هو علم البيان، ثمّ وضعها في

1 بيان إعجاز القرآن- ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن- حقّقها وعلّق عليها: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام- مصر- دار السلام- د ط- د ت - ص 33.

2 سورة طه - الآيتان 118.119.

3 يحيى بن حمزة العلوي (ت748هـ): الطراز المتضمّن أسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز- تحقيق: عبد الحميد هنداي- بيروت- المكتبة العصرية- ط01- 1423هـ/2002م- ج03- ص 82.

المواضع اللائقة بها عند تأليفها وتركيبها هو علم البديع¹، وهذا النص في بيان علوم البلاغة المشتملة عليها آية من القرآن الكريم² يستعمل فيها كلمة التأليف مردفاً إيّاها بكلمة الضم حتى كأنهما الشيء نفسه.

ومن المعاني البلاغية التي تحملها دلالة الضم والتضام "الإصاق" الذي تجده في تعبير حازم القرطاجني (ت 684هـ) عن القوة التاسعة وفي القسم الخاص بالمباني قائلاً في موضع: «موضع القوة التاسعة: القوة على تحسين وصل الفصول ببعض، والأبيات ببعض، والإصاق بعض الكلام ببعض إلى الوجوه التي تجد النفوس عنها نبوة»³، وقائلاً في موضع آخر عند حديثه عن الوضع اللفظي للكلام وما يجب فيه: «...ومن ذلك وضع اللفظ إزاء اللفظ الذي بين معنييهما تقارباً وتناظر من جهة ما لأحدهما إلى الآخر انتساب، وله به علقة»⁴، فعند استقراء هذين التصيين على اختلاف موضوعيهما تتبين تلك المعاني الوثيقة القربى بمعاني التضام، فما استعمله البلاغيون في الضم والتنظم والتأليف اصطلاحاً على تسميته حازم الإصاق والوصل من جهة والتقارب والتناسب والعلقة من جهة أخرى.

فهل يعني إصاق بعض الكلام ببعض ووصل الفصول بعضها ببعض غير ما يعني التضام من استدعاء كلمة كلمة أخرى على وجه الاستلزام، أم أن التقارب والتناسب والعلقة يعني غير ما يعني التضام بين الكلمات على وجه التوارد المعجمي الذي يبحث في المناسبة المعجمية بين مفردات التعبير كما سبقت الإشارة إليه؟

أضف إلى هذه المعاني التي تحملها مادة (ضمم) طائفة من المصطلحات التقديرية الأخرى تتوارد معها على نحو ما تجده في معاني الرّصف والتّسج والوحدة واتّساق البناء، فكلّها تدور حول ضمّ الشيء بعضه إلى بعض، فالرّصف كما يقول السّجلماسي: «أهل الرّصف عند الجمهور هو

1 المصدر السابق - ج 03 - ص 126، 139.

2 الآية المقصودة هنا قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَتَّزِجُ آبِلَعَى مَاءِكِ وَيَسْمَاءُ أَقْلَعَى وَغِيضَ أَلْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾. [سورة هود - الآية 44].

3 منهاج البلغاء وسراج الأدباء - تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن حوجة - تونس - د ط - 1966م - ص 200.

4 المصدر نفسه - ص 224.

مثال أول قولهم: رَصَفَ بين قدميه ضَمَّ بينهما، والرَّصِف حجارة مضمومة في مسيل، وهو يرادف التَّضد¹، والرَّصِف عنده هو الجنس الخامس من أجناس البيان العشرة، قد أشرنا قبلا إلى كلمة (نضد) التي يستعملها مرادفة للرَّصِف، أمَّا الوحدة فمعناها التَّلاؤم والتَّرابط والالتحام وكلَّها ترادف من قريب أو بعيد التَّضام في جانبيه اللغوي والاصطلاحي، وقد جعل غير واحد هذه الوحدة والاتصال السَّمة الموضَّحة للقسيمة كما بيَّن الحاتمي: «أنَّ القسيمة مثلها مثل خلق الانسان في اتِّصال بعض أجزائه ببعض»²، وإن كان استدلاله في الشَّعر بهذه الصَّورة من الاتِّصال فإنَّه في القرآن من باب أولى.

وقولك وسق الليل وأتسق أي: انظِّم، والطريق يأتسق ويتَّسق: ينظِّم، ومنه اتَّساق البناء الذي اصطلح عليه قدامة بن جعفر وقرنه بالسَّجج³، أمَّا التَّسج فكذلك يعني التَّضام والتَّلاؤم والتَّسج في اصطلاح النقاد والبلاغيين هو الأسلوب أو التعبير عن المعاني والأفكار بألفاظ وعبارات يشدُّ بعضها بعضا، ليصبح الكلام كالتَّسيج الذي انضمت خيوطه وترابطت وأصبحت مجبوكة ليس فيها خيط مضطرب ولا لون ضال⁴، فما من مصطلح من هذه المصطلحات النَّقدية إلا وله صلة بمعنى الضَّم والتَّأليف، ناهيك عن تلك المصطلحات البلاغية باعتبار أنَّ المصطلحات البلاغية «أجزاء في صَّورة البلاغة العامَّة التي تتمثل في الضَّم الفتي، والعلائق السليمة، والتَّعليق والمواءمة، والانسجام التي يتطلبها المقام والحال ويقتضيها الاعتبار المناسب»⁵، ليلخِّص لنا هذا النَّص معاني التَّضام المحتتمل ورودها في الدَّرس البلاغي، وفي اصطلاح البلاغيين، وحقَّ لعبد القاهر أن يكون نموذج هؤلاء في الاصطلاح مفهوما و استعمالا إلى جانب كثير من البلاغيين واصطلاحاتهم التي تخدم موضوع التَّضام وتثريه أيما إثراء، ولئن كانت معاني هذه المصطلحات

1 أبو محمَّد القاسم السَّجلماسي: المترع البديع في تجنيس أساليب البديع-تقدم وتحقيق: علاء الغازي- القاهرة- دار المعارف- ط1-01/1401هـ/1980م- ص 337.

2 حلية المحاضرة-ج01-ص215. أخذنا عن: المرجع نفسه - ص 439.

3 جواهر الألفاظ- ص03. أخذنا عن المرجع نفسه - ص 30.

4 ينظر: الموشَّح للمرزباني - ص70. أخذنا عن: المرجع نفسه - ص 424.

5 محمَّد بركات حمدي أبو علي: البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل - عمَّان - دار البشير - ط01-1412هـ/1992م - ص 55.

واحتمالاتها تمت إلى الموضوع من عدة جوانب؛ فإن مصطلح النظم الذي تجسّد فيما بعد في نظرية قائمة بذاتها قد لا تقل أهمية عما سبق، وعليه سنتنظر الدراسة في هذا الصدد في مدى علاقة التضام بنظرية النظم، وسيكون موضوع التضام في ضوئها.

التضام في ضوء نظرية النظم:

إن المتتبع لمادّة نظم في جانبها اللغوي لا يجدها تخرج عن معنى الضم والالتزام والتأليف¹، وهذا المعنى اللغوي نفسه وقفنا عنده في تعريف التضام، فتضام الشيء مع الشيء يعني نظمهما واقتران بعضهما ببعض، مما يؤكد مدى الصلة الوثيقة بينهما على الأقل في الجانب اللغوي ريثما يمضي البحث في رسم حدود التضام بلاغيا في ضوء نظرية أقل ما يقال عنها إنها أهمّ نظرية في الدرس البلاغي قديمه وحديثه على مرّ العصور وكثرة الدراسات.

لقد بحث العلماء عن المعجز في القرآن فتوسّعت الدراسات وكثرت، واستحال أن يحيط بها كتاب لتعدّد المذاهب والآراء من جهة ونعدّد المصطلح والمفهوم من جهة أخرى، إلى أن استقرّ وجه الإعجاز في نظمه وتأليفه، وهنا صاحبت قضية الإعجاز ظهور مصطلح النظم في الدرس البلاغي، فكتب له الذبوع والاستعمال، وكثرت البحوث حتى قيّد الله لها عبد القاهر الجرجاني فنهض بالنظم إلى نظرية كاملة لها دعائم وأركان اصطلاح عليها نظرية النظم، والتي تعدّ أهمّ نظرية في التراث العربي بصفة عامّة والبلاغي على وجه الخصوص.

لم يعدم الدرس البلاغي قبل عبد القاهر الإشارة إلى قضية النظم واستعمالاته في كتب السابقين، فقد ارتبطت تسمية النظم بابن المقفع أوّل مرة ثم تناولتها الكتب، منسوبة هذه الكلمة إلى القرآن ومضافة إليه على نحو ما نجده عند النّظام (ت231م) في هذا النص: «فأما نظم القرآن وحسن تأليفه فإنّ العباد قادرون على مثله وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف»² وفي نصّ آخر: «الآية والأعجوبة في القرآن، ما فيه من الإخبار عن الغيب، أمّا النظم والتأليف فقد كان

1 ابن منظور: لسان العرب - ج12 - ص 686.

2 عمر ملاحويش: تطوّر دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية - ص 328. أخذنا عن: محمّد عباس: منهج البحث الأدبي عند عبد القاهر الجرجاني - مخطوط رسالة دكتوراه دولة - الجزائر - جامعة وهران - 1991م/1992م - ص 149.

يجوز أن يقدر عليه العباد، لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدهما فيهم»¹، وقد أرجع وجه إعجازه إلى الصرفة فابتعد عن جادة الصواب كل البعد، وقد ردّ أقواله غير واحد من العلماء²، ثم ظهرت التسمية في كتاب مفقود للجاحظ (ت255هـ) سماه "نظم القرآن"³، ليشيع بعد ذلك الاستعمال على نحو ما نراه عند أبي هلال العسكري (ت395هـ) إذ جعل باباً خاصاً بحسن النظم وجودة الرّصف والسبك⁴، والرّماني (ت386هـ) حيث يقول: «حسن البيان على مراتب فأعلاها مرتبة ما جمع من أسباب الحسن في العبارة من تعديل النّظم حتّى يحسن في السمع ويسهل على اللسان»⁵، و الخطّابي (ت388هـ) أيضاً في كلامه عن النّظم والتأليف⁶، والباقلاني (ت403هـ) الذي ينصّ على أنّ القرآن: «حدّ واحد في حسن النّظم وبديع التأليف والرّصف»⁷، والقاضي عبد الجبار (ت416هـ) عند بيانه مزية الفصاحة والنّظم إذ يقول: «ولذلك لا يصحّ عندنا أن يكون

- 1 فخر الدّين الرّازي (ت606هـ): نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز - دراسة وتحقيق: سعد سليمان حمودة - الإسكندرية - دار المعرفة الجامعية - د ط - 2003م - 23، 24.
- 2 ينظر رأي النّظام والرّدّ عليه في: ينظر: إعجاز القرآن: أبو بكر الباقلاني (ت403هـ) - تحقيق: أحمد صقر - ط03 - مصر - دار المعارف - ص 36. 188. 190. وكتابه: الإنصاف فيما يجب الاعتقاد ولا يجوز الجهل به - تحقيق: محمد زاهد الكوثري - القاهرة - المكتبة الأزهرية - ط02 - 2000م - ص 59، 60. وينظر: بيان إعجاز القرآن: الخطّابي - ص 40. وينظر: النكت في إعجاز القرآن: أبو الحسن علي بن عيسى الرّماني (ت386هـ) - ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - ص101. ينظر: الرّسالة الشافية: عبد القاهر الجرجاني - ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - ص 133. وينظر: كتاب الانتصار والرّدّ على ابن الرّوندي الملحد: أبو الحسن الخياط - نقله إلى الفرنسية: ألبير نصري نادر - بيروت - د ط - 1957م - ص 28. وينظر: البرهان في علوم القرآن: بدر الدّين الزركشي (ت794هـ) - ج03 - ص 93. وينظر: أثر القرآن في تطوّر التقد العربي، إلى آخر القرن الرابع الهجري: محمد زغول سلام - قدّم له: محمد خلف الله أحمد - مكتبة الشباب - ط01 - 1982م - ص 67 وما بعدها.
- 3 أشار الجاحظ إلى كتابه المفقود هذا في بداية كتابه "الحيوان". ينظر: كتاب الحيوان - بتحقيق وشرح: عبد السلام محمّد هارون - مصر - شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه - ط02 - 1385هـ/1965م - ج01 - ص09. وينظر: محمّد زغول سلام: أثر القرآن في تطوّر التقد الأدبي - ص 75.
- 4 كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر - حقّقه وضبط نصّه: مفيد قميحة - بيروت - دار الكتب العمية - ط02 - 1409هـ/1989م - ص 177.
- 5 النكت في إعجاز القرآن - ص 98.
- 6 بيان إعجاز القرآن - ص 24، 25.
- 7 إعجاز القرآن - ص 37.

اختصاص القرآن بطريقة في التّظّم دون الفصاحة التي هي جزالة اللفظ وحسن المعنى¹ والمرزوقي(ت421هـ) الذي جعل التحام أجزاء التّظّم أحد معايير عمود الشعر إذ يقول: «إنّهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحّته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، ومن اجتماع هذه الأبواب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وتواردت الأبيات، والمقاربة في التشبيه والتحام أجزاء التّظّم والتثامها مع تحيّر من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكله اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتّى لا منافرة بينهما، فهي سبعة أبواب هي عمود الشعر ولكلّ باب منها معيار»²، وابن سنان الخفاجي(ت466هـ) الذي يجعل نظم الألفاظ بعضها إلى بعض شرطاً من شرطيّ الفصاحة عنده³، إلى جانب أنّه يجعل التّظّم مرادفاً للنسق⁴ في بيان صحّة التخلّص من معنى معني إلى معنى.

ومهما يكن من اجتهادات فإنّ فكرة التّظّم لن: «تجد لنفسها القدرة الكاملة على الإحاطة والتنظير الذي يخضع إلى مقياس الشمولية كما هو الحال عند عبد القاهر في نظريته الشّبيهة بمبدأ التّخصّص في هذا المجال»⁵، وليس من مهمّة هذا البحث أن يعالج النّشأة والتّطور، بقدر ما يبحث قضية التّضام في مقابل نظريّة التّظّم التي تعدّ عمدة الدّراسات البلاغية قديماً وحديثاً.

لقد جدّد عبد القاهر التّظّم بثلاث كفاءات متكاملة؛ بما ليس هو، وبالتّعبير عن معناه عبارة مجمّلة وبتفصيل القول في شأنه، والبحث له عن أساس ملموس يتبيّن به فضل الكلام على اللّغة⁶ والمتصفّح لـ "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" و"الرّسالة الشّافية" يلحظ أنّه لا يبرح يستدلّ بالقرآن ويتفاعل معه، ففكرة التّظّم عنده هي «حصيلة اجتهاد أوصله إلى رؤية نقدية اهتدى إليها

1 المغني في أبواب التوحيد والعدل - ج16 - ص 197.

2 أبو علي المرزوقي(ت421هـ): شرح ديوان الحماسة- نشر وتحقيق: أحمد أمين، عبد السلام هارون- بيروت- دار الجليل- ط01- 1411هـ/1991م- مج01- ص 09.

3 ينظر: سرّ الفصاحة - بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1402هـ/1982م- ص 63.

4 المصدر نفسه - ص 268.

5 محمّد عباس: منهج البحث الأدبي عند عبد القاهر الجرجاني - ص 162.

6 ينظر: التّفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس(مشروع قراءة): حمّادي صمّود - تونس- منشورات الجامعة التّونسية- د ط - 1981م - ص 505.

في عملية تفاعله مع النص القرآني وفي إدراكه لمنهجية التفهم لدلالة الإعجاز»¹، ودليل هذا المفهوم للنظم وهذا التفاعل مع النص القرآني هو تلك المواضع المتعددة التي يبرهن فيها على نظريته من خلال إقامة علاقات تربط بين مفردات اللغة تتوحد فيها معاني النحو وأحكامه وذلك ضمن إطار ما يسميه التعليق حيث يقول: «واعلم أنك إذا راجعت نفسك علمت علما لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يُعلَق بعضها ببعض، ويُبنى بعضها على بعض، وتُجعل هذه بسبب من تلك»²، أو حين يبيّن أن النظم لن يوصف أو يستقيم إلا إذا قام على توحد معاني النحو في ما نصّه: «اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله»³، فالنظم على هذا الأساس لا يخرج عن العلاقات التحويلية التي يتوخّاها المتكلم، فلو أنك: «عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدّا كيف جاء واتفق وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني، وفيه أفرغ المعنى وأجري وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبنسقه المخصوص أبان المراد نحو أن تقول في (قفا نبك من ذكرى وحبيب ومزل) :مزل، قفا، ذكرى، من، نبك، حبيب. أخرجته من كمال البيان إلى محال الهديان»⁴، فإذا راعى المتكلم نظم الكلم بعضها مع بعض وتوحد معاني النحو بين هذه الكلم لم يكن ليريد أكثر من مفهوم التضام بين الكلم والعلاقات التركيبية بينها، فكلاهما - النظم والتضام - يبحث في الجمع والتأليف بين الكلم وترابط أجزائه واستدعاء بعضه لبعض بطرق معلومة مخصوصة وليس كيف جاء اتفق، وقد جعل عبد القاهر للضم حتمية لازمة في الإفادة ومرادفا للبناء فينبغي: «أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي يكون بها الكلم إخبارا ونهيا وأمرًا ونهيا وإخبارا وتعجبا، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضمّ كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة»⁵، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى يجعل مفهوم الضم بمعنى التعليق، ذلك لأنه: «ليس من عاقل يفتح عين قلبه إلا وهو يعلم

1 محمد عباس: منهج البحث الأدبي عند عبد القاهر الجرجاني - ص 148.

2 عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز - ص 58.

3 المصدر نفسه - ص 76.

4 عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة - ص 01، 02.

5 دلائل الإعجاز - ص 50.

ضرورة أن المعنى في ضمّ بعضها إلى بعض تعليق بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، لا أن يُنطق بعضها في إثر بعض من غير أن يكون فيما بينها تعلق¹، وهذا المفهوم للضمّ واستعماله له يرجع بنا إلى استعمالات القاضي عبد الجبار في بيانه مفهوم الفصاحة ومزيتها حيث يُوصي الأديب الذي يروم سبق غيره أن: «يعلم أفراد الكلمات وكيفية ضمّها وتركيبها ومواقعها فيحسب هذه العلوم والتفاضل فيها يتفاضل ما يصحّ منهم من رتب الكلام الفصيح»²، ومفهوم القاضي عبد الجبار للفصاحة كان مدعاة لعبد القاهر أن يقدح في آرائه ويطعن فيها، ويستبدل هذا المفهوم بالنظم والتعليق، ولم يقصره على مقولات الفصاحة التي تظهر في أفراد الكلمات عنده، ومن معرض حديثه عن القاضي عبد الجبار والردّ عليه ما نصّه: «وذلك أنهم قالوا إنّ الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات، وإنما تظهر بالضمّ على طريقة مخصوصة، فقولهم بالضمّ لا يصحّ أن يُراد به التطق باللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنييهما، لأنه لو جاز أن يكون مجرد ضمّ اللفظ إلى اللفظ تأثير في الفصاحة لكان ينبغي إذا قيل: "ضحك، خرج" أن يحدث في ضمّ "خرج" إلى "ضحك" فصاحة، وإذا بطل ذلك لم يبق إلا أن يكون المعنى في ضمّ الكلمة إلى الكلمة توحي معنى من معاني النحو»³، وعلى الرغم من اختلاف الاستعمالين⁴ عندهما إلا أنّهما يتحدثان عن المفهوم نفسه في كثير من الأحيان، إلى درجة تدفع بعضهم إلى إرجاع فضل نظرية النظم إلى القاضي عبد الجبار وليس عبد القاهر⁵. ولكن كفى بالجرجاني إماما وإحاطة بهذا المشروع الوصفي الوصفي في النظم المتوحي في حكم النحو⁶، ولعلّ استعمالات عبد القاهر لمادّي الضمّ والنظم التي

1 المصدر السابق - ص 336.

2 المغني في أبواب التوحيد والعدل - ج16 - ص 208..

3 دلائل الإعجاز - ص 286.

4 من الواضح أن مصطلح الفصاحة عند يطابق ما عناه الأشاعرة بمصطلح "النظم"، والمعتزلة استبدلوه بالفصاحة وتمسكوا به وظل الأشاعرة متمسكين بالنظم. ينظر: في البلاغة العربية، علم المعاني - محمود أحمد نخلة - بيروت - دار العلوم العربية - ط01-1410هـ/1990م - ص 15.

5 عبد العزيز حمودة: المرايا المقعّرة، نحو نظرية نقدية عربية - ص 234. ولا شك في أن القاضي عبد الجبار أراد بذلك أنّ الفصاحة راجعة إلى النظم التحوي.. والحق أنّ للقاضي عبد الجبار فضل سبق إلى وضع أسس نظرية النظم، ولعبد القاهر فضل تفسيرها وإيضاح معالمها. ينظر: محمود أحمد نخلة: السابق - ص 15.

6 بلملياني بن عمر: المنهج التقدي في النظم والتأليف لسدى ابن سنان الخفاجي (ت466هـ) - وعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) - مخطوط أطروحة دكتورا دولة - جامعة تلمسان - 1424هـ/2003م -

فاق فيها استعمالات سابقه¹ مع كثرة الشواهد القرآنية والشعرية كقيل بأن يجعل منه صاحب نظرية متكاملة لها أركانها² وقواعدها، تلخص في كونها: «هتتم بالنص الأدبي ككيان له بنيانه داخل النظام اللغوي المؤلف من وحدات متضامة بعضها إلى بعض في المواقع اللاتق بها في التركيب لما يقتضيه السياق بأبعاده التحوية واللغوية»³، وإذا أردنا استدلالاً على أمر التضام بمفهومه الذي يدعو إلى استلزام عنصر نحوي عنصراً نحويًا آخر، واستلزام كلمة كلمة أخرى فحري بنا أن نمنع النظر في هذا النص لعبد القاهر: «وإذا قد عرفت أن مدار النظم على معاني التحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجدها ازدياداً بعدها، ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض»⁴، فقله: «ثم بحسب موقع بعضها من بعض» دليل على قرينة الرتبة اللفظية، وقوله: «واستعمال بعضها مع بعض» هو المعنى نفسه لقرينة التضام، وإشارة إليه من حيث هو تطلب إحدى الكلمتين الأخرى، واستدعاؤها إياها، وبذلك حق لهذه النظرية أن تكون: «أذكي محاولة لتفسير العلاقات السياقية في تاريخ التراث العربي إلى الآن»، فنظرية النظم إذا تقدم حقيقة غاية في الأهمية مفادها: «أن الكلام المفيد ما هو إلا حصيلة لتضام اللفظ مع غيره من الألفاظ المناسبة له دلالياً، وذلك في إطار العلاقات التحوية الجامعة بينها»⁵، مما يدعو إلى ملاحظة أن النظم الذي هو نتاج عملية التعليق⁶ ما هو إلا الوجه الآخر الموازي لمفهوم التضام ما دام قوام كل منهما البحث في العلاقات النحوية الجامعة بين مفردات الكلام، لأن التعليق هو الذي

1 ينظر الملحق المتعلق باستعمالات لفظة "الضم" ومشتقاتها لدى القاضي عبد الجبار وعبد القاهر في آخر البحث.

2 يمكن حصر أركان نظرية النظم في أربعة أركان هي: ترتيب الألفاظ حسب المعاني - التعليق التحوي - تخير الموقع - معاني التحو - ينظر تفصيلها في: البلاغة العربية، علم المعاني: محمود أحمد نحلة - ص 26 إلى ص 36.

3 محمد عباس: الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني - بيروت - دار الفكر المعاصر - دمشق - دار الفكر - ط 01 - 1420هـ / 1999م - ص 126.

4 دلائل الإعجاز - ص 81.

5 اسماعيل غازي اسماعيل دويدار: قرينة التضام في القرآن الكلامي - ص 23.

6 مصطفى حميدة: نظام الارتباط والربط في الجملة العربية - ص 11.

يُكسب الجملة معناها، أما الكلمات الحرّة فلن تكون كذلك¹، فللتعليق فاعليته وأثره في عملية تركيب وتضام الكلمات سواء من الناحية الدلالية أو النحوية وهو ما أجهد عبد القاهر نفسه لبيانه وعبر عنه في نحو قوله: «ومعلوم أن ليس النّظم سوى تعليق بعض الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض، والكلم ثلاث؛ اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة ولا يعدو ثلاثة أقسام: تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بحرف²، وقد وصل الحال به أن يُشبهه من ادعى أن انتظام الألفاظ واتصال بعضها ببعض من غير معاني النّحو بالعنقاء التي تربّي والخصي الذي يلد، دعا من قال بذلك أن يريه تلك المعاني وأماكنها فقال: «فإن كان ههنا من يشك في ذلك، ويزعم انه قد علم لاتصال الكلم بعضها ببعض، وانتظام بعضها مع بعض معاني غير معاني النّحو، فإننا نقول له: هات فيّ لنا، وأرنا مكائها، واهدنا لها³، ومن يطلب نظم الكلم المفردة والجمع بينها من غير أن يتوخّى معاني النّحو فقد طلب ما كلّ المحالّ دونه، فكان مدار النّظم والتعليق في كتاباته يعتمد النّحو ويوازيه، ولئن عدّ عند بعض الباحثين نحوياً خالصاً⁴؛ خالصاً⁴؛ فإنه جاوز قواعد النّحويين ومعاييرهم التجريدية إلى نظرية النّظم بكلّ أساليبها الوصفية التركيبية⁵ فأصبح من: «صفوة العلماء الباحثين والدارسين المحققين، ومن سدنة اللّغة العربية وحماها منهاجاً وتطبيقاً، يحرص على إثبات عبقريتها بتعزيز من النّظم والإعجاز⁶، ومعنى هذا الذي سبق عن النّظم والتعليق أن توخّى معاني النّحو عند عبد القاهر في أواخر الكلمات ومعرفة الصّواب والخطأ بقدر المزية التي تعرض للمعاني النّحوية بحسب المقام ومعاني الأغراض التي يوضع لها الكلام وموقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض.

1 محمد عبد اللّطيف حماسة: النّحو والدّلالة، مدخل لدراسة المعنى النّحوي الدلالي - القاهرة - دار الشروق - ط02 - د ت - ص 12.

2 دلائل الإعجاز - ص 13.

3 المصدر نفسه - ص 305.

4 محمد عبد اللّطيف حماسة: النّحو والدّلالة، مدخل لدراسة المعنى النّحوي الدلالي - ص 27.

5 بلملياني بن عمر: المنهج التقدي في النّظم والتأليف لدى ابن سنان الخفاجي (ت466هـ) - وعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) - ص 250.

6 محمد عبّاس: الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني - ص 123.

بناء على ما تقدّم فإن نظرية التّظم كفيلة بأن تفسّر مفهوم التّضام الذي يكشف عن العلاقات الدلالية بين المفردات والجمل انطلاقاً من توخّي معاني التّحو بينها وفاعليته في بناء الكلام العربي إن في مجال الوظيفة والتّركيب الممثل في علاقات الاستلزام، وإن في مجال المعجم والدلالة الممثل في علاقات التّوارد بحكم أنّ التّضام استلزام بين العناصر التّحوية من جهة وتوارد بين العناصر المعجمية من جهة أخرى.

• أثر السّياق في التّضام:

حسبنا في هذا المبحث أن نقف عند الوعي البلاغي بقيمة السّياق وأثره في عمليّة التّضام كون السّياق أيضاً من القرائن التّحوية الكبرى الدّالة على المعنى التّحوي إلى جانب الإعراب والبنية والرّبط والرّتبة والتّضام¹ الواجب مراعاتهما في التّركيب القرآني.

والمقصود بقرينة السّياق ما يكتنفه - السّياق - من قيود تركيبية أو أشرطة إفادة، أو هما معاً²، وصلة كلّ هذا بالتّضام الذي يبحث استلزام العناصر التّحوية والكلمات وتوارد بعضها مع بعض، فما علاقة هذا الاستلزام والتّوارد ما داما يحدثان داخل سياق معيّن وهل للسّياق أثره فيهما؟

السّياق لغة من مادة (س وق)، والسوق معروف، يقال: ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقاً وسياًقاً، وهو سائق³، وله معنى بعيد عن هذه الدلالة بمعنى الموت، وجاء بمعنى نزع الرّوح، أمّا اصطلاحاً فهو استعمال الكلمة في اللّغة أو طريقة استعمالها أو الدّور الذي تُؤدّيه الكلمة⁴، أو هو مجموع ما يصاحب اللفظ بما يساعد على توضيح المعنى⁵، والسّياق جسم حي، أو مجموعة من

1 تمام حسان: البيان في روائع القرآن - ص 12، 212.

2 المرجع نفسه - ص 08.

3 ابن منظور: لسان العرب - مج 10 - ص 199.

4 أحمد مختار عمر: علم الدلالة - الكويت - مكتبة العروبة - ط 01 - 1402هـ / 1982م - ص 86.

5 حسين رفعت حسين: الموقعية في التّحو العربي - ص 21. المعاجم العربي في ضوء دراسات علم اللّغة الحديث: محمد أحمد

أبو الفرج - ص 116. أخذنا عن: جاسم محمّد عبد العيّود: مصطلحات الدلالة العربي، دراسة في ضوء علم اللّغة الحديث -

بيروت - دار اكتب العلمية - ط 01 - 1428هـ / 2007م - ص 133.

المواقف والإمكانيات، وفيه تقاطعات مستمرة¹ ويلاحظ أنّ هذه التعريفات جاءت على لسان بعض العرب المحدثين²، لأنّ معاجم البلاغة التّقد لم تحفظ لنا مفهوم السّياق على الرّغم من معرفة العرب له وسبقهم في هذا المجال بقرون في دراساتهم وبحوثهم بتسميات ومصطلحات خاصّة بهم³ كتسميتهم المقام والمقال والحال والمقتضى⁴.

1 تامر سلّوم: نظرية اللّغة وجمال في النقد العربي - ص 318.

2 عرفت نظرية السّياق طريقها إلى الدّراسات اللّغوية في هذا العصر على يد ثلاثة من الرّواد اللّغويين العرب، أرسلوا في بعثات علمية إلى الغرب للحصول على درجة الدكتوراه هؤلاء الرّواد هم: تمام حسّان، كمال محمّد بشر، من جامعة القاهرة، ومحمود السّعران من جامعة الإسكندرية، وتلمذ ثلاثهم على يد "فيرث" أستاذ علم اللّغة بجامعة لندن ومؤصّل هذه التّظرية، فهم ينتمون إلى مدرسة لندن على اختلاف اتّجاهاتهم. فكان أن عرض تمام حسّان لهذه التّظرية في عمليتين علميتين له: "مناهج البحث في اللّغة"، و"اللّغة العربية معناها ومبناها" ينظر: نظرية السّياق بين القدماء والمحدثين، دراسة لغوية نحوية دلالية: عبد المنعم عبد الجليل - الإسكندرية - دار الوفاء - ط 01 - 2007م - ص 311.

3 جاسم محمّد عبد العيّود: مصطلحات الدّلالة العربي، دراسة في ضوء علم اللّغة الحديث - ص 134.

4 على سبيل المثال ينظر: كتاب الحيوان: الجاحظ - ج 03 - ص 43. حيث يقول: "وقد أصاب كلّ الصّواب الذي قال لكلّ مقام مقال". وقال في موضع آخر: "ولولا التحصيل والموازنة والإبقاء على الأدب والديباجة بشدّة والحاسية لما قالوا لكلّ مقام مقال". ج 01 - ص 201. وقوله أيضا: "ولكلّ مقام مقال ولكلّ صناعة شكل". ج 03 - ص 369. وينظر كتابه: البيان والتبيين: - تقدّم وتبويب وشرح: علي أبو ملجم - ط 01 - 1408هـ / 1988م - حيث روى فقال: "قال إسحاق بن حسّان بن قوهي: لم يفسّر البلاغة تفسير ابن المقفّع أحد قط. فقيل له: فإن ملّ السّامع الإطالة التي ذكرت أنّها حقّ ذلك الموقف؟ قال: إذا أعطيت كلّ مقام حقّه، وقمتّ بالذي يجب من سياسة ذلك المقام" - ج 01 - ص 114. وقد روى أبو العباس الميرد (ت 286هـ) بيتا للخطيب يقول فيه لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه:

تَحَنَّنْ عَلَيَّ هَذَاكَ الْمَلِيكَ فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا.

ينظر: الكامل - حقّقه وعلّق عليه ووضع فهارسه: محمّد أحمد الدّالي - بيروت - مؤسسة الرّسالة - ط 02 - 1418هـ / 1997م - مج 02 - ص 732.

وروى أبو هلال العسكري ما نصّه: "...وقد بلغك ما أصاب عثمان بن عفّان رضي الله عنه أوّل ما صعد المنبر فارتجّ عليه فقال: إنّ اللّذين كانا قبلي كانا يعدّان لهذا المقام مقالا". ينظر: كتاب الصّناعتين - ص 31. وقد جاء في العقد الفريد: "البلاغة تكون على أربعة أوجه: تكون باللفظ والخطّ والإشارة والدلالة، وكلّ منها له حظّ البلاغة والبيان وموضع لا يجوز فيه غيره، ومنه قولهم: لكلّ مقام مقال، ولكلّ كلام جواب". أحمد بن محمّد بن عبد ربّه (ت 368هـ) - بيروت - مكتبة تحقّيق التراث - ج 02 - ص 115. ويقول الخطيب الفرويّ (ت 739هـ): "وأما بلاغة الكلام فهي: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحتها، ومقتضى الحال مختلف، فإنّ مقامات الكلام متفاوتة... وكذا لكلّ كلمة مع صاحبها مقام". ينظر الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع - بيروت - دار الكتب العلمية - د ط - د ت - ص 12.

إنّ السّياق يمثّل دلالة الكلمة مع كلمات أخرى وهو جزء من المدلول، ومن هنا يتكوّن لدينا نوعان منه: «مدلول الكلمة المفردة ومدلول السّياق وما يضمّه السّياق مثل الجملة والتركيب والخطاب والنّص والقصيدة... إلى غير ذلك من الأشياء التي هي من تحدّد بالقرينة والنّظم»¹، ولقد تعدّدت تقسيمات المحدثين للسّياق وتنوّعت تحديدها لهم؛ ومن هذه التّقسيمات تكوّنت أربعة أنواع للسّياق مجتمعة في السّياق اللّغوي، والعاطفي، وسياق الموقف، والسّياق الثقافي²، على أنّ أهمّ أنواعه قسمان: لغوي وغير لغوي³، حيث يشمل الأوّل السّياق الصّوتي والصّرفي والتّحويّ والمعجمي والتّعبيري الذي يشمل بدوره السّياق المبتكر والسّياق الأسلوبي، أمّا غير اللّغوي فيشمل السّياق الثقافي والعاطفي⁴، على أنّ السّياق اللّغوي هو الذي يرتبط بموضوع دراستنا باعتباره: «حصيلة استعمال الكلمة داخل نظام الجملة متجاورة وكلمات أخرى»⁵، وهذا النّظام وهذه المجاورة بين الكلمات التي يفرضها السّياق اللّغوي هي ما تسمّى تسميته بالتّضام أو توارد العناصر المعجمية أو استنزام الكلمات بعضها لبعض، لأنّ اللّغة ليس لها أهميّة إلاّ في سياقها الموقف⁶، ولأنّ معنى الكلمة في حدّ ذاته هو مجمل السّياقات التي يمكن أن تنتمي إليها، وهو ما اصطلح عليه تمام حسان "الماجريات" حيث قال: «بعد هذا الكلام عن وجهة النّظر الدّياكرونية التّاريخية في تعيّر المعنى سنحاول في الصّفحات الآتية تلخيص نظرية أستاذنا فيرث في منهج الدّلالة وان نشرح الظروف التي مرّ بها أهمّ اصطلاح من اصطلاحات هذه النّظرية وهو الماجريات أو **context of situation**»⁷، والسّياق اللّغوي هو المسؤول عن توضيح العلاقات الدّلالية التي تحدث من تضام المفردات والعناصر المعجمية، ويكفي إشارة إلى وعي القدماء بأنّ السّياق في البنية والدّلالة إلى الفصل الذي عقده الزّركشي (ت794هـ) في ذكر الأمور التي تعين على المعنى عند

1 جاسم محمّد عبد العبود: مصطلحات الدّلالة العربي، دراسة في ضوء علم اللّغة الحديث - ص 137.

2 أحمد محمّد قدّور: مبادئ اللّسانيات - ص 295.

3 جاسم محمّد عبد العبود: السابق - ص 140.

4 ينظر هذه التّقسيمات وتحديدها: المرجع نفسه - ص 141 إلى ص 150.

5 أحمد محمّد قدّور: السابق - ص 295.

6 محمّد العبد: المفارقة القرآنية، دراسة في بنية الدّلالة - القاهرة - مكتبة الآداب - ط 02 - 1426هـ / 2006م - ص 31.

7 مناهج البحث في اللّغة - الدار البيضاء - دار الثقافة - د ط - 1407هـ / 1986م - ص 285.

الإشكال، فجعل من هذه الأمور دلالة السياق، فدلالة السياق: «ترشد إلى تبين الجمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلطاً في نظيره، وغالط في مناظراته»¹، فمعنى الكلمة لا يمكن أن يتحدّد إلا إذا ورد مع مجموعة من الكلمات، وهذا التوارد بين الكلمات لا يمكن أن نتوصّل إلى معنى دقيق لأيّ كلمة منه إلا إذا تمعنا في العناصر التي تقع معها في سياق لغوي يقبله أبناء اللّغة² بخاصّة إذا كان تضام الكلمات ونظمها في كلامه سبحانه تعالى؛ من الواجب بمكان أن: «تربط الآية بالسياق الذي وردت فيه ولا تقطع عمّا قبلها وما بعدها ثمّ تجرّجراً لتفيد معنى أو تؤكّد حكماً يقصده قاصد»³ لأنّ القرآن وحدة لا تتجزأ «و تعاليمه وأحكامه مترابطة متكاملة بين بعضها وبعض، ما يشبه الوحدة العضوية في أعضاء الجسد الواحد، فبعضها يؤثّر في بعض ولا يجوز أن يفصل جزء أو أكثر منها عن سائر الأجزاء»⁴، وستكون لنا وقفات في الفصلين الثّاني والثالث والثالث الخاصّين بالتطبيق لنرى مدى أهميّة السياق في تحديد البنية والتضام والدلالة معتمدين كغيرنا⁵ سياقاً خارجياً يُعنى بأسباب التزول ومعرفة النسخ وقصّة توضح بعض ما في القرآن، وسياقاً داخلياً يُعنى بعلم المناسبة ودور العطف والإحالة في اتّساق النصّ وتضامه مع التكرير والتعليق والرّبط.

إذا رجعنا بالسياق إلى دراسة البلاغيين فإننا نلمح وعياً بلاغياً بقيمته، وقد رأينا في المبحث الخاصّ بنظرية النّظم كيف أنّ هذه النّظرية استطاعت أن تكون أهمّ نظرية في التراث النّحوي والبلاغي، ولم يقتصر الأمر عند هذا، بل استطاعت أن تعلن عن ميلاد فكريتين تعتبران: «من أنبل ما وصل إليه علم اللّغة الحديث... هي فكرة المقال وفكرة المقام، وأنبل من ذلك أن علماء البلاغة ربطوا بين هاتين الفكرتين بعبارتين شهيرتين أصبحتا شعاراً يهتف به كلّ ناظر في المعنى، العبارة

1 البرهان في علوم القرآن - ج 02 - ص 200.

2 ينظر: علم الدلالة: أحمد مختار عمر - ص 74.

3 يوسف القرضاوي: كيف تتعامل مع القرآن الكريم - القاهرة - دار الشروق - ط 05 - 1427 هـ / 2006 م - ص 238.

4 المرجع نفسه - ص 446.

5 ينظر: السّجع القرآني، دراسة أسلوبية: هدى عطية عبد الغفار - ص 203.

الأولى: لكلّ مقام مقال، والعبارة الثانية: لكلّ كلمة مع صاحبها مقام¹، فإذا أكّدت العبارة الأولى خطر العنصر الاجتماعي وهو عنصر المقام عند دراسة المعنى الدلالي، فلعمرك إنّ العبارة الأخيرة لتلخص الصلة بين ظاهرة التضام في اللغة العربية وبين المعنى اللغوي الدلالي الاجتماعي، وسيُتضح أن أقسام المقامات الاجتماعية ترتبط بتعبيرات يتمّ فيها التضام بين الكلمات مختلفا باختلاف المقام²، ومن هذا قول عبد القاهر: «.. ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يُوضع لها الكلام، ثمّ بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض»³ لبيان وجوب مراعاة الكلام وفائدته في نظم الكلام وتضامّ وحداته واستلزام بعضها بعضا وتوارد بعضها مع بعض.

إنّ التركيب والسياق هما اللذان يمنحان الكلمات جمالا، ولو كانت الكلمة بمفردها موضع التمايز لما حسنت كلمة (الأخدع) في بيت الحماسة والبحثري وثقلت في بيت أبي تمام، بل كان يجب إمّا أن تحسن دوما وإمّا أن تثقل دوما، فلولا: «هذه العلائق التركيبية لفقدت الكلمات نظام الارتباط فيما بينها، فهي أساس الترتيب بين ما قدّم منها وما أخر»⁴، فكلمة: الأخدع هذه في بيت الحماسة:

تلفتُ نحو الحيّ حتى وجدّني وجعتُ من الإصغاء ليئا وأخذعا⁵

1 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها - ص 18. حيث يقول الخطيب القزويني: "...وكذا لكلّ كلمة مع صاحبها مقام". ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديح - ص 12.

2 تمام حسان: السابق - ص 20. 21.

3 دلائل الإعجاز - ص 81.

4 عبد الله بن عبد الرحمن أحمد بانقيب: مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز من الرّمانى (ت386هـ) إلى عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) - مخطوط رسالة دكتوراه - المملكة العربية السعودية - جامعة أمّ القرى - 1429هـ/2208م - ص 421.

5 اللّيت: جانب العنق. الأخدع: عرق في العنق. وهما اثنان نحو يمين وشمال. والبيت للصّمة بن عبد الله القشيري من قصيدته الشهيرة:

حننتُ إلى رّيّا ونفسك باعدت مزارك من رّيّا وشعبا كما معا

ينظر: شرح ديوان الحماسة: أحمد بن محمّد المرزوقي - تحقيق: أحمد أمين، عبد السلام هارون - دار الجيل - بيروت - 1411هـ/1991م - ج 02 - ص 1218.

وفي بيت آخر للبحري:

وإني وإن بلغتني شرف الغنى وأعتقت من رق المطامع أخدعي¹

قلنا - فكلمة الأحدد- لها من الحسن في هذين البيتين ما لا يخفى، بخلاف ما إذا قرأها في هذا البيت لأبي تمام²:

يا دهر قوّم من أخدعك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك³

تأبيّن أنّ للسياق الذي ترد فيه المفردات متضاماً بعضها إلى بعض دوراً أساساً وفاعلاً في دلالتها وجمالها بخلاف ما تراه إذا كانت كلمات مفردة وألفاظاً مجردة؛ فالسياق هو الذي يسمح بهذا التضام الذي يضيف على الكلام روعة وجمالاً، والتضام بدوره يسمح بالكلام في سياق مستمرّ وفقاً لمقتضى الحال دون إهمال لجانب الدلالة أو الوضوح.

والكلمة على الرغم من اختيار موقع حسن لها داخل السياق فإنها لا تؤدّي وظيفتها ولا تكتسب خصوصيتها إلا إذا ضامّت أحوالها وتعلّق بعضها ببعض، ليكون لكلّ مقام هي فيه مقال ولكلّ منها مع صاحبها مقام.

• التضام والمصطلح البلاغي:

يعالج هذا المبحث قضية التضام في ضوء مقولات بلاغية من الموروث العربي بغرض معرفة مدى التداخل في المصطلح والاستعمال كما هو الحال بين التضام ومقولات التركيب والتأليف والتضام والسبب، والتضام ومباحث التماسك والبناء، والرّصف والتعليق والارتباط والمجاورة بدعوى أن: « المصطلح لا يعني تسمية جامعة مانعة للمسمّى كما يظن بعض الناس، بل يُرمز إليه

1 أبو عبادة الوليد البحري: الديوان - تحقيق: حسن كامل الصّيرفي - مصر - دار المعارف - ط03 - د ت - ص 1241.

2 ينظر: دلائل الإعجاز - ص 52 لمعرفة هذا الحكم.

3 الخرق والخرق: عكس الرّفق. وعدم إحسان التصرف والحمق. ينظر: ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي - تحقيق: محمّد عبده عزام - القاهرة - د ط - د ت - ج 02 - ص 402.

لصلة بين الرّمز والمرموز إليه، وهذه الصّلة تختلف قوّة وضعفا دائما على إحاطة بمعنى الشيء المسمّى اصطلاحا، ومن أجل ذلك كثيرا ما نقول: هذه الكلمة لغة معناها كذا، واصطلاحا كذا¹، لذلك سيكون هذا المبحث محاولة للرّجوع بالتضام إلى مظانّه البلاغية واستعمالات البلاغيين وتعرّضهم له سواء بالمصطلح نفسه أو ما يجاوره من مصطلحات واستعمالات تربطه بها وشائج وعلاقات.

❖ التضام ومقولات التّأليف والتّركيب:

جاء في لسان العرب في مادة (ألف): قولك ألفت بينهم إذا جمعت بينهم بعد تفرّق، وألّفت الشيء تأليفا إذا وصلت بعضه ببعض، ومنه تأليف الكتب، وتألّف تنظّم².

أمّا ركب فقولك: ركب الشيء بمعنى: وضع بعضه على بعض، وقد ارتكب وتراكب وركب الدّابة علا عليها، وتراكب السّحاب صار بعضه فوق بعض، ومنه شيء حسن التّركيب³. أمّا اصطلاحا فيحتمل معاني الائتلاف والتّلفيق والتّناسب والتّوفيق ومراعاة التّظهير والتّأليف المبيّن عن المعنى هو « ما يحدثه المؤلّف للكلام من ضروب التّظّم في الأسماء المفردة التي يستعملها من مضاف وغير مضاف، وفي الأبنية التي يستعملها من مبتدأ يسند إليه خبر أو فعل يسند إليه اسم أو شرط يعلّق به جواب⁴. والتّأليف هو جمع الأشياء المتناسبة من الإلفة وهو: «حقيقة في الأجسام ومجاز في الحروف، والتّأليف بالنّسبة للحروف لتصير كلما والتنظيم بالنّسبة للكلمات لتصير جملا⁵، وهذا المعنى غير بعيد عن معنى التّركيب الذي يجمع الحروف البسيطة وينظمها لتكون كلمة⁶، والتّركيب عملية فنيّة ذات أبعاد صوتية ونفسية تتجاذب فيها

1 عبد الكريم خليفة: وسائل تطوير اللّغة العربية العلمية - مجلّة اللّسان العربي - المملكة المغربية - مكتب تنسيق التعريب بالرباط - 1395هـ/1975م - مج 12 - ج 01 - ص 54.

2 ابن منظور - مع 09 - ص 90، 10.

3 المصدر نفسه - مع 01 - ص 428.

4 ينظر: شرح رسالة الرّمان: لعالم مجهول كأنه عبد القاهر الجرجاني - كشفه وعلّق عليه: زكريا سعيد علي - القاهرة - دار الفكر العربي - ط 01 - 1417هـ/1997م - ص 155.

5 محمّد عبد العزيز عبد الدّائم: النظرية اللغوية في التراث العربي - ص 253.

6 الشريف الجرجاني: التعريفات - ص 60.

المعاني والألفاظ، وتجيء هذه على قدر تلك لا تزيد ولا تنقص¹، وقد جاء التركيب بمعنى ضمّ الأشياء مؤتلفة كانت أو لا، مرتبة أو غير ذلك .

فإذا تمعنا في هذه التعريفات وجدنا أنها تدور كلها على معاني الجمع والاتلاف، وأن معنى التركيب الذي هو ما يحدثه المتكلم من ضروب التّظم هو ضرب من ضمّ الكلم على طرق مخصوصة وليس كيفما جاء واتفق، يُستدلّ على ذلك بقوله: مبتدأ يسند إليه خير، وفعل يُسند إليه اسم، وقد عرفنا أن الإسناد في عرف التّحويين هو ضمّ كلمة لأخرى، والتّأليف الذي يحدث في الحروف لتصير كلمات هو نفسه كذلك استلزام العناصر التّحوية والكلمات بعضه بعضا سواء على مستوى الكلمة الواحدة المتكوّنة من أصوات وحروف أو على مستوى أكبر من ذلك، والتّأليف الذي يعني جمع الأشياء المتناسبة والمأخوذ من الإلفة غير بعيد عن معنى المناسبة المعجمية، فالأشياء المتناسبة هي التي يتوارد بعضها مع بعض، وهو نوع من طرق التّضام الذي عرفناه سابقا باسم التّوارد حيث تكون الكلمة صالحة لأن تليها كلمة معيّنة تتضام معها من حيث المعجم والدلالة لا كيف جاء واتفق. فكلّ استعمالات القدامى للتّأليف والتركيب بين الحروف والكلمات يصلح أن تكون مباحثها في التّضام، أضف إلى ذلك أن من القدامى من كان يربط أحوال التّأليف بالمعاني المركّبة فيكون بعضها آخذا بأعناق بعض، على نحو ما نجده في هذا النص: «يجب مراعاة أحوال التّأليف بين الألفاظ المفردة والجمل المركّبة، حتى تكون أجزاء الكلام متلائمة آخذا بعضها بأعناق بعض، وعندئذ يقوى الارتباط ويصفو جوهر نظام التّأليف ويصير حاله بمنزلة البناء المحكم المرصوص المتلائم الأجزاء كالعقد من الدرّ فصلت أسماطه بالجواهر والآليّ فحلّص على أتمّ تأليف وأرشق نظام»². فهل هذا الأخذ والارتباط والتّأليف والبناء والتّراصّ والتّلاؤم والعقد والنّظام يعني غير ما يعنيه التّضام بين الألفاظ المفردة أو الحروف المجردة؟.

لقد كان القدامى على وعي تام بضرورة مراعاة هذه الشّروط وغيرها، ونلتمس هذا الوعي من هذه النّصوص وتلك المباحث المبتوثة في كتبهم وأعمالهم، مثل ما تجده في مناهج دراساتهم العلمية في التراث، فقد صبّوا اهتمامهم بملاحظة العلاقات المؤلفة للكلام كالتّأليف الذي يقضي

1 فتحي أحمد عامر: بلاغة القرآن بين الفنّ والتاريخ - الإسكندرية - منشأة دار المعارف - د ط - د ت - ص 35.

2 يحيى بن حمزة العلوي: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز - ج 02 - ص 120

تناسق النصّ تجانسه وتلاحمه كما تتلاحم اللحم في التسيج¹، ولئن كان وعيهم على هذه الدرجة من الدقة والفهم وهم يتعاملون مع نصوص شعرية أو نثرية فأجدّر بالكلام أن يكون حقيقة وأولى مع القرآن الكريم الذي: «صيع في أساسه على مواد لغوية وعلاقات تركيبية وملابسات سياقية»² تشكل المادة الأساس لكل دراسة.

تستطيع أن تخلص من هذا المبحث بنتيجة مفادها أن القدامى حين عالجوا النصوص وأمروا على هذه العوامل كانوا ينطلقون من مفهوم عام وشامل، ولم يولوا اهتمامهم بالمصطلح في حد ذاته بقدر اشتغالهم بالموضوع والتحليل، ولعل في هذه المترادفات واستعمالاتهم للتضام والتأليف والتركيب بالمعنى نفسه في كثير من الأحيان دليلاً على ذلك.

❖ التضام ومقولات السبك والحبك:

ترد مادة سبك دالة على التناهي في إمهاء الشيء، بمعنى الإسالة. من ذلك: سبكتُ الفضة أسبكتها سبكا، وهذا يستعار في غير الإذابة³، وسبكه ذوبه وأفرغه في قالب⁴، أما مادة حبك فمعناها إحكام الشيء في امتداد واطراد. يقال: بعير محبوك القرى أي قويه، وحبك السماء قال قوم: ذات الخلق الحسن المحكم⁵. ومنه الشد، والاحتباك شد الإزار وإحكامه⁶. أما من حيث الاصطلاح فإنهما -السبك والحبك- يتسمان بالإفصاح والإبانة والتساوق، على أن السبك: «معيّار يختصّ بالوسائل التي تتحقّق بها خاصية الاستمرارية في ظاهر النصّ surface text، ونعني بظاهر النصّ الأحداث اللغوية التي ننطق بها أو نسمعها في تعاقبها الزمّني والتي

1 سالم علوي: الدرس التحوي بين التنظير والتطبيق - مجلة اللغة والأدب - ص 169.

2 عبد الحليم بن عيسى: اللسانيات والنصّ القرآني - مجلة الآداب والعلوم الانسانية - جامعة قسنطينة - العدد 03-1424هـ/2003م - ص 287.

3 أحمد ابن فارس: معجم مقاييس اللغة - مج 03 - ص 129. وينظر: في البلاغة العربية والأسلوبيات النصّية: سعد مصلوح - ص 237.

4 ابن منظور: لسان العرب - مج 10 - ص 438.

5 أحمد ابن فارس: معجم مقاييس اللغة - مج 02 - ص 130.

6 ابن منظور: السابق - مج 10 - ص 407.

نخطُّها أو نراها»¹، وأن معيار الحبك: «يختصّ بالاستمرارية المحقّقة في عالم النّص textual world، ونعني به الاستمرارية الدلالية التي تتجلّى في منظومة المفاهيم concepts والعلاقات relations الرابطة بين هذه المفاهيم، وكلا هذين الأمرين هو حاصل العمليات الإدراكية المصاحبة للنّص إنتاجا وإبداعا وتلقيا واستيعابا، وبما يتمّ احتباك المفاهيم من خلال قيام العلاقات أو إضافتها عليها إذا لم تكن واضحة مستعلنة على نحو يستدعي فيه بعضه بعضا، ويتعلّق بواسطته بعضه بعض»².

إن ترجمة هذين المصطلحين من الدّراسات الغربية بُذلت فيها محاولات كثيرة في مقابل ما يسمّى عندهم: coherence, cohesion فترجما إلى: التماسك، والانسجام، والاتساق، والاتحام، وعلى سبيل المثال قد ترجم تمام حسّان coherence إلى الاتحام باعتباره أحد المعايير النصّية السبعة³ إلى جانب السّبك في مقابل cohesion، والقصد والقبول والإعلام والتناصّ والمقامية، في حين توصل سعد مصلوح بعد إمعان نظر وطول تفكّر إلى السّبك مقابلا لمصطلح cohésion والحبك مقابلا لمصطلح coherence ولعلّها الترجمة الأقرب إلى حقل الدّراسة في هذا المجال بخاصّة إذا تعلّق المصطلح بما يقابله في الموروث العربي، إذ السّبك مثلا: «أقرب شيء إلى المراد المفهوم، وأكثر شيوعا في أدبيات التّقد القديم»⁴. ولأنّ «البدء من الصّفر المنهجي يعني إهدار أربعة عشر قرنا من التّناج اللّساني المتميّز، الذي هو إنجاز قوم هم من أعلم الناس بفقّه العربية وأسرار تراكيبيها وذخائر تراثها، وما يكون لنا حقّا إذا كنّا من أولي الألباب أن نلوي رؤوسنا إعراضا عن كنوز هي عمر هذه الأمتة ومركّب جوهري من مركّبات ثقافتنا»⁵ وعلى هذا الأساس كان مرادنا أن نميط اللّثام قدر الإمكان عن قضية التّضام التي تجمع

1 سعد مصلوح: في البلاغة العربية والأسلوبيات النصّية، آفاق جديدة- ص 237.

2 المرجع نفسه - ص 137، 138.

3 ترجمة كتاب: روبرت دي بوجراند: النّص والخطاب والإجراء - القاهرة- عالم الكتب- ط01- 1418هـ/1998م- ص 103.

4 جميل عبد المجيد: البديع بين البلاغة العربية واللّسانيات النصّية- الإسكندرية- الهيئة المصرية العامّة للكتاب- د ط - 1998م- ص 70، 71.

5 سعد مصلوح: في البلاغة العربية والأسلوبيات النصّية، آفاق جديدة- ص 224، 225.

بين استلزام كلمة لأخرى وتواردها معها وربطها - القضية - بمعياري السبك والحبك اللذين يعدّان من أهمّ معايير النصية في الدرس اللساني قديمه وحديثه.

لقد قامت نظريات القدماء وتبصّراتهم في حبك الكلام وإيقاع المناسبة بين أجزائه على مادة نصية تمثّلت أساساً في النص الأدبي بصفة عامّة وفي النص القرآني المعجز بصفة خاصّة عندما يتعلّق الأمر بأولئك الذين يشتغلون في حقل التفسير وعلوم القرآن، فكان همّ هؤلاء العلماء البحث في الوسائل التي تجعل من النص نصّاً مترابطاً وكلاً لا يتجزأ، والأسباب التي تمنحه التجانس والاتساق والتضام بين حروفه وآياته وسوره، وفي ظلّ ذلك: «قدّم العلماء طائفة من التصورات والمبادئ التي ربطت حسن الكلام بحبكه وتناسب المعاني بين أجزائه ويمكن أن نُحمل هذه التصورات في مبدأ انتظام المعاني واتصال الكلام ودلالته على الاستمرارية في النص وأنهم فهموا النصّ وحدةً كليّة مترابطة الأجزاء متجانسة الدلالات والمعاني والمضامين»¹، ومن هذه التصوص القديمة التي تستعمل السبك استعمالاً لا يدع مجالاً للشكّ في كونه معياراً أساسياً في الإحكام والترصّ قول الجاحظ: «وأجود الشعر ما رأيت متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنّه قد أفرغ إ فراغاً واحداً، و سبك سبكا واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان»²، حيث يردف السبك بالاتحام، وقد رأينا تمام حسان كيف ترجم coherence إلى الالتحام و cohesion إلى السبك، وإن كان الجاحظ في معرض حديثه عن الشعر وليس القرآن، وله نصّ آخر يقول فيه: «ونحن - أبقاك الله - إذا ادّعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج، فمعنا العلم أنّ ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة، والرّونق العجيب، والسبك والتحت، الذي لا يستطيع أشعرُ الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلّا في اليسير والتبذ القليل»³، فقول الجاحظ أفرغ إ فراغاً واحداً، وسبك سبكا واحداً معيار رئيس في الحكم على جودة الشعر أو البلاغة والكلام المنثور

1 محمد العبد: النص والخطاب والاتصال - القاهرة - الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي - ط01-1426هـ / 2005م - ص 137.

2 البيان والتبيين - تحقيق وشرح: محمد عبد السلام هارون - القاهرة - مكتبة الخانجي - ط07-1418هـ / 1998م - ج01- ص 67.

3 المصدر نفسه - ج03 - ص 29.

كما بيّنه النص الآخر ومنه حديث القاضي عبد العزيز الجرجاني (ت392هـ) عن الأسلوب والسبب والحكم عن الشعر بالسبب¹ وحديث أبي هلال العسكري عن أبيات النمر بن تولب²، وكلام أسامة بن منقذ في باب سمّاه: الفكّ والسبب³، وقد جاء عن ابن قيم (ت751هـ) كلام عن السبب ومفهومه⁴، ومنه تفضيل ابن الأثير (637هـ) لبعض الأبيات عن أخرى بالسبب⁵، وابن أبي الأصبع (ت654هـ) في مبحث الانسجام⁶، وستكون لنا وقفات عند هؤلاء العلماء وغيرهم في المبحث الخاص بجهود العلماء في التضام لذلك لم نلزم أنفسنا بتتبع النصوص خشية الإعادة والتكرار مكتفين بهذه الإشارات السريعة.

وقد يربط السبب بمعنى الربط عند بعض الباحثين⁷ باعتباره ظاهرة في التراكيب التحوية وردت في اصطلاح النقاد بهذا الاسم، فيكون السبب بمفهوم البلاغيين وتُقاد الأدب ظاهرة لا تقل شأنًا في إحكام صياغة الجملة وتضام مكوناتها، ويكون بمفهوم التحويين ذا وسائل ومظاهر ينظم بعضها ببعض تبعًا للمعاني النحوية، وتعتمد - هذه الوسائل - مبدأ الاعتماد التحوي والذي يأتي «في مستويات صوتية وصرفية وتركيبية ومعجمية ودلالية. كما يتخذ أشكالًا من التكرار الخالص والتكرار الجزئي وشبه التكرار وتوازي المباني وتوازي التعبير والإسقاط والاستدلال، وعلاقات الزمن وأدوات الربط بأنواعها المختلفة، وكل أولئك إنما يتحقق في أنماط متداخلة متعاقبة تتباين من نصّ إلى نصّ، كما تتباين داخل النص الواحد، وجليد بالذكر أن هذه الظواهر بعضها أو جلّها

- 1 الوساطة بين المتبني وخصومه - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد مجاوي - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - د ط - د ت - ص 24. و ص 100.
- 2 ينظر: كتاب الصناعتين - ص 175.
- 3 ينظر: البديع في البديع في نقد الشعر - ص 235.
- 4 ينظر: كتاب الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان - دراسة وتحقيق: محمد عثمان الخشن - القاهرة - مكتبة القرآن - د ط - د ت - ص 219.
- 5 المثل لسائر في أدب الكاتب والشاعر - قدّمه وحقّق وعلّق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة - مصر - دار نهضة مصر - د ط - د ت - ج 01 - ص 164.
- 6 ينظر: بديع القرآن - تقديم وتحقيق: حفي محمد شرف - مصر - نهضة مصر للطباعة والنشر - د ط - د ت - ص 167.
- وكذلك دعوة الخطيب القزويني المتكلّم بأن يتأتق في الكلام في ثلاثة مواضع من كلامه حتى تكون أعذب لفظًا وأحسن سبكًا وأصحّ معنى. ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة - ص 439.
- 7 تمام حسن: الخلاصة التحوية - ص 90، 91.

في التراث البلاغي والتقدي عند العرب أشتاتا وفرادى¹ ، وقد مرّت معنا مباحث التضام المتعلقة بالتركيب والمعجم والدلالة، فلم يتعد مفهوم السبك في هذا الجانب عن مفهوم التضام حول تلازم العناصر بعضها بعضاً على الأقل في البنية السطحية للنص فتكون جودة السبك في مقابل البنية السطحية للنص² أي قيود الجمل المتتابعة تتابعا مباشرا، وبالتالي فالسبك إذا كان بمعنى الترابط التحوي سيعتمد لا محالة على وسائل لغوية هي ما يعتمد التضام من عناصر نحوية نفسها وستبقى مهمة الحبك منوطة بالوحدة والاستمرار الدلالي والتشابك، ومهمة الدلالة والمعنى هي الفرع الثاني من أنواع التضام الذي اصطلح عليه التوارد.

وليس الأمر حكرا على السبك باعتباره مصطلحا له شواهد في تراثنا البلاغي؛ لأن الحبك أيضا قد نال عناية بالغة الأهمية من قبل النقاد والبلاغيين.

وإذا كان الحبك لغويا يعني الشّد والإحكام فإنه في معناه الاصطلاحي: «خاصة من خصائص الارتباط بين الأشياء والأوضاع وبين مراجعها»³ وهو: «أداة لغوية لفهم السبك فهما أعمق نراه في روايات الجاحظ عن بعض منتجي التصوص وفي إشارات ابن قتيبة وابن طباطبا والحسن ابن وهب وأبي هلال وابن رشيق عن الكلام المضموم إلى لفظه والكلام الآخذ بعضه برقاب بعض، وانتظام المعاني وتشاكل المصراعين وإبناء الموارد على المصادر»⁴ وسنقف كذلك عند هؤلاء الأعلام في المبحث الخاصّ بجهودهم ونحاول استعراض ما أمكن منها فيما يتعلّق بالحبك وغيره من القضايا ذات الصلة بموضوع التضام ومعرفة التراث ما إذا كانت ما تزال به إمكانيات مختلفة للتزوّد بأصول مرضية لتطوير علم لغوي نصّي عربي، وأنه ليس دار خربة نسجت عليها العنكبوت في ضوء بعض المنظورات من هذا التراث.

1 سعد مصلوح: في البلاغة العربية والأسلوبيات النصّية، آفاق جديدة-ص 245. ينظر تفصيل هذه العناصر والمصطلحات في مباحثها من ص 245 إلى ص 248.

2 سعيد حسن بحيري: علم لغة النصّ، المفاهيم والاتجاهات - مصر - جامعة عين شمس - الشركة المصرية العالمية للنشر - لوجمان - ط 01-1997م - 226.

3 محمد العبد: النصّ والخطاب والاتصال - ص 174.

4 المرجع نفسه - ص 174.

ما نودّ أن نستخلصه من هذا التنظير حول السبك والحبك وعلاقتها بالتضام أن التضام كما عرفنا فرعيه الاستلزام والتوارد اللذين يبحث أولهما في استدعاء العناصر التحويلية بعضها لبعض، ويعمل على ربطهما على الأقل من الناحية التحويلية هو ما يُصطلح عليه في علم اللغة النصّي¹ السبك المترجم عن *cohésion* أو بتعبير آخر الربط التحويلي²، أمّا الآخر وهو التوارد فيبحث التناسب المعجمي المقابل للحبك المترجم عن *cohérence* أو التماسك الدلالي³؛ وبالتالي فالربط إلى جانب التماسك من هذه الزاوية ما هو نظته يؤدي إلى التضام بشكل عام.

إن اصطلاح السبك والحبك دعا بعض الباحثين إلى وصف القرآن الكريم بهما، فقد قيل في القرآن إته: «سيكة واحدة تأخذ بالأبصار وتلعب بالعقول والأفكار على حين إته مؤلفة من حلقات... لكن على وجه من جودة السبك وإحكام الرصف، جعل من هذه الأجزاء المنتشرة المتفرقة وحدة بديعة متألّفة تريك كمال الانسجام بين كل جزء وجزء، ثم بين كل حلقة وحلقة ثم بين أوائل السبيكة وأواخرها وأواسطها»⁴، وهذه الوحدة والتآلف والتماسك قد رأينا معانيها مجموعة في احتمالات التضام ومدلولاته، ولينظر: «إلى الحرف ملاءمة واحتكاكا وفي الكلمة بين الكلمتين تناسبا واطرادا وفي الجملة إزاء الجملة وضعا وتعليقا»⁵ من أراد من الشعراء أو الكتاب أن ينظم على مثل نظم القرآن، وأنى يتأتى ذلك، تعالى كلام الله عن ذلك علوا كبيرا.

1 إبراهيم صبحي الفقي: علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق - ج1 - ص36، وعلم اللغة النصّي هو ذلك الفرع من فروع علم اللغة الذي يهتم بدراسة النص باعتبار الوحدة اللغوية الكبرى، وذلك بدراسة جوانب عديدة أهمها: الربط والتماسك.

2 إن الربط يمكن أن يتحقّق من خلال أدوات الربط التحويلي (الروابط) أما التماسك فيتحقّق من خلال وسائل دلالية في المقام الأول.. فالأول ذو طبيعة خطية والآخر ذو طبيعة دلالية. ينظر: علم لغة النصّ، المفاهيم والاتجاهات: سعيد حسن بحري - ص122.

3 ينظر: العبارة والإشارة، دراسة في نظرية الاتصال: محمد العبد - القاهرة - مكتبة الآداب - ط01 - 1428هـ/2007م - من ص42 إلى ص46.

4 عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن - ج02 - ص212.

5 مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - ص155.

❖ التضام ومقولات الرّصف والتعليق:

الرّصف بمعنى ضمّ الشّيء إلى الشّيء ونظمه، تراصف القوم في الصّف قام بعضهم إلى لزق بعض، ورصف ما بين رجله قرّبهما¹، و الرّصف عند الجمهور هو مثال أوّل لقولهم: «رصف بين شيئين ضمّ بينهما.. والرّصف حجارة مضمومة في مسيل، وهو يرادف التّضد وذلك لملاحظة التّرتيب والنّظام فيه، ثمّ نُقل إلى علم البيان على سبيل نقل الأسمي الجمهورية إلى الصّنائع الحادثة والمعاني الناشئة فيها من أجزائها لمناسبة موجودة بين المعاني الجمهورية والصّناعية»².

أما التّعليق فإنّه من قولك: عَلِقَ بالشّيء عَلَقًا وَعَلِقَهُ: نشب فيه. والتّعليق من علّق، فإذا قيل علّق بها تعليقاً كان بمعنى ارتبط بها وأحبّها³، وهو في لسان علماء البيان مقول على حمل الشّيء لملازمة بينهما، ولا نريد بالتّعليق الذي يجيء في كتب النّقد والبلاغة بمعنى أن تعلق مدحا بمدح وهجوا بهجو⁴ أو ذلك التّعليق الذي يأتي المتكلّم فيه بمعنى في غرض من أغراض الشّعْر ثمّ يعلّق به معنى آخر من ذلك الغرض يقتضي زيادة معنى من معاني ذلك الفنّ كمن يروم مدحا لإنسان بالكرم فيعلّق بالكرم شيئا يدلّ على الشّجاعة⁵، ولا التّعليق الذي بمعنى إبطال عمل أفعال القلوب لفظاً ولا محلاً وجوباً نحو: علمت أزيداً عندك أم عمرو، بخلاف الإلغاء فإنّ إبطاله لفظاً ومحلاً جوازاً⁶ كما هو عند النّحاة؛ وإنّما نقصد بالتّعليق ههنا تأليف الكلمات وارتباطها على وجه من المناسبة واللّزوم، فإذا تعمّقنا في هذه التعاريف على قلّتها ألفيناها تُعرب عن معاني الضّمّ والتّلفيق دليلنا في ذلك تلك النّصوص المبكّرة للرّصف والتّعليق، يقول الباقلانيّ لبيان وجوه الإعجاز: «ليس الإعجاز في نفس الحروف وإنّما هو في نظمها وإحكام رصفها وكونها على ما أتى به التيّ حصّلي

1 ابن منظور: لسان العرب - مج 09 - ص 144 .

2 أبو محمّد القاسم السّجلماسي: المزعج البديع في تجنيس أساليب البديع - تقديم وتحقيق: علاء الغازي - القاهرة - دار المعارف - ط 01-1401هـ / 1980م - ص 337.

3 أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها - ص 388.

4 أسامة ابن منقذ: البديع في البديع في نقد الشّعْر: باب التّعليق والإدماج - ص 94.

5 ابن أبي الإصبع المصري: تحرير التّحبير في صناعة الشّعْر والنثر وبيان إعجاز القرآن - تحقيق: حفني محمّد شرف - القاهرة - د ط - 1983هـ / 1663م - ص 443. وكتابه: بديع القرآن - ص 171. وابن قيّم: الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان - ص 209.

6 محمّد علي التّهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون - ج 01 - ص 488.

الله عليه وسلم، وليس نظمها أكثر من وجودها متقدمة ومتأخرة، ومرتبة في الوجود وليس لها نظم سواها»¹، حيث يجعل من "عجيب النظم وبديع الرّصف" الوجه الرئيس من وجوه الإعجاز²، فالرّصف يرادف النظم في هذا النص، وغيره من نصوص الباقلاني في كتبه المتعلقة بإعجاز القرآن وبيانه.

ومن هذه النصوص التي تجمع بين الرّصف والتنضيد للاستدلال على بدائع الاستعارات في قوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَبٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾³ ما جاء به الشريف الرضي (ت406هـ) من أنه سبحانه: «شبه القرآن لذلك بالتظام المفصلة التي يوافق فيها بين الأشكال تارة ويؤلف بين الأضداد مرة، ليكون ذلك أحسن في التنضيد وأبلغ في الترصيف، وهذه من بدائع الاستعارات»⁴، والقرآن على هذا المنوال من الرّصف والتضام كلاً، والرّصف قد يكون في وصف الأشعار المحكمة معادلاً للنسج والصياغة⁵، ولقد طالب حازم القرطاجني بـ: «تحسين العبارات والتأنيق في اختيار موادّها وإجادة وضعها ورفضها»⁶.

إنّ ما جئنا به في هذا الصّد لا يعدو أن يكون فيضا من غيض، ثمّ قمين بالذكر أن يكون التعليق الفكرة المركزية في النحو العربي⁷ وأن «أدكى محاولة لتفسير العلاقات السياقية في تاريخ التراث العربي إلى الآن هي ما ذهب إليه عبد القاهر صاحب مصطلح التعليق، وقد كتب دراسته الجادة في دلائل الإعجاز تحت عنوان النظم، وأورد في هذه الدراسة أربعة مصطلحات هي: النظم

1 التمهيد- ص 151. أخذنا عن: حمّادي صمّود: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوّره إلى القرن السادس (مشروع قراءة) - ص 493.

2 ينظر: نكت الانتصار لنقل القرآن- دراسة وتحقيق: محمد زغلول سلام - الإسكندرية- منشأة المعارف- د ط - د ت - ص 59.

3 سورة هود - الآية 01.

4 تلخيص البيان في مجازات القرآن - تحقيق وتقديم: علي محمد مقدّم - بيروت - دار مكتبة الحياة - د ط - 1984م - ص 101.

5 ابن طباطبا: عيار الشعر - ص 32. وينظر موضوع الرّصف في ص 119.

6 منهاج البلغاء وسراج الأدباء - ص 222.

7 تمام حسّان: اللغة العربية معناها ومبناها - ص 188

والبناء والترتيب والتعليق»¹، وصلة التعليق بقريفة التضام من هذه الجهة أن فهم التعليق في نظر تمام حسان: «كاف وحده للقضاء على خرافة العامل التحوي أو العوامل التحوية لأنّ التعليق بواسطة القرائن يحدّد معاني الأبواب التحوية في السياق»²، ولقد تصدّى للتعليق التحوي بالتفصيل تحت عناوين (العلاقات السياقية) أو ما يسمّيه الغربيون syntagmatic relation ، والقرائن اللفظية، وهذان البابان هما مناط التعليق، وإنّ أهمّ ما وصل إليه الدرس التحوي نظريتان بارزتان هما نظرية التعليق، ونظرية تظافر القرائن³، وهي ما عبّر عنه عبد القاهر بمصطلح الاتّصال ، أمّا نظرية التعليق فهي نظرية تركيبية محكمة توصل إليها في دلائل الإعجاز، والمواضع التي تحدّث فيها عن التعليق والنظم كثيرة، منها قوله: «.. معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض، والكلم ثلاث؛ اسم وفعل وحرف، ولتعلّق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام، تعلّق اسم باسم، وتعلّق اسم بفعل، وتعلّق اسم بفعل وتعلّق حرف بهما»⁴، وقد مرّ معنا هذا النصّ في أكثر من موضع، وها هو نصّ آخر يربط فيه بين ضمّ الكلم وتعليقها: «ذلك لأنّه ليس من عاقل يفتح عين قلبه إلاّ وهو يعلم ضرورة أنّ المعنى في ضمّ بعضها إلى بعض تعليق بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، لا أن ينطق بعضها في إثر بعض من غير أن يكون فيما بينها تعلّق... وكان يكون المراد في إثر بضمّ بعضها إلى بعض تعليق معانيها بعضها ببعض، لا كون بعضها في النطق في إثر بعض»⁵. فقد أعرب النصّ الأوّل عن ركن ركن أساس من أركان نظرية النظم هو ركن التعليق التحوي ويبيّن فيه طرائق هذا التعليق فالألفاظ «لا توضع متجاورة دون تعلّق بعضها ببعض، وإنّما يرتبط بعضها ببعض بعلاقات نحوية»⁶، فاللغة لا تتشكّل من مجموعة من الكلمات متجاورة من غير أساس، بل هي شبكة مترابطة من علاقات وكلّ علاقة منها لها دلالتها وخصوصيتها، ولهذا أولى عبد القاهر عناية كبيرة

1 المرجع السابق - ص 186.

2 المرجع نفسه ص 186.

3 مصطفى حميدة: نظام الارتباط والرّبط في الجملة العربية ص 11.

4 دلائل الإعجاز - ص 14.

5 المصدر نفسه - ص 336.

6 محمود أحمد نخلة: في البلاغة العربية، علم المعاني - ص 28، 29.

لما بين المفردات من علاقات، وأنّ هذه الأخيرة تحصل من ارتباط الكلم وتضامّ بعض أجزائها إلى بعض أو تراصّها بطرق معلومة ليتميّز نظم عن نظم.

وفيما يلي سنتعرّف على جهود ثلاثة من العلماء نحسبهم أثروا الدرس البلاغي، بالخصوص إذا تعلّقت كتاباتهم بإعجاز القرآن من حيث النظم والتأليف، بعدما وقفنا عند نظرية النظم وجهود بعض العلماء في النظم والتضام.

وهؤلاء الأعلام: أبو بكر الباقلاني (ت403م)، والقاضي عبد الجبار (ت415م)، وعبد القاهر الجرجاني (ت471م).

• جهود أبي بكر الباقلاني في التضام:

لقد تصدّى الباقلاني (ت403م) لمسألة النظم ضمن بحثه قضية الإعجاز، التي شغلت من مؤلفاته ثلاثة كتب رئيسة هي: إعجاز القرآن، الانتصار، والتمهيد، بيد أن كتابه "إعجاز القرآن" كان أقربها إلى موضوع النظم والتأليف، وأوفرها مادة وتحليلاً، لذا سننكئ في هذا المبحث على ما جاء في هذا الكتاب، في محاولة إبراز أهم المحطّات الكبرى التي أرجع فيها الإعجاز إلى النظم العجيب والتأليف البديع، وربط هذا بالتضام، سواء بين الحروف أو الكلمات أو الجمل.

تناول الباقلاني مادة الضمّ والتضام في كتابه في أكثر من موضع، وجعلها مرادفة للجمع والاقتران، ومن هذه المواضع قوله: «...ومعنى رابع وهو أنّ كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيننا في الفصل والوصل، والعلوّ والتزول، والتقريب والتبعيد، وغير ذلك ممّا ينقسم إليه الخطاب عند النظم، ويتصرّف فيه القول عند الجمع والضمّ»¹، والمتّبع لمفهوم الإعجاز عند الباقلاني يجده يرفض فكرة الإعجاز البلاغي الذي يتعرّض للتحليل الجزئي للعبارة، فليس الإعجاز عنده في: «الحروف وإنّما هو في نظمها وإحكام رصفها، وليس رصفها أكثر من وجودها متقدّمة أومتأخّرة، ومرتّبة في الوجود وليس لها نظم سواها، وهو كتتابع الحركات، ووجود بعضها قبل

بعض، ووجود بعضها بعد بعض»¹، فإذا ما حدثت وأُفردت كلّ كلمة في القرآن بنفسها وجدتها تصلح أن تكون عين رسالة، أمّا إذا أُلّفت ازدادت حسنا وإحسانا، وفي هذا الصّدّد يقول: «ثمّ في آية آية، وكلمة كلمة، هل تجدها كما وصفنا من عجيب النّظم وبديع الرّصف؟ فكلّ كلمة لو أُفردت كانت في الجمال غاية، وفي الدلالة آية، فكيف إذا قارنتها أخواتها، وضامتها ذواتها، ممّا تجري في الحسن مجراها، وتأخذ في معناه، ثمّ من قصّة إلى قصّة، ومن باب إلى باب، من غير خلل يقع في نظم الفصل والوصل، وحتىّ يصوّر لك الفصل وصلا ببديع التّأليف وبلغ التّرتيل»²، فلعله اتّضح لك الآن ما يؤدّيه تضامّ الكلمات واقتراها بعدما تكون مفردة، بل إنك ترى الكلمة: «تدلّ على نفسها وتعلو على ما قرّن بها لعلو جنسها، فإذا ضُمَّت إلى أخواتها، وجاءت في ذواتها أرتك القلائد منظومة كما كانت تريك- عند تأمل الأفراد منها- اليواقيت منشورة والجواهر مبثوثة»³ فلم يدع مجالاً للشكّ في أنّ تضامّ الكلمات هو الذي ينهض بالتّركيب ويسمو به إلى حدّ الإعجاز، بل ويزيد من جمال المفردة ورونقها بعدما كانت مفتقرة إلى ذواتها، حتّى إذا ضامّت أخواتها خرج الكلام إلى منتهى النّظم وشريفه، وغاية التّأليف وبديعه، وأحسن الرّصف وعظيمه.

فهذه ثلاثة نصوص يستعمل فيها الباقلانيّ مادّة الضّم للدلالة على إعجاز القرآن من حيث نظم كلماته وتأليفها ورففها، وأنّ المزيّة تحدث بتضامّها واقتراها بعضها ببعض، واستعمال بعضها في إثر بعض، إلى جانب الكثير من التّصوص التي يلح فيها على التّلاحم البياني بين الجمل وفصول الكلام.

• جهود القاضي عبد الجبار المعتزلي في التضامّ:

لقد اتّخذ القاضي عبد الجبار (ت415هـ) طريقة مخالفة لسابقه في تناول إعجاز القرآن⁴ فلم يركّز اهتمامه إلاّ على جهة الفصاحة، فكان الجزء الخاصّ بإعجاز القرآن من كتابه "المعني" موجّها

1 أبو بكر الباقلاني: التمهيد- ص 126. أخذنا عن: أحمد جمال العمري: المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز، نشأتها وتطورها حتى القرن الرابع الهجري- القاهرة- مكتبة الخانجي- د ط - 1410هـ/1990م. ص 210.

2 إعجاز القرآن - ص 190.

3 المصدر نفسه - ص 205.

4 ينظر: الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرقي، دراسة قرآنية لغوية وبيانية: عائشة عبد الرّحمان بنت الشاطي - مصر - دار المعارف - 1404هـ/1984م - ص 107.

إلى معرفة فصاحة القرآن، فكثرت نصوصه التي تقول بالفصاحة، وكونه معتزلاً ظل متمسكاً بمصطلح الفصاحة يقابل به ما استعمله الأشاعرة كالنظم الذي نادى به الباقلاني مثلاً، إلا أن عبد الجبار لم تخل دراسته من الإشارة إلى النظم، بل إن الفصاحة تردُّ عنده بمعنى النظم بحيث لا تُردُّ إلى لفظ أو معنى، بل إلى ضمّ الكلمات بعضها إلى بعض على نحو مخصوص، يقوم على تحيّر الألفاظ ومواقعها وإعرابها، فتجده يقول في هذا النص: «إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضمّ، ولا بدّ مع الضمّ من طريقة مخصوصة، ولا بدّ مع الضمّ من أن يكون لكلّ كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضع التي تتناول الضمّ، وقد يكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع، لأنه إما أن نعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو مواقعها، ولا بدّ من هذا الاعتبار في كلّ كلمة، ثم لا بدّ من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضمّ بعضها إلى بعض، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها ومواقعها، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداه»¹ ليفصح عن مفهوم النظم الذي هو مناط الإعراب لا تظهر قيمته إلا بضمّ الكلمات إلى أحوالها، وهذا هو مراد التضام عينه، وواضح من هذا النص أنه: «ينظر إلى الكلمة نظرتين باعتبارين مختلفين؛ نظرة في حال أفرادها، ونظرة في نظمها مع غيرها من الكلام»² وفي كلا الحالتين واقعة تحت تلك الأحوال الثلاثة.

يُعدُّ النظم عند القاضي عبد الجبار سبباً لفصاحة الكلام من جهة، ووجهاً يقع به التفاضل في الفصاحة من جهة أخرى، إذ لا بدّ للأديب الذي يروم سبق غيره: «أن يعلم أفراد الكلمات وكيفية ضمّها وتركيبها ومواقعها، فبحسب هذه العلوم والتفاضل فيها يتفاضل ما يصحّ منهم من رتب الكلام الفصيح»³، فانظر كيف يستعمل الضمّ بمعنى التركيب ويجعله وراء تفاضل رتب الكلام الفصيح. وفيما يلي استعماله لمادّة (ضم) ومشتقاتها في الجزء السادس عشر الخاص بإعجاز القرآن:

1 المعنى في أبواب التوحيد والعدل - ج16 - ص 199.

2 عبد الكريم الخطيب: إعجاز القرآن، الإعجاز في دراسات السابقين، دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها - بيروت - دار الفكر العربي - د ط - د ت - ص 226.

3 المعنى في أبواب التوحيد والعدل - ج16 - ص 208.

الصفحة	أداة (ضمم) ومشتقاتها
157	حتى اجتهدوا في ضم ذلك
162	ضم إلى القرآن
165	فُضم إلى مواضع من السور
199	إنما تظهر في الكلام بالضم
199	ولا بد مع الضم
199	بالمواضع التي تناول الضم
199	إذا انضم بعضها إلى بعض
199	عند الانضمام
208	أن تعلم أفراد الكلمات وكيفية ضمها وتركيبتها
210	إذا انضم بعضها إلى بعض
211	إذا انضم بعضه إلى بعض
212	إذا انضم بعضه إلى بعض
212	وبين ما إذا انضم بعضه إلى بعض
213	كيفية ضمّه
223	إذا ضم على طريقة من الصور المختلفة
301	أن يضموا
351	يضمون إليه

لقد استطاع القاضي عبد الجبار أن يخلص "المصطلح من الملابس المعنوية التي حُفَّت به في استعمالات الباقلاني وكرّسه للدلالة على طرق التركيب اللغوي وكيفية ضمّ أفراد الكلمات"¹ وأن يحدّد مفهوما للفصاحة يبيّن به إعجاز القرآن الكريم بردها إلى جزالة اللفظ وحسن المعنى وربطها بالنظم، وأنها لا تظهر في أفراد الكلمات، وإنما بتضامها وتركيب بعضها إلى بعض وتعليق بعضها ببعض، وسنقف فيما يلي عند جهود عبد القاهر الجرجاني في تعرّضه لتأليف الكلمات وتضامها، بعد أن تناولنا قضية التضام في ضوء نظرية النظم وجهود سابقيه الباقلاني والقاضي عبد الجبار.

• جهود عبد القاهر الجرجاني في التضام:

لقد بنى عبد القاهر تفكيره اللغوي على أساس العلاقات التي تحدث بين الكلم، ولم يول اهتماما بالألفاظ مفردة، بل ظلّ ينادي بما تُحدِثه هذه الألفاظ من تراكيب وعلاقات، وراح يبسط القول في كتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" من أنّ اللّغة ليست مجموعة من الألفاظ، وإنما مجموعة من العلاقات تحدث بتضام هذه الألفاظ وتعلّقها ببعضها، وقد مرّ معنا أكثر من نصّ يشهد على صحّة هذا.

نفى عبد القاهر النّظر إلى المفردة قبل دخولها في التّأليف، ورأى أن لا سبيل إلى إفادتها إلّا بضمّها إلى أحواتها، وبناء بعضها على بعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، وفي ذلك يقول: "ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التّأليف، وقبل أن تصير إلى الصّورة التي يكون بها الكلم إخبارا وأمرا وهما، واستخبارا وتعجّبا، وتؤدّي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلّا بضمّ كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة"²، وها أنت تراه يبرهن على ما ذهب إليه بشواهد قرآنية وشعرية، فتجده يقف عند قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ وَيَسْمَأْ

1 حمّادي صمّود: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس المحجري - ص 494.

2 دلائل الإعجاز - ص 50.

أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ¹

فيقول: «... فتجلى لك الذي ترى وتسمع، وأنتك وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة وهكذا إلى أن تستقرها إلى آخرها، وأن الفضل نتائج ما بينها وحصل من مجموعها»²، وتجده يقف عند بيت لامرئ القيس يعيد ترتيبه ونظمه فيقول: «فقل في: (قفا نيك من ذكرى حبيب ومترل): من نيك قفا حبيب ذكرى مترلي، ثم انظر هل يتعلّق منك فكر بمعنى كلمة منها؟ واعلم أنّي لست أقول: إنّ الفكر لا يتعلّق بمعاني الكلم مفردة أصلاً، ولكنّي أقول: إنّ لا يتعلّق بها مجردة من معاني النحو»³ فإذا كانت الألفاظ لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، فمعنى ذلك أن: «الفكر لا يتعلّق بمعاني الألفاظ في أنفسها، وإنّما يتعلّق الفكر بما بين المعاني من علاقات، وهذه العلاقات ليس إلا معاني النحو»⁴ فأصبح الاهتمام بالروابط التحوية وعلاقات الكلمات تجاوزاً وتباعداً من أساسيات نظرية النظم عنده، لذلك قال في النصّ الأوّل بارتباط الكلم و نادى في النصّ الآخر بمعاني النحو عند هذا الارتباط ووجوب مراعاة ترتيب الكلم ونظمها، وقد رأينا قبلاً علاقة التضام بالتعليق والترابط التحوي، وأن كلاهما يهتم بتأليف الكلم وتضامها وتعليق وبناء بعضها ببعض، وأن دخول النحو يكفل بتحقيق الهدف التنظيمي دون الإخلال بالجانب الدلالي، وهو ما يقوله نصّ آخر يجمع فيه بين الأمرين: «وإذ قد عرفت أنّ مدار النظم على معاني النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه فاعلم أنّ الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية تجد لها ازديادا بعدها، ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثمّ بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع

1 سورة هود - الآية 44.

2 دلائل الإعجاز - ص 51.

3 المصدر نفسه - ص 298.

4 محمّد عبد المطلب: النحو بين عبد القاهر وتشومسكي - مجلّة فصول - مج 05 - ع 01 - 1984م - ص 28

«بعض»¹، ففي قوله "موقع بعضها من بعض" إشارة إلى ما سماه النحاة الرتبة، أمّا قوله "استعمال بعضها مع بعض" فإشارة إلى أمر التضام وهو موضوع بحثنا.

إنّ مفهوم الجرجاني للتضام والتضام يدفعنا إلى قراءة بعض نصوص "دلائل الإعجاز" ومقارنتها بما جاء به القاضي عبد الجبار عن مفهوم الفصاحة، ولئن كان هذا الأخير ردّ إعجاز القرآن إلى فصاحته بجزالة اللفظ وحسن المعنى وبالتضام على طريقة مخصوصة؛ فإنّ عبد القاهر يعرض به دون أن يسمّيه، ويعرض بمن ينادي باللفظ وبالتضام على طريقة مخصوصة في أكثر من موضع في كتابه، مُرجعا مفهوم الضمّ إلى توحي معاني النحو ليس إلّا، حيث يقول: «وذلك أنهم قالوا: "إنّ الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات وإنّما بالتضام على طريقة مخصوصة" فقولهم "بالتضام" لا يصلح أن يراد به التطق باللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنيهما، لأنّه لو جاز أن يكون لمجرد ضمّ اللفظ إلى اللفظ تأثير في الفصاحة لكان ينبغي إذا قيل: "ضحك حرج" أن يحدث في ضمّ "حرج" إلى "ضحك" فصاحة، وإذا بطل ذلك لم يبق إلّا أن يكون المعنى في ضمّ الكلمة إلى الكلمة توحي معنى من معاني النحو، وقولهم "بالتضام على طريقة مخصوصة" يوجب ذلك أيضا»² بله تجده يتصدّى لمن شبه ضمّ الكلم وتأليفها بضمّ غزل الإبريسم بالقدح والتفنيد إذ يقول: «وإنّا لنرى أن في الناس من إذا رأى أنّه يجري في القياس وضرب المثل أن تُشبهَ الكلم في ضمّ بعضها إلى بعض، بضمّ غزل الإبريسم بعضه إلى بعض، ورأى أنّ الذي ينسج الديباج ويعمل النقش والوشى لا يصنع بالإبريسم منه شيئا غير أن يضمّ بعضه إلى بعض، ويتخيّر الأصباغ المختلفة المواقع التي يعلم أنّها إذا أوقعها فيها حدث له في نسجه ما يريد من النقش والصورة، جرى في ظنّه أنّ حال الكلم في ضمّ بعضها إلى بعض وفي تخيّر المواقع لها حال خيوط الإبريسم سواء، ورأيت كلامه كلام من لا يعلم أنّه لا يكون الضمّ فيه ضمّا ولا الموقع موقعا، حتّى يكون قد تُوحيّ فيها معاني النحو، وأنك إن عمدت إلى ألفاظ فجعلت تتبع بعضها بعضا من غير أن تتوحيّ فيها معاني النحو لم تكن صنعت شيئا تدعى به مؤلفا، وتُشبهَ معه بمن عمل نسجا أو صنع على الجملة صنيعا، ولم

1 دلائل الإعجاز - ص 81.

2 المصدر نفسه - ص 286.

يتصور أن تكون قد تُخَيِّرْت لها المواقع¹، ونصوصه عن الضمّ كثيرة نكتفي منها بإحصاء استعمالاته لمادّة (ضمم) ومشتقاتها في كتابه "دلائل الإعجاز":

الصفحة	مادّة (ضمم) ومشتقاتها
13	قد ضُمّ
46	وضُمّ
46	وضُمّ
50	بضمّ
54	ضمّ
66	يضمّمونه
81	وينضمّ
87	في ضمّ
88	فضممت
130	مضمومة
154	وينضمّ
165	فضمته
165	أن تضمّها

1 المصدر السابق - ص 271.

166	لضمّ
166	ويضامه
167	وتضمّه
173	ومضاماً له
173	مضمومة
174	إلى ضمّ
174	يضمه
187	مضموماً إليه
188	مضموماً
261	في انضمام
271	في ضمّ
271	بضمّ
271	أن يضمّ
271	في ضمّ
271	يكون الضمّ
271	فيها ضمّاً
272	في ضمّ
272	عن ضمّ

286	بالضَّمّ
286	بالضَّمّ
286	ضمّ
286	في ضمّ
286	في ضمّ
336	إذا ضُمّ
336	في ضمّ
336	إذا ضُمّ
336	بضمّ
340	مضموما
389	آنك تضمّ
389	قد ضممت
389	كمن يضمّ
390	بانضمام
390	بانضمام
393	لأن يضمّ
395	إذا ضمته

يظهر للعيان أنّ معاني الضّم لم تبقى متداولة عند القاضي عبد الجبار لتظهر بها مزيّة الفصاحة فقط، بل استعملت بمعنى التّأليف والتّركيب والبناء والتّعليق، وكانت جنباً إلى جنب مع التّظّم كون أحدهما ممّا يجب توخّي معاني التّحو فيه، فتوخي معاني التّحو شرط أساس في تضامّ الكلمات بعضها إلى بعض، ثمّ إنّ استعمالات عبد القاهر لمادّة الضّمّ والتّضام تفوق استعمالات القاضي عبد الجبار لها على الرّغم من اهتمام عبد القاهر بالتّظّم ومعاني التّحو والتّعليق في بيان إعجاز القرآن، إلاّ أنّ هذا لم يمنعه من أن يجاري سابقه وحقّ له أن يجوز قصب السّبق في مسألة التّضام وغيرها من مسائل التّظّم والإعجاز.

رابعاً: التّضام في الدّرس اللّساني الحديث:

01. التّضام والمنهج الوصفي.

لقد أطلّت إلى سماء الدّراسات اللّغوية الحديثة مناهج جديدة ترفض القديم، وتقصدح في الدّراسة التاريخية للغة، والمعايير المجرّدة، وأصبحت تعتمد الدّراسة الوصفية الآنية للغة، وتوجّه الاهتمام إلى العلاقات المؤلّفة للكلام، والتّعمّق إلى مداخل النّص، ورفض كلّ ما تعلق بالتّصورات السّابقة لهذا النّص، وهكذا اللّغة فإنّ: «صاحبها لا يحتاج أن يعرف شيئاً عن اشتقاق كلمة أو تاريخها كي يستعملها، ومن ثمّ فإنّ تناول اللّغة ينبغي أن يكون أفقياً أو على القطع الأفقي، ومنذ ذلك الحين وجد مصطلحا diachrony و synchrony طريقهما إلى البحث اللّغوي ليشير الثّاني منهما إلى المنهج الوصفي»¹، وفي إثر ذلك قامت أصول ونظريات في أوروبا على أنّ اللّغة مجموعة من العلاقات، بدء من المقال الذي نشره "موكارفسكي" عن «اللّغة المعيارية واللّغة الشعريّة» منذ 1932م حيث أكّد «أنّ الفنّي يتحقّق بتتابع العلامات حيث ترتبط كلّ علامة جزئية أو كلّ علامة جديدة بما سبقها من علامات لتؤثّر فيما بعدها»²، أي إنّ مهمّة اللّغوي البحث في العلاقات التي تنتجها اللّغة بين الأشياء، وهذا هو مذهب العالم السويسري "فردناند دي

¹ عبده الرّاجحي : التّحو العربي والدّرس الحديث - ص 29، 30.

² عبد الجليل مرتاض: في عالم النّص والقراءة - ص 215. وص 220.

سوسير (Ferdinand de Saussure) ¹ . وقد دأب معظم اللغويين « بشكل شائع أن يعدُّوا كتابه "محاضرات في علم اللغة العام" "cours de linguistique générale" الحدَّ الفاصل الذي بدأت معه التّرعّة الوصفية في الدّراسات اللّغوية ² » حيث ينادي بوصف المدوّنة دون اللّجوء إلى أحكام المنع والزّجر والتّغليط، ويرفض المعيارية التي تخضع لاقتضاءات الفكر المنطقي والتّقليد التاريخي ³، ومن هنا كانت « الرّغبة ملحة في أيامنا هذه إلى بناء الدّراسات اللّغوية على منهج له فلسفته وتجاربه إرضاءً للرّوح العلمية الخالصة من جهة؛ وتوفيراً لجهود عشاق اللّغة من جهة أخرى ⁴، وبالفعل ظهرت في الدّراسات العربية بحوث تفصيلُ بين المعيارية والوصفية كما هو الحال عند تمام حسان في كتابه "اللّغة بين المعيارية والوصفية"، على الرّغم من إفراطه في مقارنة اللّغة بلعبة الشّطرنج ⁵ وانسياقه إلى تحريجات فارق بها دقائق التّشخيص؛ لأنّ « متكلم اللّغة بعيد كلّ البعد عن مماثلة لاعب الشّطرنج، فمستعمل اللّغة بالسّليقة غير واع بقواعدها مطلقاً لاسيما في مستوى الاكتساب بالأومّة والاستخدام بالملكة، أمّا لاعب الشّطرنج فمقطوع به بأنّه لا يمارس اللّعبة إلّا بعد أن يمسك عن وعي بقواعدها ⁶، ومبتغانا من هذا التّقديم إنّما هو الإشارة إلى المنهج الوصفي دون التّظر في بداياته و تاريخه وتطوّره أو أثره في الدّراسات؛ ليتسنى لنا الكلام عن التّضام في ضوء هذه المناهج والتّطرّق إلى أهمّ مقولات هذا الدّرس اللّساني الحديث.

• التّضام والعلاقات الأفقية والاستبدالية :

لقد ارتبط اسم الدّراسة الوصفية بمحورين بارزين هما المحور الرّاسي أو محور التّقليب diachronic والمحور الأفقي أو محور التّركيب synchronic بحيث يرسم متقاطعين هكذا ⁷:

1 محمّد مندور: التّقد المنهجي عند العرب - مصر - مطبعة دار نهضة مصر - د ط - 1969م - ينظر المصفحات: 333. 338.

2 محمّد عبد العزيز عبد الدّائم: التّظرية اللّغوية في التّراث - ص 63.

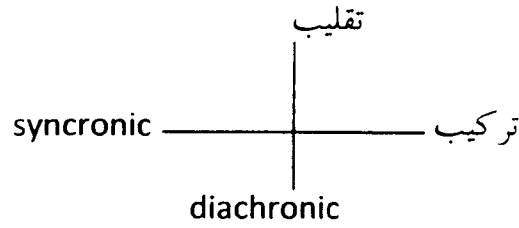
3 ينظر: العلاقات التّركيبية في القرآن الكريم، دراسة وظيفية: سعدي الزّبير - ص 13. 16.

4 محمّد عبّاس: المصطلح اللّغوي عند تمام حسان - ص 209، 210.

5 ينظر : مقدّمة كتابه. ص 03.

6 عبد السّلام المسديّ: اللّسانيات وأسسها المعرفية - ص 70.

7 تمام حسان : البيان في روائع القرآن - ص 148.



والمقصود بهذين المحورين أن: «العلاقات في داخل نظام اللغة لها أهميتها الخاصة.. وإنّ العلاقة التركيبية مثلا تحكّم الترابط بين مفردات الجملة وعناصر النص، وأنّ العلاقة التقلّيبية مثلا أيضا تكشف عن النوع في داخل المصنوفة أو الجدول»¹، وما يتّصل بموضوعنا هو تلك العلاقات الأفقية أو العلاقات الساناجمتية syntagmatic relation وهي علاقات مرادفة للعلاقات التّضاميّة والعلاقات التّرتيبية، وإذا كانت العلاقات التّرتيبية واضحة باستطاعتنا أن نلاحظها من نظام ترتيب الكلمات في الجمل، فإنّ العلاقات التّضامية ليس على القدر نفسه من الوضوح، بل لا بدّ من مقارنة مجموعة مرتّبة من الجمل بعضها مع بعض، ومثلما وقفنا سابقا عند نصّ للجرجاني يتبع كلامه عن موقع بعض الكلم من بعض باستعمال بعضه مع بعض؛ فإنّ هذين النوعين من العلاقات في نظر الغريين «مما لا يصعب فصلهما عن بعضهما بعضا، لأنّ كلّ منهما يلازم الآخر ملازمة الظلّ لصاحبه»² بيد أنّنا عند التّضام ندرس حالة واحدة فقط، هي إمكانية أن تتضام الكلمة(س) مع الكلمة (ص) في حين إنّنا عند التّرتيب ندرس أحوالا أخرى هي ما مدى إمكانية أن تأتي (ص) قبل (س) وهل هذه الإمكانية جائزة أم واجبة³، إذ التضام بحث في كلمتين متتابعين، والتّرتيب بحث في متتابعين أو متباعدتين.

إنّ هذه العلاقات التّضامية هي التي تسمح بالكلام أن يطول ويمتدّ، وإنّ الذي يصغي إلى هذا الكلام ليعجب من رؤيته ممتدّا إلى غير حدود، وعلى الرّغم من أنّك لو حاولت تحليل هذا الكلام عندما ينقطع المتكلّم عنه وجدته يتكوّن من أبنية صغيرة الحجم قد تكون جملا أو أصغر

1 المرجع السابق - ص 150

2 جلال شمس الدين: الأنماط الشكّلية لكلام العرب، نظرية وتطبيقا، دراسة بنوية - ص 150.

3 المرجع نفسه - ص 117.

من ذلك أو أكبر، إلا أن هذا البناء لا يأخذ من الوقت عند التّطرق به سوى الشّيء القليل، فما الذي يجعل الكلام يطول هكذا؟ إنّ الذي يَسرّ طول الكلام وامتداده هو "التّضام"¹، وهو أن كلمة من قسم ما تقبل أن تُسبق أو تتلى من قسم آخر، ولا تقبل أن تُسبق أو تتلى من قسم آخر بحيث يمكن أن تصبح هذه الخاصية علاقة شكلية لتمييز أقسام الكلام، الأمر لاحظناه في استعمال هذا المعيار عند ابن مالك وابن هشام التّحويّين في تقسيمهما للكلمة وتعريفهما للاسم والحرف في المبحث الأوّل والثاني من هذا البحث، ولقد ذهب المحدثون في هذه القضية مذهب ابن مالك مثلاً فعلى حين إنّ العلوم الطّبيعية - فيما يقول دي سوسير - تبدأ تصنيفها بوصف كلّ وحدة من الوحدات، نجد أن وصف عناصر اللّغة لا يمكن أن يتمّ إلاّ بالنّظر إلى علاقة كلّ عنصر بما عده من العناصر الأخرى، نظراً لأنّ أحداً من هذه العناصر لا يملك أية قيمة ذاتية لهم بتقابله مع باقي العناصر الأخرى². فعلاقة التّضام مسؤولة عن تسلسل الكلام وترابط أجزائه واستمراره، وهي التي تكشف عن خصائص التّسيخ اللّغوي التي تميّز به لغة ما في تجاوز كلماتها وتآلفها عن لغة أخرى.

إنّ استعمال علم اللّغة للمحور الأفقي قد ارتبط بعلاقات أجزاء التّركيب بعضها ببعض وهو ما يعدّ من قبيل القرائن التّحوية، كالموقع الإعرابي، وعود الضّمير، ورتبة الكلمة، وافتقارها إلى مدخولها واختصاصها به، وكتحديد ما إذا كانت العلاقة بين اللفظين علاقة إسناد أو تعديّة أو إضافة³، والعلاقة التّركيبية في أبسط تعريفها «هي علاقة أفقية بين مفردات الجملة»⁴، ولقد وجد تمام حسّان أنّ نظام التّحو ينمّي في داخله التّقليبية ويثريها فعّدّل الشّكل السابق إلى هذا الشّكل⁵:

1 ينظر: المرجع السابق - ص 113.

2 ينظر: مشكلة البنية: ميشال زكريا-ص 52. أخذنا عن المرجع نفسه - ص 116.

3 ينظر مقال: المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة: تمام حسّان - مجلّة فصول - مج 07 - العددان 03، 04 - 1987م - ص 23.

4 تمام حسّان: البيان في روائع القرآن - ص 151.

5 المرجع نفسه - ص 151.

وكلّ واحدة من هذه الاستعمالات (المعاقبة والتضاد والتكامل) فروع على العلاقة التقليدية، وجميع ذلك يقف بإزاء التابع الذي هو مظهر العلاقة التركيبية، و التابع إنّما: «يفهم في العلاقات التي تقوم على السطر بين عناصر أنماط الجمل والمركبات وبين التابع والمتبوع... والفصل والوصل، كل موقع من هذه المواقع إنّما يقوم بين عنصرين من عناصر النص أفقياً على السطر لا رأسياً في الجدول»¹، فعلاقتنا التقليب والتركيب ذاتا صلة وثيقة بقرينة التضام التي من خلالها نعرف إمكان التوارد والمعاقبة والتنافي أو التضاد والتكامل، على أن التابع هو المسرح الأصيل لقرينة التضام في السياق²، ولئن كان الغربيون اعتمدوا هذه المناهج في دراسة اللغة وبنوا دراساتهم على أساس هذين المحورين فإنّ الدرس اللغوي في موروثنا العربي كان على قدر كبير من الاهتمام في المجال، ولا بأس أن نورد هنا نصّاً لأحد الدارسين الغربيين يقول فيه: «إنّ اختيار الكلمات يحدث بناء على أسس من التوازن والتماثل والاختلاف، وأسس من الترادف والتضاد، بينما التآليف وهو بناء للتعاقب فهو يقوم على التجاور بين الكلمات»³، فهذا النصّ يستعمل مصطلحات التعاقب والاستبدال، وقد تبعه في ذلك الدارسون العرب⁴، في حين يكفينا الرجوع إلى هذه المصطلحات إلى مضائتها في كتب اللغويين القدامى، وكان يمكن تتبّع مصطلحي "الحوار والاختيار" في التراث العربي عند أمثال الخطّابي وقدامة بن جعفر وعبد القاهر والسكاكي وحازم القرطاجني لرى مدى التداخل بينهما وبين ما مرّ معنا من مصطلحات التعاقب والاستبدال.

لم يكن عبد القاهر الجرجاني - مثلاً - في دراسته للنّظم والتعليق بعيداً عن ذينك المحورين، وإنّ ما شاع في الدراسات الغربية باسم المحور الأفقي هو محور النّظم نفسه، الذي يعبر عنه بالمجاورة أو الضّم والتآليف. وإنّ ما يقابل محور الاستبدال عند عبد القاهر على الأقل هو ما جاء تحت عنوان الاختيار، وقد عقد زكي العشماوي مقارنة فريدة بين عبد القاهر الجرجاني وبعض ما

1 المرجع السابق - ص 153.

2 المرجع نفسه - ص 154.

3 هذا النصّ لرومان ياكسون، ورد عند: عبد الله الغدامي: الخطيئة والتكفير - ص 25. أخذنا عن: عبد العزيز حمودة: المراسم المقرّرة، نحو نظرية نقدية عربية - ص 248.

4 يعرض عبد العزيز حمودة بعد الله الغدامي وكمال أبي ديب لانسياقهما وراء المصطلح الغربي الحديثي، وتجاهل المصطلح العربي. ينظر: المرجع نفسه - ص 249.

انتهى إليه كثير من النقاد الغربيين في دلالة الألفاظ وارتباط بعضها ببعض حيث يقول: «فلو أننا قرأنا الفصلين الأولين من كتاب "فلسفة اللغة" للنقاد الإنجليزي المعاصر أ.أ. ريتشاردز لوجدنا أن كل ما يحاوله في هذين الفصلين لا يخرج عما قاله عبد القاهر فيما يتعلق بقضية النظم وعلاقة الكلمات ببعضها. يقول ريتشاردز: "إن التغمّة الواحدة في أي قطعة موسيقية لا تستمد شخصيتها ولا خاصيتها المميزة لها إلا من التغمات المجاورة لها، وإن اللون الذي نراه أمامنا في أي لوحة فنية لا يكتسب صفته إلا من الألوان الأخرى التي صاحبتة وظهرت معه، وحجم أي شيء وطوله لا يمكن أن يقدرا إلا بمقارنتهما بحجوم وأطوال الأشياء الأخرى التي تُرى معها وكذلك الحال في الألفاظ، فإن معنى أية لفظة لا يمكن أن يحدّد إلا من علاقة هذه اللفظة بما يجاورها من ألفاظ»¹ ويقول ريتشاردز في نصّ آخر: «إن معظم الصفات الغامضة التي يصف بها النقاد أساليب الكتابة الشعرية المختلفة إنما ترتدّ أولاً وأخيراً إلى ما يحقّقه الارتباط والتّواؤم بين الكلمات بعضها ببعض»² وهاهو عبد القاهر يبدئ ويعيد القول بالتضام والمجاورة والتأليف: «فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحققت المزية والشرف استحققت ذلك في ذاتها وعلى أفرادها دون أن يكون السبب في ذلك حال مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلف النظم»³، ففهم المجاورة والتضام فهما صحيحا قد يغنيا عن المحور الأفقي الذي تعتمده الدراسات الغربية والعربية الحديثة في دراسة اللغة و بناء تراكيبيها، أو على الأقلّ يكفينا شرّاً ذلك الانسياق وراء بريق المصطلح، وما يعتوره من غموض، فإذا كانت اللغة عند دي سوسير مجموعة من العلاقات القائمة بين أجزاء الكلام فإن الطرح هو الذي بحثه عبد القاهر ضمن نظرية النظم ومفهومه للتعلّق وارتباط أجزاء الكلام وتضام بعضها ببعض، يقول دي سوسير: «إن مفهوم التركيب لا ينطبق على الكلمات وحسب، بل على مجموع الكلمات والوحدات المعقّدة المقاييس والأصناف

1 The philosophy of rhetoric. P. 96-70 أخذنا عن: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث - ص

293.

2 The philosophy of rhetoric. P55 أخذنا عن: المرجع نفسه - ص 293.

3 دلائل الإعجاز - ص 53.

كافة (الكلمات المركبة والمشتقة وأقسام الجملة والجملة الكاملة)»¹، وبمقابلة هذا النص بما جاء به عبد القاهر في هذا على سبيل المثال حين يقول: «ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي يكون بها الكلم إخباراً وأمرًا ونهيًا، واستخبارًا وتعجبًا، وتؤدّي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلاّ بضمّ كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة»² يتضح لنا أنّ الكلمة بمفردها عند عبد القاهر لا فائدة لها إلاّ بتضامها مع أخواتها وجعل بعضها بسبب من بعض وبناء بعضها على بعض، وما جاء به لعمر ك هو ما جاء به دي سوسير عينه من أنّ الكلمات المفردة لا معنى لها حتّى ينظر إليها داخل التركيب وفي ضرب من التأليف، فليس «من باب الصدفة أن تتوافق هذه الآراء بهذا الشكل الموضوعي... دون أن تكون هناك علل عملية تتعلّق بتقنيات الدرس اللغوي المحكم بين هذين العالمين مع التباين في الفارق الزمني البعيد بينهما»³، إلى غير ذلك من التصوص التي يلتقي فيها هؤلاء المحدثون مع هذا العالم الفذّ، ممّا يرجّح الحكم أن عبقرية عبد القاهر قد فاقت جهود دي سوسير وغيره بعامل السبق والابتكار.

• التضام والدراسة الشكلية⁴:

لقد تزامن مع دراسة اللغة وفق المنهج الوصفي الذي يعتمد القراءة الآنية أو المحور الأفقي اهتمام كبير بالشكل دون المعنى، ورأى الدارسون أن الشكل هو المعوّل عليه عند اللغوي، وينبغي عليه أن يدرس الأشكال اللغوية في ذاتها أي باعتبارها أشكالاً، وليس على أساس من المعاني التي تصوّرها ابتداءً، فمعيار الشكل عند هؤلاء معيار رئيس لضمان صحّة المنهج والدراسة والنتائج.

وقد ردّ غير واحد منهم بأنّ التركيبات الشكلية هي همّ اللغوي الأوّل، وهي تقتضي دراسة الأنماط في الصّوت والكلمة والجملة، ثمّ إنّ خصائص اللغة حتى البدائية منها هو اكتمالها

1 محاضرات في الألسنية العامّة - ص 150. أخذنا عن: محمّد عبّاس: الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني -

ص 26. وينظر هذا النص: Ferdinand de Saussure - cours de linguistique générale -

Editions Talantikit-Béjaia- 2002- P 14-8.

2 دلائل الإعجاز - ص 50

3 محمّد عبّاس: الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني - ص 27..

4 ينظر: ص 73 من هذا البحث.

الشكلي، وهذه الطرق قد سماها إدوارد سابير (Edward Sapir) مثلا الشكليات العملية النحوية (grammatical processes)¹. لذا نجد كثيرا من الدارسين الغربيين يرفضون التقسيم التقليدي للكلم لأنه يجمع تصوّرات سابقة، وهو ما لاحظناه في تقسيم العرب المحدثين للكلم ورفضهم ذلك التقسيم الثلاثي للكلم، وكيف أنّهم اعتمدوا معيار الشكل بالدرجة الأولى.

أغلب اللغويين المعاصرين يرون أنّ التحو أو التحليل التحوي (grammatical analysis) ينبغي أن يكون شكليا (formal) إذا أريد أن يكون جزء صالحا من الدراسة اللغوية الوصفية (descriptive linguistics). يقول روبير (Robins): «إنّ التحو مسألة خاصّة بالشكل، وإنّ التحليل التحوي جزء من تحليل الشكل التحوي، ولذلك فإنّ إقامة فصائل نحوية وإنّ الوصف التحوي على أساس المعنى، كما يفهم بوجه عام أو على أساس من المعنى على مستويات غير المستوى التحوي هما نتيجة لهذا، غير ذوي شأن بالتحو»²، وهذا الاهتمام بالشكل كان قوام القرائن النحوية التي اعتمدها تمام حسّان في الدرس التحوي، بخاصّة ما يتعلّق بقرينة التضام التي راعى فيها الجانب الشكلي بدقّة متناهية، ولقد كان ترائنا التحوي على قدر كبير من العناية بالشكل والمعنى معا، ولعلّ تلك الأمثلة التي جاء بها ابن مالك التحوي في بيان أقسام الكلم مثلا دليل قاطع على ذلك، يقول:

بالجرّ والتنوين والتدا وأل ومسنَدٍ للاسم تميّزٌ حصل³

فتجده بعيدا عن فكريّ الحدث والذات المعتمدتين على المعنى، وقوله بما يضام الاسم من حروف الجرّ وبما يدخل عليه من التنوين وتعريفه بـ"أل" و بالإسناد إليه كلّها معايير شكلية. ونحو قوله في تحديد الفعل:

1 عبده الراجحي: النحو العربي والدّرس الحديث، بحث في المنهج - ص 34.

2 محمود السّعران: علم اللّغة، مقدّمة للقارئ العربي - القاهرة - دار الفكر العربي - د ط - 1420هـ / 1999م - ص 188.

3 شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك - بتحقيق: إميل بديع يعقوب - ص 21.

بتا فعلت وأتت يا افعلي ونون أقبلن فعل ينجلي¹

وكذلك هنا ذكر أن الفعل يمتاز عن الاسم والحرف بتاء فعلت، والمراد بها تاء الفاعل وهي المضمومة للمتكلم، والمفتوحة للمخاطب، والمكسورة للمخاطبة.

أو تمييزه الحرف بقوله:

سواهما الحرف كهل وفي ولم فعل مضارع يلي لم كـ : يُشم

وماضي الأفعال بالتا ميز وسم بالتون فعل الأمر إن أمر فهم²

مشيرا إلى أن الحرف يمتاز عن الاسم والفعل بخلوه من علامات الأسماء وعلامات الأفعال ثم مثل له بـ: هل، وفي، ولم، فابن مالك « يتخذ التضام وسيلة من وسائل الكشف عن أقسام الكلام »³، ولا نعدم أن نجد ابن هشام الأنصاري النحوي أيضا ممن يعتمد معيار التضام في تعيين بعض أقسام الكلم وبعض الأبواب النحوية، ومثال ذلك ما في قوله: « الاسم ما يقبل "أل" أو النداء أو الإسناد إليه »⁴، عند تحديده الاسم بهذه العلامات، ونحو تعريفه الفعل المضارع: «علامات الفعل المضارع ان يقبل دخول "لم" كقولك: لم يقم، لم يقعد، ولا بد من كونه مفتوحا بحرف من أحرف "نأيت" نحو: تقوم، تقوم، أقوم، يقوم »⁵، فابن هشام أيضا يعتمد معيار التضام وهو معيار شكلي، إلى غير ذلك من القواعد التي تعتمد معيار الشكل نحو قولنا: المبتدأ اسم مرفوع يقع في أول الجملة غالبا، وخبره إذا كان مفردا يأتي بعده مرفوعا عادة. والفاعل مرفوع ورتبته بعد الفعل ولا يتقدم إلا بشروط. وأن الابتداء أن يقع الاسم في أول الكلام وكلها معايير شكلية. فإلى جانب اعتماد النحو العربي على المعنى كثيرا فإنه لم يخل يوما من الاعتماد على معيار التضام أو معيار الشكل ليكون بذلك نحوا متكاملا يجمع الشكل والمعنى معا لا تعتريه منقصة.

1 المصدر السابق - ص 25.

2 المصدر نفسه - ص 26.

3 جلال شمس الدين: الأنماط الشكلية لكلام العرب - ص 113.

4 شرح شذور الذهب: مراجعة وتحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي - ص 29.

5 المصدر نفسه - ص 29.

02. التضام ولسانيات النص:

تجاوز الدارسون منذ خمسينيات هذا القرن حدود الجملة إلى مستوى أكبر من الجملة هو النص، ليصبح النص في إطار ما يعرف بعلم اللغة النصي أو لسانيات النص، هذا العلم الذي يبحث في تماسك النص من الحرف إلى عمل ذي متواليات متتابعة من الجمل، فكان همّ لسانيات النصّ البحث في الانسجام النصي والارتباط الذي يحدث بين النصوص، وقد عرّف هذا العلم جملة من العلماء في أكثر من مناسبة، وسنسوق بعضاً من هذه التعريفات على سبيل تقريب المفهوم وتوضيحه.

إنّ اللسانيات النصية حسب تعريف "روك" هي: « ذلك العلم الذي يهتمّ ببنية النصوص وكيفية جريانها في الاستعمال، وتحاول تأسيس الدراسة اللسانية على قاعدة أخرى غير الجملة، هي النص¹، والنص بهذا المفهوم يشمل كلّ أنواع النصوص المتداولة في المجتمع المكتوبة وغير المكتوبة الإبداعية وغير الإبداعية، فهي علم يولي اهتمامه بدراسة النصّ باعتباره الوحدة اللغوية الكبرى انطلاقاً من أسس ومعايير.

ووظيفة هذا العلم أن يكون قادراً على وصف وتفسير الملامح المشتركة والمتباينة بين مجموعة من النصوص وأنماط مختلفة منها²، وهو: « العلم الذي اقترح من خلال مقترباته النظرية والإجرائية الاهتمام بالظواهر المرتبطة بالانسجام النصي³، وقد يصطلح على هذا العلم النصية أو نحو النص، لأنها تعني أولاً وأخيراً بدراسة مميزات النص من حيث حدّه وتماسكه، ومحتواه الإبلاغي أو التواصل⁴ مادامت قائمة على عنصري التواصل والتماسك النصي ويقصد بها: «التخصّص الذي موضوعه النصية (textualité) أي خصائص الاتساق والانسجام التي

1 خولة طالب الإبراهيمي: مبادئ اللسانيات - الجزائر - دار القصبه للنشر - د ط - 2000م - ص 167.

2 ينظر: نظرية السياق بين القدماء والمحدثين: عبد المنعم عبد الجليل - ص 337.

3 رياض مسيس: لسانيات النص، حول بعض المفاهيم، المرجعيات، والأبعاد - مجلّة المرز - عدد خاص بالملتقى الوطني حول "دور اللسانيات في العلوم الانسانية" - الجزائر - بوزريعة - 2002م - ص 161.

4 أحمد مدّاس: لسانيات النص، نحو منهج تحليل الخطاب الشعري - الأردن - عالم الكتب الحديث - ط 01 - 2007م -

تجعل النص عبارة عن تسلسل الجمل، وإنّ تحديد حقل اللسانيات النصية مثال جدال وسجال¹ ولعلّ اختلاف مفهومه عند الباحثين وصعوبة تحديده راجع إلى تنوع مفهومهم للنص وتعيين معايير النصية ووفرة المصطلح وتنوع الترجمة، وسنورد بعض التعريفات للنص وتلك المعايير مكفّين بمعياري أو معيارين لهما صلة وثيقة بموضوع البحث.

شغل النص اهتمام الكثير من التقاد والباحثين، وأخذ تعريفات متعدّدة في حقل اللسانيات ولعلّ أهمّها تعريف روبرت ألان دي بوجراندي (Robert Alain DE BEAUGRAND) وولفجانج أولرخ دريسلار (Wolfrang Ulirch DRESLER) من حيث إنّه: «حدث تواصلية (communicative occurrence) يلزم لكونه نصّاً أن تتوفر له سبعة معايير للنصية (textuality) مجتمعة، ويزول عنه هذا الوصف إذا تخلف واحد من هذه المعايير، وهي السبّك (cohésion) والحبك (cohérence) والقصد (intentionality) والقبول (acceptability) والإعلام (informativity) ، والمقامية (situationality) ، والتّناص (intertextuality)»² والنص من حيث هو ملفوظ: «يشبه جبل الجليد العائم يبرز للعيان جزء يسير منه هو شكله الصّوتي، وهو ما يمثّل الجانب الفيزيائي فيه الذي ينتسب به إلى صاحبه ويستقل به عن سائر التّصوص»³، ويذكر هاليداي (HALLIDAY) ورقية حسن (RUQAIYA HASSAN) أنّ كلمة "نص" تستعمل في اللسانيات لتشير إلى مقطع منطوق أو مكتوب، يشكّل كلاً متّحداً⁴، وأنّ التّضام عندهما مصطلح تغطية للاتّساق الذي ينتج عن توارد العناصر المعجمية التي يرتبط أحدها بالآخر، نحو ما تقدّمه هذه الأزواج⁵: الولد/البنّت - الطيّب/سيارة الإسعاف - الطّائرة/المطار -

1 دومينيك مانغونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب - ترجمة: محمّد بجاتن - الجزائر - منشورات الاختلاف - بيروت -

الدار العربية للعلوم - ط01 - 1428هـ/2008م - ص 129

2 سعد عبد العزيز مصلوح: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، آفاق جديدة - ص 225.

3 الأزهد الزّناد: نسيج النص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصّاً - بيروت - المركز الثقافي العربي - ط01 - 1993م - ص 169.

4 ينظر: M.A.K.HALLIDAY, RUQAIYA HASSAN: Cohesion in English - Longman Group Limited -

1976 - p 01 وينظر: حديثهما عن التّضام " collocation " 91.284.318.. :20. p.

5 محمّد خطّاي: لسانيات النص، مدخل لانسجام الخطاب - ص 237. وينظر. M.A.K.HALLIDAY, RUQAIYA HASSAN: Cohesion in English - p283. 284.

الرجل/الشارب- القوس/الرمح، وقد مرّ معنا كذلك مفهوم التوارد المعجمي في الدرس التحوي سابقاً، وهو المفهوم نفسه الذي يعتمد الكاتبان. وعلى كلِّ فإنَّ كلمة "التص" في اللغات الأوربية تعني « نسيجا من العلاقات اللغوية المركبة التي تتجاوز الجملة بالمعنى التحوي للإفادة... وهو سلسلة من العلامات المنتظمة في نسق من العلامات تنتج معنى كلياً يحمل رسالة»¹، فالتص بناء على هذه التعريفات منتوج مترابط متماسك تحكمه علاقات نحوية وتراكيب دلالية، ووسائل لغوية، متعمد على معيارين رئيسين هما السبب والحبك²، بغض النظر عن بقية المعايير، لأن هذين المعيارين هم المختصان بصلب التص، وقلنا سابقاً إنّه بُدلت محاولات كثيرة بغية ترجمة المصطلحين من أصلهما اللغوي. فمنهم من قال بالانسجام³، أو الاتصال والارتباط⁴، ومنهم من قال بالسبب والحبك⁵ أو التماسك الدلالي بدل الحبك⁶، ومنهم من قال بالتماسك والانسجام⁷، والانسجام⁷، ومنهم من قال بالسبب والالتحام⁸، ومنهم من قال بالربط التحوي والتماسك الدلالي⁹ متفقين بأنهما يشكّلان موضوع اللسانيات النصية ومادتها، وأشارنا سابقاً إلى تلك التصوص اللغوية من التراث العربي في جانبه البلاغي والتقدي للاستدلال على تلاقى هذين المصطلحين مع هذا التراث مفهوماً واستعمالاً حين ربطنا قضية التضام بالسبب أو الربط التحوي والتوارد بالتماسك الدلالي.

1 نصر حامد أبو زيد: النص والسلطة والحقيقة- المغرب- لبنان- المركز الثقافي العربي- ط05- 2006م- ص 150. و ص 160.

2 ينظر: Shirley Carter Thomas : La cohesion textuelle, pour une nouvelle pédagogie de l'écrit- L'Harmattan- Paris FRANCE- Montréal-CANADA- 2000- P 07.37.42.43.

3 ينظر: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب: محمد خطاي- ص05. و ص 96. حيث ترجم عنوان كتاب هالدي ورقية حسن السابق " Cohesion " إلى "الاتساق". وترجم " collocation " إلى التضام.

4 ينظر: دومينيك مانغونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب- ترجمة: محمد بحيان - ص 18. إلى جانب أنه قد تُرجم كتاب هالدي ورقية السابق ذكره إلى "الاتساق في الإنجليزية".

5 ينظر: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية: سعد مصلوح - ص 25.

6 ينظر: صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق - ص 36.

7 ينظر: نسيج النص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصاً: الأزهد الزناد - ص 15.

8 ينظر: النص والخطاب والإجراء: ألان دي بوجراند- ترجمة: تمام حسان- ص 08. و ص 103.

9 ينظر: التحليل اللغوي للنصوص، مدخل إلى مفاهيم الأساسية: كلاوس برينكر- ترجمه وعلّق عليه ومهّد له: سعيد حسن بحري- مؤسسة المختار- القاهرة- ط01- 1425هـ/2005م- ص 28. و ص 189.

يقول عبد القاهر الجرجاني: «اعلم أن ليس النّظم إلّا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النّحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرّسوم التي رُسمت لك، فلا تخلّ بشيء منها»¹، ويقول في موضع آخر: «اعلم أن هاهنا أصلاً أنت ترى التّاس فيه في صورة من يعرف من جانب وينكر من آخر، وهو أن الألفاظ لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يُضمّ بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها فوائد، وهو علم شريف وأصل عظيم»²، ليقرّر في هذين التّصنيف الثمينين أموراً بالغة الأهمية هو أن معاني النّحو لا تقف في حدود الألفاظ المفردة أو الجملة، وإثماً تتجاوزها إلى النص أو مجموعة من الجمل، وهو ما تشعر به في الباب الذي خصّصه للفصل والوصل من "دلائل الإعجاز"، فيكون بذلك قد سبق علماء اللّغة المحدثين الذين تجاوزوا بالتّحليل حدود الجملة ونادوا بتحليل الجمل التي ترد متعاقبة كما مرّ معنا في نصّ "موكارفسكي" و"دي سوسير" وكما فعل "هاريس" (Z.S.Harris)³ عندما أدرك أن وحدة الكلام لا يمكن أن تكون الجملة المفردة، وأنّ الجمل المتتابعة أرضية خصبة لمناهج علم اللّغة الوصفي، وأنّ الكلام لا يقع في صورة كلمات غير محدودة أو جمل، بل بوصفه نصّاً متتابعاً بدءاً من الجملة المكوّنة من كلمة واحدة حتّى العمل المؤلّف من عشرة مجلّدات، وقد اتّخذ خطوته من الجملة إلى النصّ في مقاله "تحليل الخطاب" سنة 1953م المترجم إلى الألمانية بـ "تحليل النصّ" سنة 1976م. و«حين فعل ذلك وصل في القرن العشرين إلى ما وصل إليه عبد القاهر قبله بنسعة قرون»⁴، وراد أن أدرك المعاي الإضافية النّاتجة عن الصّياغة النّحوية، وما تؤدّي إليه من فروق.

1 دلائل الإعجاز - ص 76.

2 المصدر نفسه - ص 393.

3 بريجيتيه بار تشنت: مناهج علم اللّغة، من هرمان باول حتّى نعوم تشو مسكي - ترجمة: سعيد حسن بحري - مؤسسة المختار للنشر - ط01-1425هـ/2004م - ص 234.

4 محمود أحمد نحلة: في البلاغة العربية، علم المعاني - ص 34.

وبهذا القدر نكون قد تتبّعنا قضية التّضام في أصولها النظرية المتعلّقة بالمرورoth العربي ثمّ الوصول بها إلى الدّرس اللّساني الحديث، وحسبنا أنّنا ندبنا أنفسنا له ولم ندّخر فيه جهداً، آمليّن أن تكون الدّراسة في الفصلين المتبقّيّين دراسة تطبيقية في سورتي "هود" و"طه" تؤكّد أهميّة ما ذهبنا إليه في هذا الفصل.

الفصل الثاني

التضام في سورة هود

- المغايرة في نسق الاستعمال القرآني
- التقديم والتأخير
- المناسبة
- الفصل والوصل
- الربط والارتباط
- التكرار والإعادة
- التضمين والتعدية
- التعريف والتنكير
- الفاصلة القرآنية
- الإطناب والإيجاز
- الحذف
- الذكر والزيادة
- مسائل متفرقات

يمكن فهم التضام من وجهين نلخصهما فيما يأتي: الوجه الأول إن التضام هو الطرق الممكنة في رصف جملة ما تختلف طريقة منها عن الأخرى تقديمًا وتأخيرًا وفصلاً ووصلاً وهلم جرا ويمكن أن نطلق على هذا الفرع من التضام اصطلاحاً "التوارد" وهو بهذا المعنى أقرب إلى اهتمام دراسة الأساليب التركيبية البلاغية الجمالية منه إلى دراسة العلاقات التحوية والقرائن اللفظية، ومن ثم نتخطاه ونتركه لمن شاء أن يوغل فيه...

[تمام حسّان: اللغة العربية معناها ومناها - ص 217].

التضام في سورة هود:

أشرنا في مقدّمة البحث أنّ لأستاذنا المشرف يدا بيضاء وراء اختيار هذا الموضوع، فجاء هذا الاختيار موطناً لأمل واكبنا منذ مدّة، يرجع إلى أحاديث نبوية وقصص إسلام بعض الصحابة الكرام، تلقيناها في مراحل دراسية سابقة، فاحتمرنا في نفوسنا أن ننهض بهذا الأمل في سورتين من القرآن الكريم؛ سورة هود وسورة طه، حيث يرجع وقوفنا على سورة هود إلى ما رواه بعض الصحابة رضوان الله عليهم من أحاديث نبوية تخصّ هذه السورة، ومن هذه الأحاديث ما جاء في مسند أبي يعلى (ت307هـ). قال: «حدّثنا محمّد بن عبد الله بن نير. حدّثنا محمّد بشر. حدّثنا علي بن صالح بن أبي إسحاق عن أبي جحيفة قال: قالوا: يا رسول الله قد شئتني هود وأخواتها»¹ ومنها ما جاء عن ابن مردويه عن أبي بكر قال صلى الله عليه وسلّم: «شئتني هود وأخواتها قبل المشيب»²، ومنها ما جاء في جمع الجوامع. عن سهل بن سعد رضي الله عنه. قال النبي صلى الله عليه وسلّم قال: «شئتني هود وأخواتها. الواقعة والحاقة وإذا الشمس كورت»³.

¹ مسند أبي يعلى، أحمد بن علي (ت307هـ) - تحقيق: حسين سالم أسد - دمشق - دار المأمون - ط01- 1404هـ/1984م - ج02 - ص184 - رقم الحديث 880. أخذنا عن: ماجد بن محمّد المجد: الفنون البلاغية في سورة هود - المحلّة العلمية لجامعة الملك فيصل، العلوم الانسانية والاجتماعية - مج 05 - ع 02 - 1425هـ/2004م - ص 42.

² محمّد ناصر الدين الألباني: صحيح الجامع الصغير وزيادته - أشرف على طبعه: زهير الشاوش - المكتب الإسلامي - ط03- 1408هـ/1988م - مج 01 - ص 692. رقم الحديث 3720. وعن عقبة بن عامر وعن أبي جحيفة. قال صلى الله عليه وسلّم: «شئتني هود وأخواتها». رقم الحديث 3720. وعن أنس (ابن مردويه) عن عمران. قال النبي صلى الله عليه وسلّم: «شئتني هود وأخواتها من المفصل». رقم الحديث 3722.

³ جلال الدين السيوطي: جمع الجوامع، الجامع الكبير في الحديث والجامع الصغير في الحديث وزوائده - تخرّيج وتعليق وضبط: خالد عبد الفتاح شبل - بيروت - دار الكتب العلمية - ط01 - 1421هـ/2000م - مج 05 - ص 50. رقم الحديث 13359. وقال صلى الله عليه وسلّم: «شئتني هود وأخواتها، الواقعة والقارعة والحاقة وإذا الشمس كورت وسأل سائل». مج 05 - ص 50. رقم الحديث 13357. وعن ابن عساكر عن محمّد بن علي مرسلًا. قال النبي صلى الله عليه وسلّم «شئتني هود وأخواتها، وما فعل بالأمة قبلي» - مج 05 - ص 50. رقم الحديث 13363.

أما وقوفنا على سورة طه فيعود إلى بعض الأخبار التي حكّت قصة إسلام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه¹، فكان حديث شبيه صلى الله عليه وسلّم سببا رئيسا لمعرفة بعض دقائق سورة هود وأسرارها، كما كانت هذه القصة أيضا سببا رئيسا لمعرفة خصائص سورة طه وبعض مميّزاتها. في ضوء هذا الموضوع؛ موضوع التضام في القرآن الكريم.

1 روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: « خرج عمر متقلّد السيّف، فلقبه رجل من بني زهرة، فقال له: أين تعمد يا عمر؟ فقال: أريد أن أقتل محمّدا. قال وكيف تأمن بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمّدا؟ قال: فقال له عمر: ما أراك إلا قد صوت وتركت دينك الذي أنت عليه، قال: أفلا أدلك على العجب؟ إن خنتك وأختك قد صبو وتركا دينك الذي أنت عليه، قال: فمشى عمر دأما حتّى أتاهما، وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب، قال: فلما سمع خباب بحسّ عمر توارى في البيت فدخل عليهما، فقال: ما هذه الهينة التي سمعتها عندكم؟ قال: وكانوا يقرأون: (طه) فقالوا: ما عدا حديثنا تحدّثناه بيننا. قال: فوثب عمر على ختنه، فوطئه وطأ شديدا. قال: فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها، فنفحها نفحة بيده فدمى وجهها فقالت وهي غضبي: وإن كان الحقّ في غير دينك إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمّدا رسول الله. فقال عمر: أعطوني الكتاب الذي هو عندكم فأقرأه. قال: وكان عمر يقرأ الكتب. فقالت أخته: إنك رجس، وإنه لا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل أو ترضأ. قال: فقام عمر فتوضأ، ثم أخذ الكتاب فقرأ: "طه". حتّى انتهى إلى: «إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري» [سورة طه - الآية 14]. قال عمر: دلوني على محمّد، فلما سمع خباب قول عمر، خرج من البيت فقال: أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة رسول صلى الله عليه وسلّم ليلة الخميس: "اللهم أعزّ الإسلام بعمر بن الخطّاب أو بعمر بن هشام. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلّم في الدار التي في أصل الصفا. قال: فانطلق عمر حتّى أتى الدار وعلى باب الدار حمزة وضحّة وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فلما رأى حمزة وجلّ القوم من عمر فقال حمزة: هذا عمر إن يرد الله بعمر خيرا يسلم فيتبع النبي صلى الله عليه وسلّم، وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هينا. قال: والنبي صلى الله عليه وسلّم داخل يوحى إليه، قال: فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلّم، حتّى أتى عمر، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيّف، فقال ما أنت بمنته يا عمر حتّى يزل الله عزّ وجلّ بك الخزي والنكال ما أنزل على بالوليد بن المغيرة، فهذا عمر بن الخطّاب: اللهم أعزّ الإسلام أو الدّين بعمر بن الخطّاب. فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله، وأتّك عبده ورسوله. وأسلم وقال: أخرج يا رسول الله». رواه البيهقي في دلائل النبوة (219/2). وابن سعد في الطبقات (202/3). وغيرهما. وانظر أمد الغاية. وصفة الصّفوة. وفتح الباري (59/7) أخذنا: سيرة شهداء الصّحابة: فؤاد بن سراج عبد الغفار - القاهرة - المكتبة التوفيقية - د ط - د ت - ص 15. وينظر قصة إسلام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في: سيرة ابن إسحاق: محمّد بن إسحاق بن يسار (ت 151هـ) - محمّد حميد الله - معهد الدراسات والأبحاث للتعريف - د ط - د ت - ج 02 - ص 161 وما بعدها. وينظر: صحيح البخاري: محمّد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري - تحقيق: مصطفى ديب البغا - بيروت - دار ابن كثير باليمامة - 1407هـ/1987م - ج 03 - ص 1403. وينظر: السيرة النبوية: أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت 747هـ) - تحقيق: مصطفى عبد الواحد - بيروت - دار المعرفة - 1336هـ/1971م - ج 02 - ص 32 وما بعدها.

لقد تناولنا في الفصل الأوّل موضوع التضام من وجهة التّراث النّحوي، وتطرّقنا إلى بعض المسائل النّحوية، ولم نكد نتجاوز الطّرح الذي تقدّم به تمام حسن أثناء عرضه القرائن النّحوية وإلى جانب هذا تناولنا موضوع التضام في الموروث البلاغي، وتطرّقنا فيه إلى مسألة علم المعاني والنّظم والإعجاز بشكل عامّ تمهيدا للفصلين الثّاني والثّالث.

إنّ أوّل ما يطالعنا به تمام حسن عند تعريف التضام قوله: «يمكن فهم التضام من وجهين نلخصهما فيما يأتي: الوجه الأوّل أنّ التضام هو الطّرق الممكنة في رصف جملة ما تختلف طريقة منها عن الأخرى تقدّما وتأخيرا وفصلا ووصلا وهلمّ جرا، ويمكن أن نطلق على هذا الفرع من التضام اصطلاح "التّوارد" وهو بهذا المعنى أقرب إلى اهتمام دراسة الأساليب التّركيبية البلاغية الجمالية منه إلى دراسة العلاقات النّحوية والقرائن اللفظية، ومن ثمّ نتخطّاه ونتركه لمن شاء أن يوغل فيه»¹، أردنا من موضوع البحث أن يتّصل اتّصالا مباشرا بهذا الفرع من التضام، ومعرفة إمكانية رصف الجمل وطرق تركيبها ودقائق أسرار تضامها، بمعنى صلاحية توارد الكلمة مع الكلمة تقدّما وتأخيرا، وفصلا ووصلا، أو مغايرة باستعمالها في موضع دون موضع وبصيغة دون أخرى، أو ذكرا وحذفا، أو تعريفا وتنكيرا، أو إفرادا وجمعا إلى غير ذلك من مظاهر تضام الكلمة مع أختها الذي لا تحصره أشكال محدّدة ولا أنماط معيّنة، ومادام هذا التّوارد أقرب إلى اهتمام الدّراسات البلاغية الجمالية فإننا لم نر أصحّ مدوّنة تتكئ عليها في موضوعنا غير القرآن الكريم فلا غرو عندئذ أن ننحو الدّراسة منحى غير الذي سارت عليه في مباحثها الأولى.

سنعتمد في هذين الفصلين على مسائل؛ بعضها من علم المعاني كالفصل والوصل والإيجاز والإطناب وبعضها من علوم القرآن كالمناسبة والفاصلة، نمهد لكلّ منها بتعريف موجز وعرض لأهمّ المضامين، ونجعل تحت كلّ مسألة عناصر تجمعها خصائص مشتركة ثمّ نشرع في التّمثيل لها بذكر الآية تلو الأخرى حسب ترتيب الآي في السورة.

1 اللّغة العربية معناها ومبناها - ص 216. 217. ولقد سبق ذكر هذه المباحث. ينظر: ص 15 من هذا البحث.

1. المغايرة في نسق الاستعمال القرآني:

نتعرض في هذا المبحث إلى استعمال القرآن للكلمة، مركزين على تلك المغايرة الدقيقة التي تحدث في صيغة الكلمة وزمنها وإبدالها بأخرى وبعض الفروق في الخطاب.

يراعي القرآن الكريم استعمالات ذات صيغ معينة لبعض الكلمات ثم تراه يعدل عنها إلى أخرى من غير خلل أو ملل، يقول تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ ۖ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾¹، لم تجئ الآية بصيغة "ضيق" ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت، لأنه عليه السلام كان أفسح الناس صدراً²، فقال "ضائق" كما قال "تارك" لأنه وصف عارض بخلاف "ضيق" فإنه يدل على الثبوت، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ﴾³، في حين إنه تعالى قال في سورة النحل: ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخٰسِرُونَ﴾⁴ ففي الأولى قال: "الآخسرون" وفي الأخرى: "الخاصرون"، لأن سورة "هود" تقدم فيها ما يفهم للمفاضلة⁵، فناسب الآخسرين بصيغة المفاضلة، والآيات كلها لم تخرج عن هذا المعنى، أمّا آية سورة "النحل" فلم يجئ قبلها ما يدل على المفاضلة أو التفاوت⁶، بل جمع فيها اسم الفاعل جمعا سالما في قوم متفقي الأحوال في كفرهم (الكاذبون، الكافرون، الغافلون)، ومن المغايرة في نسق الصيغة أيضا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾⁷.

1 سورة هود - الآية 12.

2 أبو القاسم جار الله الزمخشري (ت538هـ): الكشف عن حقائق الترتيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - حققه وحرّج أحاديثه: عبد الرزاق المهدي - بيروت - ط02 - 1421هـ/2001م - ج02 - 362.

3 سورة هود - الآية 22.

4 الآية 109.

5 ينظر الآيات: 17. 18. 19. من هذه السورة.

6 ابن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل القاطع بنوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه من آي الترتيل - تحقيق: سعيد الفلاح - لبنان - دار الغرب - ط02 - 1403هـ/1983م - ج02 - ص 650.

7 سورة هود - الآية 117.

على أنه تعالى قال في "القصص": ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾¹، لأنه تعالى نفى الظلم عن نفسه بأبلغ لفظ يستعمل في التفي، لأن هذه اللام لام الجحود، ولام الجحود ومعها المضارع يفيدان الاستمرار²، والظلم صريح في سورة "هود" فإهلاك الصالحين ظلم، أي: ما فعلت الظلم فيما مضى ولا أفعله في الحال ولا في المستقبل، أما في "القصص" دون ذكر "بظلم" فاكفى بذكر اسم الفاعل وهو زمان غير معيّن، يفيد الحال والماضي والمستقبل حقيقة ومجازاً، وقد يعدل القرآن عن زمن إلى آخر وفق شروط تركيبية محكمة، كقوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ³، حيث عبر بالمضارع فعل الحاضر ليعطي المشهد حيويته وجدته⁴، فإثارة هذا الزمن يوحى بأن نرى هذا المشهد شاخصاً لأبصارنا ماثلاً من وراء هذا التعبير الخيالي، ونرى الجماعات يمرّون به فيسخرّون منه، ومن المغايرة التي ترتبط بالزمن ما تجده في نحو الآية الكريمة: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾⁵، فاختيار الماضي في هذه الآية أدلّ على الإنشاء، وهو إنشاء للتوكل لا ينقطع⁶، كأنه قال: لا أبالي بكيدكم فمالكمي ومالككم واحد توكلت عليه، وهذا التوكل و التوحيد يعزّزه تقدّم لفظ الجلالة: "ربي" على "ربكم" لأنّ المقام للمحافظة على نفسه وللنعي عليهم بأنّ الرّب واحد وهو مقرّب به، ومما جاء في هذه السورة في باب توارد الكلمة مع طائفة من الكلمات دون طائفة أخرى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ

1 الآية 59.

2 ينظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: أبو يحيى زكريا الأنصاري - حققه: محمد علي الصّابوني - الجزائر- ط02-1988م- ص 272.

3 سورة هود - الآية 38.

4 سيّد قطب: في ظلال القرآن - القاهرة - دار الشروق - ط 34 - د ت - مع 04 - ج 12 - ص 1877. وينظر: البيان في روائع القرآن: تمام حسان - ص 92.

5 سورة هود - الآية 56.

6 ينظر: يسير التفسير: محمد بن يوسف أطفيش (ت1332هـ) - تحقيق: إبراهيم بن محمد طلاي - غرداية - 1420هـ/1999م - ج 06 - ص 420.

فيها من كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ ﴿١﴾، فقال في هذه الآية: "احمل" بينما جاء في سورة "المؤمنون": ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحِينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ﴾² بلفظ "اسلك"، ووجه تواردها مع طائفة الكلمات في الأولى أن لفظ "احمل" أوسع مواقع في اللغة وأكثر تصرفاً في الكلام، تقول: حملت الشيء إلى فلان، وحملته على كاهلي، وحمل فلان الأمانة، أما "سلك" فإن العرب تقول: سلكت الشيء في الشيء أي أدخلته، فـ"حمل" فيها اتساع لا يكون في "سلك" لذلك وردت في آية "هود" من حيث ما اقترن بها من لفظ "قلنا" فطال الكلام لفظاً، أضف إلى ذلك ما ناسب هذه العبارة من استيفاء قصة نوح عليه السلام وطول الكلام بذلك، ثم إن في آية سورة "المؤمنون" إيجازاً وإجمالاً على عكس الآية في سورة "هود"³، فأيات الأولى على ضعف أو أطول مما ورد في الأخرى، ولك أن تتأمل ورود "حتى" في قوله: "حتى إذا جاء أمرنا" وهي مكونة من أربعة حروف في الأولى وقوله: "فإذا جاء أمرنا" بالفاء لترى مناسبة الفاء للإيجاز وبـ"حتى" موضعها المبيح على الاستيفاء والطول، ومن هذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾⁴، حيث توارد معنى كلمة "المس" مع الركوب، لأنه لما كان الركوب إلى الظالم دون الميل إليه والاعتماد عليه دون مشاركة في الظلم، وجب أن يكون العقاب عليه دون العقاب على الظلم فأتى بلفظ المس الذي هو دون الإحراق في الإحراق والاصطلاء⁵، وهو ما عرف عند البلاغيين القدامى باسم الائتلاف والملاءمة والإدماج والتعليق والافتتان والمقارنة والبسط⁶، فليس هناك لفظة نافرة عن أخواتها نافية عنها، بل تضام بعضها مع بعض، فاحفظ ما انطوى عليه نظم هذه اللفظات السبع التي هي بعض آية من المعنى وأنواع البديع. ونظير المغايرة للكلمة المغايرة في حروفها أو أحد حروفها، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ

1 سورة هود - الآية 40.

2 الآية 27.

3 ابن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل القاطع بنوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المشابهة من أي التزويل - ج 02 - ص 654.

4 سورة هود - الآية 113.

5 كمال الدين عبد الغني مرسي: مراعاة النظر في كلام الله العلي القدير - الإسكندرية - دار الوفاء - ط 01 - 2005م -

ص 86.

6 ينظر: بديع القرآن: ابن أبي الإصبع - ص 162.

يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَا قُلَّ قَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيْنِ ﴿١﴾، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَالَّذِي
يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾²، ولم يقل "لك" وقد قال في أوّل الكلام "قل" ولم يقل "قولوا" لأنه إذا أُسِدَّ
إلى الرّئيس فعل ذهب الوهم إلى من معه³، لأنّ الملك إذا ذُكر بخوف أو بسفرٍ أو قُدومٍ من سفر
ذهب الوهم إليه وإلى من معه وهذا كثير في القرآن الكريم⁴، ومما تتوارد فيه الكلمات ويضمّ
بعضها إلى بعض ما يكون في سياق طائفة دالة على العموم والشمول قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي
الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾⁵، في الآية عموم
عموم واتساع دلّت عليه هذه الألفاظ بكلّ شمولية واستيعاب، فالقرآن إذا أراد الاتساع المترامي
أوجد ألفاظا تناسب المعنى⁶، وتتناسق معه، فالدابة تحتمل ما تحتمل من العموم من حيث الإنس
والجنّ ومخلوقات نعرفها و لا نعرفها والأرض يجبالها وأهوارها، ولفظ الجلالة المقدّس لا يسمو إليه
فكر ولا يحيط به عقل، والرزق على اختلاف طرقه، وكذا المستقرّ والمستودع والكتاب الجامع
المانع لكلّ صغيرة وكبيرة، وهكذا جميع هذه الألفاظ، ومن هذا التوارد قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَدْقِنَا
الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمَةً نُمَّا تَرَعْنَهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُفُورٌ كَكُفُورٍ﴾⁷، وَلَيْنَ أَدْقِنَا نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءَ مَسْتَهُ
لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾⁷، الترع في الآية مراد به بعد تراخ طويل في
التلذذ بها، فكيف لو تُرعت على عجل وعبر بالذوق وهو للطعم، وبالمس الذي هو أوّل

1 سورة هود - الآية 13.

2 الآية 14.

3 أبو زكريّا الفراء: معاني القرآن - بيروت - عالم الكتب - ط 03-1403 هـ / 1983 م، ص 05. وينظر: ج 01 - ص 476.

4 من ذلك قوله تعالى ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ [سورة

يونس - الآية 83] -

5 سورة هود - الآية 06.

6 محمد حسين علي الصّغير: تطوّر البحث الدلالي، دراسة تطبيقية في القرآن - بيروت - دار المورخ - ط 01 -

1420 هـ / 1999 م - ص 53.

7 سورة هود - الآيتان 09، 10.

الاتصال¹، تنبيهها على أن ما في الدنيا تمثيلٌ بقليل الدنيا على ما في الآخرة كالعنوان، وفي الآية الأخرى لم يقل: "أمسناها" كما قال: "أذقناه" ليدل أن المقضي بالذات الخير، أما الشر فمقضي بالعرض. و"النعماء" وردت مرة واحدة في القرآن في سورة هود، في مقابل السراء²، وجاءت بفتح التون، لأنه لا يراد ذكر النعم الكثيرة، بل إشارة إلى جنس النعم وصفها، وقد زاد في آية "فصلت" "منا" و"من" في قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضِرَاءٍ مَسْتَه﴾³. لأنه بين جهة الرحمة في "فصلت" فناسب ذكر "منا" وحذفه هنا اكتفاء⁴، حيث زاد "من" لأنه لما حد الرحمة وجهتها حد الظرف بعدها لتشاكلا في التحديد، وهنا في سورة هود لما أهل الأول أهل الثاني.

ويستعمل القرآن ألفاظا يراد بها الترادف وليست منه، من ذلك استعماله الدقيق للفعلين "أتى" و"جاء" حيث يتوارد كل فعل مع ما يناسبه، وتما ورد في هذه السورة قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾⁵، في حين قال في موضع آخر: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيَّهَا أَتْنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾⁶، فجعل الأمر آتيا وجائيا مراعيًا في ذلك ضم كل كلمة لفظة إلى ما يناسبها، فجاء يقال في الجواهر والأعيان، أما "أتى" ففي المعاني والأزمان⁷، وفي آية هود كان القوم ممن يرى الأشياء، أي جاء أمرنا عيانا، ولما كان الزرع لا يُبصر ولا يرى قال "أتاها"، ومن الخطاب ما يكون في غاية اللطف والاستعطاف بضم الكلم بعضها إلى بعض وفقا لمقتضى الحال نحو قول الحق سبحانه: ﴿قَالَ يَنْقَوْمَ هَتُوْلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا

1 ينظر: تيسير التفسير: أحمد بن يوسف أطفيش - ج06 - ص 345.

2 صلاح عبد الفتاح الخالدي: لطائف قرآنية - دمشق - دار القلم - ط03 - 1425هـ / 2004م - ص 180.

3 سورة فصلت - الآية 50.

4 أبو بجي زكريا الأنصاري: فتح الرحمن بكشف ما يلبس في القرآن - ص 256.

5 سورة هود - الآية 66.

6 سورة يونس - الآية 24.

7 بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن - ج04 - ص 80.

تُخْزُونَ فِي ضَيْفَى أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾¹، قول نبي الله "لوط" عليه السلام يجمع أنواعا من الاستعطف ضمّت كلمات الآية بعضها إلى بعض فشكّلت هذه الرّوعة والانسجام، ومن هذه الأنواع²:

- أحدها: خطابهم بخطاب النَّاصِحِ المَشْفِقِ بقوله: "يا قوم"، ولم يقل: يا هؤلاء.
- الثاني: عرضه بناته عليهم بقوله: "هؤلاء بناتي".
- الثالث: تنجيز ذلك بالإشارة.
- الرابع: ترغيبه فيهنّ لطهارتهنّ وطيبهنّ.
- تذكيرهم بالله بقوله: "فاتّقوا الله".
- السّادس: المطالبة بحفظ الدّمام، وترك الأذى بقوله: "ولا تخزون".
- السّابع: التّوبيخ الشّدِيد بقوله: "أليس منكم رجل رشيد".
- فانظر هل تجد لفظة تنبو عن أختها؟ بل ما أروعها بيانا وأتمّه.

1 سورة هود - الآيتان 77، 78.

2 عبد الفّتاح لاشين: ابن قِيم وحسّه البلاغي في تفسير القرآن الكرم - بيروت - دار الرّائد العربي - ط01-

1402هـ/1985م - ص 190.

2. التقديم والتأخير:

يحتلّ مبحث التقديم والتأخير مكانا مرموقا في الدرس البلاغي، وهو قدم قدم البحث في اللغة، يصفه عبد القاهر الجرجاني بأنه: «باب كبير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرف، لا يزال يفتّر لك عن بديعة أسنانه، ويفضي بك إلى ليفه ولا تزال ترى شعرا يروك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثمّ تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدّم فيه شيء، وحول لفظ عن مكان إلى مكان»¹، فهو يقدم وجبة الحوار في طبق رفيع إذ يرتدّ « في أصله إلى أهمية ما يقوم في الكلام الأدبي من علاقات هي في الحقّ صلب ما في الأدب من أدبية»²، ولا يكاد يخلو باب في البلاغة أو النحو من تقديم أو تأخير، وقد اهتمّ القدامى به في كتاباتهم، فهاهو ابن جنّي يجعله من شجاعة العربية، ويخصّص عديدا من الأمثلة له، نحو استشهاده بهذا البيت الشعري:

فأصبحت بعد خطّ بهجتها كأنّ قفرا رسومها قلما

أراد:

فأصبحت بعد بهجتها قفرا كأنّ قلما خطّ رسومها

ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالفعل، وفصل أيضا بـ "خطّ" بين "أصبحت" وخرها الذي هو "قفرا" والآخر "رسوما"؛ وأنت لا تجيز: كأنّ خبزا زيدا أكل. بل إذا لم تُجزِ الفصل بين الفعل والفاعل على قوّة الفعل في نحو: كانت زيدا الحمى تأخذ. كان ألاّ تُجزِ الفصل بين "كأنّ" واسمها بمفعول فاعلها أجدر³، فتغيير موقع اللفظ بالتقديم والتأخير يغيّر المعنى، ويتصرف فيه، وهذا التغيير يكون مقصودا ولا يكون جزافا وعبثا، و من الذين تناولوا هذا المبحث ابن الأثير حيث أشار إلى ضربين منه؛ ضرب يختصّ بدلالة الألفاظ على المعاني، أي بدلالة الجملة أو التركيب على

1 دلائل الإعجاز - ص 94.

2 أحمد محمّد ويس: الانزياح في التراث النقدي والبلاغي، دراسة - جامعة حلب - اتحاد الكتاب العرب - د ط - د ت - ص 163. وينظر: دلالات التراكيب: محمّد محمّد أبو موسى - ص 170.

3 الخصائص - ص 565.

معناه، وضرب يختص بدرجة التّقدّم في الذّكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك¹، وقد اهتمّ معظم البلاغيين بالضّرب الأوّل، إذ ينجرّ عن تغيير النّظم تغيير المعنى لحاجة يطلبها السّياق ويقتضيها المقام. ومن ثمّ بات واجبا علينا أن نعرض شواهد لهذا النوع من التّوارد في سورة هود.

يقول الحقّ تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْمَنَةٌ نَذِيرٌ وَنَشِيرٌ ﴿٢﴾، قدّم في هذه الآية: "النّذارة" بينما في آيات أخرى يقدّم "البشارة" كما في سورة البقرة: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴿٣﴾ وسورة الأحزاب: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤﴾، وسورة فصلت: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٥﴾، ووجه تقديمها هناك وتأخيرها هنا أنّه لما قال: "ألاّ تعبدوا إلاّ الله" ناسبه ورود النّذارة متقدّمة على عبادة غير الله، ولما كان الخطاب موجّهاً إليه صلّى الله عليه وسلّم ناسب ورود البشارة متقدّمة كرامة له صلّى الله عليه وسلّم⁶ والأمر نفسه في سورة السّجدة، ناسب ذكر الرّحمة ووصف الكتاب ورود البشارة متقدّمة، وتقدم النّذارة أوّلاً قد يكون من باب التّحذير لأنّ التّحذير من النار أوّل وأهمّ⁷. ثمّ هناك ملحظ آخر في الضّمائر، وهو أنّه لما كان النبي صلّى الله عليه وسلّم رحمة للعالمين قدّم ضميرهم فقال: "لكم منه"، ولم يقل: "منه لكم" ومن التّقدم الذي يفيد القصر ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾، فتقدم "على الله" أفاد القصر، أي على الله

1 ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - ج 02 - ص 210.

2 سورة هود - الآيتان: 01. 02.

3 الآية 213.

4 الآية 45.

5 الآية 04.

6 بدر الدّين بن جماعة (733هـ): كشف المعاني في المتشابه من المثاني - تحقيق وتعليق: عبد الجواد حلف - القاهرة - دار الرفاء - ط 01-1410هـ/1990م - ص 208.

7 ينظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن: عبد الرحمن النّعالي - تحقيق: عمّار طالي - الجزائر - المؤسّسة الوطنية للكتاب - د ط - د ت - ج 02 - ص 266.

8 سورة هود - الآية 06.

لا على غيره، فهو وحده المتكفل برزقها ولم يهمله¹، وتما ورد مقدّما جملة "على كلّ شيء" في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾²، لما كان السياق لإحاطته سبحانه وتعالى قدّم "على كلّ شيء" منهم ومن غيرهم ومن قبولهم وردّهم ومن حفظك منهم ومن غيره³، ومنه أيضا تقدّم "بالآخرة" في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾⁴، فقدّم الآخرة لما كان تكذيبهم لها شديدا، وأعاد الضمير "هم" تأكيدا لتعيينهم وإثبات غاية الفساد⁵. وتما وقع أيضا في حيز توارد بعض الكلمات مع بعض تقدّما وتأخيرا قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْقُومِ آرَاءُيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَآتَنِي رَحْمَةً مِّن عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزَلْنَاهُمْ مَكْمُومًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾⁶، في قصة نوح عليه السلام، وقوله تعالى في قصة صالح عليه السلام: ﴿قَالَ يَنْقُومِ آرَاءُيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَآتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ﴾⁷ فقد تساوى اللفظان إلا فيما اختلفا من تقدّم المفعول الثاني في الآية الأولى على الجار والمجرور، وتأخيره عنهما في الآية الأخرى، وفي ذلك إجراء لهذا الفعل ومفعوليه على ما جرى عليه الفعل الذي قبله وهو قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا تَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا تَرْنَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَزْدَلُّنَا﴾⁸ فـ"بشرا" المفعول الثاني من "تراك" وقوله: "ما تراك أتبع" في موضع المفعول الثاني من "تراك"، ثم بعده "بل نظنكم قوما كاذبين"، وقد شرح هذه المفارقة في التّقسيم والتأخير الخطيب الإسكافي (ت431هـ) باستيفاء فقال: "فلما تقدّمت أفعال ثلاثة، كلّ واحد منها

1 الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير - تونس، الدار التونسية للنشر - الجزائر، المؤسسة الوطنية - د ط - د ت - ج 10 - ص 05.

2 سورة هود - الآية 12.

3 برهان الدّين البقاعي (ت885هـ): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - القاهرة - ط 01 - 1495هـ/1975م - ج 12 - ص 246.

4 سورة هود - الآية 19.

5 برهان الدّين البقاعي: السابق - ج 12 - ص 256.

6 سورة هود - الآية 28.

7 الآية 63.

8 الآية 27.

يتعدى إلى مفعولين والمفعول الثاني لا يحجزه عن الأوّل معموله فيه كان إجراء هذا الفعل الذي هو "أتاني رحمة من عنده" مجرى تلك الأفعال التي وقعت (أتاني) في جوابها، وجاءت من كلام نوح في مقابلتها أولى أما في قصة "صالح" فإنه بإزاء قول قومه له: ﴿قَالُوا يَنْصَلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾¹ فوقع خير كان الذي هو كالمفعول لكان، وقد تقدّمه الجار والمجرور فجرى جواب "صالح" فيما صار عبارة عنه من العربية مجرى الابتداء في هذا المعنى، فترجّح في هذا المكان تقدم الجار والمجرور في قوله: "وأتاني منه رحمة" على المفعول الثاني كما ترجّح هناك تقديم المفعول الثاني على الجار والمجرور²، وسيتضح الأمر إذا تأملنا في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْقُومِ أَرْءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾³، فالجار والمجرور تقدّم في الآية الأولى فقط، وفي الثانية: "وأتاني منه رحمة" وفي هذه: "ورزقني منه رزقا" فجاء هذا التركيب على هذا التوارد من التقديم والتأخير ليوافق كلّ منها ما قبله، إذ الأفعال المتقدمة هنا: [نرى، نرى، نظن] ولم يفصل بينها وبين مفاعيلها جارٌ ومجرور والفعل بعدُ وهو "كان" في الثاني، و"نفعل" في الثالث فصل بينه وبين مفعوله جارٌ ومجرور، إذ خير كان كالمفعول. وإذا قيل: «لم جاء في الأولين "وأتاني" وفي الثالث "ورزقني"؟» قيل: «لأنّ الثالث تقدّمه ذكر الأموال وتأخّر عنه قوله: "رزقا حسنا" وهما خاصان، فناسبهما قوله: "ورزقني" بخلاف الأولين فإنه تقدّمهما أمور عامّة، فناسبهما قوله: "وأتاني"»⁴. وملحظ آخر لطيف في هذا التقديم والتأخير لأجله وقع هذا التوارد هو أن قوم صالح عليه السلام بالغوا في إساءة الجواب حين: ﴿قَالُوا يَنْصَلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾⁵ فرموا مقامه النبوي بحطّ مرتبتهم عنهم، فلما بالغوا جاوبهم عليه السلام رداً لمقالمهم الشنيع: ﴿قَالَ يَنْقُومِ أَرْءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ

1 الآية 62.

2 درة التزليل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز - اعتنى به: الشيخ خليل مأمون شيحا - بيروت - دار المعرفة - ط 01 - 1422 هـ / 2002 م - ص 158.

3 الآية 88.

4 أبو يحيى زكريا الأنصاري: فتح الرحمن بكشف ما يلبس في القرآن - ص 262. 263.

5 الآية 62.

إِنَّ عَصِيَّتَهُ ﴿١﴾، وأنه على بصيرة من أمره، ولكنه خاطبهم على ما يجري في المناظرة من فرض ما لا يعتقد المناظر على حسب نطقه، فقدّم الجار والمجرور لتأكيد أن الرحمة من عنده تعالى، ولما لم يكن في مراجعة قوم نوح مثل هذا في شناعة الجواب جرى جوابه عليه السلام وأتى بالمجرور مؤخرًا في محله على ما يجب²، وأمر آخر كذلك لتقدّم الرحمة في الآية الأولى هو أن الآية تتكلم عن الرحمة (فعميت.. أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) فكلها تعود على الرحمة لذا اقتضى السياق تقدّم الرحمة على الجار والمجرور، أما الآية الأخرى فتكلم عنه سبحانه وتعالى (ربّي، الله، الضمير في "عصيته")، فكلها تعود على الله تعالى، فاقضى الأمر تقدّم "منه" على الرحمة. وفي تقدّم الهمزة على الفعل المضارع احتمال إنكار الفعل، فليس المعنى: "أنا لسنا بمثابة من يجيء منه هذا الإلزام، وأن غيرنا يفعل ذلك، جلّ الله، بل المعنى إنكار أصل الإلزام³.

يقول الحقّ تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤﴾، من التقدّم والترتيب الذي وقع في الآية تقدّم النداء على الأمر جريا على مقتضى الحال فيمن كان مأمورا حقيقة من تقدّم التنبيه، ثمّ قدّم الأرض على السماء وابتدأ به لابتداء الطوفان منها، ثمّ أتبع: "وغيض الماء" لاتصاله بقصة الماء، ثمّ ذكر المقصود: "وقضى" أي: وأنجز الموعد⁵، وستكون لنا وقفة مع هذه الآية نستعرض أهمّ ما ضمّنته من فنون بلاغية تخصّ تضام كلماتها وتوارد بعضها مع بعض، وأهمّ ما ذكره العلماء في هذه الآية، ومن التقدّم الذي يُراعى فيه شرف المُقدّم وأهميته ما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَعْجِبِينَ مِنَ

1 الآية 63.

2 ابن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه من أي التزويل - ج 02 - ص 652.

3 ينظر: دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني - ص 102. وينظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: فخر السدين السرازي - ص 161.

4 سورة هود - الآية 44.

5 عبد الله بن أحمد التنسفي: مدار التزويل وحقائق التأويل - قدّم له: قاسم الشماعي الرفاعي - راجعه وضبطه: إبراهيم محمّد

رمضان - بيروت - دار القلم - ط 012 - 1408 هـ / 1089 م - مج 02 - ص 723.

أَمْرِ اللَّهِ^١ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ^٢ ﴿١﴾ حيث قدم "رحمت" لأن السلام شرع على الأحياء والأموات، بتقديم اسمه على المسلم عليهم، لأنه دعاء بخير، والأحسن في دعاء الخير أن يتقدم به على المدعو له كما في هذه الآية^٢، أما الدعاء بالشر فيقدم فيه المدعو عليه على المدعو به غالباً نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعَنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾^٣، ومنه أيضاً ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِكُمْ بِهِمْ يَوْمَ تَحْتَمِرُ إِنَّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾^٤ ويتقدم المكيال والميزان بالقياس^٤، الآية فيها هي يتضمن الأمر بالإيفاء، وأمر يتضمن التهي عن التقص في المكيال، وقدم التهي على الأمر لأن دفع المفسد أكد من جلب المصالح، ومن التقدم الذي يدل على الاختصاص قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَحِمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾^٥ فإن في هذا التقدم دلالة على الاختصاص، والمعنى: ما أنت بعزير، بل رهطك هم الأعزّة، فالعزّة منفية عنه - عليه السلام - مثبتة لرهطه^٦، لذلك أجابهم: "أرهطي أعزّ"، ولو كان قولهم بمعنى: "ما عززت علينا" لما كان الجواب مطابقاً، ولذلك أنها أن يقال: "ما أنا سعت في حاجتك ولا أحد سواي"، وهو من نوع أن يقع التقدم والتأخير بين الفعل وما هو فاعل معنى^٧. ومن هذا التقدم والتأخير الذي يراعى فيه جانب المعنى ومقتضى الحال قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِمْ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾^٨، في الآية خلاف ما تُعرف عليه من تقدم الأشراف، لكونه أهم في السياق، فقد جاءت الآية تذيلاً لقصص أقوام كذبوا بأنبيائهم، وفي هذا الجوّ الذي تحيط به نذر العذاب

1 سورة هود - الآية 73.

2 عبد الفتاح لاشين: ابن قيم وحسنه البلاغي في تفسير القرآن الكريم - ص 121.

3 سورة ص - الآية 78.

4 سورة هود - الآيتان 84. 85. أبو زكريا الأنصاري: فتح الرحمن بكشف ما يلبس في القرآن - ص 269.

5 سورة هود - الآية 91.

6 بسيوني عبد الفتاح: من بلاغة النظم القرآني: القاهرة - المطبعة الحسينية - ط 01 - 1413 هـ / 1992 م - ص 93.

7 بدر الدين ابن مالك (ت 686 هـ): المصباح في المعاني والبيان والبديع - حقق الكتاب وقدم له بدراسة: عبد الحميد

هنداوي - بيروت - دار الكتب العلمية - ط 01 - 1422 هـ / 2001 م - ص 127.

8 سورة هود - الآية 105.

قَدَمَ الْأَشْقِيَاءَ وَجَزَاؤَهُمْ عَلَى السَّعْدَاءِ وَجَزَائِهِمْ، عَلَى غَرَارِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾¹ لَا يَصْلَحُهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٦﴾ وَسَيَجْزِيهَا الْآتَى ﴿٧﴾¹، لِأَنَّ تَقْدِيمَ "شَقِي" هُوَ مِنْ تَقْدِيمِ الْأَهَمِّ فِي سِيَاقِهِ، وَعَكْسُ ذَلِكَ يَذْهَبُ بِجَلَالِ النَّظْمِ، وَيُحِجُّ دِخَانَ الْإِنْتِقَامِ، وَتَخْفُتُ مَعَهُ أَجْرَاسُ الْأَصْوَاتِ الْمُنْذِرَةِ الْمُتَوَعَّدَةِ، وَلَيْسَ مِنْ أَجْلِ الْفَاصِلَةِ²، لِأَنَّ لَوْ كَانَ مِنْ أَجْلِهَا لَعَادَ النَّظْمُ الْحَكِيمُ فِي غَيْرِ الْفَاصِلَةِ إِلَى تَقْدِيمِ الْأَشْرَفِ، فَبَدَأَ بِجِزَاءِ السَّعْدَاءِ، وَقَالَ: "فَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا" لَكِنَّ الْغَرَضَ إِلَى وَصْلِ حَدِيثِ الْأَشْقِيَاءِ بِمَلَكَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ هُوَ الَّذِي اسْتَوْجِبَ تَقْدِيمَ مَا تَقْدَمُ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي سِيَاقِ التَّحْذِيرِ مِنَ الظُّلْمِ وَالتَّخْوِيفِ مِنَ عَذَابِ الْآخِرَةِ، وَهَذَا يَقْتَضِي تَقْدِيمَ الشَّقِي³ لِأَنَّ تَقْدِيمَهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَعُونَ عَلَى الزَّجْرِ وَأَبْلَغُ فِي التَّحْذِيرِ، وَهُوَ مَا تَسِيرُ عَلَيْهِ الْآيَةُ بَعْدَ ذَلِكَ فَمِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾⁴ خَلْدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَمِنَ الْجَنَّةِ خَلْدِينَ فِيهَا⁴، قَدَّمَ أَهْلَ النَّارِ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ لِأَنَّ الْكَلَامَ قَبْلَ هَذَا كَانَ فِي سِيَاقِ التَّخْوِيفِ وَالتَّحْذِيرِ⁵، فَكَانَ الْأَلِيقُ أَنْ يُوَصَلَ هَذَا بِمَا يَنَاسِبُهُ فِي الْمَعْنَى، وَهُوَ ذِكْرُ أَهْلِ النَّارِ، فَقَدَّمُوا فِي الذِّكْرِ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمِنْ التَّقْدِيمِ الَّذِي جَاءَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هُنْدِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾⁶، حَيْثُ قَدَّمَ الظَّرْفَ عَلَى الْفَاعِلِ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بَيَانُ مَنَافِعِ السُّورَةِ أَوْ الْأَنْبَاءِ الْمَقْصُوصَةِ فِيهَا، وَاشْتِمَالُهُ عَلَى مَا ذَكَرَ مِنَ الْمَنَافِعِ الْمَفْصَلَةِ، لَا بَيَانَ كَوْنِ فِيهَا لَا فِي غَيْرِهَا، وَلِأَنَّ عِنْدَ تَأْخِيرِ مَا حَقَّهُ التَّقْدِيمِ

1 سورة الليل - الآيات 14 . 17.

2 محمد الأمين الخضري: من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية - القاهرة - د ط - 1414هـ / 1994م - ص 31.

3 بسيوني عبد الفتاح: من بلاغة النظم القرآني - ص 84.

4 الآيات 106 . 107 . 108.

5 عبد المتعال الصعيدي: البلاغة العالية، علم المعاني - قدم له وراجعته وأعدت فهارسه: عبد القادر حسين - المطبعة النموذجية -

مكتبة الآداب بالجماميز - ط 02 - 1411هـ / 1991م - ص 82.

6 الآية 120.

تبقى النفس مترقبة إليه فيتمكن فيها عند الورود فضل ما تمكّن¹، ثم إن المعارف الإلهية لا بد لها من قابل وفاعل، وقابلها هو القلب، وأنه ما لم يكن مستعدًا لم يحصل له الانتفاع بسماع الدلائل، ولهذا السبب قدّم ذكر صلاح القلب وعلاجه وهو تثبيتته، ثم عقبه بذكر المؤثر الفاعل وهو مجيء هذه السورة بل آية منها وهي قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ﴾² مشتملة على الحقّ والموعظة والذكرى³، وهذا ترتيب في غاية الحسن. ولأنّ في المؤخّر هناك نوعٌ طويلٌ يحلّ تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم، ومنه أيضا الآية: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾⁴ فضامّت الفاء الأمر بالعبادة "اعبده" لترتيب الأمر بالعبادة، وفي تأخير الأمر بالتوكّل عن الأمر بالعبادة إشعار بأنّه لا ينفع دونها⁵.

1 أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم (على هامش تفسير الرازي) - بيروت - دار الفكر - د ط - 1978م - ج 05 - ص 90.

2 الآية 112.

3 نظام الدين القمي النيسابوري: غرائب القرآن و رغائب الفرقان (على هامش الطبري) - مصر - المطبعة الميمنية - د ط - د ت - ج 12 - ص 88.

4 الآية 123.

5 أبو السعود: السابق - ج 5 - ص 91.

3. المناسبة:

نحاول في هذا المبحث ربط مباحث المناسبة بتوارد أجزاء الكلام بعضها مع بعض، سواء على مستوى الجمل، أو على مستوى أكبر قد يمتدّ إلى خارج السّورة، وأن نعرض العلاقة بين مناسبة الكلام وتضام أجزائه، فليس ضمّ أجزاء الكلم بعضها إلى بعض أو السّورة إلى السّورة كيف جاء واتفق، وإنما يعود لمقاصد تراعي هذا التّوالي والتّابع، عُرفت في علوم القرآن بعلم المناسبة.

ليس مقصودنا البحث في مناسبات التّزول، أو تلك الأحداث التي لازمت نزول آي القرآن، وإنما ترتيب الآي بهذه الكيفية، وترتيب السّور بهذه الصّورة وأهميتها في التّضام والتّماسك والارتباط، باعتبار المناسبة وجها من علوم القرآن تظهر: «أهميته من علوم القرآن بإظهار وجه من أوجه الإعجاز القرآني في تألف ألفاظه وترتيب نظمه، وإظهار التّرباط والتّناسق في آياته وسوره»¹، وتلزم على الباحث في مواضيع قرآنية معرفة المناسبة والإحاطة بها لمعرفة وجوه الرّبط بين الآيات والمقاطع في السّورة، فـ«وجوه المناسبات هذه تلقي الضّوء كاشفة على محور السّورة وهدفها، وبالتالي يحدّد الزاوية التي ينطلق منها في بيان معاني الآيات الكريمة»²، ولعلّ من أقدم التّأليف في المناسبة كتاب "البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن" لأبي جعفر بن الزبير³، ومن التّصوص المبكّرة التي تدعو إلى البحث في دقائق هذا العلم ما قاله الزّركشي: «واعلم أنّ المناسبة علم شريف، تحرز به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول... وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التّأليف حاله حال البناء المتلائم الأجزاء، وقد قلّ اعتناء المفسّرين بهذا النوع لدقّته، وقد أكثر منه الإمام فخر الدّين الرّازي، وقال في تفسيره: «أكثر لطائف القرآن مودعة في التّرتيبات والرّوابط. وقال بعض الأئمّة: من محاسن

1 عمّد يوسف الشّريجي: مرصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع للإمام جلال الدّين السيوطي (ت911هـ) - مجلّة: الأحمدية - جامعة أمّ القرى - ع04 - جمادى الأولى - 1420هـ - ص 77.

2 مصطفى مسلم: مباحث في التّفسير الموضوعي - دمشق - دار القلم - ط05 - 1428هـ/2007م - ص 90.

3 بدر الدّين الزّركشي: البرهان في علوم القرآن - ج01 - ص 35. و جلال الدّين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن - ج02 - ص 451.

الكلام أن يرتبط بعضه ببعض، لئلا يكون منقطعاً»¹ ولعلّ أوّل من أظهره في بغداد هو الشيخ أبو بكر النيسابوري، وكان يقول إذا قرئ عليه الآية: لم جعلت هذه الآية إلى هذه، وما الحكمة في جعل هذه السّورة إلى جنب هذه السّورة؟² ويستطرد الزّركشي في بيان بعض المناسبة بين السّور ثمّ يلتفت إلى المناسبة بين الآيات فيقول: «وإذا ثبت هذا بالنسبة إلى السّور، فما ظنك بالآيات وتعلّق بعضها ببعض، بل عند التأمّل يظهر أنّ القرآن كلّه كالكلمة الواحدة»³، وقد أفرد لهذا العلم البقاعي كتاباً خاصّاً سمّاه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور" وهو كتب ضخّم فريد في صنيعة، يقول فيه: «..وسمّيته "نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور" ويناسب أن يُسمّى "فتح الرّحمن في تناسب أجزاء القرآن" وأنسب الأسماء له "ترجمان القرآن ومبدي مناسبات الفرقان". وعلم المناسبات الأهمّ من مناسبات القرآن وغيره، تعرف منه علل التّرتيب، وموضوعه أجزاء الشّيء المطلوب علمُ مناسباته من حيث التّرتيب، وثمرته الاطّلاع على الرّتبة التي يستحقّها الجزء بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتّعلّق الذي هو كلحمة النّسب، فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سرّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال»⁴، ومن الذين صنّفوا فيه أيضاً السيّوطي، فقد جاء في الإتيقان: «وكتابي الذي صنّفته في أسرار التّزليل كامل بذلك جامع لمناسبات السّور والآيات مع ما تضمّنه من بيان وجوه الإعجاز وأساليب البلاغة، وقد لخصت منه منابة السّور والآيات في جزء لطيف سمّيته تناسب الدرر في تناسب السّور»⁵، إلى جانب رسالته "مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع" وهي رسالة مختصرة في المناسبة، وقد جاء عنه أنّ الفخر الرّازي قال: «من تأمّل في لطائف نظم السّور وبديع ترتيبها علم أنّ القرآن كما أنّه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعلّ الذين قالوا: "إنّه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك"، إلّا أنّي رأيت جمهور

1 بدر الدّين الزّركشي: البرهان في علوم القرآن - ج01 - ص 35.

2 المصدر نفسه: ج01 - ص 36.

3 المصدر نفسه - ج01 - ص 39.

4 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ج01 - ص 05 . 06.

5 ينظر: ص 451.

المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار»¹، فالمناسبة عامل رئيس من عوامل التماسك وتحقيق تضام الكلمات والآيات والسور. وأجزاء السورة ومقاصدها من الأمور الواجب معرفتها، وإذا تعذر على كثير من العلماء دراسة سورة من القرآن دراسة تفصيلية وكشف جملة الشائخ اللفظية والمعنوية التي تربط أجزاء السورة بعضها ببعض فمن باب أولى أن يتعذر علينا، وذلك مطلب له محلّه من كتب التفسير، وفي القطعة الواحدة منها أسباب ممدودة عن أيمانها وعن شمائلها تمتُّ بها إلى الجار ذي القربى والجار الجنب، في شبكة من العلاقات يجر إلى خيوطها ولكن سبيلنا سبيل ما قاله العلماء: «إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلّق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويطرأ بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلّق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، وإنه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية»²، وسنسير في هذا البحث وفق محاور تدور في فلك المناسبة ولا تكاد تخرج عنها، هي البحث في مناسبة فاتحة السورة وبدايتها ومحاورها الكبرى، ومناسبة اسم السورة والقصص التي جاءت فيها، ومناسبة اسم السورة ومضمونها، ومناسبة خاتمة السورة التي قبلها وفاتحتها هي، و فاتحة السورة مع خاتمها، ثم خاتمة السورة وفاتحة السورة التي تليها، ومناسبات تخصّ آيات من السورة بعضها مع بعض.

إنّ القضايا الكبرى التي جاءت في تضاعيف هذه السورة يمكن أن نوجزها فيما يلي:

- بدأت سورة هود كما تبدأ كثير من سور القرآن الكريم بالحديث عن القرآن الكريم وشأنها في تقرير أصول الدين شأن القرآن المكي، وقد نزلت بعد سورة "يونس"³ في فترة عصيبة

1 تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور- دراسة وتحقيق: عبد القادر عطا- بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1406هـ/1986م- ص 21. 22.

2 محمد عبد الله دراز: التبا العظيم، نظرات جديدة في القرآن- ص 159.

3 محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن- مصر- المطبعة الميمنية- د ط - د ت - ج11- ص 115. وينظر: غرائب القرآن في رغائب الفرقان: نظام الدين القمي النساבורي (على هامش تفسير الطبري)- ج12- ص01. وتفسير السفي: ج02- ص 700. وتفسير الثعالبي: ج02- ص 260. وينظر: أنوار الترتيل وأسرار التأويل: ناصر السدين البيضاوي- بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1424هـ/2003م- ج01- ص 445. وينظر: مختصر ابن كثير: محمد على الصابوني- بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1420هـ/2000م- مج02- ص165. و صفوة التفسير:

مرّ بها النبي صلى الله عليه وسلّم، بعد وفاة عمّه أبي طالب، وزوجه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

- عدم الفائدة في الاستخفاء عند الإعراض عن الحقّ.

- تكفّل الله بأرزاق المخلوقات وشمولية علمه سبحانه، وموازنة دقيقة بين الانسان المؤمن وأوصاف الانسان الكافر.

- تحريض النبيّ صلى الله عليه وسلّم على تبليغ الرّسالة وتهديد المشكّكين بالقرآن.

- الإيمان والإذعان هو المنهج الحقّ.

- التحدّث بإسهاب عن دعوة الرّسل الكرام، وكانت البداية مع قصّة نوح عليه السّلام لأنه الأب الثاني للبشر، وهو أطول الأنبياء عمراً، وأكثرهم بلاء وصبراً، ومع ذلك لم يؤمن معه إلاّ قليل.

- قصّة هود عليه السّلام مع قومه.

- قصّة صالح عليه السّلام مع قومه.

- إبراهيم عليه السّلام مع قومه.

- لوط عليه السّلام مع قومه.

- قصّة شعيب عليه السّلام مع قومه.

- إعراض قوم موسى عليه السّلام مع قومه.

- العظة والاعتبار بالأمم السّالفة.

- ختمت السّورة بتوجيه الخطاب للرّسول عليه الصّلاة والسّلام، وأعقبها بيان الحكمة من ذكر أخبار الأنبياء، ألا وهي لتثبيت قلبه صلى الله عليه وسلّم، وهكذا تختم السّورة مثلما بدأت به

محمد علي الصّابوني - بيروت - دار القرآن - ط01 - 1401هـ/1981م - القسم الخامس - ص 86. وينظر: إيجاز البيان في سور القرآن: محمد علي الصّابوني - القاهرة - مكتبة الغزالي - ط02 - 1399هـ/1979م - ص 83.

من التوحيد والتوبة والإنابة والرجعة إلى الله في نهاية المطاف، لأننا إذا أنعمنا النظر في بداية سورة هود وجدناها قد جمعت بين القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى بكلمتي "الإحكام والتفصيل"، وأي إحكام وتفصيل؛ إحكام من حكيم متقن لا خلل في صناعته، وتفصيل من خبير عالم بدقائق الأمور وتفصيلها وما هي عليه.

أول ما يجب علينا الوقوف عنده اسم السورة ومناسبة ذلك، إذ نبه علماءنا القدامى إلى هذا المبحث الدقيق، وحرصوا على معرفة ما اختصت به كل سورة من اسم أو أكثر من اسم وقد جعلوا فصولاً خاصة بأسماء السور القرآنية، من ذلك ما رواه السيوطي عن الزركشي أنه قال: «ينبغي البحث عن تعداد الأسماء هل هو توفيقى أو بما يظهر المناسبات؟ فإن كان الثاني فلم يعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسماء لها وهو بعيد، قال: «وينبغي النظر في اختصاص كل سورة بما سميت به»¹، وهذا الأمر امتد إلى الدرس الحديث حيث يركز علماء النص على أهمية العنوان، أو ما يواجهه الملقى أو محلل النص ف: «للعنوان قيمة إشارية تفيد في وصف النص ذاته، غني عن البيان أن طبيعة العلاقات بين النص وعنوانه من المباحث الحيوية الطريفة التي ما زالت في حاجة إلى دراسات علمية تحليلية عميقة»²، وقد أدرك علماء البلاغة قديماً هذا الملمح البياني الهام أمثال الجاحظ وابن طباطبا والحاتمي وحازم لضرورة التماسك بين عبارات النص وجمله وفصوله وتضام أجزائه³، وما يعيننا هو مناسبة سورة هود لمضمونها واسمها.

إن سورة هود لم تعرض قصة هود عليه السلام وحده؛ وإنما عرضت قصص مجموعة من الأنبياء عليهم السلام، حيث بدأت بآيات تتحدث إلى نبينا صلى الله عليه وسلم وتبين له ما يفعله المشركون، ثم تعرج على قصص بعض الأنبياء ومواقف أقوامهم ضدهم ليطمئن النبي ويثلج صدره ويعلم أن هذه سنة من خلا من الأنبياء والمرسلين، وأن يصبر، فتأتي قصة نوح عليه السلام في

1 الإتيان في علوم القرآن - ص 79.

2 محمد العبد: اللغة والإبداع الأدبي - ص 48. أخذنا عن: صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق - ص

106.

3 محمد الخطابي: لسانيات النص، مدخل لانسجام الخطاب - ص 141. وما بعدها.

التضام في سورة هود

مقدمة القصص وبعدها قصة هود عليه السلام، وبعدها قصة صالح عليه السلام، وبعدها قصة إبراهيم عليه السلام، وبعدها قصة لوط عليه السلام، ثم قصة شعيب عليه السلام، فقصة موسى عليه السلام، لتعود إلى الحديث عن المصطفى صلى الله عليه وسلم مرة أخرى إلى آخر السورة.

تدور هذه القصص على محور واحد ممثّل في التوحيد وأنّ الدين السّماوي واحد وأنّ رسالات الأنبياء واحدة، وهذا الاتفاق بين كونهم أنبياء وأنهم يقومون بالدعوة، وكلّهم يواجه بالرفض والكفر، يزيد من تماسك السّورة وتضام وحداتها ومضمونها، فما أريد من هذه بعد عرض قصص هؤلاء الغابرين هو التنبيه إلى ضرورة عدم الاعتزاز بشيء مما يتخيّله الإنسان في نفسه قوّة أو علماً أو سلطاناً، وإلى أنّه سبحانه يمهّل، فإذا شاء أخذ، فإذا أخذ لم يفلت¹، فالقصص جميعها تلتقي مع مضمون السّورة، وتتكاثف لتخدم القضية نفسها.

وفيما يخصّ اسم السّورة ومضمونها فإنّ كلّ القصص التي احتوتها السّورة تتعلّق باسم السّورة، التي تحمل اسم "هود" عليه السلام، وهذا التعلّق ذو مرجعية ضمنية مع بقية القصص، وذو مرجعية مباشرة مع قصة هود عليه السلام، لأنّ مراحل تبليغ هود رسالة ربّه وإعراض قومه هي المراحل نفسها التي تتكرّر في جميع القصص، وقد أطلق الجزء، وهو هود عليه السلام وأريد به الكلّ، وهذه المرجعية المباشرة مع قصة هود والمرجعية الضمنية مع بقية القصص يمكن أن تمثّل لها بالشكل التالي:

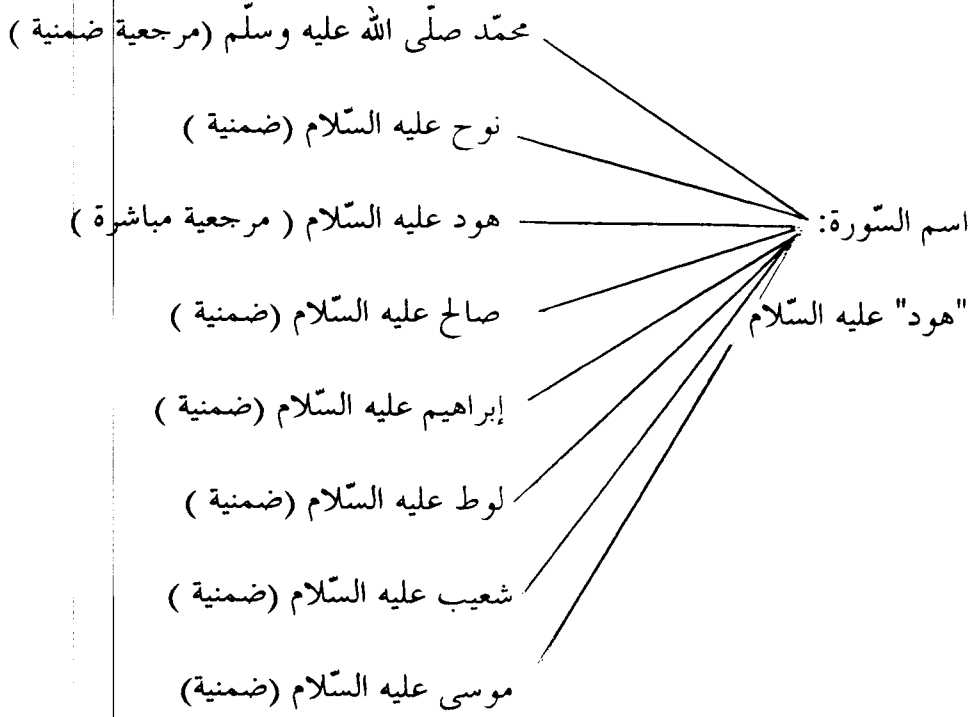
1 محمد سعيد رمضان البوطي: من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عزّ وجلّ - دمشق - مكتبة الفارابي - ط - د ت ص 193.

مقدمة القصص وبعدها قصة هود عليه السلام، وبعدها قصة صالح عليه السلام، وبعدها قصة إبراهيم عليه السلام، وبعدها قصة لوط عليه السلام، ثم قصة شعيب عليه السلام، فقصة موسى عليه السلام، لتعود إلى الحديث عن المصطفى صلى الله عليه وسلم مرة أخرى إلى آخر السورة.

تدور هذه القصص على محور واحد ممثّل في التوحيد وأنّ الدين السّماوي واحد وأنّ رسالات الأنبياء واحدة، وهذا الاتفاق بين كونهم أنبياء وأنهم يقومون بالدعوة، وكلّهم يواجهون بالرفض والكفر، يزيد من تماسك السورة وتضام وحداتها ومضمونها، فما أريد من هذه بعد عرض قصص هؤلاء الغابرين هو التنبيه إلى ضرورة عدم الاعتزاز بشيء مما يتخيّل الإنسان في نفسه قوة أو علماً أو سلطاناً، وإلى أنّه سبحانه يمهّل، فإذا شاء أخذ، فإذا أخذ لم يفلت¹، فالقصص جميعها تلتقي مع مضمون السورة، وتتكاثف لتخدم القضية نفسها.

وفيما يخصّ اسم السورة ومضمونها فإنّ كلّ القصص التي احتوتها السورة تتعلّق باسم السورة، التي تحمل اسم "هود" عليه السلام، وهذا التعلّق ذو مرجعية ضمنية مع بقية القصص، وذو مرجعية مباشرة مع قصة هود عليه السلام، لأنّ مراحل تبليغ هود رسالة ربّه وإعراض قومه هي المراحل نفسها التي تتكرّر في جميع القصص، وقد أطلق الجزء، وهو هود عليه السلام وأريد به الكلّ، وهذه المرجعية المباشرة مع قصة هود والمرجعية الضمنية مع بقية القصص يمكن أن نمثّل لها بالشكل التالي:

1 محمد سعيد رمضان البوطي: من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عزّ وجلّ - دمشق - مكتبة الفارابي -

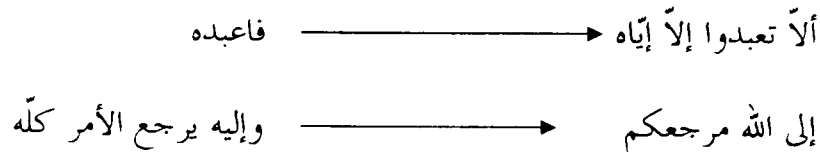


وعن هذه المرجعية التي تُشترط في مناسبة الكلام وارتباط أوله بآخره يقول الزركشي: « وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: المناسبة علم حسن، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره¹، فالمرجعية ضرورية لتأكيد أمر تماسك السورة واتفق عناصرها وتضام كلماتها وآياتها مع مضمونها العام، أما إطلاق الجزء وهو تسميتها باسم أحد الأنبياء المذكورين فيها، و المراد به الكلّ فإنّ ذلك يجيب عنه الزركشي أيضا تحت عنوان "في اختصاص كلّ سورة بما سُميت" حيث يقول: « ينبغي النظر في وجه اختصاص كلّ سورة بما سُميت به... فإن قيل: قد ورد في سورة "هود" ذكر "نوح" و"صالح" و"إبراهيم" و"لوط" و"شعيب" و"موسى" عليهم السلام، فلم تختصّ باسم هود وحده؟ وما وجه تسميتها به؟ وقصة نوح فيها أطول وأوعب. قيل: تكررت هذه القصص في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء بأوعب مما وردت في غيرها، ولم يتكرّر في واحدة من هذه السور الثلاث اسم هود عليه السلام كتكرّره في هذه السورة، فإنّه تكرّر فيها عند ذكر قصّته في أربعة مواضع، والتكرار من أقوى الأسباب التي ذكرنا. وإن قيل: فقد تكرّر اسم نوح في هذه السورة في ستة مواضع فيها، وذلك

1 البرهان في علوم القرآن - ج1 - ص 37.

أكثر من تكرار اسم هود. قيل: لما جرّدت لذكر نوح وقصّته مع قومه سورة برأسها فلم يقع فيها غير ذلك كانت أولى بأن تُسمّى باسمه عليه السّلام من سورة تضمّنت قصّته وقصّة غيره، وإن تكرّر اسمه فيها، أمّا هود فكانت أولى بأن تُسمّى باسمه عليه السّلام»¹، وهذا التكرار الذي يذكره الزّركشي-اتّحاد أجزاء السّورة- قد اعتمده علماء النّص في الدّراسة المعاصرة بأنّه ظاهرة لغوية يتحقّق بها السّبك المعجمي، إلى جانب المصاحبة المعجمية²، وقد مرّ معنا علاقة السّبك بالتضام ناهيك عن المصاحبة المعجمية التي هي مصطلح تغطية بالنسبة إلى التضام.

إنّ المناسبة على أنواع³، منها مناسبة الآيات مع بعضها، بحيث تتشكّل الوحدة الموضوعية للسّورة، ومنها مناسبة السّور مع بعضها، بحيث تجعل القرآن كالكلمة الواحدة، ومنها مناسبة فواتح السّور لخواتمها، أمّا مناسبة فاتحة سورة هود لخاتمتها فإنّها تتضح في ذلك الدّوران حول المحور المشار إليه سابقا وهو عبادة الله، وأنّ الأمر كلّه مرجعه إلى الله. يقول تعالى: ﴿الرَّكَعَ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَنَشِيرٌ ﴿٢﴾﴾⁴، ويقول بعدها: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴿٣﴾﴾⁵، ويقول في خاتمة السّورة: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٦﴾﴾⁶، وبهذا تتضح هذه المناسبة بين ما جاء في بداية السّورة وآخرها.



- 1 المصدر السابق - ج 01 - ص 272، وينظر: الإتيان في علوم القرآن: السيوطي - ص 79.
- 2 ينظر: البديع بين البلاغة العربية واللّسانيات التّصية: جميل عبد المجيد - ص 79.
- 3 محمّد يوسف الشّرجبي: مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع للإمام السيوطي - مجلّة الأحمدية - ص 79.
- 4 سورة هود - الآيتان 01. 02.
- 5 الآية 04.
- 6 الآية 123.

والمرجعية في هذا داخلية سابقة، والمسند إليه في كل هذا واحد، هو الله سبحانه، وقد أشار السيوطي إلى هذه المناسبة لكون فاتحة السورة كانت بذكر القرآن، وأن خاتمتها كذلك¹، ولم يقف الأمر عند مفتتح السورة والخاتمة، بل إن المتتبع للسورة يلحظ المناسبة في اتفاق الآيات وما جاء على لسان الأنبياء، نحو قوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ﴾² على لسان نوح عليه السلام، وعلى لسان هود في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ آخَاهُمْ هُودًا قَالِ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾³، وما جاء على لسان صالح في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ آخَاهُمْ صَالِحًا قَالِ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ﴾⁴، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ آخَاهُمْ شُعَيْبًا شُعَيْبًا قَالِ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ﴾⁵، كما أن ردود أقوامهم واحدة، وبهذا الاتفاق في الدعوة إلى الله تماسك السورة ويتصل أولها بآخرها، وتتضام آياتها إلى بعضها بعضاً، وهكذا: «تختتم السورة التي بُدئت بالتوحيد في العبادة، والتوبة والإنابة والرجعة إلى الله في النهاية، بمثل ما بُدئت به من عبادة الله وحده والتوبة إليه وحده، وذلك بعد طول التطواف في آفاق الكون، وأغوار النفس.. وهكذا يلتقي جمال التنسيق الفني في البدء والختام، والتناسق بين القصص والسياق بكمال النظرة والفكرة والاتجاه في هذا القرآن»⁶، والمتتبع للقرآن المكِّي يجده يركّز على الاهتمام بالعبادة والتوحيد ويعوّل عليه، وهذا هو ديدن هذه السورة. ومن العوامل التي تساعد على هذا التماسك علاقة الإجمال والتفصيل، حيث تجدها مرتبطة باسم السورة وما حدث فيها، كأن تكون السورة مفصلة لاسمها، أو أن يكون بعضها مفسراً لاسمها، والمرجعية «المحققة هنا كلها مرجعية

1 محمد يوسف الشربجي: مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع للإمام السيوطي - مجلة الأحمدية - ص 93.

2 الآية 26.

3 الآية 50.

4 الآية 61.

5 الآية 84.

6 سيد قطب: في ظلال القرآن - مج 04 - ج 12 - ص 1934.

خلفية لما سبق، وعليه يسهم هذا النمط في تحقيق التماسك»¹، وهو ما نراه في الآيتين الثانية والثالثة اللتين تفصلان بعضاً مما تعلق بالآية الأولى التي تتحدث عن الكتاب المبين.

وهناك عامل آخر من عوامل التضام هو علاقة الكلمة بما يجاورها، لما بينهما من مناسبة. وتوضح مجاورة الكلمة لأخواتها من خلال العلاقات التحوية بينها كالتعت والبدل والتمييز وغيرها على نحو ما نجده بين قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾² وبين قوله تعالى من السورة نفسها: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾³ فالعلاقة تمثل المرجعية الخلفية السابقة، وبها يتحقق تضام الكلمات المتجاورة وتماسكها، ومن أنماط المناسبة التي تعمل على تماسك النسوس وتضام أجزائها قضية التضاد أو الضدية، وتجسد مثلاً بين آيات تتحدث عن التعميم وأخرى تليها تتحدث عن العذاب، أو البشير والتذير، إماماً بين جملتين على نحو ما في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾⁴، وقوله تعالى بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾⁵، أو بين كلمتين في آية واحدة نحو قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾⁶، ومن القضايا التي تسهم في البناء الكلي للسورة وتجعله متناسبا وأخذاً بعضه بأعناق بعض قضية المسبب والمسبب عنه الدلالية، مثل ما رأيناه في القصص التي حدثت بين أنبياء الله عليهم السلام وأقوامهم ليكذب من يكذب ويصدق من يصدق، ثم تأتي النتيجة في الأخير فينجي الله من اتبع رضوان الله، ويهلك الكافرين، فهذه النتيجة التي يكثر دوراتها في القرآن كانت وراء ما سبق من تكذيب أو تصديق، ولم تكن عفواً دون سبب، والمرجعية في هذا أيضاً خلفية معلوم بها.

1 صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة التصني بين النظرية والتطبيق - ص 142.

2 سورة هود - الآية 03.

3 الآية 11.

4 سورة هود - الآية 18.

5 الآية 23.

6 الآية 105.

الْحَكِيمِينَ ﴿١﴾، تفتح هذه بذكره سبحانه وبصفتين من صفاته في قوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَبٌ أَحْكَمَتْ
 ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿٢﴾، وفي الأولى الخطاب موجه إلى الرسول صلى الله عليه
 وسلم، في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۗ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٣﴾،
 وتفتح هذه بذكر وظيفته عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۗ إِنِّي لَكُرْمٌ مِنْهُ نَذِيرٌ
 وَنَشِيرٌ ﴿٤﴾، يضاف إلى هذا بناء الأفعال للمفعول، فقد جاء الفعل (يُوحَى) في خاتمة السورة
 الأولى مبنياً للمفعول في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۗ وَهُوَ خَيْرُ
 الْحَاكِمِينَ ﴿٥﴾ وكذلك في السورة الأخرى في قوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَبٌ أَحْكَمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ
 مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿٦﴾، والفعلان هما (أحكمت، فُصِّلَتْ)، وبناء الأفعال للمفعول إشارة منه
 سبحانه إلى أن إحكامه أمر قد فرغ منه على أيسر وجه منه سبحانه⁷، ويمكن أن تمثل هذه المناسبة
 التي بين خاتمة سورة "يونس" وفتحة سورة "هود" بالشكل التالي:

سورة هود	→	سورة يونس
الحديث عن كتاب الله.	→	الحديث عن الوحي
التنهي عن عبادة غير الله.	→	التنهي عن دعاء غير الله
ذكر الله وصفاته سبحانه.	→	ذكر الله وصفاته سبحانه
هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.	→	الخطاب إلى الرسول المتحدّث

1 الآية 109.

2 الآية 01.

3 الآية 109.

4 الآية 02.

5 الآية 109.

6 الآية 01.

7 ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدّين البقاعي - ج09 - ص 225.

بناء الفعل للمفعول → بناء الفعل للمفعول

وهنا تبرز أهمية المناسبة في تماسك النص¹ واتحاد أجزائه بين أكثر من سورة، فالقرآن يتجاوز تضام الكلمة وذواتها إلى إطار أوسع وأكبر بخاصة حينما تمنع في مثل هذا النوع من المناسبات لتدرك أنها فصلت من لدن حكيم خبير.

بعد البحث في مناسبة خاتمة السورة لفاتحة التي تليها لا بأس أن نقف عند مناسبة خاتمة السورة وفاتحة التي تليها، أي خاتمة سورة "هود" وفاتحة سورة "يوسف". يقول البقاعي: «لما خلل سبحانه تلك-سورة هود- بما خللها به من القصص والآيات القاطعة بأن القرآن من عنده وبإذنه نزل، وأنه لا يؤمن إلا من شاء إيمانه، وأنه مهما شاءه كان، وبين عظيم قدرته على مثل ما عذب به الأمم، وعلى التأليف بين الأمم وإيقاع الخلاف بين من شاء، وأشار إلى أنه حكم بالنصرة لعابديه فلا بد أن يكون ما أراد لأنه إليه يرجع الأمر كله، تلاها بهذه السورة- سورة يوسف- لبيان هذه الأغراض لهذه القصة العظيمة الطويلة»²، أما مناسبة الأول للآخر فإنه: «لما ابتدئت السورة الماضية بأن هذا الكتاب محكم، وختمت بالحكمة المقصودة من قصّ أنباء الرسل، وكان السياق للردّ عليهم في تكذيبهم في قوله: "أم يقولون افتراه" ودلّ على أنه أنزل بعلمه، ابتدئت هذه لإتمام تلك الإشارة الدالة بالإشارة إلى ما له من علوّ المحلّ وبعد الرتبة... ولما تقدّم أول سورتي "يونس" و"هود" وصفه بالحكمة والإحكام والتفصيل، وُصف هنا بأخصّ من ذلك فقال تعالى: "المبين" أي: البين في نفسه أنه جامع معجز لا يشبهه على العرب بوجه»³، وقد زاد أن وضّح السيوطي هذه المناسبة فقال: «وجه وضع سورة "يوسف" بعدها أن قوله في مطلعها: ﴿مَنْحُنْ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنَّ الْغَافِلِينَ﴾⁴ مناسب لقوله في مختتم تلك: ﴿وَكُلًّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِ»

1 ينظر: علم اللغة النصي بين النظرية التطبيقية: صبحي إبراهيم الفقي - ص 184.

2 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ص ج 12 - ص 01. 02.

3 ينظر: المصدر نفسه - ج 12 - ص 05.

4 سورة يوسف - الآية 03.

فَوَادَكَ^١ ﴿١﴾، وأيضا لما وقع في "هود": ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَابِئَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ
 إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾^٢، وقوله: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾^٣ ذكر هنا حال يعقوب مع
 أولاده، وحال ولده الذي هو من أهل البيت مع إخوته فكان كالشرح لإجمال ذلك، وكذلك قال
 هنا في سورة "يوسف": ﴿وَكَذَلِكَ نَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ
 عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾^٤ فكان ذلك كالمقترن
 بقوله في "هود": ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾^٥ «^٦، فقد جاء في مختتم سورة "هود"
 بأن الله يقصّ القصص على نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، فكان مفتح سورة "يوسف"
 كذلك. والسورة السابقة تضمنت علم الله للغيب واختصاصه به وحده، والأخرى قد كانت من
 الغيب لم يعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمسند إليه في السورة الأولى واحد هو "سبحانه"
 "نقص" و"الله" و"فاعبهه" و"عليه"، وفي هذه أيضا: "إنا أنزلناه" و"نحن" نقص عليك". وفي الأولى
 المخاطب هو نبي الله صلى الله عليه وسلم في نحو: "عليك" و"فاعبهه" و"توكل"، وفي الثانية نفسه:
 "عليك" و"إليك" و"كنت". وهذه المناسبات يمكن عرضها كسابقتها بهذا الشكل:

سورة هود → سورة يوسف.

الحديث عن القصص → الحديث عن القصص أيضا.

الإشارة إلى امتلاك الغيب لله → السورة كلها من الغيب على رسول الله.

المسند إليه هو سبحانه → المسند إليه هو الواحد الأحد.

1 الآية 120.

2 الآية 71.

3 الآية 73.

4 الآية 06.

5 الآية 73.

6 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ص 94. 95.

المخاطَب هو رسول الله → المخاطَب هو رسول الله.

وكلّ هذه المناسبات زادت التّصوُّص التّحاما وتآلفا، والآيات إلى بعضها تماسكا وتضامًا واستطاعت أن تخرج بالتّحليل من إطاره المعهود المحصور في النص إلى مجال أوسع رحبا وأطول امتدادا، من الكلمة إلى الآية إلى السّورة إلى السّور، وتما يندرج أيضا تحت مظلة المناسبة قضيّة فواتح السّور، لأنّ فاتحة السّورة «تمثّل أحيانا سمة من سماتها، وأحيانا مفتاحا لها، وأحيانا عنوانا لها وأحيانا تتشابه مع فواتح سور أخرى»¹، وليس الأمر مقتصرًا على السّورة نفسها بل قد يتعدّى ذلك إلى مناسبة فواتح أكثر من سورة، لكن الذي ينهض به بحثنا هو وجه افتتاح هذه السّورة بالحروف الهجائية المقطّعة [الرّء]، وليس من السّهل بمكان الاقتراب من موضوع فواتح السّور، فلقد كثرت الكتابات فيه منذ القدم، وكثرت تحريجات وتعليقات العلماء حوله²، وقد عدّ الزّركشي عشرين وجها ذكرها العلماء³، حصرها الزّمكاني في وجهين فقال: «إنّها - أي فواتح السّور بالحروف المقطّعة - كالمهيجة لمن سمعها من الفصحاء، والموقظة للهمم الرّاقدة من البلغاء لطلب السّاجل والأخذ في التّفاضل، وما هذا شأنه خليق بالنّظر فيه، والوقوف على معانيه بعد حفظ معانيه. الثّاني: التّنبية على أنّ تعداد هذه الحروف تمّن لم يمارس الخطّ ولم يعان النّظر فيه على ما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحْتَفُونَ بِحَمِيصِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾⁴ متزلّ متزلة الأفاضيص عن الأمم السّالفة تمّن ليس له اطلاع على ذلك»⁵ إلّا أنّنا نقتصر من تلك الوجوه على بعض ما اطمأنّ إليه بحثنا.

1 صبحي إبراهيم الفقي: علم اللّغة النّصي بين النّظرية و التّطبيق - ص 150.

2 ينظر ما كُتب حول الموضوع على سبيل المثال في كتاب: الإعجاز البياني للقرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية و لغوية و بيانية: عائشة عبد الرّحمن - ص 155. إلى ص 180.

3 البرهان في علوم القرآن - ج 03 - ص 173. وما بعدها.

4 سورة العنكبوت - الآية 48.

5 كمال الدّين عبد الكريم: البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن - ص 57.. أحذا عن: محمّد حرير: جمالية التّلقّي في القرآن الكريم - مخطوط رسالة دكتوراه - الجزائر - جامعة سيدي بلعباس - قسم اللّغة العربيّة وآدائها - 2006م - ص 170. 171. وهذان الوجهان وردا عند الزّركشي في الوجهين الحادي عشر والثّاني عشر من عشرين وجها ذكرها للعلماء. ينظر: البرهان في علوم القرآن - ج 01 - ص 176.

إنّ المواطن التي ورد فيها حرف "الراء" في فواتح السور هي: سورة "يونس" وسورة "هود" وسورة "يوسف" وسورة "إبراهيم" وسورة "الحجر" وسورة "الرعد"، أمّا سورة هود-وهي موضوع بحثنا-فإنّها تفتتح بذكر البشرى والندارة، والبشرى هي الشّيء الذي يروق النفس، فإذا ما ألقىته السّامع هشّ وبشّ. وتأثرت به بشرة وجهه فطرب له، ورأيته عليه. والتبشير الإخبار بما يظهر أثره على البشرة، وهي الجلدة الظاهرة المرئية¹. فالراء من الرؤية والبيان والظهور.

ومعاني هذه الرؤية والظهور تتكرّر في السورة في مواطن عديدة بمعان كثيرة، منها النجاة ومنها النظر، ومنها البصر، ومنها الرؤية نفسها، فالنجاة تكرّرت أربع مرّات في السورة، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ حَادِدٌ﴾² وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحٌ﴾³ وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعْبَاءٌ﴾⁴ وقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾⁵، والنجاة والتنجية إظهار الحقّ، والتنجية جعل الأمر على نجوة مرتفعة ليرى. أمّا الانتظار فقد ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَظِرُونَ﴾⁶، والانتظار طلب ما يقدر النظر عليه، ويكون في الخير والشرّ، والنظر طلب إدراك الشّيء من جهة البصر أو الفكر. أمّا البصر فتجده بصيغة "بصيرا" في ثلاثة مواطن، في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾⁷ وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾⁸ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾⁹ والبصر اسم الرؤية، ولهذا يقال: إحدى عينيه عمياء، ولا يقال: أحد بصريه أعمى¹⁰. أمّا الرؤية فقد

1 محمد بدري عبد الجليل: براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور- الإسكندرية- مطبعة الجزيرة- د ط- د ت -

ص 154.

2 الآية 58.

3 الآية 66.

4 الآية 94.

5 الآية 116.

6 الآية 122.

7 الآية 20.

8 الآية 24.

9 الآية 112.

10 محمد بدري عبد الجليل: السابق- ص 155. 158.

وردت خمس مرّات ؛ منها قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾¹، وقوله تعالى: ﴿وَلِكَيْتُمْ أَزْنَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾²، وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾³، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾⁴ وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾⁵، أما البشارة التي جاءت في مفتح السّورة فقد وردت أربع مرّات؛ في قوله تعالى: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾⁶ وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾⁷، وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ وَأَمْرَأَتُهُ قَابِئَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾⁸ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَن إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ تَجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾⁹، وهكذا فكلّ الكلمات دارت حول المفهوم نفسه واتّحدت على معنى واحد تجمععه لفظة الرؤية، التي اشتقّ منها مفتح السّورة، ليبين تماسك فاتحة السّورة مع ما جاء فيها، ناهيك عن الكثير من الوجوه التي استدللّ بها العلماء لفواتح السّور وما تفرّع عنها من بحوث، تصلح أن تفرد بدراسات قائمة بذاتها، وبهذا تكون المناسبة عنصرا من عناصر السّياق الداخلي يبحث في التّضام والارتباط بين الآية والآية أو الآية والسّورة أو السّورة والسّورة، لا غنى للباحث عنه.

1 الآية 28.

2 الآية 29.

3 الآية 63.

4 الآية 70.

5 الآية 88.

6 الآية 01.

7 الآية 69.

8 الآية 71.

9 الآية 74.

هناك ملحظ آخر في سورة هود يرتبط بالقصص التي وردت فيها، حيث تجد القرآن يأتي بقصص أولئك الأنبياء إلا قصة إبراهيم عليه السلام فإنه لا يذكرها في هذه السورة ويذكرها في سور أخرى فما وجه المناسبة في ذلك؟

لقد حكى القرآن قصة نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وموسى، في سورة الأعراف وهود والشعراء، ولم يذكر معهم قصة إبراهيم، وإنما ذكرها في سورة الأنبياء، ومريم والعنكبوت، والصفّات. والسرّ في ذلك « أن تلك السور ذكر الله فيها نصر رسله بإهلاك قومهم ونجاة الرّسل وأتباعهم»¹، وأن ترتيب قصص هذه السورة كترتيب قصص الأعراف، وإنما أدرج شيئاً من أخبار إبراهيم عليه السلام بين قصة "صالح" و"لوط" لأن له مدخلا في قصة "لوط" وكان إبراهيم ابن خالة لوط²، فلا غرو أن لا نجد قصة إبراهيم عليه السلام مروية في سورة هود، ولكن ما وجه خصوصية إبراهيم بهذه الميزة بعدم إهلاك قومه؟ والجواب أن الله سبحانه لم يذكر عن قوم إبراهيم أنهم أهلكوا، بل ذكر أنهم ألقوه في النار فجعلها الله بردا وسلاما، وإبراهيم بعد هذا لم يبق بينهم، بل هاجر وتركهم.. وهكذا حال محمد صلى الله عليه وسلّم، لم يبق فيهم بل خرج عنهم حتى أظهره الله، ومحمد وإبراهيم أفضل الرّسل.. ثم كانت له العاقبة فهو أشبه بمحمد صلى الله عليه وسلّم،³ فإنّ محمدا سيّد الجميع، وهو خليل الله، كما أن إبراهيم عليه السلام خليله والخليلان هما أفضل الجميع، وفي طريقهما الرّحمة والرّأفة ما ليس في طريق غيرهما.

وما دام الحديث عن محمد صلى الله عليه وسلّم وعن القصص القرآني فإننا نعود القهقري إلى سبب شبيه عليه السلام وتساؤل الصّحابة عليهم رضوان الله عن هذا الشّيب، فيا ترى ما الذي في هذه السورة ينبت الشّيب؟ لعله مصراع الأمم التي ظلّت فحاق بها الهلاك، إن هذا الهلاك قصّه الله في أكثر من موضع وسورة فلم تُحدث هذا الأمر، أم تنكرّ الناس للرّسول وإعراضهم عنه هو

1 الزّركشي: البرهان في علوم القرآن - ج03 - ص 30.

2 أبو حيان الأندلسي (ت754هـ): البحر المحيط في التفسير - طبعة بعناية الشّيخ زهير جعيد - بيروت - دار الفكر -

1413هـ/1992م - ج01 - ص 178.

3 المصدر نفسه - ج03 - ص 32.

الذي شبيهه؟ فقد جاء في السورة: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾¹، ولكن الرسول أكبر من أن يهتز لصدود الجهلة.

إن هناك شيئاً لاحظته العلماء في هذه السورة لم يلحظوه في غيرها، إنه كثرة التوجيهات التي تمس شخص النبي صلى الله عليه وسلم، وتناوله بضمير الخطاب بين الفينة والفينة، كأنما تشعره بما هو مكلف به من بلاغ، وذلك بدءاً من قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ ۖ إِلَيْكَ وَصَاحِبٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾² فلاحظ كم مرة ورد ضمير الخطاب في هذه الآية، لقد ورد أربع مرات، ثلاث منها ورد متصلاً ومرة منفصلاً، وظل الأمر يتكرر عشرات المرات إلى آخر السورة، وقد جاء قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لِيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾³، ليتوالى الخطاب بعد ذلك إلى الرسول نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾⁴، وعقب قصة نوح توجه الخطاب إليه بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ ۗ إِنَّ الْعُقُوبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾⁵ في ثلاثة ضمائر متصلة غير الضمير المنفصل والضمير المستتر في الفعل: "اصبر"، وفي خلال هذه القصة يتوقف السرد الدافق لتجيء الآية: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُجْرِمُونَ﴾⁶، ثم تأتي قصة عاد وإذابة هود عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا لِنَجِّنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجِّنَهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾⁷ ويتجه الخطاب إلى النبي عليه

1 سورة هود- الآية 05.

2 الآية 12.

3 الآية 07.

4 الآية 17.

5 الآية 49.

6 الآية 35.

7 الآية 58.

الصلاة والسلام بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِقَايَتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُمْ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾¹، وما حدث لهؤلاء حدث لثمود، ويلفت سبحانه نبيه إلى هذا المصير بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾²، وبعدهم قوم لوط ليخبر عز وجل نبيه بدمارهم فيقول: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سَجِيلٍ مُنْضُودٍ ﴿١١٠﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾³ والجملة الأخيرة تهديد للعرب الذين يمضون في طريق الكفر دون متاب، ويقول تعالى لنبيه بعد هلاك مدين والفرعنة: ﴿ذَلِكَ مِن أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾⁴، وتتكاثر ضمائر الخطاب في أواخر السورة «حتى تبلغ ثمانية عشر ضميراً، عدا الأوامر المصاحبة الكثيرة فما تظنّ وقع ذلك على فؤاد صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم»⁵، وتبدأ من قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴿١٠٩﴾ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهِمُّمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴿١١٠﴾ وَمَا زَادَهُمْ غَيْرَ تَتَابٍ ﴿١١١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴿١١٢﴾ إِنَّ أَخْذَهُ أَكْبَرُ شَدِيدٌ﴾⁶، ويكرر اسم الجلالة "الرب" مضافاً إلى ضمير الخطاب مرتين عند ذكر جزاء القيامة: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ ﴿١١٣﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴿١١٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾⁷، ومرّة أخرى عند ذكر السعداء: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴿١١٥﴾

1 الآية 59.

2 الآية 66.

3 الآيتان 82. 83.

4 الآية 100.

5 محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم - الروية - منشورات بغدادية - د ط - د ت - ص 167. 168.

6 الآيتان 101. 102.

7 الآيتان 106. 107.

عَطَاءً غَيْرَ مَجْدُوذٍ ﴿١﴾، وبعدها يقول له الحق تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَذُلًا﴾² ويذكره بقضائه السابق أنه يرجئ مجازاة الناس كلهم إلى يوم موعود: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٣﴾ وَإِنْ كُلًّا لَوْ قَتَلْتَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ﴾³ وإلى أن يقع ذلك اليوم فعلى نبينا الكرم أن يحتسب ويصبر على الحن والآلام وطول الانتظار هو ومن معه فيقول له تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطَّغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾⁴ ويقول له أيضا: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُ السَّيِّئَاتِ ﴿٤﴾ وَالسَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ ﴿٥﴾﴾⁵، ويعلم سبحانه أن ذلك لن يتأتى إلا بالصبر فيقول له: ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦﴾﴾⁶ وتكرّر ضمائر الخطاب كلما قاربت السورة الانتهاء، حين يقول له الحق تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ⁴ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنثِثُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١١﴾ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ ﴿١٢﴾ وَاللَّهُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ⁵ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾⁷، فلاحظ هذه الضمائر كم تكرّرت، والأمانة كم ثقلت، ألا يُعدّ سببا لأجله شاب

1. الآية 108.

2. الآية 109.

3. الآيتان 110 . 111.

4. الآية 112.

5. الآية 114.

6. الآية 115.

7. الآيات من 117. إلى 123.

المصطفى صلى الله عليه وسلم¹، وبهذه الطريقة من الخطاب للنبي الكريم مضت السورة في سرد أحوال الأمم السابقة مع رسلهم.

ولا تقف حدود المناسبة عند هذا، بل تتجاوز ذلك إلى السورة نفسها، وهو ما نلمحه من مغايرة في طريقة العرض والأداء، يقول سيد قطب: «إته حيثما اختلفت طريقتان للتعبير عن المعنى الواحد اختلفت صورتا هذا المعنى في النفس والذهن، وبذلك تربط المعاني وطرق الأداء ربطا لا يجوز الحديث بعده عن المعاني والألفاظ على انفراد»²، ومن ذلك ما نجد في التعبير في قصة إبراهيم والملائكة وتبشيره بكلمة "ضحكت" في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾³ مناسبة ذكر هذه اللفظة دون أخرى؟ إن في الآية إجمالا من حيث التقدم والتأخير، فهناك ما قدم والنية به التأخير، قصة إبراهيم والملائكة، وكان لهذا التقدم وجهان؛ أحدهما: قيل أصله، فبشّرناها بإسحاق فضحكت. وقيل ضحكت حاضت بعد الكبر عند البشري⁴، والآخر: يعتمد التفسير النفسي، حيث يقول العقاد: «هنا خوف فاطمئنان فبشري مفاجئة على غير انتظار فتعجب، لا تملك سارة أن تجهر به، فتقول: إن هذا شيء عجب. إن كل عوامل الضحك النفسية التي ظهرت للباحثين النفسانيين في تفسيراتهم تعرضها هذه الآية الكريمة على نسقها المتتابع فتأتي بالضحك حيث يأتي الضحك مطردا في مواضعه المختلفة من تحول الشعور: طمأنينة بعد خوف، ومعرفة بعد نكران، وبشارة بما ليس في الحساب من الولادة، وبعد سنّ اليأس وخيبة الأمل في الذرية زمتنا طويلا تعالج فيه النفس بأشتات من دواعي الحزن والغراء والغيرة والتسليم... ولا تُعني هنا كلمة "سرت" أو كلمة "استبشرت" أو "فرحت" في كلمة "ضحكت"، فإن الضحك هو الأثر الملائم لهذه الحالة التي تشابكت فأصبحت في قرارة النفس حالات متناقضات»⁵، لتلاحظ أن القرآن لم يستعمل الكلمة إلا في مكانها الأنسب والأليق بما

1 ينظر: نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم: محمد الغزالي - ص 169.

2 التصوير الفني في القرآن الكريم - القاهرة - دار الشروق - ط 07 - 1402 هـ / 1982 م - ص 240

3 الآية 71.

4 الزركشي: البرهان في علوم القرآن - ج 03 - ص 280.

5 جحا الصاحك المضحك - ص 71. أخذنا عن: سعيد عطية علي مطاوع: الإعجاز القصصي في القرآن الكريم - القاهرة -

دار الآفاق - ط 01 - 2006 م - ص 171. 172.

ومن هذه المناسبة في تنوع الخطاب القرآني واستعمال بعض الألفاظ دون بعض، وفي أماكن دون أخرى استعماله أسماء الأنبياء عليهم السلام استعمالا يناسب فيه المقام، نحو خطاب النوع مع "بني إسرائيل" والمراد أبناء يعقوب - عليه السلام - من الكتابيين، ولم يذكروا في القرآن إلا بهذا، دون "يا بني يعقوب"، والسر أنهم لما ذكروا بعبادة الله وذكروا بدين أسلافهم موعظة لهم وتبئها لهم سُموا بالاسم الذي فيه تذكرة بالله، فإن إسرائيل اسم مضاف إلى الله سبحانه في التأويل¹، ولما ذكر موهبته وتبشيريه به في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾² قال: "يعقوب" وكان أولى من "إسرائيل" لأنها موهبة تعقب أخرى، وبشرى عقب أخرى، وإن كان اسم يعقوب عبرانيا لكن لفظه موافق للعربي، من العقب، والتعقيب والمعجزة هنا في مشاكلة الاسمين للمقامين، ومناسبة ورود كل منهما في مكانه. أضف إلى ذلك أنه قد يكون للشخص اسمان، فيقتصر على أحدهما دون الآخر، من ذلك استعمال "مدين" وهم أصحاب الأيكة، فحين أخبر عنهم قال سبحانه: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾³ قاله بـ "أخيهم" بينما عند الحديث عن أصحاب الأيكة لم يقل "أخاهم" وإنما قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾⁴، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾⁵، والحكمة في ذلك: «أنه لما عرفهم بالنسب وهو أخوهم في ذلك النسب ذكره، ولما عرفهم بالأيكة التي أصابتهم فيها العذاب لم يقل "أخاهم" وأخرجه عنهم»⁶، وهكذا حال القرآن كله، «تسلم كل سورة منه القيادة لما بعدها في خطوات متعاقبة ومتألفة حتى يأتي القرآن

1 الزركشي: البرهان في علوم القرآن - ج 01 - ص 161.

2 الآية 71.

3 سورة هود - الآية 84.

4 سورة الشعراء - الآية 176.

5 سورة ص - الآية 13. وينظر: سورة الحجر - الآية 78. وسورة ق - الآية 14. فكُلها تستعمل "الأيكة". ولا تستعمل

اسم "شعيب" عليه السلام.

6 الزركشي: السابق - ج 01 - ص 162.

وكأنه كلمة واحدة»¹، فالقرآن على أعلى منزلة من البيان والإعجاز سواء بين حروفه وكلماته أو آياته أو سورته، لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

1 السيد أحمد عبد الغفار: قضايا في علوم القرآن تعين على فهمه - الإسكندرية - دار المعرفة الجامعية - 1995م - ص 331.

4. الفصل والوصل:

تتحد الألفاظ بعضها مع بعض وتتضام لتشكّل جملاً، ويتّصل بعض هذه الجمل مع بعض لتشكّل بناء كاملاً يعتمد على قوانين وضوابط تحكمه وتجعله مترابط الأجزاء، وهذه العلاقات التي تنشأ بين الكلمات والجمل مردها إلى عوامل تتكئ عليها في بنائها، يلزم على المتكلم مراعاتها ومعرفتها، وهذه العلاقات تماسك بطرق عديدة ووسائل مختلفة، أجمع البلاغيون على دراستها تحت عنوان "الفصل والوصل"، وجعلوا هذا الأخير باباً رئيساً من أبواب البلاغة العربية، فلم يخل باب من أبوابها إلا وقد أقحموه في دراساتهم، لذلك ألزمنا أنفسنا أن نلج هذا الباب وأن نربطه بموضوع التضام أو التوارد منطلقين من بعض التّظييرات له ثمّ ملاحظة ما يمكن ملاحظته من مجيئه في سورة هود.

حظي مبحث الفصل والوصل بمكانة سامقة في تاريخ البلاغة العربية، وارتبط بها منذ فجرها الأوّل، فعُرفت به وأصبح شرطاً فيها حتّى قالوا: البلاغة معرفة الفصل من الوصل، فلقد أورد الجاحظ تعريفات عديدة للبلاغة ومن جملة ما أورده أنّ فارسياً سئل عن البلاغة فأجاب ذلك الفارسي أنّها: معرفة الفصل من الوصل¹.

بيد أنّ مباحث الفصل والوصل لها امتدادات تعود إلى الدّرس النّحوي قليلاً، ذلك ما نستشفّه عند الفراء حين تناول آية من القرآن الكريم وأخذ يشرحها فقال: «وقوله هاهنا: (وَيُذَبِّحُونَ)² وفي موضع آخر (يذَبِّحُونَ)³ بغير واو، وفي موضع آخر (يُقْتَلُونَ)⁴ بغير واو فمعنى الواو أنّهم يمسخهم العذاب غير التذبيح كأنه قال: يعذبونهم بغير الذّبح وبالذّبح، ومعنى طرح الواو كأنه تفسير لصفات العذاب. وإذا كان الخير من العذاب أو الثّواب مجملاً في كلمة ثمّ فسّرتة فاجعله بغير الواو، وإذا كان أوّله غير آخره فبالواو، فمن الجمل قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ

1 ينظر: البيان والتبيين: الجاحظ - مج 01 - ص 91. وينظر: العقد الفريد: ابن عبد ربّه (368هـ) - ج 02 - ص 112. وينظر: العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده: أبو علي الحسن بن رشيق (456هـ) - قدّم له: صلاح السّدين الموسوي - دار ومكتبة الهلال - د ط - 2002م - ج 01 - ص 385.

2 ينظر: سورة الأنبياء - الآية 06.

3 ينظر سورة البقرة - الآية 49.

4 ينظر سورة الأعراف - الآية 141.

ذَلِكَ يَلْقَى أَثَامًا ﴿١﴾ فالأثام فيه نية العذاب قليلة وكثيره، ثم فسره بغير الواو فقال: ﴿يُضَعَفَ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلَدُ فِيهِ مَهَانًا﴾² ولو كان غير مجمل لم يكن ما ليس به تفسيراً له. ألا ترى أنك تقول عندي دابتان وبرذون ولا يجوز عندي دابتان وبغل وبرذون وأنت تريد تفسير الدابتين بالبغل والبرذون، ففي هذا كفاية عما نترك من ذلك فقس عليه³ فلاحظ ما ذهب إليه الفراء، من أن الجملة الثانية إذا كانت بيانا للأولى فإن الواو تطرح، حتى لا يقع حرف العطف بين التفسير والمفسر، بخلاف إذا كان الكلام ذا معنى آخر غير الأول فإنه يلزم ذكرها، ويحدث الوصل الذي « يقتضي أن تكون الجملة الثانية لها تعلق وترابط بالجملة الأولى، فإن من شأن التناسب أن يزيد الوصل حسناً ويضفي عليه جمالا وبهاء، ومن التناسب أن تتفق الجملتان في الاسمية أو الفعلية والاسميتان في نوع المسند إليه والمسند فيهما، والفعليتان في نوع الفعل فيهما»⁴، وزيادة على هذا فإن للفراء نصاً آخر أكثر اقتراباً من الدلالة البلاغية لهذا المصطلح اللغوي حين تعرض لآية من القرآن هي قوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذْنَا هُرُوتًا وَقَالُوا أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾⁵، حيث راح يفسر مجرد قوله تعالى: "قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين" من الفاء فقال: « وهذا كثير في القرآن بغير الفاء، وذلك لأنه جواب يُستغنى أوله عن آخره بالوقفة عليه، فيقال: ماذا قال لك؟ فيقول القائل "كذا وكذا؛ فكأن حُسن السكوت يجوز به طرح الفاء، وأنت تراه في رؤوس الآيات - لأنها فصول - حسناً؛ من ذلك: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٦﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾⁶... فاعرف بما جرى تفسير ما بقي، فإنه لا يأتي إلا على الذي أنبأتك به من

1 سورة الفرقان - الآية 68.

2 سورة الفرقان - الآية 69.

3 معاني القرآن - ج 02 - ص 68. 69.

4 عبد الفتاح لاشين: المعاني في ضوء أساليب القرآن - مصر - دار المعارف - ط 01 - 1976م - ص 277.

5 سورة البقرة - الآية 67.

6 سورة الحجر - الآيتان 57. 58.

الفصول أو الكلام المكتفي يأتي له جواب»¹. وهكذا يبدو أن الفراء من أوائل من عرفوا بهذا الفن ونبهوا إليه.

فكانت هذه التصوص نراسا لمن جاؤوا بعده يرددونها في كتبهم، ولم يكن قد استقرّ معناه بعد، إلى أن كثرت الدراسات في تلك الفترة فأصبح مصطلحا له أصوله وحدوده في الدرس البلاغي، ومن أوائل الذين تعرّضوا لهذا المصطلح أبو هلال العسكري في الباب العاشر من أبواب كتابه سماه "في ذكر مبادي الكلام ومقاطعة القول في حسن الخروج والفصل والوصل" فقال: «...ومن حلية البلاغة المعرفة بمواضع الفصل والوصل... وإنّ البلاغة إذا اعتزلتها المعرفة بمواضع الفصل والوصل كانت كاللآلئ بلا نظام»² ووقف عنده بمزيد من الشرح والتحليل جاعلا نصب عينيه القصيدة يطبق عليها هذا الأسلوب في فصولها ومقاطعها بعيدا عن مفهومه الذي استقرّ عند البلاغيين وعلماء المعاني، لأنّ تطبيقاته توحى بأنه يريد إشعار القارئ بانتهاء كلام أو فصل ودخول آخر، حتّى يتهيأ له، وذلك في قوله على سبيل المثال: «وقال أبو العباس السفاح لكاتبه قف عند مقاطع الكلام وحدوده. وإياك أن تخلط المرعى بالهمل، ومن حلية البلاغة المعرفة بمواضع الفصل من الوصل... وقال الأحنف بن قيس ما رأيت رجلا تكلم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام ولا عرف حدوده وأعطى حقّ المقام، إلاّ عمرو بن العاص (رضي الله عنه) كان إذا تكلم تفقّد مقاطع الكلام، حتّى كان يقف عند المقطع وقوفا يحول بينه وبين تبعته من الألفاظ»³ فمراده بالوصل والفصل غير ما عناه به الفراء ومن قبله، إلى أن قيض الله لهذا المبحث عبد القاهر الجرجاني فأعطاه دفعا جديدا⁴ فاق به سابقه مصطلحا ومفهوما، وخصّص له فصلا كاملا من فصول كتابه "دلائل الإعجاز" وبجته بحثا منظما يقوم على التقسيم والتحديد والتعليل، وربطه بباب العطف بعد أن ربط البلاغة بمعاني النحو، فقال: «اعلم أن العلم بما ينبغي أن يُصنع في الجمل

1 معاني القرآن - ج 01 - ص 43 . 44.

2 كتاب الصناعتين - ص 497.

3 المصدر نفسه - ص 497.

4 لقد وردت عبارة الفصل والوصل مثلا عند الباقلاني عند كلامه عن الوجوه التي يرجع إليها إعجاز القرآن، فقال: "ومعنى رابع وهو أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيناً في الفصل والوصل، والعلو والتزول والتقريب والتباعد..." ولم يزد على هذا شرحاً أو تحليلاً. ينظر: إعجاز القرآن - ص 38.

من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمحيء بها منثورة، تُستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعرابُ الخُلص، وإلا قوم طُبعوا على البلاغة، وأوتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام هم بما أفراد، وقد بلغ من قوّة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدّاً للبلاغة.. ذاك لغموضه ودقّة مسلكه، وأنّه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد، إلاّ كمل لسائر معاني البلاغة»¹، فعبد القاهر يتّخذ مصطلح الوصل للدلالة على عطف المفردات والجمل حال تغايرها واحتياجها إلى رابط بينها، ومصطلح الفصل علماً على ترك العطف بين المفردات والجمل حال اتّصالها والتباس بعضها ببعض، وعدم احتياجها إلى رابط لفظي²، وليجمل الفصل والوصل في ثلاثة مواضع بقوله: «..إنا حصلنا من ذلك على أن الجمل على ثلاثة أضرب:

- جملة حالها مع التي قبلها حال الصّفة مع الموصوف، والتأكيد مع المؤكّد، فلا يكون فيها العطف البتّة - لو عُطفت - بعطف الشّيء على نفسه.

- جملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون غير الذي قبله، إلاّ أنّه يشاركه في حكم ويدخل معه في معنى، مثل أن يكون كلا الاسمين فاعلاً أو مفعولاً أو مضافاً إليه، فيكون حقّها العطف.

- جملة ليس في شيء من الحالين، بل سبيلها مع التي قبلها سبيل الاسم مع الاسم لا يكون منه في شيء، فلا يكون إياه، ولا مشاركاً له في معنى، بل هو شيء إن ذكر لن يُذكر إلاّ بأمر ينفرد به، ويكون ذكرُ الذي قبله وتركُ الذّكر سواءً في حاله، لعدم التعلّق بينه وبينه رأساً وحقّ هذا ترك العطف البتّة»³، والمتبع لنصوصه يفهم أنّ هذا الباب يحتاج إلى تأمل عميق أنضج ثمّ رسخ في أذهاننا من معنى المشاركة. وأنّه ليس مقصوداً على الجمل؛ بل يشمل المفردات أيضاً وهو ما تجده يبدأ به قبل حديثه عن عطف الجمل. ولقد كان لتحليل عبد القاهر للفصل والوصل أثر بالغ الأهميّة فيمن جاء بعده، فهاهو السّكاكي أيضاً يقرّر أنّ الفصل والوصل هو الأصل في هذا

1 دلائل الإعجاز - ص 171.

2 أحمد سعد محمّد: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية - القاهرة - مكتبة الآداب - ط 02 - 1421 هـ / 2000 م - ص 358.

3 دلائل الإعجاز - ص 185. وينظر: دلالات التراكيب: محمّد محمّد أبو موسى - ص 278.

الفرنّ، ولم يحصره بين الجمل، كما أنّه جعل الوصل بالعطف بالواو وبغيرها من حروف العطف حيث يقول: «مركوز في ذهنك لا تجد لردّه مقالا ولا لارتكاب جحده مجالا، أن ليس يمتنع بين مفهومي جملتين اتّحاد بحكم التّأخي، وارتباط لأحدهما بالآخر مستحکم الأواخي، ولا أن يباين أحدهما مباينة الأجنب لانقطاع الوشايج بينهما من كلّ جانب، ولا أن يكونا بين الأصرة رحم ما هنالك فيتوسّط حالهما بين الأولى والثّانية لذلك، ومدار الفصل والوصل وهو ترك العاطف وذكره على هذه الجهات وكذا طيّ الجمل عن البين ولا طيّها وأنها لمحك البلاغة ومنتقد البصيرة ومضمار التّظار ومتفاضل الأنظار ومعيار قدر الفهم ومسبار غور الخاطر ومنجم صوابه وخطائه ومعجم جلالته وصدائه وهي التي إذا طبقت فيها المفصّل شهدوا لك من البلاغة بالقدح المعلى»¹ ولقد ضيق من هذا المفهوم من جاء بعده كابن التّائظم (ت686هـ) حين قال إنّ الفصل والوصل: «هو ترك العطف بين الجمل التي لا موضع لها من الإعراب وذكره»²، وإذا تابعنا ما ذهب إليه الخطيب القزويني من أنّ: «الوصل عطف بعض الجمل على بعض، والفصل تركه، وتمييز موضع أحدهما من موضع الآخر على ما تقتضيه البلاغة فنّ مهم عظيم الخطر، صعب المسلك، ذقيق المأخذ...»³، أدركنا أنّه أيضا: «ضيق ما وسّعه عبد القاهر والسّكاكي، ممّا جعله هدفا لبعض علماء البلاغة، فقد ردّ الدّسوقي في "حاشيته" على الخطيب وجعل العطف بين الجملتين والمفردين بشرط الجامع، وذكر مثالين في عطف المفرد أحدهما بليغ والآخر فاسد، لأنّه خارج عن قوانين البلاغة»⁴، ثمّ توالى الدّراسات وأصبح الفصل والوصل هو «العلم بمواضع العطف والاستئناف والتّهدّي إلى كيفية إيقاع حروف العطف في مواقعها، وأنّ فائدة العطف التّشريك بين المعطوف والمعطوف عليه»⁵، فقاعدته العظمى حروف العطف، وينعطف عليها حروف الجرّ، وهو على

1 مفتاح العلوم - ص 108.

2 المصباح في المعاني والبيان والبدیع - حقّقه وقدم له بدراسة: عبد الحميد هندواي - بيروت - دار الكتب العلمية - ط1 - 2001م - ص 133.

3 الإيضاح في علوم البلاغة - ص 151.

4 عبد الفتّاح لاشين: المعاني في ضوء أساليب القرآن - ص 269.

5 ابن قيم الجوزية: كتاب الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان - ص 182.

نوعين؛ عطف مفرد على مفرد، وعطف جملة على جملة¹، ويلخص السبوطي هذا الباب في هذه الأبيات:

تعاطف الجمل يدعى الوصلا وتركه الفصل فأما الأولى

فإن يكن لها محل وقصد فتشريك تاليها لها فيما وجد

فاعطف وشرط كونه مقبولا تناسب للفقْد جيء مفصـولا

ثم قال: « هذا هو الباب السابع وهو أعظم الأبواب خطرا وأصعبه مسلكا وأدقّه مأخذا حتى قصر أبو علي الفارسي البلاغة على معرفة الفصل من الوصل، والمراد بالوصل عطف الجمل بعضها على بعض، وبالفصل ترك التعاطف»². إذا، فالمقصود بالوصل عطف بعض الكلام على بعض، والفصل ترك هذا العطف، وهذا ما انتهى إليه هذا الفن البلاغي في صورته الأخيرة التي نجدها في كتب البلاغة في عصرنا، فقد عني أغلب البلاغيين المتأخرين³ والمعاصرين بالحديث عن "الواو" التي تُذكر فتوصل الجملة بأختها، أو تترك فتدع الجملتين منفصلتين⁴، وقد خصّصت "الواو" لأن غيرها من أدوات العطف يفيد مع الإشراف معيّن أخرى، فـ"الفاء" تفيد الترتيب من غير تراخ، و"ثم" تفيد الترتيب مع التراخي أو للتردّد بين شيئين.

أشرنا في الفصل الأوّل إلى أن تمام حسن عدّ الفصل والوصل ظاهرة من ظواهر التضام وقسمه إلى نوعين؛ فصل نحويّ وفصل بلاغيّ، وأنّ الفصل النحويّ قوامه الفصل بين المتلازمين بفواصل هو دون الجملة، إلا أن تكون الجملة ذات محلّ إعرابي، فإنّها تُعدّ كالمفرد لأنّها حلّت محلّه واتّخذت لنفسها إعرابه.. وأنّ الفصل البلاغيّ وإن كان وسيلة نحويّة فإنّه يختلف عن الفصل النحوي وموضعه الدّراسة الأسلوبية، وإتّما هو وسيلة نحوية كونه يعتمد على حذف حرف

1 ينظر: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة العلوي - ج 02 - ص 20.

2 شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان - بيروت - دار الفكر - د ط - د ت - ص 58.

3 فخر الدّين الرّازي: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز - ص 172.

4 طالب محمّد اسماعيل الرّويحي: البلاغة العربية، علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين - بنغازي - جامعة قار

يونس - ط 01 - 1997 م - ص 302.

العطف، وأن له من خصوصية المقام ما يجعله شيئاً آخر غير الحذف التحويلي¹، وحتى لا تخرج الدراسة عن هدفها المنشود فإننا نسعى إلى بعض الأسرار البلاغية التي يزخر بها القرآن الكريم في هذا المجال.

قد يلجأ السياق القرآني حين يختار الحوار إلى توحيّ الفصل بين الجمل، ليتطابق مع المقام الذي يقتضيه الموقف، فیدفعنا لمعايشة المشهد واستحضاره ففي قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ٥١﴾ قَالَ سَاوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرِقِينَ ٥٢﴾ نجد أن السياق الكريم قد أبعـد العطف وتوحيّ الفصل بين المتحاورين "نوح" عليه السلام وابنه، ولما انتهى هذا الحوار، انتهى هذا المشهد الكريم بقوله تعالى: "وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ" لفهم نهايته المقترنة بالواو، ثم قال: "فَكَانَ مِنَ الْمَغْرِقِينَ" لفهم نهايته المقترنة بالفاء، ولا نريد: «أن نقصد استبعاد فكرة تقدير السؤال استبعاداً مطلقاً، بل قد يكون هذا الأسلوب مناسباً لسياق خاص، وملائماً لموقف آخر مما يحقق تفتناً في أساليب البحث البلاغي»³، ومن الفصل بين الجمل ما يُسمى بشبه كمال الاتصال⁴ وشاهده قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنُوهُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ٥٥﴾، فقد فصلت الجملة الثانية "إنه عمل غير صالح" عن الأولى "إنه ليس من أهلك"، لأن الثانية وقعت جواباً لسؤال أثارته الجملة الأولى، وهو: كيف لا يكون من

¹ ينظر: البيان في روائع القرآن: تمام حسان - ص 179.

² سورة هود - الآية 42.

³ طالب محمد إسماعيل الزوبعي: البلاغة العربية، علم المعاني بين بلاغة القدماء وأسلوبية المحدثين - ص 323.

⁴ وهو أن تكون الجملة الثانية من الفصل بجزء متصل بالأولى لكونها جواباً عن سؤال اقتضته الأولى فتزول منزلة فتفصل الثانية عنها كما يفصل الجواب عن السؤال. ينظر: مفتاح العلوم: السكاكي - ص 109 110. وينظر: معجم المصطلحات

البلاغية وتطورها: أحمد مطلوب - ص 514.

⁵ سورة هود - الآية 46.

أهلي وهو ابني؟ فكان الجواب عن ذلك: إنه عمل غير صالح¹، فالجملة الثانية مرتبطة بالأولى ارتباطاً وثيقاً كما يربط الجواب بالسؤال، ولهذا ترك العطف، لأن الجواب لا يعطف على السؤال²، ومن الفصل بين المتعاطفين قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾³ حيث فصل بين المتعاطفين بالمفعول الثاني، ولا يقال فصل بين نائب الفاعل والمفعول الثاني⁴، لأن الفعل هنا من أخوات "أعطى" ومفعولها ليسا متلازمين، لأنهما ليس بينهما علاقة إسناد ملحوظة كالتي بين مفعولي "ظن"، ومن اللطائف العجيبة في الفصل والوصل قوله تعالى: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾⁵ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ⁶، والتناسب بين الجملتين واضح، بين الشهادتين؛ شهادة الله تعالى، وشهادة القوم على براءته عليه السلام مما يشركون من دون الله، وقد وُضع في الآية الإنشاء موضع الخير، لأن جملة (اشهدوا) إنشائية لفظاً، خيرية معنى، وهذا التناسب بين الجمل "مطلوب سواء وصلت تلك الجمل أو فصلت، فلا يصح أن تتلاقى الجمل وتقرن موصولة أو مفصولة إلا عندما تتحقق المناسبة بينهما، وإلا كان الكلام معيباً.. وقد صرح البلاغيون بذلك حين نبهوا عن مراعاة التجانس، والتآلف والتآخي بين ألفاظ الكلام وجمله فمراد البلاغيين بوجود المناسبة الموسوعة للعطف بين الجمل الموصولة مناسبة خاصة، وهي أن يكون بين طرفي الإسناد في كل جملة تناسب وتلاق⁶ وفي هذه الآية يقول الزمخشري: «فإن قلت: هلاً قيل: إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُكُمْ؟ قلت: لأن إشهد الله على البراءة من الشرك إشهد صحيح ثابت في معنى تثبيت الوحدة وشد معاقده، وأما إشهدهم فما هو إلا تهاون بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأوّل لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة، كما يقول الرجل لمن ييس الثرى بينه وبينه. أشهد على آني لا أحبك؛ فكما به

1 ينظر: تفسير القرطبي - مج 05 - ج 09 - ص 30. وتفسير التفسري - مج 02 - ص 725. وتفسير البيضاوي - ج 01 - ص 458.

2 عبد الفتاح لاشين: المعاني في ضوء أساليب القرآن - ص 288.

3 سورة هود - الآية 60.

4 تمام حسان: البيان في رواتع القرآن - ص 177.

5 سورة هود - الآية 54.

6 بسويبي عبد الفتاح: من بلاغة النظم القرآني - ص 256.

واستهانة بحاله»¹، أي: إنني أشهد الله وأشهدكم، فتكون الجملة الأولى: "وأشهد الله" خبرية لفظاً ومعنى، والجملة الأخرى: "وأشهدوا" خبرية معنى، إنشائية لفظاً، وبعبارة موجزة: «يجب الوصل بين جملتين أتحدثنا خبراً وإنشاءً لأنَّ الفصل يوهم المتلقّي خلاف المقصود»² فعدل عن مقتضى الظاهر بأنَّ يقال: "إنني أشهد الله وأشهدكم" بسبب: أن في أمرهم بأن يشهدوا ببراءته من دينهم ضرباً من التحدّي الذي ينبئ بحقارة ما يعبدون من دون الله، والدلالة على أن إسهاد الله تعالى على براءة هود عليه السلام من شركهم إسهاد صحيح ثابت حيث جاء خيراً محققاً، أما إسهادهم فليس إلاّ تمأونا منهم حيث جاء أمراً، والدلالة على تعظيم شهادة الله، وتزيهه تعالى عن أن يقرن إسهاده عزّ وجلّ بإسهادهم فتأمل الدور الذي أذاه الفصل في تحاشي السّابق باللاحق، وتحاشي مساواة الشّهادتين، شهادة الخلق بشهادة الخالق سبحانه، وتما وقع في هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِينٍ﴾³، في الآية تقدير؛ قالوا سلاماً تقديره: سلّمنا عليك سلاماً، قال سلام تقدير: أمري سلام، أي لست مريداً غير السلامة والصلح⁴ فسلام خير مبتدأ محذوف أي "أمري وأمركم سلام، أو مبتدأ محذوف الخبر أي: أي: عليكم سلام والجملة تحكية وإن كان حذف خبرها منها أحد جزءيها⁵، بمعنى: "سلام" مرفوع مرفوع على الحكاية ولم يعمل فيه التصب. أما من حيث الفصل والوصل فإن من مقاماته أن تكون الجملة الثانية جواباً اقتضته الجملة الأولى، فتفصل الثانية عن الأولى كما يفصل الجواب عن

1 الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجه التأويل - تحقيق وتعليق ودراسة: عادل أحمد عبد الموجود. وعلي محمد معوض - شارك في تحقيقه: فحي عبد الرحمن أحمد حجازي - مكتبة العبيكة - ط01 - 1418هـ / 1998م - ج 03 - ص 209. وينظر: البحر المحيط في التفسير: أبو حيان الأندلسي محمد بن يوسف (ت754هـ) - طبعة بعناية الشيخ زهير حعيد - بيروت - دار الفكر - 1413هـ / 1992م - ج 06 - ص 168.

2 طالب محمد إسماعيل الزوبعي: البلاغة العربية، علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين - ص 310.

3 سورة هود - الآية 69.

4 فخر الدين الرازي (ت604هـ): التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب - قدم له: هاني الحاج - حققه وعلّق عليه وخرّج أحاديثه: عماد زكي البارودي - القاهرة - المكتبة التوفيقية - د ط - د ت - ج 18 - ص 19.

5 أبو عبيدة (ت210هـ): مجاز القرآن - عارضه بأصوله وعلّق عليه: محمد فؤاد سزكين - بيروت - مؤسسة الرسالة - ط02 - 1401هـ / 1981م - ج 01 - ص 291. الزمخشري: الكشاف - ج 03 - ص 215. أبو حيان التوحيدي: البحر المحيط في التفسير - ج 06 - ص 179.

السؤال ولا يصار إلى تنزيل السؤال المفهوم من الكلام السابق إلا لاعتبارات لطيفة منها¹ إغناء السامع عن أن يسأل، ومنها القصد إلى الإيجاز كما هو في هذه الآية، كأنه قيل: فماذا قال إبراهيم في ردّ سلامهم؟ فقال: سلام. مما يمكن أن يندرج في باب به كمال الاتصال²، لترى أنه لا سبب للفصل بين الجملتين إلا قوة الرابطة المعنوية بين الجملتين وذلك لأن الجواب شديد الارتباط بالسؤال، وإذا كان عبد القاهر يبين قضية الوصل والفصل بالعطف وتركه فإن الرّمخشري يلفت النظر إلى أن الفصل وصل تقديري خفيّ، وهو أقوى من الوصل الظاهر بأحرف العطف، ويستشهد بأمثلة عن ذلك، منها قوله تعالى: ﴿وَيَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَعِلُّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ مُّخْتَزِئِهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾³ حيث يقول الرّمخشري: «فإن قلت: أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في (سوف تعلمون)؟ قلت: إدخال الفاء: وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعها: وصل خفيّ تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا: فماذا يكون لنا إذا عملنا نحن على مكاتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون، فوصل تارة بالفاء، وتارة بالاستئناف للتفنّن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف، وهو باب من أبواب البيان، تتكاثر محاسنه»⁴، وترك العطف إنما لقوة الصلة المعنوية المحققة للربط بين الجمل، غير أن الوصل ربط ظاهر، والفصل ربط معنوي⁵، وملحظ كهذا لم يكن ليغيب عن نظر العلماء في بحثهم التطبيقي.

إننا حين نعلم النظر في مفردات الجملة في القرآن الكريم، ونأمل كيف يتمّ الربط بينها وننظر بوعي في العلاقات بين الجمل، ونأمل كيف تتلاقى، يتجلّى لنا العديد من الأسرار والمزايا واللطائف التي تكمن وراء نظم المفردات والجمل في آيات الذكر الحكيم، ولقد أحسن البلاغيون

1 عبد المتعال الصّيدي: البلاغة العالية- ص 112.

2 أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها- ص 551. و: طالب الزّويبي: البلاغة العربية، علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين- ص 307.

3 سورة هود - الآية 93.

4 الكشاف - ج3- ص 231.

5 أحمد سعد محمّد: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية- ص 361. و طالب محمّد الزّويبي: البلاغة العربية، علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين- ص 324.

قيمة هذا التلاقي والتضام، ورأوا أن الجمل كثيرا ما تتلاقى ويتوارد بعضها مع بعض بالعطف ويكون حرف الواو هو الرّكيزة الأولى، وإما ألاّ يستعمل أيُّ حرف، ويستغني التّركيب بنفسه لقوّة الرّابطة المعنوية بين عناصره ومركّباته، وهذا ما رأيناه في القرآن الكريم، من عطف أحيانا وترك أحيانا أخرى، والنّظم في جميع أحواله نظم غاية في الإعجاز، متماسك يدعو بعضه بعضا ومتضام بعضه مع بعض.

5. الربط والارتباط:

يُعدّ موضوع الربط واحداً من أهمّ المواضيع التي تعتمد عليها العربية في تراكيبها، لا يقلّ شأناً عن التضام الذي يبحث في تلازم العناصر النحوية وتوارد بعضها مع بعض، وقد كان لزاماً علينا أن يكون محورا من محاور الدراسة في هذا الفصل بعدما كنّا فيه من الزاهدين في الفصل السابق حين ذكرنا الربط النحوي والتماسك الدلالي وعلاقتهما بالتضام، لذلك سنشير إليه إشارة عامّة في مصادره الأولى ومزتلته في الدرس البلاغي بغرض التطبيق في ضوء سورة هود.

عادة ما يقصد بالربط عند النحاة: «اصطناع علاقة نحوية سياقية بين معنيين باستعمال وسائل تتمثل في أداة رابطة، تدلّ على تلك العلاقة، أو ضمير بارز، وتلجأ العربية إلى الربط إمّا لأمن اللبس في فهم الانفصال بين المعنيين، وإمّا لأمن اللبس في فهم الارتباط بين المعنيين، والربط هو الحلقة الوسطى بين الارتباط والانفصال»¹، باعتبار أن الارتباط نشوء علاقة نحوية سياقية وثيقة بين معنيين دون واسطة لفظية، أشبه ما تكون علاقة الشيء بنفسه.

يؤثر الربط في استقامة التركيب ووضوح المعنى تأثيراً كبيراً قد تفقد الجملة من خلاله مصداقيتها، وقد ضرب لنا تمام حسان مثالا عن ذلك حين قال: «هب أنّك قرأت: "فحمدني الناس خطيباً عليه وأثنى قال الله زيد ثمّ قام" وقولك: قام زيد في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال...»² فلا شك أنّ المثال الأخير يرتاح إليه القارئ والمستمع، فألفاظه مرتبة وفق أصول العربية، مُراعى فيها الشّروط التركيبية، حيث تجد الفعل وفاعله، والجار والمجرور والمتعلّق، ومرجع الضمير بارز، فإذا تساءلنا ما الذي سوّغ لنا الحكم على هذا المثال بصحّته، تسارع إلى أذهاننا موضوع الربط الذي حصل بين مفرداته وجملة، الأمر الذي سمح لتمام حسان أن يجعله قرينة لفظية³ لا تقلّ خطراً عن قرينتي التضام والرتبة، تنعش الذاكرة لاستعادة مذكور سابق بواسطة إحدى الوسائل اللفظية التي تعين على الوصول إلى هذه الغاية من جهة، وتعين على إحكام صياغة الجمل من جهة أخرى.

1 مصطفى حميدة: نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية - ص 01 من المقدمة.

2 البيان في روائع القرآن - ص 107.

3 المرجع نفسه - ص 107 وما بعدها.

يحتكم الربط في تحققه نحوياً إلى طرق مختلفة أجمعها تمام حسان في طريقتين:

- الإحالة: وهي التذكير بعنصر آخر من عناصر الجملة، والأصل فيها أن يتكرر اللفظ ذاته، أو بإعادة المعنى، أو بإعادة المعنى الإفرادي غير الإسنادي، وهو أكثر خفاء من إعادة المعنى الإسنادي، وأكثر ما تكون هذه الطريقة من طرق الربط أن يتقدم الضمير ثم يعاد إظهار مرجعه بقصد المدح أو الذم نحو قوله تعالى: ﴿فَتِلْوَاهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَتُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَتَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾¹، فقد جاء ضمير المخاطبين أولاً وجاء وصفهم بالإيمان أخيراً وكأنه قال: "يشف صدوركم"، والعلاقة هنا بين الضمير وتفسيره علاقة إفرادية غير إسنادية. والمقام مقام مدح، والوسيلة في هذه الحالة إعادة المعنى بذكر تفسير الضمير بعد إيراده.²

- المطابقة: ومثلها في خمسة محاور: المطابقة في التّكلم والخطاب والغيبة، والمطابقة في الإفراد والتثنية والجمع، والمطابقة في التذكير والتأنيث، والمطابقة في التعريف والتكرير والمبالغة في الإعراب.

وترد على الربط بالضمائر من الظواهر الأسلوبية ظاهرتا الالتفات والتغليب³، أما الالتفات فنحو تغيير مجرى الإحالة من المطابقة إلى الاختلاف، وأما التغليب فمجاله أوسع وأقرب إلى الضبط، ويقع في الأسماء والأوصاف، تقول: الرجل والمرأة مسؤولان عن تربية النشء... وفي حقل المفردات تقول: الأبوان في الجانب المعجمي، ونقول: الوالدان من الجانب النحوي. فلم تلحق تاء التأنيث (الوالدان) وإلا قلنا: الوالدتان.

لم يكن الربط يدعاً في القضايا النحوية أو اللغوية، وإتماً بعد طول صياغة وتخبير لجهود من العلماء من الرّعيل الأوّل؛ فلقد لقي اهتماماً لدى هؤلاء وتناولوه ضمن قضايا لغوية كـ

1 سورة التوبة - الآية 14.

2 الخلاصة النحوية- ص 90. وينظر: نظرية التبعية في التحليل النحوي: سعيد بحيري- مكتبة الأنجلو المصرية- ط01-

1408هـ/1988م- ص 239. و ص 284. وينظر: دراسات في اللسانيات العربية؛ المشاكلة. التنغم، رؤى تحليلية: عبد

الحميد السيد- عمان- دار الحماد- ط01- 1425هـ/2004م- ص 111.

3 المرجع نفسه- ص 95. 97.

فحاة العربية يستعملون مصطلح الربط ويعدون المفردات مترابطة إذا وجدت بينها عناصر لغوية تربط بعضها ببعض¹، وما ينطبق على الكلمة ينطبق على التركيب ونسبته إلى بقية التراكيب الموجودة معه في الموضوع، وكذلك بالنسبة للمعاني، فإنّ المعنى الواحد إنّما يكتسب حيويته بالتضافر والترابط مع المعاني الأخرى المشتركة معه في جسم الموضوع²، ولقد اكتسب شرعيته لدى التّحاة والبلاغيين منذ القديم؛ يقول الرّضي: «... لا تخلو الجملة الواقعة خبراً من أن تكون هي المتبدأ معنى أولاً، فإن كانت لم تحتج إلى الضّمير كما في ضمير الشّأن نحو "هو زيد قائم" لارتباطها به بلا ضمير لأنّها هو، وإن لم تكن إياه فلا بدّ من ضمير ظاهر أو مقدّر، وقد يقام الظاهر مقام الضّمير، وإنّما احتاجت إلى الضّمير لأنّ الجملة في الأصل كلام مستقلّ، فإذا قصدت جعلها جزء الكلام فلا بدّ من رابطة تربطها بالجزء الآخر، وتلك الرابطة هي الضّمير، إذ هو الموضوع لهذا الغرض»³، ولقد عدّ ترابط الكلام أيضاً ذا علاقة بالفصاحة، يقول الفخر الرّازي: «اعلم أنّ الجمل الكثيرة إذا نظمت نظماً واحداً فلا تخلو إمّا أن تتعلّق البعض ببعض أو لا يتعلّق، فإنّما يتعلّق البعض ببعض لم يحتج واضع ذلك النظم إلى فكرة وروية في استخراج ذلك النظم... وهذا الضرب من النظم لا يستحقّ الفضيلة إلاّ بسلامة معناه وسلاسة ألفاظه؛ أمّا القسم الثّاني وهو الذي تكون فيه الجمل المذكورة متعلّقا بعضها ببعض، وهناك تظهر قوّة الطّبع وجودة القريحة واستقامة الدّهن، وكلّما كان آخر الكلام أقوى ارتباطاً وأشدّ التحاماً كان أدخل في الفصاحة»⁴. وهذا الرّبط بالضمائر والتّعلّق بالمعنى ظلّ علماء النّص المعاصرون عاكفين عليه⁵، ولئن نجح القدامى والمحدثون في تحقيقه في بحوثهم فإنّ هذا الأمر مطّرد ثابت وعمّ في القرآن الكريم، متحقّق من أوّل حرف منه، وإذا مثّلنا له بسورة من القرآن فإنّ ذلك محاولة على سبيل التّوضيح والتّقريب لا تعدو أن تكون قراءة ثانية في كتب اللّغة والتّفسير.

1 ينظر: دراسات في اللّسانيات العربية: عبد الحميد السّيد - ص 34.

2 ينظر: مراعاة النّظير في كلام الله العليّ القدير: كمال الدّين مرسي - ص 10.

3 شرح الكافية - ج 01 - ص 91. أخذنا عن: صبحي إبراهيم الفقي: علم اللّغة النّصي بين النّظرية والتّطبيق - ص 86.

4 نهاية الإنجاز في دراية الإعجاز - ص 148.

5 ينظر: نظرية التّعبية في التّحليل التّحوي: سعيد بحري - ص 242. و ص 249. وينظر: علم لغة النّص، المفاهيم

والاتجاهات: سعيد بحري - ص 108. وينظر: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللّسانية: سعد مصلوح - ص 237.

يقول الحق تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝﴾¹، فمن خصائص "إن" أنها تربط بين الجمل بعضها ببعض، يقول عبد القاهر الجرجاني: «إذا جئت إلى "إن" فأسقطتها، رأيت الثاني منهما قد نبا عن الأول، وتجانى معناه عن معناه، ورأيت لا يتصل به، ولا يكون منه بسيل، وهذا الضرب كثير في التتريل جدًا، منه الآية»²، وقد استدل الفخر الرازي بـ"إن" على أنها للربط والتأليف مستشهدا بقوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ۝﴾³ حيث قال: «من مواقعها وفوائدها أنها تربط الجملة الثانية بالأولى، وبسببها يحصل التأليف بينها حتى كأن الكلام أفرغ إفراغا واحدا، ولو أسقطتها لكان الكلام الثاني نايبا عن الأول»⁴ ومما جيء في هذا الباب إعادة بعض الحروف والكلمات ودخولها في نظم دون نظم، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِن أَدَقَّنَهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۝﴾⁵، ويقول تعالى في سورة فصلت: ﴿وَلَئِن أَدَقَّنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ۝﴾⁶، لأن آية سورة هود تقدمها قوله تعالى: ﴿وَلَئِن أَدَقَّنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ۝﴾⁷ وارتبط الكلام أوله بالتالي فاستغني عن الإعادة⁸، ولم يكن ذلك في سورة فصلت، ثم إنه جاء في هذه الأخيرة: "منا" ولم يقل ذلك في سورة هود، لأن سورة هود تقدم فيها ذكر: "منا" أما السورة الأخرى فلم يتقدمها ذلك. فكان أن

1 سورة هود - الآية 07.

2 دلائل الإعجاز - ص 236.

3 سورة هود - الآية 37.

4 نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز - ص 190.

5 سورة هود - الآية 10.

6 الآية 50.

7 الآية 09.

8 ينظر: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية: أحمد مصطفى متولي - القاهرة - دار ابن الجوزي - ط 01-

1426هـ/2005م - ص 590.

ارتبط الكلام بها، ومن الربط بإعادة الضمير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾¹، فقد أعيد الضمير "هم" في هذه السورة، ولم يُعد في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾²، وذلك لأنه في سورة الأعراف على أصله غير مزيد فيه ما يجري مجرى التوكيد والربط بهذا الضمير المنفصل، والذي في سورة هود جاء بعد قوله: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾³ فأشير إليهم ثم قال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، فأظهر ذكر الظالمين موضع الإضمار، ولو أجرى الحكم في إظهار الاسم عقيب الذكر لكان: "ألا لعنة الله عليهم" لأنهم هم المشار إليهم: "هؤلاء" فلما أظهر مكان الإضمار تضمن معنى قوله: "وهم" أي الظالمون (هم الكاذبون على ربهم) وأشير إليهم بالكلام المتقدم، فلما استمر الكلام على الإضمار بعد ذكر الظالمين صار الظاهر كأنهم غير المشار إليهم لتحقق الكفر عليهم بنسبة الأوصاف المتقدمة إليهم وأولها كذبهم على ربهم، ثم ظلمهم لأنفسهم، وصدّهم عن سبيل الله ووصفهم لها بدل الاستقامة بالاعوجاج فلما لم يصرف الخير الثاني في سورة الأعراف مصرف ما ليس هو بالأوّل لم يحتج إلى توكيده، ولما عدل في سورة هود عن إعادة الضمير إلى الأوّل ووضع مكانه ظاهر يحتمل أن يكون غير الأوّل وعنى به أنهم: "هم" كان الموضع موضع توكيد لتحقيق الخير عنهم بالكفر وتشبيته عليهم بأوكد لفظ، لأننا لما قلنا: "هم" فهو المعاد في قوله: "وهم بالآخرة" هم "كافرون" إلا أنه يتبين بذلك أن المكان مكان توكيد ليفرق بينه وبين الأوّل⁴، وفيما يخص الربط الذي أجمله تمام حسان في الربط بالإحالة والمطابقة فإن لهذا الربط ترخصاً⁵، أما الترخّص في الإحالة فيكون مقصوراً على الربط بالضمير، نحو قوله تعالى: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ﴾⁶

1 سورة هود - الآية 19.

2 الآية 46.

3 الآية 18.

4 الخطيب الإسكافي: درة التزويل وغرة التأويل - ص 106.

5 البيان في رواتع القرآن - ص 231.

6 سورة هود - الآية 44.

فالضمير في (استوت) يعود على الفلك الذي في قوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَحْنُطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾¹ وإن كان بين الآيتين كلام طويل ضعفت به الصلة بين الضمير ومرجعه، ولكن اللبس هنا مأمون، ومنه ما تجده في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْبُوْحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾²، أي: إن عمله عمل غير صالح، ولكن لم يسبق ذكرٌ للمرجع، فحلّ الضمير محله واللبس مأمون، وهذه الحالات تدلّ على إمكانية أن يعود الضمير على مرجع مذكور، أما الترخّص في المطابقة فقد تكون في الشخص (التكلم، والخطاب، والغيبة) وهو ما يعرف بالالتفات إلا أن الرخصة لا يقاس عليها.. ونشير إلى نوع من المطابقة في الشخص إذا اختار للضمير أحد مرجعين سابقين، وكلاهما يصحّ معه التركيب، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَيْكُنِّي أَرْكَمَ قَوْمًا مُّجْهَلُونَ﴾³ جاءت المطابقة بين الفعل المضارع "يجهلون" وضمير المخاطبين "أراكم" وكان يصحّ نحوياً أن يقال: "ولكنني أراكم قوماً يجهلون" بمطابقة الفعل للقوم. وكلّ ذلك يخضع للاختيار الأسلوبي، لأنه أسلوب عدولي في أحد وجهيه، وأضاف تمام حسان دوراً آخر للتخصّص هو دور الترخّص في الربط بالأداة، والأداة تقع في أنواع⁴، منها الداخلة على ما يحلّ محلّ المفرد كالواو الداخلة على جملة الحال نحو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعْنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾⁵، أي وقد كان في معزل، إلى غير ذلك من العوامل التي تقصد إلى ترابط النص وتلاحم أجزائه، وتضام ألفاظه وآياته، مما يؤكد معجزته الخالدة.

1 الآية 37.

2 الآية 46.

3 سورة هود- الآية 29.

4 البيان في روائع القرآن- ص 238.

5 سورة هود- الآية 42.

6. التكرار:

لقد كانت للبلاغيين والنقاد العرب القدامى التفاتات إلى هذا الموضوع في دراساتهم بخاصة إذا تعلق البحث بالقرآن الكريم والشعر العربي، بغرض تقرير المعنى في النفس، لأن «الشيء إذا تكرر رسخ في الأذهان رسوخا تنتهي بقبوله حقيقة ناصعة»¹، والتكرار الذي نقصده في هذا البحث هو إعادة ذكر كلمة أو جملة أو عدة جمل بلفظها ومعناها في موضع آخر أو مواضع أخرى من جهة، وإعادة قصة من قصص القرآن الكريم بطريقة عرض جديدة وبنمط جديد في أكثر من موضع.

لعلّ أقدم الإشارات إلى هذا الموضوع تعود إلى الفراء (ت207هـ)، فقد أشار إليه عدة مرّات حين تعرّض إلى آيات من القرآن الكريم²، وتبعه أبو عبيدة (ت210هـ) فقال بالمجاز المكرّر³ وتناوله الجاحظ (ت255هـ) عرضا ضمن مباحث الترداد وكثرة الكلام⁴.

ويُعدُّ كذلك ابن قتيبة (ت276هـ) من أوائل الذين تطلّعوا إلى هذا الأسلوب وتناولوه في سور من القرآن الكريم حيث وقف عند سورتي (الكافرون) و(الرحمن) وراح يبيّن هذا الأسلوب ويشرحه، فتجده يقول: «وأما تكرار الكلام من جنس واحد وبعضه يجزئ عن بعض كتكراره في: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا آلَ الْكَافِرُونَ﴾»⁵، وفي سورة الرحمن بقوله: ﴿فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَان﴾⁶ فقد فقد أعلمتكم أنّ القرآن نزل بلسان القوم وعلى مذاهبهم، وأن مذاهبهم التكرار: إرادة التوكيد والإفهام، كما أنّ من مذاهبهم الاختصار: إرادة التخفيف والإيجاز؛ لأنّ افتتان المتكلم والخطيب

1 أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن- مصر- نهضة مصر- د ط- مارس 2004م - ص 112.

2 معاني القرآن- ج3- ص 287.

3 مجاز القرآن- عارضه بأصوله وعلّق عليه: محمّد فؤاد زكين- بيروت- مؤسسة الرسالة- ط01- 1401هـ/1981م- ج1- ص 12.

4 البيان والتبيين- تحقيق: محمّد عبد السلام هارون- القاهرة- مكتبة الخانجي- ط07- 1418هـ/1998م- ج01- ص 104. 105.

5 سورة الكافرون- الآية 01.

6 الآية 13.

في الفنون وخروجه عن شيء إلى شيء أحسن من اقتصاره في المقام على فن واحد»¹ ويقول: «وأما تكرار المعنى بلفظين مختلفين فلاشباع المعنى والانتساع في اللفظ»²، وقد رد الخطابي (ت388هـ) على منكري هذا الأسلوب في القرآن بأن فيه نوعين؛ «مذموم وهو ما كان مُستغنى عنه غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأوّل لأنّه حينئذ يكون فضلا من القول ولغوا. وليس في القرآن من هذا النوع. والضرب الآخر ما كان بخلاف هذه الصفة، فإن ترك التكرار في الموضوع الذي يقتضيه، وتدعو الحاجة إليه فيه، بإزاء تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار، وإتّما يحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها، ويخاف بتركه وقوع الغلط والتسيان فيها والاستهانة بقدرها»³، وبهذا يكون التكرار من المصطلحات الأولى في تاريخ البلاغة العربية والإعجاز.

هذا الأمر نلاحظه أيضا عند أبي هلال العسكري (ت395هـ) إذ أشار إليه على أنّه صورة من صور الإطناب حيث يقول: «والإطناب إذا ما كان في الكلام إيجازا، وهو في الموعظة خاصة محمود، كما أنّ الإيجاز في الإفهام (محمود) ممدوح. والموعظة كقول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾⁴ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾⁵، فتكرير ما كرّر من الألفاظ هاهنا في غاية حسن الموقع»⁵، ويقول بعدها مستدلا عليه في القرآن بين ما يخاطب الله العرب وبنو إسرائيل: «وقد رأينا الله تعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطا»⁶ وزاد أن أن قال: «وقل ما تجد قصة لبني إسرائيل في القرآن إلا مطوّلة مشروحة ومكرّرة في مواضع معادة لبعده فهمهم كان، وتأخّر معرفتهم. وكلام الفصحاء إنّما هو شوب الإيجاز بالإطناب والفصيح

1 تاويل مشكل القرآن - ص 235.

2 المصدر نفسه - ص 240

3 بيان إعجاز القرآن - ص 47. 48.

4 سورة الأعراف - الآيات 97. 98. 99.

5 كتاب الصناعتين - ص 211.

6 المصدر نفسه - ص 212.

العالى بما دون ذلك من القصد المتوسط ليستدلّ بالقصد على العالى وليخرج السامع من شيء إلى شيء فيزداد نشاطه وتتوفر رغبته فيصرفوه في وجوه الكلام إيجازه وإطنابه حتى استعملوا التكرار ليتوكّد القول السامع..¹»، وضمّنه الباقلاني (ت403هـ) في باب البديع مستدلاً ببعض الآيات من الشعر وناقياً عن أن يكون البديع وجهاً من وجوه الإعجاز²، مع أنه في موضع آخر يتحدث عنه وعن فوائده محتجاً بتكرار القصص على أنه وجه من وجوه الإعجاز قائلاً: «وعادة العرب أن تكرر ليفهم عنها، وتبلغ إلى مرادها.. ووجه آخر وهو أنه إنما تكرر في أوقات مختلفة ليكون سامعوه أشدّ انزعاجاً.. ووجه آخر وهو أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يحتاج إلى بعث الرسل وإنفاذ الدعاة إلى البلدان فأراد أن تُقرأ عليهم القصّة الواحدة بألفاظ مختلفة، فربّما كان ذلك أصلح لهم عند الله تعالى... ووجه آخر وهو أنه لو لم يكرر لجاز أن يقول بعض قريش للنبيّ عليه السلام كيف تتحدّثنا بهذه القصص وأنت البادئ بها فإن أتيتنا بما يمثل اللفظ قلت هذا نفس ما جئت به وإن أتيت بغير اللفظ كنت مطالباً لنا بالحال، فكرر الله القصص بوزن خارج عن أوزان كلام العرب المعهود عنهم ليريهم عجزهم ويقطع شُبُههم»³.

ويأتي دور ابن رشيّق (ت456هـ) فكان أكثر النقاد والبلاغيين تعرّضاً له في كتابه إذ خصّه بباب سمّاه "باب التكرار"⁴ ميد أنه اقتصره على الشعر فلم يخرج به عن غرض الكتاب، وقد مثل له أسامة ابن منقذ (ت584هـ) بأبيات من الشعر دون أن يعلّق أو يشرح واكتفى بأن أورد قولاً لابن قتيبة: «كلّ هذه معان متقاربات في ألفاظ متناسبات»⁵، وتناوله بعد ذلك ابن الأثير (ت637هـ) ضمن مباحث الإيجاز والإطناب⁶، ثم استقرّت الدراسة على حالها بعد ذلك باستثناء بعض التوسّع في التصوص والتصرّف فيها على نحو ما فعله الخطيب القزويني (ت739هـ) مع بعض الآيات القرآنية من أن اللفظ قد يكرر لنكته ما، أو لزيادة تنبيهه، أو طول الكلام، أو لتعدّد

1 المصدر السابق - ص 212.

2 إعجاز القرآن - ص 157.

3 نكت الانتصار لنقل القرآن - ص 212. 214.

4 العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده - ج 02 - ص 126.

5 البديع في البديع في نقد الشعر - ص 275.

6 المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - ج 01 - ص 345.

المتعلق¹، إلى أن أصبحت حقيقة التكرار أن يأتي المتكلم بلفظ ثم يعيده بعينه، سواء كان اللفظ متفق المعنى أو مختلفا، أو يأتي بعينه ثم يعيده، وهذا من شرطه اتفاق المعنى الأول والثاني فإن كان متحد الألفاظ والمعاني فالفائدة في إثباته تأكيد ذلك الأمر وتقريره في النفس، وكذلك إذا كان المعنى متحدا، وإن كان اللفظان متفقين والمعنى مختلف فالفائدة في الإتيان به للدلالة على المعنيين المختلفين... أما أقسامه فثلاثة؛ ما يتكرر لفظه ومعناه متحد، وما يتكرر لفظه ومعناه مختلف، وما يتكرر معنى لا لفظا²، وإلى جانب هذه الجهود هناك جهود المفسرين والمحدثين التي يطول بنا المقام في ذكرها.

ترتبط قضية التكرار المراد دراستها في ضوء موضوع التضام بمحورين هامين، أحدهما يمسّ جانب الألفاظ والأساليب، والآخر يمسّ جانب القصص في القرآن الكريم، وسنحاول أن نجتمع في دراستنا بين هذين المحورين ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

يقول تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾³، فقد تكرر فيها ذكر "ألا" تنبيها على وقت استخفائهم، وهو حين يستغشون ثيابهم⁴، وتما وقع في هذا الأسلوب في سورة هود قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ إِلَهُكُم مَّا تُشْرِكُونَ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾⁵، وما يندرج في الآية يمتد إلى التوكيد بصلة أقرب منها إلى التكرار بيد أننا لم نخصص للتوكيد مبحثا على حده، لذلك جاء ضمنه، والآية على أسلوب الشرط، ووجه جعلها شرطية يفيد حدة التكذيب عند كل إخبار بالبعث، واللام موطئة للقسم، وتأكيد الجملة باللام الموطئة للقسم وما يتبعه من نون التوكيد لتزليل السامع منزلة المتردد في صدور هذا القول منهم لغرابة

1 الإيضاح في علوم البلاغة- ص 198.

2 ينظر: كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان: ابن قيم الجوزية- ص 119. وينظر: النظم وبناء الأسلوب في البلاغة العربية: شفيح السيد- القاهرة- دار غريب- ط01- 2006م- ص 126.

3 سورة هود - الآية 05.

4 ينظر: تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: القمي النيسابوري- ج12- ص 07..

5 الآية 07.

صدره من العاقل¹، فيكون التأكيد القوي والتزليل مستعملا في لازم معناه، وهو التعجب من حال الذين كفروا أن يحيلوا إعادة الخلق، وقد شاهدوا آثار بدء الخلق وهو أعظم وأبدع، ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾²، فهناك أربعة أفعال كونية في هذه الآية، والإتيان بأفعال الكون في الآية أربع مرات لإفادة ما يدل عليه فعل الكون من تمكّن الحدث المخير به، فقوله: "لم يكونوا" أكد من قولك مثلا: "لا يعجزون"³، ثم لاحظ التنقن في تنوع واختلاف صيغ هذه الأفعال، إذ جاء أولها بصيغة المضارع، والثاني بصيغة الماضي بحكم أن المضارع المجزوم بـ"لم" له معنى الماضي، وقد يكتفي القرآن بالألّا يكرّر ما ذكره مرّة أو مرتين⁴ على نحو ما نجده في قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾⁵، فلم يكرّر "لكم"، في حين تكررت في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾⁶، لأنها لم تذكر قبل هذه الآية أو بعدها لذلك كرّرها، بينما وردت في سورة هود قبلها مرتين، في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾⁷، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾⁸ وبعدها مرّة واحدة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾⁹، فاكتفى فلم يكرّرها، ومن اللطائف العجيبة في معنى التكرار ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ

1 الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير - ج 11 - ص 09.

2 سورة هود - الآية 20.

3 الطاهر بن عاشور: السابق - ج 11 - ص 37.

4 أبو زكريا أنصاري: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن - ص 168.

5 سورة هود - الآية 31.

6 الآية 50.

7 الآية 25.

8 الآية 27.

9 الآية 34.

لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصَلِحُونَ ﴿١﴾، وما قاله تعالى في سورة القصص: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلِهَا ظَالِمُونَ﴾²، ففي الأولى قال: "وما ربُّك" وفي الأخرى قال: "وما كنَّا" وفي الأولى

قال: "ليهلك" وفي الأخرى قال: "مهلك، ومهلكي" باسم الفاعل، وفي الأولى قال: "مصلحون" وفي الأخرى قال: "حتى يبعث في أمة رسولا" وقال: "ظالمون"؟ ومرد ذلك أن آية سورة هود تقدّمها ذكر بقية ينهون عن الفساد، أي ما كان ليفعل بهم ذلك، وإن وقع منهم ظلم إذا كان فيهم مغير للظلم وناه عن الفساد، وجيء بالفعل "يهلك" إشارة إلى التكرّر بحسب ما يكون منهم، فلو كان في أمة وقرن بعد قرن من ينهى عن الفساد والظلم لما أخذوا بذوي الظلم منهم، فأشار بالفعل إلى التكرّر ولم يكن الاسم ليعطي ذلك، وأنه تعالى لما أعلم تتابع التذكّار وتعاقب الإنذار قال: "وما كان ربُّك مهلك... رسولا" وناسب هذا اسم الفاعل لأنه قصد الاتّصاف بهذا، ولم يقصد التكرّر ولم يكن حاصله، وأنه قال: "وما ربُّك" بإضافة اسم الربّ سبحانه إلى ضمير نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم المخاطب بهذه ملاطفة له وتأنيسا له ولأمته، وإشعارا بعظيم حظوته ومترلته لديه سبحانه. ثم قال: "وما كنّا مهلكي" فأخبر أنه تعالى ما أهلكهم إلا بعد استحقاق العذاب جميعهم وتساويهم في الظلم، وجيء باسم الفاعل: "مهلكي" في الأخير لئلا يتكرّر اللفظ بعينه مع الاتّصال والقرب وليس من مواضعه³، ونجد القرآن يقرّر هلاك عاد بعدما كذبوا نبيّ الله هود عليه السلام في توكيد وكتكرير لما حدث لهم في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُمْ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٦٠﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦١﴾﴾⁴، فبعد أن هلكت عاد فإنه يُشار إلى مصرعها إشارة البعد، ويسجّل عليها ما اقترفت من ذنب، وتشيع باللّعة والطرد في تقرير وتوكيد وتكرير، وقد كان ذكرهم منذ لحظة في السياق، وكان مصرعهم معروفا على الأنظار ولكنهم انتهوا عن الأنظار والأفكار، وهم عصوا

1 سورة هود - الآية 117.

2 الآية 59.

3 ابن الزبير الغرناطي: ملك التأويل - ج 02 - ص 670.

4 سورة هود - الآيتان 59، 60.

رسولا واحدا كان فيهم؛ ولكن أليست هي رسالة واحدة جاء بها الرّسل جميعا، فمن لم يسلم لرسول بها فقد عصى الرّسل جميعا، وهذا الجمع مقصود من النّاحية الأسلوبية لتضخيم جرميتهم¹ فما أضخم الذّنْب وما أشنع الجريمة، ومن الألفاظ التي كثر دورانها وتكرارها في سورة هود لفظ "العبادة" لما لها من علاقة بموضوع السّورة الرّئيس، فالعبادة هي قطب الرّحى التي عليه السّورة من بدايتها إلى خاتمتها، فقد وردت على لسان كلّ نبيّ دعا قومه، وأنّ الأمر بعبادة الله وحده والنّهي عن عبادة غير الله هو الحقيقة البارزة الأولى في سياق السّورة كلّها، تكرّرت في صيغتين: الحقيقة الأولى جاءت بصيغة: "يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره" وجاءت الحقيقة الأخرى هكذا: "ألا تعبدوا إلا الله، إني لكم منه نذير وبشير" وعلى الرّغم من اختلاف الصّيغتين فإنّ مدلولهما واحد، ويمثّل ما بدأت به السّورة بعبادة الله وتوحيده تحتّم أيضا، وقد تكرّر التعبير القرآني عن التّوحيد بالأمر والنّهي معا في السّورة في مواضع كثيرة²، وهو منهج مطّرد في التعبير القرآني عن حقيقة التّوحيد، له دلالة من غير شكّ، ولعلّ السّرّ في تكرير هذا الأمر بالعبادة في سورة هود أنّ محورها هو الآية التي ما بعد مقدّمة سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾³، فكما أنّ سورة يونس كانت تفصيلا لأوّل آية في سورة البقرة، فإنّ سورة هود تفصيل لأوّل آية بعد مقدّمتها، يقول سعيد حوى: «إنّه لمن الواضح أنّ سورة هود تفصّل في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾⁴ ومن قبل فصلّت سورة النساء في هذه الآية ولكنّ تفصيل سورة النساء انصبّ على التقوى، وهاهنا ينصبّ تفصيل سورة هود على الأمر: " أَعْبُدُوا رَبَّكُم " ومحلّه في دين الله وفي رسالات الرّسل»⁵، فلاحظ أنّ سورة يونس فصلّت في

1 سيّد قطب: في ظلال القرآن - ج12 - ص 1900.

2 ينظر الآيات: (01-02). (25. 26). (50. 51). (61. 67. 79. 84. 123).

3 الآية 21.

4 الآية 21.

5 الأساس في التفسير - القاهرة - دار السّلام - ط02 - 1409هـ/1989م - مج05 - ص 2525.

أول آية من سورة البقرة، وأن سورة هود فصلت في الآية (21) منها، ولكنك لو وضعت الآيتين بجانب بعضها فإتت تجد الصلة قائمة :

﴿الْم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾

﴿يَنبَأُهَا النَّاسُ أَعْبَدُوا رَبَّهُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٣﴾﴾

إن الصلة واضحة بين الآيتين، فبعد تقرير أن القرآن هدى للمتقين، يأتي نداء للناس جميعا أن يعبدوا الله وحده ليكونوا من المتقين، فإذا ما عرفنا أن سورة البقرة مدنية، وسورة هود - على الراجح - مكية كلها أدركنا كم هي الأدلة كثيرة على أن هذا القرآن من عند الله، وأن الكلام فيه يعاد فلا ينفذ، ويتكرر فلا يثقل، وأن تكراره وجه من وجوه الإعجاز احتواه بطرق كثيرة وألوان متنوعة.

7. التضمين والتعدية:

يُعدّ التضمين ظاهرة بارزة من ظواهر التوارد والتضام باعتبار كلاهما يبحث في الطّرق الممكنة في رصف جملة ما فتختلف طريقة منها عن الأخرى، وهذه الطّرق ليست محصورة في التّقدم والتأخير أو الفصل والوصل وإنما تتجاوز ذلك إلى إدخال اللفظ على غير مدخوله، فما تجده يستعمل هنا باسم أو فعل أو حرف تجده في موضع آخر بخلاف ذلك.

عُرفت هذه الظاهرة في النحو العربي بأسماء متعدّدة منها حذف المدخول الأصلي، ومنها نيابة الحرف عن الحرف، ومنها التضمين¹، وأخذ هذا المصطلح في الموروث العربي تعريفات كثيرة في حقول معرفية متنوّعة، فقد يعني في العروض: «أن يكون الفصل الأوّل مفتقرا إلى الفصل الثاني والبيت الأوّل محتاجا إلى الأخير»²، و تضمين الكلام قد يعني: «حصول معنى فيه من غير ذكر له باسمه أو صفة هي عبارة عنه»³ وهو عند أهل البلاغة: «استعارتك الأنصاف والأبيات من شعر غيرك وإدخالك إيّاه في أثناء أبيات قصيدتك»⁴، والتضمين عند النحويين إشراب كلمة معنى كلمة أخرى فتؤدّي وظيفتها في التركيب، وهو مفهوم يمكن أن يكون ضربا من التوسّع في اللّغة⁵ وقد درسه ابن جنّي في باب استعمال الحروف بعضها مكان بعض، حيث يقول: «هذا باب يتلقاه الناس مغسولا ساذجا من الصنعة، وما أبعد الصواب عنه، وأوقفه دونه... ووجدت في اللّغة من هذا شيئا كثيرا لا يكاد يحاط به، ولعله لو جُمع أكثره (لا جميعه) لجاء كتابا ضخما»⁶، وروى السيوطي في باب التضمين أن الدارسين: «من شأنهم أنهم يضمّنون الفعل معنى غير معنى فعل آخر فيجرونه مجراه ويستعملونه استعماله مع إرادة المعنى المتضمّن»⁷، أمّا التضمين اللّغوي الذي يستقرّ عليه موضوع البحث فهو: «إعطاء الشّيء معنى الشّيء وتارة يكون في الأسماء وفي الأفعال وفي

1 تمام حسن: البيان في روائع القرآن- ص 188.

2 أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين- ص 47.

3 الرّمانى: النكت في إعجاز القرآن- ص 94.

4 أبو هلال العسكري: السّابق- ص 47.

5 أحمد حسن عامر: التضمين في العربية، بحث في البلاغة والنحو- بيروت- الدار العربية للعلوم- الأردن- دار الشّروق-

ط01- 1422هـ/2001م- ص 43.

6 الخصائص- ص 509. 511.

7 الأشباه والتّظائر- ج01- ص 116.

الحروف. فأما في الأسماء فهو أن تضمّن اسماً معنى اسم بإفادة معنى الاسمين جميعاً كقوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾¹، ضمن "حقيق" معنى "حريص" ليفيد أنه محقّق بقول الحقّ وحريص عليه. وأما الأفعال فإن تضمّن فعلاً معنى فعل آخر، ويكون معنى الفعلين جميعاً، وذلك بأن يكون الفعل يتعدّى بحرف، فيأتي متعدّياً بحرف آخر ليس من عادته التّعدّي إليه فيحتاج إمّا إلى تأويله أو تأويل الفعل، ليصحّ تعدّيه به²، ولعلّ من أوائل الإشارات التي تكشف عن أسرار التّعدية والتّضمين ما فعله ابن قتيبة حين خصّص جزءاً كبيراً من كتابه في باب دخول بعض حروف الصّفات مكان بعض³، أو ما ذكره الخطّابي معرباً عن عمود البلاغة: «.. ذلك أنّ في البلاغة ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنّها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب؛ كالعلم والمعرفة، والحمد والشّكر، والبخل والشّح، وكالتعت والصّفة، وكقولك: اقعد واجلس وبلى ونعم، وذلك وذاك، ومن وعن ونحوها من الأسماء والأفعال والحروف والصّفات»⁴ ليقول بعدها موضحاً الفرق في الخطاب بـ "من" و"عن": «و"أما" من" و"عن" فإنّهما يفترقان في مواضع كقولك: أخذت منه مالا، وأخذت عنه علماً، فإذا قلت: سمعت منه كلاماً أردت سماعه من فيه وإذا قلت: سمعت عنه حديثاً كان ذلك عن بلاغ»⁵ ثمّ استدلّ على هذا بآيات من الذّكر الحكيم وبهذه التعريفات ندرك أن موضوع التّضمين تتجاوزه أطراف عديدة ينظر إليه كلّ طرف منها من الزاوية التي تتفق وتخصّصه العلمي، فإذا كان «عالم التّحو يسعى نحو عبارة سليمة التّركيب بحيث يحسن السّكوت عليها، ويتّجه نحو التّركيب الصّحيح الذي يتّفق وقواعد العربية بغضّ النّظر عن القيمة الجمالية فإنّ عالم البيان يُعنى بالإضافة إلى التّركيب الصّحيح للعبارة بالقيمة الفنّية لها»⁶؛ وهذا الأخير هو ما حدا بنا إلى اختيار هذا المبحث ضمن مباحث الدّراسة التطبيقية للتّضام في القرآن الكريم.

1 سورة الأعراف- الآية 105.

2 الزّرّكشي: البرهان في علوم القرآن - ج03- ص338.

3 تأويل مشكل القرآن- ص 507.

4 بيان إعجاز القرآن- ص26.

5 المصدر نفسه- ص 29.

6 أحمد حسن حامد: التّضمين في العربية- ص 41.

يقول تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا
 كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾¹، والأصل في الكلام: "من الله رزقها"، فجاءت "على" بمعنى "من" أي:
 من الله رزقها، وقيل وعدا منه حقاً²، لأنه سبحانه لا يجب منه شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ
 يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾³، فالباء
 التي في الآية هي بمعنى "من" أي: "من علم الله"⁴، وحرف الاستفهام الذي في الآية "هل" يتحوّز به
 به عن الأمر والنهي والتقدير، أما هنا فهو للتحوّز عن الأمر، بمعنى: "أسلموا"⁵، ومن لطائف تعدية
 الأفعال ببعض الحروف ما جاء في الآية الكريمة: ﴿ أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ ﴾⁶، إذ
 العرض بالحرف "على" يؤذن بمعنى الإحضار بإرادة، ناهيك عن تصدير الجملة باسم الإشارة للتنبية
 على أنهم أحرىاء بما سيرد بعد اسم الإشارة، وما يفيد اسم الإشارة من معنى تعليل ما قبله وما
 بعده، وأنّ عرضهم على ربهم عرض زجر وانتقام، والإتيان بالموصل في الخير عنهم إيماء إلى
 سببية ذلك الوصف الذي في الصلّة فيما يرد عليهم من الحكم، على أنّ المقصود تشهيرهم دون
 الشهادة، والمقصود من إعلان هذه الصلّة التشهير والخزي لا إثبات كذبهم لأنّ إثبات ذلك حاصل
 في صحف أعمالهم، ولذلك لم يسند العرض إلى أعمالهم وأسند إلى ذواتهم⁷. ومن تضمين الحروف
 الحروف بعضها بعضاً ورود "إلى" في موضع "اللام" نحو ما استدلّ به على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾⁸، حيث
 يقول الفراء: « معناه: "يخشعوا لربهم وإلى ربهم"، وربما جعلت العرب "إلى" في موضع اللام»⁹،

1 سورة هود - الآية 06.

2 ينظر: الجامع لأحكام القرآن: القرطبي - مج 05 - ص 06.

3 سورة هود - الآية 14.

4 ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن - ص 576.

5 ابن قيم: كتاب الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان - ص 50.

6 سورة هود - الآية 18.

7 الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير - ج 11 - ص 32. 33.

8 سورة هود - الآية 23.

9 معاني القرآن - ج 02 - ص 09.

ومن التضمين في الحروف أيضا الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ حَجْرَتُهَا وَمُزْسِنَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾¹، ومعلوم أن الركوب هو العلو على ظهر الشيء، وجاء هنا بـ"في" للتأكيد وفائدة "في" أنهم أمروا أن يكونوا في جوفها لا على ظهرها²، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾³ نلاحظ أن التضمين هنا أوسع مدى من إقليم الحروف، فالفعل "تصل" بمعنى "تمتد"⁴، لأن الأيدي لم تمتد حتى تصل أو تقصر دون الوصول.

ومن تعدية الأفعال بحروف جرّ متعدّدة تعدية الفعل "ذهب" بـ: "الباء، وعن، وإلى" وفي كلّ مرة يكتسب الفعل معنى جديدا ودلالة تتنوع بتنوع حرف الجرّ الداخل عليه، من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَذَقْتَهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾⁵، فتعدية الفعل هنا بحرف المجاوزة "عن" دالّ على انصراف السيئات وتجاوزها عنه⁶ كما كما أنّه في الوقت ذاته يكشف عن غرور هذا الانسان وبطره حين يتيقن بتجاوز السيئات وانصرافها عنه عقب ما أفاضه الله عليه من نعمائه التي كانت تستلزم منه شكر من جاد بها عليه⁷، ومن تعدية هذا الفعل بـ"عن" كذلك قول الحقّ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنَ إِبْرَاهِيمَ الرُّوعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ مُجْتَدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾⁸، ليكتسب الفعل عند تعديته بهذا الحرف معنى انصراف الرُّوع عن إبراهيم عليه السلام، وتجاوزه وابتعاده عنه كلّية على نحو ما يوصف إليه التعبير القرآني من خلال تصوير "الرُّوع" بصورة انسان قد انصرف عن إبراهيم عليه السلام وتجاوزه إلى غيره،

1 سورة هود- الآية 41.

2 القرطبي: الجامع لأحكام القرآن- مج5- ص 25.

3 سورة هود- الآية 70.

4 تمام حسّان: البيان في روائع القرآن- ص 190.

5 سورة هود- الآية 10.

6 يوسف الأنصاري: من أسرار تعدية الفعل في القرآن الكريم- بحلّة جامعة أمّ القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها -

15- ع27- 1424هـ - ص 758.

7 الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير- ج11- ص 14.

8 سورة هود - الآية 74.

وفي ذلك من تطمين إبراهيم وتسكينه فؤاده عليه السلام بحيث لا يخفى¹، كما أن في تقديم الجار والمجرور "عن إبراهيم" على الفاعل "الروح" دليلاً على تعجيل المسرة إلى نفس إبراهيم بانصراف الخوف وتجاوزه، مع ما في تأخيرها ما حقه التقديم من ترقب النفس وتطلعها إليه فحين يرد عليها يتمكن منها فضل تمكن، وتما وقع في تضمين الحروف في هذه السورة تضمين بين "لما" مكان "حين" في قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾² لأنك إذا رأيت "لما" جواباً فهي لأمر يقع بوقوع غيره بمعنى: "حين"³، ومن ذلك ما تجده في "لولا"، حين تراها بغير جواب فإن معناها في كل الأحوال معنى "هلاً"، آية هذا قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾⁴.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَّا لِيُوفِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ﴾⁵ مثاله على حذف المدخول الأصلي و إدخال اللفظ على غير هذا المحذوف، لأن "لما" حرف جزم تدخل على المضارع لكن "لما" في هذه الآية بدلا أن تدخل على الفعل المضارع دخلت اللام الموطئة للقسم، وقد أول التحة ذلك على حذف مضارع مجزوم بـ"لما"، والتقدير: وإن كلاً لما يوفوا أعمالهم، ثم الاستئناف بجملة "ليوفينهم"⁶.

وقد يخرج التمثل التركيبي في القرآن من معنى ما ليتضمن معنى آخر نحو قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾⁷، فالتحضيض الذي في الآية إنما هو للإنكار⁸، فإذا

1 يوسف الأنصاري: من أسرار تعدية الفعل في القرآن الكريم- ص 756..

2 الآية 101.

3 ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن- ص 540.

4 سورة هود- الآية 116.

5 سورة هود- الآية 111.

6 تمام حسّان: البيان في روائع القرآن- ص 188.

7 سورة هود- الآية 12.

8 تمام حسّان: السابق- ص 83.

نظرت في الآية كاملة تبين العجب من أسرار التعدية فيها والتضمين، ففي قوله تعالى: ﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾¹، فلاحظ أن الفعل هنا تعدى بـ: "مع" أي بكلمة المعية، في حين في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ لِيُحْكُمَ فِيكُمْ﴾² قد عدى فعل الجيء بحرف الإلصاق الدال على شدة تعلق عناية موسى عليه السلام بهذا الكتاب وشدة تلبسه به أو تعديته بالحرف "من" في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾³ ليدل ابتداءً على أن الرسول عليه السلام من الله تعالى، أو تعديته باللام في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ لتدل اللام على اختصاص موسى عليه السلام لتحقيق هذه الغاية، وفي ذلك من حرصه بهذا اللقاء وتعلق نفسه وقلبه به ما لا يخفى، فمجيئه كان لهذه الغاية⁴، ولكن حين عدى بحرف المعية في الآية السابقة من سورة هود دل على أن مجيء الرسول وبمعيته ملك من الملائكة يكون شاهداً برسالته وهم قالوا هذا القول إلا بجهلهم بحقائق الأمور، وتوهمهم أنه تعالى يعاب بإعراضهم ويتنازل لإجابة مقترح عنادهم، ومن قصورهم عن فهم المعجزات الإلهية ومدى التأيد الرباني⁵.

1 الآية 12.

2 سورة الأنعام- الآية 91.

3 سورة البقرة - الآية 101.

4 يوسف الأنصاري: من أسرار تعدية الفعل في القرآن الكريم- ص 752 . 753.

5 الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير- ج11- ص 18.

8. التعريف والتنكير:

المقصود بالمعرفة والتكرة أن: «المعرفة ما دلت على شيء بعينه، وبالتكرة ما دلت على شيء لا بعينه»¹، وأقسام المعارف خمس؛ المضمرة، والأعلام، وأسماء الإشارة، ثم المعرف باللام ثم المضاف إلى واحد من هذه إضافة معنوية، لا لفظية، وهي متفاوتة في التعريف، فأعرفها المضمرة، ثم العلم.. وكما كانت المعارف متفاوتة في مراتب التعريف، فكذا حال التكرات، فكل تكرة هي أعم من غيرها فهي أهم.

إن للتعريف وسائل متعددة؛ منها الإضمار، وذلك إذا كان المقام مقام التكلّم أو الخطاب أو الغيبة، ومنها العلمية وذلك لإحضاره بعينه في ذهن السامع ابتداء باسم مختص، أو لتعظيمه أو إهانته، أو لكتاية حيث الاسم صالح لها، أو لإيهام استلذاده، أو التبرك به أو التطير أو التفاؤل ومنها الموصولية، وتكون أيضا لأسباب؛ إمّا لاستهجان التصريح بالاسم أو الإيماء أو لشأن غير الخبر، ومنها الإشارة، ويؤتى بالمسند إليه اسم إشارة كأن يقصد تمييزه لإحضاره في ذهن السامع أو للتنبية إذا ذكر قبل المسند إليه، ومنها التعريف بالألف واللام وتكون لأحد لأمر: أن يشار به إلى معهود بينك وبين مخاطبك كما إذا قال لك قائل: "جاءني رجل من بلدة كذا، فتقول: ما فعل الرجل؟"، أو يراد به نفس الحقيقة مثل: الماء مبدأ كل حي. ومنها التعريف بالإضافة ويكون لأسباب منها: أن لا يكون لإحضار المسند إليه في الذهن طريق أخصر من الإضافة، أو أن تُغني إضافته عن التفصيل، أو لتضمّنها تحقير شيء، أو تعظيما لشأن المضاف إليه، أو للاستهزاء².

بيّن ابن الزمكاني دلالة التنكير بقوله: «وقد يظنّ ظانّ أنّ المعرفة أجلى فهي من التكرة أولى، ويخفى عليه أنّ الإيهام في مواطن خليق، وأنّ سلوك الإيضاح ليس بسلوك للطريق خصوصا في موارد الوعد والوعيد، والمدح والذمّ اللذين من شأنهما التشديد، وعلّة ذلك أنّ مطامح الفكر متعددة المصادر بتعدّد الموارد، والتكرة متكرّرة الأشخاص يتقاذف الذهن من مطالعها إلى مغارها وينظرها بالبصيرة من منسمها إلى غارها، فيحصل في النفس لها فخامة وتكتسي منها وسامة وهذا

1 يحيى بن حمزة العلوي: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز - ج 02 - ص 08.

2 ينظر تفصيل هذه القضايا في: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: أحمد مطلوب - ص 381.

فيما ليس لمفرده مقدار محصور بخلاف المعرفة فإنه لو اُحد بعينه، يثبت الذهن عنده ويسكن إليه»¹ فالتنكير أيضا يأتي لفائدة، ويُنكر المسند إليه لأغراض منها: الإفراد، ومنها النوعية، ومنها التعظيم ومنها التحقير، ومنها التأكيد، ومنها التقليل. وينكر المسند لأغراض كذلك منها إرادة إفادة عدم الحصر والعهد، وإرادة التفخيم والتعظيم، وإرادة التحقير، والتكررة في نظر بعضهم لا تفيد بمعان وإنما هي التي تستفيد من المقام الذي ترد فيه، فكأنما المقام هو الذي يعطي التكررة ميزتها، وأن التكررة يراد بها واحد من أفراد الجنس، ويؤتى بها عندما لا يراد تعيين هذا الفرد². وبالتالي فهي تفيد من كل قيد، والمقام هو الذي يضفي عليها مسحة الجمالية ويحدد معناها، ولقد نال اهتمام البلاغيين وعنايتهم، على نحو ما يتكرر عند عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز³.

إن وراء التعريف والتنكير في القرآن الكريم أسراراً بلاغية، ومزايا جمّة، ولكلّ منه خصائص يميّز بها عن غيره توجب على الدارس إمعان النظر والتدبر في كتاب الله العزيز، ونزولا عند ذلك سنتعرّف على هذا المبحث في آيات بينات من سورة هود.

يقول الحق سبحانه: ﴿وَخَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾⁴، إنك لتجد في

الآية اسم الموصول "ما" يعبر عن تفخيم وتهويل هذا العذاب الذي استعجله هؤلاء استهزاءً، وإشعاراً بعليّة ما ورد في حيز الصلّة من استهزائهم به لتزوله وإحاطته، فضلا عن التعبير بصيغة الماضي "كان" الوارد على عادة الأسلوب القرآني في إخباره، لأنها في تحقيقها وتيقنها بمتزلة الكائنة الموجودة⁵، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر وتقرير وقوع المخبر به ما لا يخفى، ومن التعبير بالاسم الموصول قوله تعالى: ﴿إِنْ أُجْرِيكَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾⁶، وكذلك يؤدّي اسم الموصول في الآية ما يؤدّي من التفخيم، ولقد جاءت جملة الصلّة

1 البرهان الكاشف - ص 136. أخذنا عن: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: أحمد مطلوب - ص 384.

2 أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن - ص 102. وينظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان - ص 189.

3 ينظر الصفحات: 117. 118. 216. 217. 396.

4 سورة هود - الآية 08.

5 طالب محمد الزبيعي: البلاغة العربية العربية، علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين - ص 199.

6 سورة هود- الآية 51.

مصدرة بفعل الفطر، لكونه أقدم التعم الفائضة من جناب الله تعالى المستوجبة للشكر الذي لا يتأتى إلا بالجريان على موجب أمره الغالب عن المطالب الذنوبية التي من جملتها الأجر، لندرك أسرار التعبير القرآني بالتعريف بالاسم الموصول وما يؤدبه من تهويل الأمر وتهويله، وقد يقع الاسم الموصول مكرراً ليؤدي أغراضاً بلاغية لا يؤدبها اسم موصول واحد بتكرار العطف، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾¹، ففي هذا التكرار مبالغة في ردّ مقالة الملائكة لإشباعهم وتسفيه لرأيهم واستهزاء بنصحهم لقومهم بما جرى عليهم²، وتما جاء تعريفاً بتركيب الإضافة في هذه السورة قوله تعالى: ﴿وَيَنْقُومِرْ هَذِهِ نَاقَةُ آلِ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾³ ففي إضافة "الناقة" إلى اسم "الله" تعظيم وتفخيم، وتعظيم المضاف هو إحدى الدلالات البلاغية لتركيب الإضافة، وقد يأتي تركيب الإضافة للدلالة على التفخيم والتهويل، نحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾⁴، ففي إضافة ضميره جلّ جلاله واستعمال مفردة المحيىء للدلالة على نزول هذا الأمر ما لا يخفى من التفخيم والتهويل، ويخرج التعريف إلى الدلالة على الجنس أو العهد نحو قوله تعالى: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾⁵، أي في هذه الأنبياء أو الآيات أو السورة خصّها بالذكر تشريفاً لها، وإن كان جاء الحق في السور جميعها، والتعريف بـ: "في هذه الحق" إما للجنس أو للعهد⁶، والمراد به: البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة، أما ما يخص التنكير فقد سبقت الإشارة إلى أن المعنى الأصلي لتنكير اسم ما إما بغرض الدلالة على النوع أو الجنس كل، وإما بغرض إرادة فرد واحد، بيد أنه كثيراً ما يخرج تنكير الاسم عن هذا المعنى الأصلي إلى معانٍ أخرى يتطلبها السياق فتؤدي معه الغاية المنشودة والمعاني الثانية المطلوبة، ومن ذلك استعمال القرآن للفظ "السلام" إذ

1 سورة هود - الآية 58.

2 الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - ج 03 - ص 210.

3 الآية 64.

4 سورة هود - الآية 66.

5 سورة هود - الآية 120.

6 أبو زكريا الأنصاري: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن - ص 273.

لم يرد من جهته تعالى إلا كان نكرة، بخلاف ما إذا كان السلام واردا من جهة البشر، وذلك في نحو قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾¹ لأن السلام الملقى من قبله تعالى كثير ومغني عن كل تحية وسلام، ولذا جاء نكرة²، وقد برّر بعضهم تنكير السلام في الآية لاعتبارات المقام الذي وردت فيه، لأنه يدلّ على تعظيم السلام الصادر منه تعالى³ وينبئ بهذا التعظيم ويشير إليه، وقد وقف جمع من العلماء عند هذا التعريف والتنكير في السلام الصادر منه سبحانه والصادر من عباده، ولا تثريب إذا ذكرنا بعضا من هذه الوجوه.

إذا استعمل التنكير وأثر على التعريف فعادة ما يكون لغرض إخراجه مخرج الإطلاق عن كل قيد من القيود اللازمة لها، من تعريف أو تخصيص⁴، ولكن فيما يخصّ لفظ "السلام" ما وجه تنكيره في قصة "يحيى" عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾⁵، وتعريف السلام في قصة "عيسى" عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ﴾⁶، ثم إذا كان التنكير في السلام هو المطرد كقوله تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَيَّ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾⁷، وقوله: ﴿سَلِّمْ عَلَيَّ إِلَىٰ يَأْسِينَ﴾⁸، وغير ذلك، فما وجه نصبه في سلام الملائكة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا سَلِّمْ عَلَيْنَا﴾⁹، ورفع في سلام إبراهيم في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْنَا﴾¹⁰، إذ يلزمنا التفرقة بين هذه الاستعمالات ليكمل الغرض في تقرير قاعدة التنكير؟ والجواب كما جاء

1 سورة هود - الآية 48.

2 بسيوني عبد الفتاح: من بلاغة النظم القرآني ص 13.

3 أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن - ص 104.

4 مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾. [سورة البقرة - الآية 179]. ينظر: دلائل الإعجاز: عبد القاهر

الجرجاني - ص 118.

5 سورة مريم - الآية 15.

6 سورة مريم - الآية 33.

7 سورة الصافات - الآية 79.

8 سورة الصافات - الآية 130.

9 سورة هود - الآية 69.

10 سورة هود - الآية 69.

في كتاب الطراز أن: «ما ذكره من تنكير السّلام في قصّة يحيى»، وتعريفه باللام في قصّة عيسى" فإنّما كان ذلك التنكير واردا في قصّة يحيى عليه السّلام، لأنّ التّحيّة من جهة الله تعالى في المواطن الثلاثة، وسلام ما كان من جهة الله مغن عن كلّ تحيّة، ومن ثمّ يرد السّلام من جهة الله إلاّ منكرًا كقوله تعالى: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾¹، وقوله تعالى: ﴿قِيلَ يٰنُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾² وقوله تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾³، ولو كانت معرفة لكان لا فائدة في تعريفها، وأمّا تعريف السّلام في حقّ عيسى عليه السّلام فإنّما كان ذلك من أجل أنّه ليس واردا على جهة التّحيّة من الله تعالى، وإنّما هو حاصل من جهة نفسه، فلا جرم جيء بلام التّعريف، إشعارًا بذكر الله تعالى، لأنّ السّلام اسم من أسمائه، وفيه تعرض لطلب السّلامة، أمّا ما ذكره من نصب سلام الملائكة، ورفع سلام إبراهيم، فلأنّ سلام الملائكة إنّما ورد على جهة الإشعار بالفعل، وكونه مصدرًا عنه تقريرًا لخاطره، وإزالة الوحشة الحاصلة من جهته بامتناع الأكل، كما نبّه عليها بقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾⁴، وهذا المعنى إنّما يظهر بالنّصب بخلاف السّلام من جهة إبراهيم، فإنّما هو وارد على جهة التّحيّة كأنه قال: منّي سلام، أو عليكم سلام، غير متعرّض لتقييد الفعل، والانتصاب عنه، أو نقول: ليس واردا على جهة التّحيّة، وإنّما هو تعرّض للمصالحة والمسألة، ومن ثمّ قال أهل التحقيق من علماء البيان: إنّ سلام إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة، يشيرون به إلى ما ذكرناه⁵، وبهذا تظهر دقّة القرآن في استعمالات الكلمة تعريفًا وتنكيرًا في مكافئها اللاتق بها، وتما يدلّ عليه التنكير التحقير والتقليل على نحو ما جاء في هذه السّورة في قوله تعالى: ﴿إِن نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضْنَا بَعْضُ الْهَيْئَةِ بِسُوءٍ﴾⁶، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾⁷ أي ظلما لها. حيث يدلّ تنكير

1 سورة يس - الآية 58.

2 سورة هود - الآية 48.

3 سورة الصّافات - الآية 79.

4 سورة الذّاريات - الآية 28.

5 ينظر: ج 02 - ص 10.11.

6 الآية 54.

7 سورة هود - الآية 117.

كلمة: "ظلم" على التفخيم، والإيدان بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم¹، والمراد تزيهه تعالى عن ذلك بالكلية.

1 أبو سعود العمادي: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم - ج 05 - ص 88.

9. الفاصلة القرآنية:

لقد ذكر كثير من العلماء تعريفات عديدة للفاصلة، ومن جملة ما ذكره أنها حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعنى، وأنها بلاغة بخلاف الأسجاع فإنها عيب، باعتبار أن الفواصل تابعة للمعاني، وأن الأسجاع تابعة لها، فتكون كلها بلاغة وحكمة لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها¹، فلاحظ هذا التعريف كيف يفرق بين الفاصلة والسجع، وأن الفاصلة هي المعول في أمر البلاغة وليس السجع، وهناك من عرفها أنها حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني²، وإلى جانب ما تضيفه الفاصلة من جمال وروعة في التعبير القرآني، فإنها أيضا عامل من عوامل إظهار المعنى وبروزه، وقد حدّدها الزركشي بأنها: «كلمة آخر الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع. وقال الداني: "كلمة آخر الجملة". وفرق الإمام أبو عمرو الداني بين الفواصل ورؤوس الآي، قال: أما الفاصلة فهي الكلام المنفصل تماما بعده. والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس، وكذلك الفواصل يكن رؤوس أي وغيرها. وكل رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية؛ فالفاصلة تعمّ النوعين، وتجمع الضريين... وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يبين بها القرآن سائر الكلام. وتسمى فواصل، لأنه يفصل عندها الكلامان، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها، ولم يسموها أسجعا... فلأن أصله من سجع الطير فشرف القرآن أن يستعار لشيء فيه لفظ هو أصل في صوت الطائر، ولأجل تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام الحادث في اسم السجع الواقع في كلام آحاد الناس، ولأن القرآن من صفات الله عز وجل فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن بها وإن صحّ المعنى»³، فالفاصلة تابعة للمعاني التي وردت في الآية، فتعمل على إيضاحها وبيانها، وتساهم في فهم المقصد، وهنا نلاحظ أيضا تداخلا في المصطلح، فهناك الفاصلة وهناك السجع وهناك رؤوس الآي، ولعلّ أول من أطلق رؤوس الآي على الكلمة التي تنتهي بها

1 أبو الحسن الرّماني: التكت في إعجاز القرآن - ص 89. وينظر: شرح رسالة الرّماني: عالم مجهول كأنه عبد القاهر الجرجاني - ص 100.

2 أبو بكر الباقلاني: إعجاز القرآن - ص 270.

3 البرهان في علوم القرآن - ج 01 - ص 53. 54.

الآية هو الفراء، حيث تجد في كتابه هذه التعبيرات: «...وليس الذي قبله بآخر آية»¹ أو قوله: « وذلك أنهن رؤوس الآيات»² ونحو: «..وإن شئت جعلتها ياء إضافة حوّلت ألفا لرؤوس الآيات»³ ونحو هذا كثير. وتعريف الزركشي نفسه نجده عند السيوطي من: « أن الفاصلة كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع »⁴، ومردّ اطمئنان الزركشي ومن تبعه إلى مصطلح الفاصلة بدل السجع يرجع إلى كونهم لم يعدوا في القرآن الكريم مستندا للمصطلح، تبركا واحتجاجا به حين الاختلاف على تمييز مصطلحات القرآن⁵. والفاصلة هي: « تلك الكلمة التي تحتّم بها الآية من القرآن، ولعلّها مأخوذة من قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ فُصِّلَتْ ءآيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾»⁶، وربما سُميت بذلك لأنّ بها يتم بيان المعنى، ويزداد وضوحه جلاء وقوة، وهذا لأنّ التفصيل فيه توضيح وجلاء وبيان، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجْمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءآيَاتُهُ﴾⁷، فمكانة الفاصلة من الآية مكانة القافية من البيت، إذ تصبح الآية لبنة متميزة في بناء هيكل السورة، وتزل الفاصلة من آيتها، تكمل من معناها، ويتمّ بها النغم الموسيقي للآية»⁸.
ولسنا بصدد البحث في المصطلح، فذاك رجع بعيد، وإتّما وجه جعلنا إياها مبحثا من مباحث هذا الفصل هو عناية القرآن بانسجام الفواصل بعضها مع بعض عناية واضحة، وتأثيرها الكبير على السمع ووقعها في النفس، إذ ترى القرآن تارة يقدّم وتارة يؤخّر، تارة يحذف شيئا من الكلم لينسجم مع فواصل الآي، وتارة يبدل كلمة بأخرى، وتارة تراه يزيد للغرض نفسه⁹؛ هذا من جهة، ولأنّ الفواصل لم تكن من قبيل المنمّقات اللفظية والترصيعات البديعية التي تعنى بالشكل

1 معاني القرآن - ج01 - ص 16.

2 المصدر نفسه - ج01 - ص 200.

3 نفسه - ج02 - ص 176.

4 الإتيان في علوم القرآن - ج02 - ص 435.

5 ينظر: الفاصلة في القرآن: محمّد الحسناوي - الأردن - دار عمار - ط02 - 1421هـ/2000م - ص 25.

6 سورة فُصِّلَتْ - الآية 03.

7 سورة فُصِّلَتْ - الآية 44.

8 أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن - ص 64. 65.

9 فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني - الأردن - دار عمار - ط05 - 1428هـ/2007م - ص 217.

دون المضمون، ولكن من قبيل امتزاج بين اللفظ والمعنى، وتآلف لا يعصى فيه أحدهما على الآخر ولا يتمرد فيه اللفظ على المعنى أو العكس من جهة أخرى، والفاصلة تختلف عن السجع؛ إذ السجع يظهر فيه التكلف دائما وينصاع فيه المعنى لمتطلبات الأشكال اللفظية، وإذا كان: «الكهّان عند العرب قد استعملوا السجع وهو لون من ألوان الإيقاع اللفظي، في لغة وثنية يؤثرون بها على الناس ويحاولون تضليلهم، فإن إيقاع الفواصل القرآنية يثير الهمم، ويحفّز إلى تلقّي دعوة الحق لا الضلال»¹، وكما أنّ الفاصلة تثير الانتباه داخل الأسلوب القرآني فإن لها أيضا دورا في تفهيم النص القرآني وزيادة التوضيح والتأكيد لما جاء من مفاهيم في تلك الآيات القرآنية، يقول عبد الفتاح لاشين إن الفاصلة: «لها قيمتها في إتمام المعنى وتوضيح الصورة، وهي مرتبطة تماما بأياها ولها أثرها البالغ قدره في نظام الكلام، وأهميتها العظمى في نفسية السامع»²، ثم إنها توفر للقرآن على مدى إفضائه الفكري وغير أجزائه القرآنية المتعددة حدًا من التماسك الداخلي الذي نزع النص إليه³، ما سمح لنا بالبحث في أهميتها وعلاقتها بتضام الكلمات وتوارد بعضها مع بعض لفظا ومعنى.

إن الباحث في فواصل القرآن الكريم يجد أنها تكون في مقامات مختلفة، فمنها ما يساق لإقناع المشركين بحقيقة البعث، ومنها ما يكون تذكيرا بنعم الله، ومنها ما يكون في مخاطبة المنافقين من المشركين واليهود، ومنها ما يؤكد عقاب المشركين، ومن هذه الأخيرة قول تعالى: ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ﴾⁴ حيث يخبر سبحانه عن عقاب المشركين، وما يزل بهم من السوء يوم الآخرة، ويقول في موضع آخر: ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ﴾⁵.

1 أحمد عبد الغفار: قضايا في علوم القرآن تعين على فهمه - الإسكندرية - دار المعرفة الجامعية - د ط - 1995م - ص 318.

2 من أسرار التعبير في القرآن، الفاصلة القرآنية - الرياض - دار المريخ - طبعة 1402هـ / 1982م - ص 163.

3 هدى عطية عبد الغفار: السجع القرآني، دراسة أسلوبية - ص 206.

4 سورة هود - الآية 22.

5 سورة النحل - الآية 109.

والسبب أن سورة "هود" قد تقدم فيها ذكر: "الذين يصدون، يفترون"¹ وعلى هذا «فكّل» فاصلة من الآيتين وقعت موقعها، وحلت محلّها، وكانت كلّ منهما في مكانها المناسب الذي لو تبدّل أو تغيّر لاختل المعنى، وظهر ما يخالف الانسجام والالتزام²، ومن التناصب بين الفواصل ومقاصد النظم الذي جاء في السورة قوله تعالى: ﴿وَيَنْقُومِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾³، وقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ نَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ۗ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾⁴، وقوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾⁵، فالفاصلة في الأولى "قريب" وفي الثانية "الليم" وفي الثالثة "عظيم"، ومرجع هذا التنوع في فواصل الآيات أن آية الأعراف عامة في جمل ما كان من وعظه لهم لأنه قال: "قد جاءتكم بينة من ربكم" ثم قال: "هذه ناقة"، وإلا يأخذكم عذاب ينال منكم ويؤلمكم، وهذه المعاني الجملة في الأولى زيدت بيانا في الآيتين الأخريين، أما آية سورة هود: "قريب" لما بعده من قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعَدُوٌّ كَثِيرٌ﴾⁶، فذكر المدة التي بينهم وبين هلاكهم وقرب ما ما توعدهم به، والقريب لا ينافي الأليم، بل هو أشدّ ألما إذ لم يكن بعد مهل، وأما الآية الأخرى

1 في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ يُضَعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ ۗ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾. [سورة هود/19-21].

2 عبد الفتاح لاشين: من أسرار التعبير القرآني، الفاصلة القرآنية- ص 119.

3 الآية 64.

4 الآية 73.

5 الآيتان 155. 156.

6 الآية 65.

في سورة الشعراء فلأن قبلها ذكر اليومين المقسومين بين الناقة وبينهم، بمعنى: فيوم تؤلمونها فيه، فيكون به يوم يؤلمكم الله فيه بعذاب الاستئصال¹، وكل ذلك بمعنى واحد، فالألفاظ المختلفة دائرة على هذا المعنى واختلافها لاختلاف مواضعها المقتضية تغيير الألفاظ فيها، وهكذا تجد القرآن يتزهر عن أن يقهر المعاني في سبيل تحقيق هذه الغاية على ارتداء ما لا يناسبها عن الألفاظ، أو يحدق في بناء العبارة ما يجعل توافد المعاني على الأذهان مخالفا لترتيبها في الجنان.

لقد بحث العلماء علاقة الفاصلة بما قبلها فحصرها في أربعة أشياء، وهي ما أسماه البلاغيون: التمكين، والتوشيح، والتصدير، والإيغال²، وقد ورد في سورة هود ما يتعلق بالقضية الأولى، وهي التمكين الذي يمهد للفاصلة قبلها تمكينا تأتي به ممكنة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في مواضعها، في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا سَعْيِبُ أِصْلُوكُنْكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٣﴾﴾³، لأنه لما تقدم ذكر العبادة والتصرف في الأموال كان ذلك تمهيدا تاما نذكر الخلم والرشد، لأن الخلم هو العنص الذي يصح به التكليف في العبادات، والرشد حسن التصرف في الأموال⁴، فكان آخر الآية مناسبا لأولها مناسبة معنوية⁵، فقد وصفوه بالحلم أي العقل الذي لا يتناسب في زعمهم مع دعوته إياهم إلى ترك عبادة ما كان يعبد آباؤهم، ووصفوه بالرشد الذي يتنافى في زعمهم كذلك مع دعوته إياهم إلى ترك تصرفهم في أموالهم كما كانوا يتصرفون⁶، ومن خفي ضروب التقديم في الفواصل تقدم

1 الخطيب الإسكافي: درة الترتيل وغرة التأويل - ص 113. 114.

2 ابن أبي الإصبع (ت 654هـ): تحرير التحير - في باب "اتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت" - ص 224. وبديع القرآن في باب "الفاصلة مع ما يدل عليه سائر الكلام". ابن مالك الدمشقي (686هـ): المصباح في المعاني والبيان والبديع - في الصنف السادس من الائتلاف؛ ويسمى التمكين وهو اتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت - ص 250. الزركشي (794هـ): البرهان في علوم القرآن - ج 01 - ص 95. السيوطي (ت 911هـ): شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان - حيث يسمى التمكين أو اتلاف القافية. ص 155.

3 الآية 87.

4 بديع القرآن: ص 224.

5 ينظر: الفواصل القرآنية: كمال الدين مرسي - الإسكندرية - دار الوفاء - د ط - د ت - ص 101. وينظر: من أسرار التعبير القرآني: عبد الفتاح لاشين - ص 39.

6 أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن - ص 68.

غير الأشرف لكونه أهم في سياقه نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فَمَا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ¹ لأن المقام مقام التحذير والإنذار، إذ الغرض إلى وصل حديث الأشقياء بهلاك الأمم السابقة، هو الذي استوجب تقدم ما قُدِّم، وهو شائع في غير الفواصل²، ومما وقع أيضا في حيز تمكن الفاصلة وإتمامها المعنى وتوضيحها الصورة قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾³، وقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا غَافِلُونَ﴾⁴، ففي الأولى "مصلحون" وفي الأخرى "غافلون"، وسبب هذه المخالفة أن في ذلك إشارة إلى ما تقدم من العذاب في سورة الأنعام: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾⁵، وبعده: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾⁶، يعني العقاب في يوم القيامة، لأنه لم يكن ربك ليفعله من قبل أن يحتج عليهم برسل يهدوهم وينذروهم ما وراءهم من محذورهم.. فافتضى هذا المكان أن يقال: لم يؤخذوا وهم غافلون، بل كانوا منبهين بالأعدار والإنذار⁷، أما الموضع الآخر فلبناء على ما تقدم وهو قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أُحْجِنَّا مِنْهُمْ﴾⁸ وكان نقيض الفساد في الأرض الصلاح فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾⁹، وهذه النظرة ترى أن تناسب

1 سورة هود - الآيات 105 . 106 .

2 محمد الأمين الحضري: من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية - ص 31 .

3 الآية 117 .

4 الآية 131 .

5 الآية 128 .

6 الآية 130 .

7 الخطيب الإسكافي: درة التزويل وغرة التأويل - ص 96 .

8 الآية 116 .

9 الآية 117 .

الفواصل مقصد من مقاصد التّظم، وأنّ البحث عن أغراض التّظم وراء هذه المخالفة يهدف دون شطط أو تكلف إلى الكشف عمّا صاحب موسيقى الفواصل من أسرار البيان، بيقين منّا أنّ كلام الله المعجز هو المثل الأعلى للتّظم الذي يتعانق فيه حسن اللفظ وسموّ المعنى.

10. الإطناب والإيجاز:

غني عن البيان أن هذا المبحث لم تخل منه دراسة من الدراسات في البلاغة والإعجاز ولقد عُرف في فترة مبكرة، وتناقلته الأجيال حتى استحال الاستغناء عنه.

روى الخليل الفراهيدي أن الإطناب: البلاغة في المنطق في مدح أو ذم¹، والإطناب لغة: من قولك: طنب بالمكان، أي أقام به. وطنبَ الفرسُ أي طال متنه. وأطنب في الكلام: بالغ فيه. وأطنبت الإبل إذا أتبع بعضها بعضاً في السير. وأطنبت الريح إذا اشتدت في غبار²، أما اصطلاحاً فلقد عرف طريقه إليه منذ إشارات الجاحظ العابرة في كتبه، وما رواه عن أهل اللغة والبيان، وعلى سبيل ما نقله لنا أن سهل بن هارون كان شديد الإطناب في وصف المأمون بالبلاغة والجهارة، وبالخلاوة والفخامة، وجودة اللهجة والطلاوة³، وجعله في موضع آخر مرادفاً للإسهاب⁴، وجاء في كتاب الكامل: «قال أبو العباس: من كلام العرب: الاختصار المفهم والإطناب المفخم»⁵، وتحدث عنه الرّماني وعدّه وجهاً من وجوه البلاغة إلى جانب الإيجاز وفرّق بينه وبين التطويل، فقال: «الإيجاز بلاغة، والتقصير عي، كما أن الإطناب بلاغة، والتطويل عي.. فأما الإطناب فإتّما يكون في تفصيل المعنى وما يتعلّق به في المواضيع التي يحسن فيها ذكر التفصيل، فإن لكل واحد من الإيجاز والإطناب موضعاً يكون به أولى من الآخر، لأن الحاجة إليه أشدّ والاهتمام به أعظم... والإطناب كمن سلك طريقاً بعيداً لما فيه من التزهة الكثيرة والفوائد العظيمة، فيحصل في الطّريق إلى غرضه من الفائدة على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب»⁶ ليستفاد من هذا الكلام أن الإطناب هو في زيادة المعاني، لا في زيادة الألفاظ، فإنّ اللفظ إذا زاد لا يكون الكلام من الإطناب البليغ المستحسن إلا إذا زادت معه المعاني وذلك يكون بتفصيل القول

1 كتاب العين - ج 7. ص 438.

2 الجوهري: تاج اللغة - مج 01 - ص 173. وهو في لسان العرب: البلاغة في المنطق والوصف مدحاً كان أو ذماً، وأطنب في الكلام بالغ فيه، وأطنب في الوصف إذا بالغ واجتهد، وإذا أبعده أيضاً - مج 01 - ص 654.

3 البيان والتبيين - ج 01 - ص 91.

4 الحيوان - ج 01 - ص 196.

5 أبو العباس المرّاد: ج 01 - ص 40.

6 التكت في إعجاز القرآن - ص 72. 73.

لا بإجماله¹، وعلى هذا الأساس بحثه العسكري مهيّدا له بقوله: «قال أصحاب الإطناب: المنطق هو بيان، والبيان لا يكون إلا بالإشباع، والشفا لا يقع إلا بالإقناع، وأفضل الكلام أبينه، وأبينه أشدّه إحاطة بالمعاني، ولا يحاط بالمعاني إحاطة تامّة إلا بالاستقصاء: والإيجاز للخواص، الإطناب مشترك فيه الخاصّة والعامّي، والغبيّ والفظن»² وجاعلا معيار البلاغة أنّها الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل، ومفرّقا بعد ذلك بينه وبين التطويل والتّظليل قائلا: «والإطناب بلاغة، والتّظليل والتّطويل عيب، لأنّ التّطويل بمنزلة سلوك ما يبعد جهلا بما يقرب.. والإطناب بمنزلة سلوك طريق بعيد نزه يحتوي على زيادة فائدة»³، ثمّ يُكتب له الذّيع - مع مبحث الإيجاز - منذ أن تناوله السّكاكي مبحثا من مباحث علم المعاني حيث يقول: «والإيجاز هو أداء المقصود من الكلام بأقلّ من عبارات متعارف الأوساط، والإطناب هو أدائه بأكثر من عباراتهم سواء كانت القلّة أو الكثرة راجعة إلى الجمل أو إلى غير الجمل»⁴، وقد أنعم ابن الأثير النّظر في هذا المبحث فوجده ضربا من ضروب التّأكيد التي يؤتى بها في الكلام قصد المبالغة، وأنّه إذا أُرْجِعَ إلى الأسماء واشتقاقها وُجد مناسبا لمسمّاه، إذ إنّ في أصل اللّغة مأخوذ في الشّيء، إذا بالغ فيه. وأنّ قولك: أطنبت الرّيح، إذا اشتدّت في هبوبها، وأطنب في السّير إذا اشتدّ فيه، وعلى هذا فإنّ حُمل على مقتضى مسمّاه كان معناه المبالغة في إيراد المعاني، وحدّه بقوله: «هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، فهذا حدّه الذي يميّزه عن (التّطويل) إذ التّطويل هو زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة»⁵ ثمّ توالى التّأليف بعد السّكاكي واستقرّ مفهوم الإطناب في أوساط الدّارسين⁶، إلّا ما كان زيادة تقريب وتمثيل نحو ما

1 محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى (نزوله، كتابته، جمعه، إيجازه، جدله، علومه، تفسيره، حكم الغناء به) - القاهرة - دار الفكر العربي - ط - د - ص 306.

2 كتاب الصّناعتين - ص 209.

3 المصدر نفسه - ص 211.

4 كتاب مفتاح العلوم - ص 120.

5 المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - ج 2 - ص: 342. 344. 343.

6 على سبيل المثال يقول ابن النّاظم: «والإطناب هو أداء المقصود من الكلام بأكثر من عبارة متعارف الأوساط، وسواء كانت القلّة أو الكثرة راجعة إلى الجمل أو إلى غيرها، ولكلّ منهما مراتب، فما صادف منها الموقع حمد والاذم، وسمي الإيجاز إذ ذاك عيا وتقصيرا، والإطناب إكثارا وتطويلا» - المصباح في المعاني والبيان والبدیع - ص 142. وينظر كتاب الإيضاح: الخطيب القزويني - ص 196.

جاء في كتاب الطراز أنه: «واد من أودية البلاغة، ولا يرد إلا في الكلام المؤتلف، ولا يختص بالمفردات، لأن معناه لا يحصل إلا في الأمور المركبة.. وهو مصدر أطنب في كلامه إطنابا، إذا بالغ فيه وطول ذبوله لإفادة المعاني... ومعناه في لسان علماء البيان هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة جديدة من غير ترديد، فقولنا: هو زيادة اللفظ على المعنى عام في الإطناب، وفي الألفاظ المترادفة كقولنا: ليث وأسد، لأنه كله من باب زيادة اللفظ على معناه، وقولنا: لفائدة، يخرج عنه التطويل»¹ وهكذا فحقيقة الإطناب أن المعاني تكون والألفاظ على قدر واحد من الكثرة والألفاظ بناء متكامل لا ينقص منه لبنة، ولكن الإطناب يكون متجها إلى تفصيل الألفاظ في الدلالة، فلا يستغنى بلزوم عن ملزوم، ولا بملزوم عن لازم، ولا بعام عن خاص، ولا بخاص عن عام، ولا بدلالة الأولى عن نص اللفظ، ولا بالإشارة عن العبارة²، بل كل ما يقتضيه المقام يجيء في وضوح كامل، لا يكتفي فيه بالتضمن، ولا بالإشارة ولا بالالتزام.

لعل من أوائل ما يلاحظ من مظاهر الإطناب في سورة "هود" هو طريقة السرد والتفصيل فيها لقصة "نوح" عليه السلام مع قومه في نحو أربع وعشرين آية مناسبة لمقام تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، وتسليته وتأنيده وتعزيته لتلا يضيّق صدره بشيء مما أمر بإبلاغه حرصا على إيمان أحد، وإن كان أقرب الخلائق إليه وأعزهم عليه، كما تقدمت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ ۖ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾³، ويأتي في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾⁴، فواضح أن هذه القصص لهذا المعنى سبقت⁵، وأن سياقها في سورة الأعراف وغيرها كان لغير ذلك.. وأن تضمن هذا الغرض بيان إهلاك من كانوا أشد من العرب قوة وأكثر جمعا وأمكن أمرا وأقوى عنادا وأعظم فسادا وأحد شوكة، وما اتفق في ديارهم من الطامات

1 يحيى ابن حمزة العلوي: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز - ج2 - ص 123.

2 محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى - ص 310.

3 سورة هود - الآية 12.

4 الآية 120.

5 البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ج9 - ص 265.

والأهوال المفضعات تحذيرا من مثل حالهم بارتكاب أفعالهم، ففرق بين ما يساق للشيء وما يلزم منه الشيء، ولهذا الغرض المقصود هنا طولت قصة نوح في هذه السورة ما لم يطوله في غيرها وصدرت بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾¹ أي مخوف بليغ التحذير، أبين ما أرسلت به غاية البيان، وذكر فيها أنه طالت مجادلتهم وأنه لما وضح له أمر الله تعوذ من السؤال فيه وفي كل ما يشبهه، وخطت قصته بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَجْرِمُونَ﴾² خطابا لهذا النبي الكريم، وخطمت بقوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَنِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾³، وذكرت قصة إبراهيم عليه السلام لما ضمته من أنه بشر الولد بما لم يجز بمثله عادة فلم يتردد فيه، وأنه جادل الرسل في قوم ابن أخيه، وأنه لما تحقق حتم الأمر وبث الحكم سلم لربه مع كونه حليما أوأها منيبا، إلى غير ذلك مما يومئ إليه سياق القصص، فكأنه قيل: إنما أنت أرسلناك لتبلغ ما أرسلت به من الإنذار وإن شق عليهم، وعزتنا قد أرسلنا من قبلك رسلا منذرين فدعوا إلى ما أمرت بالدعوة إليه، وأنذروهم ما يشق عليهم من بأسنا امثالنا لأمرنا وما تركوا شيئا منه خوفا من إعراض ولا رجاء في إقبال على أن أمهم قالوا لهم ما قالت لك أمتك كما يشير إليه قوله تعالى عن نوح: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾⁴ وقد كان في المخالفين من أمهم القريب منهم نسبه والعزير عليهم أمره من ابن وصاحبه وغيرهما هذا مع أن قصصهم دليل على قوله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا﴾⁵، وزجر لهم عن مثل قولهم: ﴿لَيَقُولُنَّ مَا كَحَّبِئُسَةٌ﴾⁶، وتأيد لقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾⁷، وغير ذلك مما تقدم، فقد علم من هذا الوجه في تكرير هذه القصص، وأنه في كل

1 الآية 25.

2 الآية 35.

3 الآية 49.

4 الآية 31.

5 سورة هود- الآية 08.

6 الآية 08.

7 الآية 17.

سورة لمقصد يخالف المقصد في غيرها، وإن كان يستفاد من ذلك فوائد أخر: منها إظهار القدرة في بيان الإعجاز بتصريف المعنى في الوجوه المختلفة لما في ذلك من علو الطبقة في البلاغة لأنه ربّما قال متعنت عند التحدي: قد استوفى اللفظ البليغ على الأسلوب الأكمل البديع فيه هذه القصص فلم يبق لنا ألفاظ نعبر بها عن هذه المعاني حتى تأتي بمثل هذه القصة، فأتى بما ثانيا إظهارا لعجزه وقطعا لحجته، وربّما كرّرت ثالثا ورابعا توكيدا لذلك وتمكينا للاعتبار بضرور البيان وتصبرا للتيّ صلى الله عليه وسلّم على أذى قومه حالا فحالا، فإن قيل: فما بالها تأتي تارة في غاية البسط وتارة في غاية الإيجاز، وتارة على الوسط؟ قيل: هذا من أعلى درجات البلاغة، وأجل مراتب الفصاحة والبراعة.

لقد تقدّم أنّ من البلاغة أن يناسب أسلوب الإيجاز ما كان للإيجاز، وأن يناسب طول الكلام والإطناب الإطناب أو الطول أيضا، وعلى هذا النحو نجد قوله تعالى في هذه السورة: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾¹، وفي آخرها: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْجُدُّ هَتُولَاءِ﴾²، وقوله تعالى في سورة السجدة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَابِهِ﴾³، حيث ترد هذه الآية الأخيرة بثبوت التّون، بينما لا لا ترد الآيتان من سورة هود بالتّون، وجواب ذلك أنه ورد في سورة هود على ما اعتمده من تخفيف هذا اللفظ ليناسب بذلك إيجاز الكلام المتعلق بقوله: "فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ"، والمتصل به تمامه تمام معنى المقصود وذلك قوله: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾⁴ وكذلك قوله إلى آخر السورة: "فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَابِهِ" إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾⁵، وورد في "السجدة" من طول الكلام المتعلق بقوله: "فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ

1 الآية 17.

2 الآية 109.

3 سورة السجدة- الآية 23.

4 الآية 17.

5 الآية 109.

مِنَّةً، ألا ترى أن الكلام واحد إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾¹، فنوسب الإيجاز بالإيجاز، والطول والإطناب بالطول والإطناب² ومما وقع إطناباً في هذه السورة بغرض الاستيفاء في القصص قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾³ في سياق قصة هود عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾⁴ في سياق قصة موسى عليه السلام، لترى أنه في الأولى جمع بين اسم الإشارة واسم الدنيا الجاري عليه وصفها، وأنه اكتفى في قصة موسى باسم الإشارة دون التابع، وذلك لوجهين⁵؛ أما الأول فإن قصة هود في هذه السورة أكثر استيفاء من قصة موسى بكثير، فناسب الطول الطول، والإيجاز الإيجاز، وأما الثاني فإنه في الحالة الأولى وارد على الأصل من الجمع بين التابع نعناً أو عطف بيان وبين متبوعه، وجاء في الأخرى على حذف الوصف اكتفاء باسم الإشارة، وكلُّ صحيح، فجيء بما هو في الأصل أولاً ثم جيء ثانياً بما هو ثان عليه على ما ينبغي.

1 سورة السجدة - الآية 25.

2 ابن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل - ج 02 - ص 649.

3 الآية 60.

4 الآية 99.

5 ابن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل القاطع بدوي الإلحاد والتعطيل في توجيهه المشابه من أي التزويل - ج 02 - ص 649.

11. الحذف:

الحذف في اللغة القطع والإسقاط، فحذف الشيء يحذفه حذفاً: قطعه من طرفه، وحذف الشيء: إسقاطه¹.

إن الوحدة البنائية الأولى في اللغة هي الجملة، وإن الجملة في العربية تشمل ركنين أساسين هما المسند إليه والمسند، وأن ما عدهما يُسمى متعلقات الفعل أو مكملات الجملة، والأصل أن يستكمل التعبير اللغوي بناء الأسس، لكي تتم دلالة على المعنى، ولا يأتي ذلك إلا بذكر ركني الجملة السابقين، ومتعلقهما إن كانت لها متعلقات، إلا أنه يحدث في الكثير ألا نجد في الكلام أحد الركنين أو ما يتطلبه الفعل من متعلقات، ولا يكون هذا الاستغناء اعتباراً وإنما عدولاً من المتكلم عن الذكر إلى الحذف لأداء دلالة معينة أو لسر بلاغي²، فإذا ما اقتضى المقام وطبيعة الكلام الاستغناء عن شيء منهما ساعدتهم اعتبار ذلك الأصل على معرفة المستغنى عنه، وتقديره وبيان مواضعه³، وما حوّل لنا البحث في موضوع الحذف في ضوء التوارد والتضام هو كون الحذف عدولاً في الأسلوب، لأن: «من أصول النحاة أن كل مبنى له معنى يؤدّيه بحسب الأصل ويسمى (ذلك معناه الأصلي).. فإذا التزم الاستعمال بهذه الأصول كان استعمالاً أصولياً؛ ولكن القرائن النحوية وهي (التي تدور حول هذه الأصول) ربما شهدت ترخّصاً فيها.. لخلق آثار ذوقية ونفسية معينة يصير بها الأسلوب الأدبي ذا تأثير معين. فالذكر مثلاً يعدل عنه بالحذف»⁴، ومادام الموضوع في الحذف في سورة من السور القرآنية فإن هذا لا يعني أننا ننسب الحذف إلى مضمون القرآن، وإنما «نسبه إلى تركيب اللغة، ذلك بأن اللغة تجعل للجملة العربية أنماطاً تركيبية معينة ففي الجملة أركانها ومكملاتها، وفي عناصرها ما يفترق إلى غيره، وما لا يستغني المعنى عن تقديره فإذا لم تشمل الجملة على أحد أركانها أو ما يقتضيه المعنى أو ما يقتضيه التركيب من مكملاتها وعناصرها الأخرى، ثم أتضح المعنى بدون ذكر هذه العناصر لوجود الدليل على المحذوف عددنا ذلك حذفاً جيء به لطلب الحقة اختصاراً أو اقتصاراً أو تجنّباً للحشو، أو لسبب آخر غير ذلك

1 ابن منظور: لسان العرب - مج 09 - ص 48.

2 شفيق السيد: التظم وبناء الأسلوب في البلاغة العربية - ص 61.

3 أحمد سعد محمد: تتوجيه البلاغي للقرائمت القرآنية - ص 255.

4 تمام حسّان: اللغة العربية والحداثة - مجلة فصول - ص 140.

وكلّ عنصر من عناصر الجملة صالح لأن يحذف إذا قام الدليل عليه، فأمكن تقديره في الكلام ولقد يحسن أحيانا حذف الحرف أو الضمير أو الكلمة المفردة أو أحد أركان الجملة أو مكملاتها، كما يحذف من الكلام ما يقتضيه المعنى، وإن طال كلام المحذوف»¹، وبعد هذا التقدّم الموجز يحسن بنا أن نسوق بعض التعريفات للحذف من الموروث البلاغي ليتسنى بعده التمثيل له في سورة من سور القرآن الكريم.

إنّا إذا تأملنا التراث البلاغي القديم وجدنا مؤلفات أهل اللغة تعرض لملاحظات قيمة في هذه الظاهرة البلاغية، فقد تحدّث الفراء في أكثر من موضع في معاني القرآن عن هذه الظاهرة بتسميات مختلفة كالإضمار والإبطال²، وأسمى أبو عبيدة هذا النوع: "بجاز المختصر"³، وأسماه الجاحظ: "الإيجاز المحذوف"⁴ وخصّص له في موضع آخر باباً سماه "من الكلام المحذوف"⁵، ولقد ذكر ابن قتيبة للحذف صوراً عديدة، ودرسه ضمن باب "الحذف والاختصار" بشواهد قرآنية وشعرية ونثرية⁶، وكان له أن ذاع في دراسات إعجاز القرآن فتناوله الرّماني في تلك الأقسام العشرة التي جعلها للبلاغة، وكان الإيجاز أوّل هذه الأقسام وهو عنده: «على وجهين؛ حذف وقصر، فالحذف إسقاط كلمة للاجترأ عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام... وإنما صار المحذف.. لأنّ النفس تذهب فيه كلّ مذهب»⁷، وتعرّض له أبو هلال العسكري في باب الإيجاز بشواهد من القرآن الكريم أيضاً⁸، وحقّ أن يكون الحذف من شجاعة العربية كما وصفه ابن جنّي: «قد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة وليس شيء من ذلك إلّا عن دليل عليه، وإلّا كان في ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته»⁹، و مثلما جاء عند الرّماني

1 تمام حسّان: البيان في روائع القرآن - ص 381.

2 معاني القرآن - ج 01 - ص 141. وج 02 - ص 338.

3 بجاز القرآن - ج 02 - ص 02. ص 98.

4 الحيوان - ج 03 - ص 75.

5 البيان والتبيين - ج 02 - ص 278.

6 تأويل مشكل القرآن - ص 210. وينظر: البلاغة العربية، علم المعاني بين بلاغة القدماء وأسلوبية المحدثين - ص 218.

7 التكت في إعجاز القرآن - ص 70. 71.

8 كتاب الصناعتين - ص 200.

9 الخصائص - ص 545.

فقد ورد عند ابن سنان الخفاجي¹، مما دعا عبد القاهر الجرجاني بعد هؤلاء أن يقف عليه بالشرح والتحليل، واصفا إياه أنه: «باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تُبين»²، وقد نقل عنه ابن الأثير هذه الرؤية في تعريفه الإيجاز بالحذف فقال: «أما الإيجاز بالحذف فإنه عجيب الأمر أشبه بالسحر، وذاك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون مبينا إذا لم تبين. وهذه جملة تنكرها حتى تخبر وتدفعها حتى تنظر. والأصل في المحذوفات جميعا على اختلاف ضرورها أن يكون في الكلام ما يدل على المحذوف، فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف فإنه لغو من الحديث لا يجوز بوجه ولا سبب، ومن شرط المحذوف في حكم البلاغة أنه متى أظهر صار الكلام إلى شيء غث، لا يناسب ما كان عليه أولا من الطلاوة والحسن»³ وتوسع فيه العلوي وأكثر من أمثله وقسمه إلى حذف الجمل وحذف المفردات: «اعلم أن حذف الجمل له في البلاغة مدخل عظيم، وأكثر ما يرد في كتاب الله تعالى، وما ذاك إلا من أجل رسوخ قدمه، وظهور أثره، واشتهار علمه، ويرد على ضروب أربعة»⁴ أما حذف المفردات فـ: «اعلم أن الإيجاز بحذف المفردات أوسع مجالا من حذف الجمل، لأن المفردات أخف في الاستعمال، فلهذا كثر فيها، ويضبطه في غرضنا أنواع سبعة»⁵، وخصه الزركشي بدراسة تفصيلية وعده أسلوبا من أساليب القرآن وفنونه البلاغية⁶، ولم يزد الخطيب القزويني أن جعله ضمن مباحث الإيجاز كسابقه من البلاغيين⁷، ولقد أدرك السيوطي أن الحذف يحقق التماسك بين عناصر الحذف، وأطلق عليه مصطلح الاحتباك حيث يقول: «الاحتباك أن تُذكر جملتان في كل متقابلتان ويحذف من كل ضد ما ذكر في الأخرى... أن يحذف من الأوّل ما

1 سرّ الفصاحة - ص 210.

2 دلائل الإعجاز - ص 120.

3 المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - ج 02 - ص 268.

4 الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز - ج 02 - ص 51.

5 المصدر نفسه - ج 02 - ص 55.

6 البرهان في علوم القرآن - ج 03 - ص 103.

7 الإيضاح - ص 184. 187.

ثبت نظيره في الثاني ومن الثاني ما ثبت نظيره في الأول¹، وهذا التماسك الذي يحدث بالحذف كان المدعاة الأولى لجعله أحد العناصر البارزة في قضية التضام التي تظهر بقوة في حذف الحروف والكلمات والجمل من جهة، وفي القصص القرآني من جهة أخرى، إذ ما تراه مذكورا بحرف أو كلمة في موضع تجده محذوفا في موضع آخر، وما يكون في قصة من قصص القرآن لا يكون في أخرى، والمحذوف في كل هذا: « يفهم غالبا من خلال السياق أو وجود قرينة تدلّ عليه، وفي الحذف فوائد جلية من الاختصار مع عدم الإخلال بالمعنى، وهذا من خصائص النظم القرآني² »
 وقسي الحذف علة ترتبط بأن الزمان قد يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف، وهذا يعني ضرورته في بعض المواضع، وأن الاشتغال بذكره يُعزّي إلى تفويت المهمّ ويحدث معه الخلل، أو يقصد به تعديد أشياء فيكون في تعدادها طول وسامة فيحذف ويكفي بدلالة الحال عليه، ويترك النفس تجول في الأشياء المكفي بالحال عن ذكرها، وقد يخرج الحذف إلى أغراض أخرى³، يمكن أن تتخلل بعضها منها هذه الدراسة التطبيقية في هذا الفصل في سورة هود.

يقول تعالى: ﴿الرَّ كَتَبَ أَحْكَمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ قُضِلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ حَبِيرٍ﴾⁴، لتجد أن المبتدأ محذوف⁵، وهذا الحذف يحدث ليكون ذكر الخير المتصف بصفة كأنه يشير إلى هذا المبتدأ، وكأتما بلغ من الشهرة بهذا الوصف مبلغا يغني عن ذكره، ومن أغراض الحذف في التعبير القرآني أنه يحذف من الفعل للدلالة على أن الحدث أقلّ مما لم يحذف منه، وأن زمنه أقصر، فهو يقتطع من الفعل للدلالة على الاقتصار من الحدث، أو يحذف منه في مقام الإيجاز والاختصار، بخلاف مقام

1 شرح عقود الجمان - ص 133. وينظر: علم اللغة النصي: صبحي إبراهيم الفقي - ص 222.

2 محمود السيد حسن: روائع الإعجاز في القصص القرآني، دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز - الإسكندرية - ط 02 - 2003م - ص 318.

3 من هذه الأغراض البلاغية: البلاغة والتخيم والتعظيم، التخفيف، زيادة اللثة بسبب استبطان المحذوف، قصد العموم، رعاية رعاية الفاصلة، صيانة المحذوف، صيانة اللسان عن المحذوف، كون الخير لا يصلح إلا له حقيقة، قصد البيان بعد الإبهام، قصر الزمن عن الإتيان بالمحذوف، مع أن لكل منها شروطا وأدلة . ينظر: ظاهرة الاقتصاد اللغوي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية: عوني أحمد محمد - (مخطوط رسالة دكتوراه) - جامعة سيدي بلعباس - قسم اللغة العربية وآدابها - 2005م - ص 72.

4 سورة هود - الآية 01.

5 أحمد أحمد بلوي: من بلاغة القرآن - ص 96.

الإطالة والتفصيل، من ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۗ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾¹، فقد جاء الفعل "تذكرون" بحذف التاء، لأنه مما لا يحتاج إلى طول تأمل أو تذكّر أو تفكير²، فإنك إذا سألت أيّ فرد من عقلاء خلق الله: هل يستوي رجل أعمى وأصمّ ورجل بصير سميع؟ أو هل يستوي الأعمى والبصير والأصمّ والسميع؟ كان جوابه: كلا لا يستويان، ومنه أيضا قوله تعالى في هذه السورة: ﴿قَالَ يَبْنُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنَّ أَهْلِكَ ۗ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۗ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۗ﴾³، وقوله تعالى في سورة الكهف: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۗ﴾⁴. بحذف الياء من "تسألن" في الأولى وإثباتها في الآية الأخرى؛ والآية الأولى هي في بمناسبة غرق ابن نوح وسؤال نوح عليه السلام ربه، أما الأخرى فهي في اشتراط الخضر على موسى عليه السلام، إذا صحبه أن لا يسأله عن شيء حتى يخبره به، وبالتنظر إلى السياقين فإنّ في قصة موسى والخضر كان يتوقع أن يسأل موسى الخضر عن كلّ عمل يقوم به مما لا يدرك حكمته، وأحداث المصاحبة بينهما قائمة على أن الرجل الصالح يعمل أعمالا مستنكرة حسب ما يرى موسى، فيعترض ويبادر بالسؤال، في حين لم يكن في قصة نوح عليه السلام إلا سؤال واحد، وهو عن شأن ابنه، فاقترضى مقام الإطالة والتفصيل في سورة الكهف ذكر الياء دون سورة هود، ثم إنّ موسى عليه السلام سأل عن ثلاثة أمور مشاهدة، في حين سأل نوح عليه السلام أمرا واحدا، فناسب الإطالة بذكر السؤالات وتعدّدها أن يذكر الياء في سورة الكهف، وأمر آخر هو أن التحذير من السؤال في سورة هود أشدّ مما في سورة الكهف، وقد عقب على سؤال نوح بقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْظَمُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾⁵، وليس الأمر كذلك في سورة الكهف، بل سيعلّمه حكمة ما سيقوم به فيما بعد فناسب حذف الياء في سورة هود إشارة إلى التهي عن أصل الحدّث بخلاف ما في سورة

1 سورة هود - الآية 24.

2 فاضل صالح السامرائي: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني - الأردن - دار عمار - ط05 - 1429هـ / 2008م - ص 19.

3 الآية 46.

4 الآية 70.

5 الآية 46.

الكهف¹، ولاختلاف السؤالين دور في إيراد الذكر والحذف، فالسؤال في سورة الكهف هو سؤال الاستفهام والاستفسار، ولذا عداه بـ "عن" فقال: "فلا تسألني عن شيء"، أما سؤال نوح عليه السلام فإنه سؤال طلب كما تقول: سألته حاجة، ولذلك عداه بنفسه، ومن لطائف حذف بعض الحروف وذكرها في التعبير القرآني قوله تعالى في هذه السورة: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾² وقوله تعالى في سورة السجدة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَابِهِ﴾³ الأولى تثبيت للرّسول صلى الله عليه وسلم ونهي له عن الرّيب والمرية، والكلام على القرآن الكريم وعلى قوم الرّسول، وتهديد من يكفر به، والآخر على التّوراة وبني إسرائيل، فناسب الحذف في الأولى دون الآية الأخرى، ذلك أنه طلب منه ألا يكون في شيء من المرية أصلاً، فلما كان الكلام في القرآن وفي قومه ناسب الحذف⁴، ومنه أيضاً قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَيَنْقُورِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ﴾⁵، وقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾⁶، قال في سورة هود: "وَلَا تَتَوَلَّوْا" بتاعين، وقال في الأخرى "وَلَا تَوَلَّوْا" بحذف إحدى التاعين، ذلك أن الخطاب في سورة هود للكافرين وهم قوم "هود" عليه السلام، أما الخطاب في الآية الأخرى للمؤمنين "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا"، ومن «المعلوم أن تولّى المؤمنين أقل من تولّى الكافرين، لأن المؤمنين مطيعون لله بخلاف الكفرة، ولما كان تولّى المؤمنين أقل حذف من الحدث للدلالة على قلة توليهم»⁷، وعلى العكس، تولّى الكافرين فإنه عام، فهو يشمل تولّى المؤمنين وزيادة، فزاد في الفعل للدلالة على زيادة توليهم، ثم إنه بهذا التعبير نهي

1 فاضل صالح السامرائي: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني- ص 29- 31.

2 الآية 17.

3 الآية 23.

4 فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني- الأردن - دار عمار - ط05- 1428هـ/2007م- ص 77.

5 الآية 52.

6 الآية 20.

7 فاضل صالح السامرائي- التعبير القرآني - ص 17.

المؤمنين عن التوليّ مهما كان قليلا، فقال: "وَلَا تَوَلَّوْا"، فاقطع من الفعل للدلالة على التهي عن أي شيء من التوليّ مهما قلّ أو ضوّل، وتما وقع في حذف الحروف في بعض القصص القرآني دون بعض ما جاء في هذه السورة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾¹، وقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾²، وقوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾³، حيث حذف الواو في سورة الأعراف، وأتى بها في الآخرين، وذلك أنّ الآيات التي سبقت آية الأعراف كانت في وصف ما اختصّ الله به إحداث خلقه والبدائع من فعله، إلى أن ذكر الشمس والقمر والرياح.. ولم يكن فيها ذكر بعثة نبيّ ومخالفة من كان له من عدو، فصار كالأجنبيّ من الأوّل فلم يعطف واستؤنف ابتداء كلام.. في حكم المنقطع، وليس كذلك في سورة هود؛ لأنّه في أولها افتتح قصّة نوح بما هو احتجاج على الكفار بآيات الله، وذكر قصّة من قصص من تقدّمهم من الأنبياء، فعطف هذه الآية على ما قبلها إذ كانت مثلها، وأمّا في سورة "المؤمنون" فإنّ قبلها: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾⁴، ثم قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقٍ﴾⁵، ثم انقطعت الآية إلى قوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾⁶، فكان ما تقدّم في هذا المكان مثل ما تقدّم في سورة الأعراف إلا أنّه باينه بأن كان فيه: "ولقد خلقنا" وقوله: "ولقد خلقنا فوقكم"، ثم انقطعت إلى قوله: "وعليها"⁷، فدخل واو العطف في قصّة نوح عليه السلام للفظتين المتقدّمتين وهما: "ولقد خلقنا الانسان" برؤوس الآيتين وللمعنى المقتضي من ذكر الفلك الذي نجى الله عليه من جعله أصل الخلق، وبذر هذا التسلسل، فحذف بعض الحروف في القصص القرآني ليس جزافا وإنّما لحكمة بالغة تؤدّي الغرض المنشود وتكشف عن علو طبقة القرآن في البلاغة، وقد

1 الآية 25.

2 الآية 59.

3 الآية 23.

4 الآية 12.

5 الآية 17.

6 الآية 22.

7 ينظر: درة الترتيل و غرة التأويل: الخطيب الإسكاني - ص 108.

جاء منه الشيء الكثير في السورة منه قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۗ﴾¹، و عادة ما يقال: "كفروا برّبهم"؟ ولكن الحق تبارك وتعالى قال: "كَفَرُوا رَبَّهُمْ" أي: إن هناك فرقا بين المعنيين؛ كفروا برّبهم، وكفروا ربّهم ف «كفروا ربّهم بمعنى ستروا وجوده وأنكروه، أما كفروا برّبهم فبمعنى: لم يؤمنوا به مع اعترافهم بأنّه موجود»²، هذا هو الفرق، وعندما نرى الذنب الكبير الذي ارتكبه نعرف أن إهلاكهم كان عدلا، ونقول كما قال الله سبحانه: "أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ"، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ ۗ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۗ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ مُّخْزٍ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ ۗ﴾³ وقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ يَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۗ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۗ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَنقَبَةُ الدَّارِ ۗ﴾⁴، وقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿قُلْ يَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ ۗ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۗ﴾⁵، بحذف الفاء في سورة هود، وإثباتها في السورتين الأخريين، وتعليل هذا أن يقال أمر سبحانه نبيّه عليه السلام في سورة الأنعام بأن يخاطب الكفار على سبيل الوعيد، فالفاء متعلّقة بقوله: "اعملوا"، وكذلك ما في سورة الزمر، من خطاب منه سبحانه لنبيّه عليه السلام على هذا الوجه⁶، أما في سورة هود فإنّه حكاية عن شعيب عليه السلام لما تجاهل قومه عليه فقالوا له: ﴿قَالُوا يَنْشَعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُكَ فِينَا ضَعِيفًا ۗ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۗ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۗ﴾⁷ فقال لهم: "أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ" فجعل: "سَوْفَ تَعْلَمُونَ" مكان الوصف لقوله: "إِنِّي عَمِلٌ" فلم يصحّ على هذا المعنى دخول الفاء

1 الآية 60.

2 محمّد متولّي الشعراوي: قصص الأنبياء والمرسلين - بيروت - مكتبة صيدا - د ط - 1425 هـ / 2004 م - ص 77.

3 الآية 93.

4 الآية 135.

5 الآية 39.

6 الخطيب القزويني: درة التّبريل و غرة التّأويل - ص 97.

7 الآية 91.

وقصد المعنى لما أظهروا من جهلهم به، وأنهم لا يعرفون ما يقول لهم، ومن أنواع الحذف حذف المسند إليه، والغرض منه عادة ما يكون للإيماء بالسرعة الفائقة للحدث لصدوره عن صاحب القدرة المطلقة في هذا الوجود كما في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأِ أَقْلَبِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾¹ فحذف المسند إليه، للإشارة إلى قوة ظهوره وأن ذلك الفعل الهائل في مخاطبة الأرض وتوجيه الأمر المستعلى إليها لا يكون إلا من الذي خلقها فسواها، وكذلك السماء وحذف الفاعل في: "غيض الماء" للإشارة إلى الإجابة السريعة، فما إن أُمرت أن تبلع والسماء بأن تقلع، إلا وقد غيض الماء²، ويردّد هذا الأمر غالباً في حديث إنزال القرآن وقضاء الأمر وأحداث البعث والقيامة، وهي أحداث لا شك أن لها فاعلاً واحداً يتفرّد بإحداثها، ولا ينازعه فيها غيره³، أما ما يحذف في القرآن لدلالة الكلام عليه فمعه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتِنَا مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾⁴ حذف جواب "إن" الشرطية من الآية⁵، لدلالة الكلام عليه وهو من باب حذف الاختصار.

1 سورة هود - الآية 44.

2 الزمخشري: الكشاف - ج 03 - ص 203. وشفيع السيد: النظم وبناء الأسلوب في البلاغة العربية - ص 68.

3 أحمد سعد محمد: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية - ص 262

4 سورة هود - الآية 88.

5 محمود حسن السيد: روائع الإعجاز في القصص القرآني - ص 328.

12. الذكر والزيادة:

الذكر في اللغة بمعنى الحفظ للشيء، تذكره، ومنه الشيء الذي يجري على اللسان، تقول: ذكره يذكره ذكرا وذكرا¹، أما في اصطلاح البلاغيين فإنه نقيض الحذف²، أو الحالة المقابلة للحذف والاستغناء، وهو ذكر المسند إليه والمسند وذكر مكمّلات الجملة أو متعلّقات الفعل، وقد قال البلاغيون عند الحديث عن حذف المسند إليه إن ذكره هو الأصل، ولا يعدل عنه بالحذف إلا لغرض بلاغي، يرجّحه على الذكر³، فالتعبير القرآني قد يحذف فيه اللفظ أو أكثر حسبما يقتضيه السياق، أو قد يحذف حرفا أو يذكره ويجتزئ بالحركة للدلالة على المحذوف وكل ذلك لغرض بلاغي تلاحظ فيه غاية الفن والجمال أما القسم الآخر من الحذف فإن يذكر في موطن ما لا يذكره في آخر يبدو شبيها به، وليس عدم ذكره من باب الحذف، وإنما قد يزيد لفظا أو أكثر مراعاة لهذا السياق أو ما يستدعيه ذلك المقام⁴، وهذا هو غرضنا من هذه الدراسة، هذا من جهة الذكر، أما من جهة الزيادة، فإنها في اللغة تعني النمو، بخلاف النقصان، فزاد في الشيء يزيد زيدا وزيدا ومزيدا ومزادا⁵، أما ما يخص معناها الاصطلاحي فقد أشار إليها اللغويون القدماء من باب زيادة التأكيد في الكلام، على نحو ما هو عند أبي عبيدة في حديثه عن بعض الحروف كالحرف "ألا": «وتزاد "ألا" للتنبية والتأكيد»⁶، وروى ابن جنّي في باب "في قوة اللفظ لقوة المعنى" ما نصّه: «ونحو من تكثير اللفظ لتكثير المعنى العدول عن معتاد حاله وذلك "فعال" في معنى "فعل" نحو طوال، فهو أبلغ معنى من طويل وعراض فإنه أبلغ معنى من عريض، وكذلك خفاف من خفيف، وقلال من قليل، وسراع من سريع.. وبعده، فإذا كانت الألفاظ أدلة المعاني ثم زيد فيها شيء أوجبت القيمة له زيادة المعنى به»⁷ فكان بذلك من أوائل من تحدّثوا عن الزيادة في المباني

1 ابن منظور: لسان العرب - مج 04 - ص 356.

2 أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها - ص 492.

3 شفيق السيد: التّظّم وبناء الأسلوب في البلاغة العربية - ص 116.

4 فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني - ص 104.

5 ابن منظور: السابق - مج 03 - ص 244.

6 مجاز القرآن - ج 01 - ص 226.

7 الخصائص - ص 812 . 813.

للدلالة على الزيادة في المعاني، وأصبحت هذه القاعدة مطّردة عند اللّغويين والبلاغيين فقد جاء في تفسير الزّمخشري حين وقف عند قوله تعالى: ﴿الرّحمن الرّحيم﴾¹ أنّه قال: «وفي الرّحمن من المبالغة ما ليس في الرّحيم،.. ويقولون: إنّ الزيادة في البناء لزيادة المعنى، وقال الرّجاج في "الغضبان" هو الممتلئ غضبا، ومّا طنّ على أذني من ملح العرب أنّهم يسمّون مركبا من مراكبهم بالشّقف؟ وهو مركب خفيف ليس في ثقل محامل العراق، فقلت في طريق الطّائف لرجل منهم: ما اسم هذا المحمل؟ أردتُ المحمل العراقي، فقال: أليس ذاك اسمه الشّقف؟ قلت: بلى، فقال: هذا اسمه الشّقفنداف، فزاد في بناء الاسم لزيادة المسمّى»²، ولذلك يقول أهل اللّغة: إنّ زيادة المباني تدلّ على زيادة المعاني³، ومن اللّغويين الذين تناولوا مبحث الزيادة ابن الأثير، حيث تحدّث عنها في نوع أسمائه: "قوة اللفظ لقوة المعنى" فقال: «اعلم أنّ اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثمّ نُقل إلى وزن آخر أكثر منه، فلا بدّ من أن يتضمّن من المعنى أكثر ممّا تضمّنه أوّلا؛ لأنّ الألفاظ أدلّة على المعاني، وأمثلة للإبانة عنها، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني، وهذا لا نزاع فيه لبيانه»⁴، وذكر ابن أبي الإصبع أنّه من مستخرجاته، إلّا أنّ فضله ليس في هذا بقدر تفصيل القول فيه⁵، ومّن ذكره أيضا الزركشي: «اعلم أنّ اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثمّ نُقل إلى وزن آخر أعلى منه، فلا بدّ أن يتضمّن من المعنى أكثر ممّا تضمّنه أوّلا، لأنّ الألفاظ أدلّة على المعاني، فإذا زيد في الألفاظ وجب زيادة المعاني ضرورة»⁶، وعقد قسما خاصّا لها وقال: «والأكثر من ينكرون إطلاق هذه العبارة في كتاب الله، ويسمّونه التأكيد، ومنهم من يسمّيه بالصّلّة، ومنهم من يسمّيه المقحم»⁷، ثمّ قد تحدّث بعدها عن الزيادة في الأفعال والحروف⁸، وتكلّم ابن القيم عن الزيادة في البناء وردّها كونها أن: «يقصد المتكلّم معنى تعبّر عنه لفظتان، إحداهما أزيد

1 سورة الفاتحة- الآية 03.

2 الكشف - ج01- ص 108. 109.

3 فاضل صالح السامرائي: الجملة العربية والمعنى- ص 203.

4 المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر- ج02- ص 241.

5 بديع القرآن - ص 305. وينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: أحمد مطلوب- ص 500.

6 البرهان في علوم القرآن- ج3- ص 34.

7 المصدر نفسه - ج03- ص 70.

8 المصدر نفسه- ج03- ص 74.

بناء من الأخرى فيذكر الكلمة التي تزيد حروفها عن الأخرى قصداً منه إلى الزيادة في ذلك المعنى الذي عبر عنه¹ وبجنا في الذكر والزيادة في القرآن الكريم هو جزء من البحث في ظاهرة التضام وشواهدهما، والقول بالزيادة ينسب إلى التحو ولا ينسب إلى القرآن، ذلك «بأن الزائد إنما هو زائد على أصل التمثط، أي على أصل وضع الجملة، فللجملة أركانها وفضلاتها من المنصوبات والمجرورات، فإذا ورد فيها غير ذلك فهو زائد على مطالب الصحة والإفادة، ومادامت زيادة المبنى تدلّ على زيادة المعنى، فإنّ في زيادة المبنى تأكيداً للمعنى.. ومادما نعرف بأنّ التصرّ القرآني يشمل على تأكيد للمعنى فإنّ الزيادة إحدى وسائل التوكيد لا مشاحة في ذلك.. فإذا علمنا أنّ كلّ زيادة إنّما جيء بها لتأكيد المعنى أصبح من المستحسن أن نشير أنّ إلى الزيادة إنّما تكون عادة في الحروف وبعض الضمائر في القرآن»²، وقولنا بالزيادة في القرآن لا يعني ذلك الحشو - معاذ الله - وإتّما: «يعني أنّ النّحاة حدّدوا لكلّ جملة أركانها ومكملاتها القياسية بحيث يتمّ المعنى الوظيفي بوجود هذه العناصر، ولكن المعنى المطلوب ليس وظيفياً فقط، وإتّما يتخطّى مجرد الوظائف من فاعلية ومفعولية، فيسلك مسالك أسلوبية أخرى لا تحقّقها إلاّ العناصر الزائدة على مجرد التمثط التركيبي ذي المعنى الوظيفي»³، وإذا كان النّحاة مسؤولين عن وصف هذه العناصر بالزيادة فإنّ البلاغيين يعترفون بما تضيفه هذه العناصر إلى المعنى، لذلك قالوا: زيادة المبنى تدلّ على زيادة المعنى، ويقصدون زيادة المعنى ما يلحقه من التوكيد من جرّاء الزيادة في المبنى وذكره.

يقول تعالى في هذه السّورة: ﴿وَلَيْنَ أَدَقَّنَهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءَ مَسَّنَهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّفَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾⁴، ويقول تعالى في حم السّجدة: ﴿وَلَيْنَ أَدَقَّنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ﴾⁵، بزيادة "منّا" و"من" في سورة فصّلت، وسقوطهما معا في سورة هود، لأنّه في سورة هود لم يرد ما يستدعي تلك الزيادة، أمّا في سورة فصّلت فتقدّم فيها: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ

1 كتاب الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان - ص 114.

2 تمام حسن: البيان في روائع القرآن - ص 172.

3 المرجع نفسه - ص 386.

4 الآية 10.

5 الآية 50.

شُرَكَاءِي قَالُوا ءَاذَنْتَكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿١﴾، قطعاً بهم، وتنبئها على سوء مرتكبهم، فلما تقدّم ذكر الشركاء، قال: "لئن أذقناه منا" فنبّه سبحانه بقوله: "منا" على أنّه لا شريك له، ولا معطي غيره، ولما لم يتقدّم في سورة هود ذكر لذلك لم يرد التنبيه². أمّا زيادة "من" فمناسبة لإطناب هذا الغرض في هذه السّورة، فناسب ذلك الزيادة، حيث بيّن جهة الرّحمة في سورة فصّلت، وإيجاز هذا القصد في سورة هود ناسب سقوط "من"، فجاء كلّ على ما يناسب ويجب، ومما وقع فيه المخالفة من زيادة في تركيب وحذف في آخر قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾³، وقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾⁴، وذلك لأنّ آية سورة هود تقدّمها (لكم) مرّات عديدة، فاكتفى بها تخفيفاً، ولم يتقدّم في سورة الأنعام سوى مرّة واحدة⁵ لذا أتت لفظة (لكم) في الآية الأولى دون الأخرى، وزيادة على هذا لاحظ الكلام في سورة الأنعام تجده أشدّ، وفيه تحذير في نحو سبع آيات كاملة⁶، بينما في سورة هود فإنّ سياق الآيات فيه تلطّف، وفي التلطّف عادة لا نواجه الشّخص، فنقول: قلنا لك، ومما جاء بذكر حرف وزيادته في هذه السّورة دون أخرى ما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي﴾⁷ وقوله تعالى في سورة مريم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾⁸، فقرن في سورة هود القول بالفاء، ولم يكن ذلك في سورة مريم، لأنّه أريد بالتداء في سورة هود إرادته فهي سبب له، فناسب الفاء الدّالة على السّببية⁹، وفي السّورة الأخرى لم يُرد ذلك فناسبه ترك

1 الآية 47.

2 ابن الزّبير الغرناطي: ملاك التّأويل القاطع بدوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه من أي التّبريل - ج 02 - ص 647.

3 الآية 31.

4 الآية 50.

5 أحمد مصطفى متولّي: الموسوعة الذّهبية في إعجاز القرآن والسّنة النبويّة - ص 590.

6 من الآية من 40 إلى الآية 47.

7 الآية 45.

8 الآية 04.

9 أبو زكريا الأنصاري: فتح الرّحمن بكشف ما يلبس في القرآن - ص 265.

الفاء، ومن أطف ما جاء في باب الذكر والزيادة ما تجده في قوله تعالى في سورة هود: ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾¹، وقوله تعالى في الأعراف: ﴿أَلْهَمَ أَرْجُلًا يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ﴾² حذف الياء واجتزأ بالكسرة في سورة الأعراف، وذكرها في سورة هود، وكل موطن تُذكر فيه الياء يكون المقام مقام إطالة وتفصيل في الكلام، وأن الياء تذكر وتظهر مترددة في المواطن التي تُذكر فيها الياء أكثر من المواطن التي يُجتزأ بالكسرة عنها، وإذا راعينا المقام فإنه في سورة هود مقام مواجهة وتحذير كبيرين، ولا بد للمتحدّي أن يظهر نفسه وليس الأمر كذلك في سورة الأعراف، والسياق هو المبيّن³؛ فقد دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده ونصح لهم بالتوبة والاستغفار، فأشهد الله وأشهدهم على البراءة من آلهتهم، فزاد كلمة (جميعاً) زيادة في التحدي، ومن جهة ثانية: إن التحدي في سورة هود أطول وأكثر مما في سورة الأعراف، فذكر الياء في سورة "هود" لأن الياء أطول من الكسرة، وحذف الضمير واجتزأ بالكسرة في سورة الأعراف فناسب بين طول الكلمة والسياق، ومن جهة ثالثة نرى أنه قد تردّد ذكر ياء الضمير في سورة هود في هذا الموطن مرّات عديدة، وليس الأمر كذلك في سورة الأعراف، ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾⁴، وقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾⁵، وقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾⁶، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾⁷، ﴿وَنَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾⁸، وليس كذلك في سورة الأعراف فلم تظهر فيه الياء إلا مرّة واحدة، هي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ

1 الآية 55.

2 الآية 195.

3 فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني - ص 79.

4 سورة هود - الآية 54.

5 الآية 55.

6 الآية 56.

7 الآية 56.

8 الآية 57.

اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ^ط ﴿١﴾، ثم انظر من ناحية أخرى كيف قال في سورة الأعراف حيث أدخل (ثم) على الكيد والفاء على الإنظار، وفي سورة هود بالعكس، أدخل الفاء على الكيد ثم على الإنظار، و(الفاء) تفيد التعقيب و(ثم) تفيد التراخي، فطلب منهم في سورة الأعراف عدم المهلة في الإنظار، وعدم الإنظار هو المناسب لسياق سورة الأعراف، فقد ذكر فيها تعجيل العقوبات لمستحقّيها في الدنيا بخلاف سورة هود، فإن سياقها في الإمهال في إيقاع العقوبات، فقد بدأت سورة الأعراف: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا﴾^٢، فذكر حلول العقوبات وإهلاك الأمم، في حين قال في سورة هود: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ^ط وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾^٣، فذكر التمتع والإمهال، وقال فيها أيضا: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ^٤ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^٤، تأخير العذاب لأجل وهم الإمهال، وقال في سورة الأعراف: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^٥، فقال (أخذناهم بغتة) بعد (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة)، وهو نظير قوله (ثم كيدون، ثم لا تنظرون)، فكلاهما بـ"ثم" وكلاهما إمهال، وقوله: (فأخذناهم بغتة) نظير (فلا تنظرون) فكلاهما بالفاء، وكلاهما عدم إنظار^٦، وإلى جانب هذا، فإن النظر إلى القصص في السورتين يجعل الفرق واضحا بين السياقين، فقصة نوح عليه السلام في سورة الأعراف موجزة وظاهر فيها عدم الإمهال، فقد قال لهم نبيهم: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ

1 الآية 196.

2 الآية 04.

3 الآية 03.

4 الآية 08.

5 الآية 95.

6 فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني - ص 80.

مَنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١﴾ ، وبعدها: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٢﴾ ، فجاء بالفاء دالاً على سرعة إنزال العقوبة وعدم الإنظار(فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ)، أما في سورة هود فالكلام طويل، وهناك مهلة حتى استبطئوا ما وعدهم به، يقول تعالى: ﴿قَالُوا يَنْبُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤﴾ وكذلك قصة عاد في خاتمها في سورة الأعراف: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴿٤﴾ ، وفي سورة هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٦﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٧﴾ ، فانظر كيف عجل العقوبة لهم في سورة الأعراف فجاء بالفاء الدالة على عدم الإمهال، بخلاف ما في سورة هود، وكذلك قصة صالح عليه السلام، فقد قال في نهايتها في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٨﴾ ، وقال في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٩﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿١٠﴾ ، فذكر إنزال العقوبة بالفاء في سورة الأعراف(فأخذتهم الرجفة)، وقال في سورة (وأخذ الذين ظلموا الصيحة) وهكذا، ترى أن سياق سورة الأعراف هو عدم المهلة في الإنظار بخلاف السياق في سورة هود⁸ ، وهناك أمر فني آخر

1 الآية 63.

2 الآية 64.

3 الآيات 32 .33.

4 الآية 72.

5 الآيات 58 .59 .60.

6 الآية 78.

7 الآيات 66 .67.

8 فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني- ص 82- 84.

وهو أنه حيث اجتمعت (ثم) و(الفاء) في سورة الأعراف قَدَم (ثم) على (الفاء)¹، وفي سورة هود بالعكس؛ يقدّم (الفاء) على (ثم)، ومن هذه التماذج اللطيفة حول تباين الاستعمال القرآني بالزيادة في التركيب قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾²، وقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾³، زاد في الآية الأخيرة (أن) بعد (لما) بخلاف الأولى والقصة واحدة، وهذه الزيادة والذكر في موضع دون موضع من عدة وجوه يقتضيها سياق سورة العنكبوت؛ منها أنه أفاض في ذكر القصة في سورة العنكبوت أكثر مما في سورة هود، فذكر من الصفات ما لم يذكره في سورة هود، فلم يزد في سورة هود أن قال: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾⁴، وأن برم لوط عليه السلام وضيقة بهم في سورة العنكبوت كان أشدّ مما هو في سورة هود، وترقبه للخلاص بهم في سورة العنكبوت كان أظهر نحو قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾⁵، بينما قال في سورة هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾⁶، فزاد في سورة العنكبوت (وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك)، ومنها دعاؤه ربّه أن ينصره في سورة العنكبوت: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١١﴾﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ⁷، وليس الأمر كذلك في سورة هود، فإنهم لم يصرّحوا بتكذيبه ولم يدع لنفسه بالنصر، ومنها التصريح بلفظ التنجية

1 ينظر: الآيات: 11 . 95 . 103 . 195 . في سورة الأعراف، وينظر الآيات : 55 . 61 . في سورة هود.

2 الآية 77.

3 الآية 33.

4 الآية 78.

5 الآية 33.

6 الآية 77.

7 الآيات 29 . 30.

ومجيء الفرج في سورة العنكبوت مرتين، مرة مع إبراهيم عليه السلام¹، ومرة مع لوط نفسه عليه السلام²، ولم يرد ذلك في سورة هود، ولذا حسن ذكر (أن) في سورة العنكبوت دون سورة هود مراعاة لليسط في ذكر القصة والإفاضة فيها³، والدلالة على استطالة الوقت وطول الترقب والانتظار، وهو تعبير في غاية الجمال، ومن المواطن التي جاء فيها الذكر تارة والحذف تارة أخرى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ⁴ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾⁴، وقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ⁵ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾⁵ ولهذا الحذف سببه، فقد ذكر سبحانه في عدة مواطن من سورة هود تعجل الذين كفروا بالعذاب كما تردّد الوعد بقرب نزوله نحو قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا مَحْسَبُهُمْ⁶ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾⁶، قال قوم نوح: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾⁷، وقال صالح لقومه: ﴿فَذَرُونَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾⁸، وقال في قوم لوط عليه السلام: ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ⁹ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾⁹، وقال في آية أخرى بعدها: ﴿مُسُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾¹⁰، فترى أنه تردّد ذكر استعجال العذاب من ناحية الوعد بقرب حلوله فكان من المناسب الحذف من فعل الإتيان إشعاراً بقرب حلوله، ومن ناحية

1 ينظر الآية 32 من سورة العنكبوت.

2 ينظر الآية 33 من السورة نفسها.

3 فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني - ص 104 - 106.

4 سورة هود - الآية 105.

5 الآية 53.

6 الآية 08.

7 الآية 32.

8 الآياتان 64، 65.

9 الآية 81.

10 الآية 83.

أخرى أنه ذكر في سورة هود عقاب الأمم السابقة وهلاكهم، ثم ذكر أن يوم القيامة آت، وأنه سيحلّ فيه عقاب الكافرين كما حلّ عقاب الأمم السابقة، وإن هو إلاّ أجل معدود، فحذف الياء من فعل الإتيان للدلالة على سرعة الإتيان، وليس الأمر كذلك في الآيات السابقة، ومن ناحية ثالثة تردّد ذكر الإتيان باشتقاقاته المختلفة في كلّ من سورة الأنعام وسورة الأعراف أربعاً وعشرين مرّة، وفي سورة هود ثلاث عشرة مرّة، فلما كثر الفعل في سورتي الأنعام والأعراف كثر البناء، ولما قلّ تردّده في سورة هود قلّ من البناء¹، ويمكن أن يضاف شيء آخر: وهو أنّه لما منع الكلام في آية سورة هود إلاّ بإذنه حذف الكلام فحذف الياء من "يأتي"، وحذف التاء من فعل التكلّم، ولم يقل "تكلّم" إشعاراً بقلة الكلام في ذلك الوقت، وهذا مما يدعو إلى العجب.

ومن الألفاظ التي ذكرت في موضع دون آخر لفظة "أحاهم" في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَحَاهُمُ شُعَيْبًا﴾²، فوردت تلك اللفظة في هذه السورة، بينما في سورة الشعراء في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾³، لم ترد فيها؟ وذلك لأنّ شعيباً عليه السلام أرسل إلى قومين؛ هما قوم مدين، وهو منهم، وقوم الأيكة وهو ليس منهم، ونحو هذا في خطاب عيسى عليه السلام لبني إسرائيل، فلا تجد (يا قوم) بخلاف خطاب موسى عليه السلام لقومه، ومنه قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾⁴، بزيادة (سلطان مبين)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾⁵، وقوله تعالى في موضع ثالث: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾⁶، لنرى أنّه في الآيتين الأولى والثانية زيدت (سلطان مبين)، وأنها في الأخيرة لم تُزد، وهذا راجع لأسباب؛ فالأمارات التي يكتفي بها في صدق الرسول الكريم والسلطان المبين هي الحجج القاهرة التي تقهر القوم كأنواع العذاب، فلما

1 فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني - ص 88.

2 سورة هود - الآية 84.

3 الآية 176.

4 الآية 96.

5 سورة غافر - الآيتان 23. 24.

6 سورة الزخرف - الآية 46.

كان القصد في الآيتين المتقدمتين ذكر جملة أمرهم إلى منتهى حالهم من هلاك الأبد، انطوت تلك الجملة على جميع ما احتج به عليها إلى أن زال التكليف عنهم، وأخبر عن مستقرهم من العقاب الدائم عليهم. والكلام في الآية الأولى ينساق إلى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِينِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾¹، والكلام في الآية الثانية ينساق إلى قوله تعالى: ﴿فَوَقَدْنَا لَهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِغَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾²، فذكر في الآيتين جميع ما احتج به عليهم من الآيات التي سخرها بها عند رؤيتها³، أما الآية الثالثة التي في سورة الزخرف فكان الكلام بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا نُزِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾⁴، فاقصر ما عوملوا به حالا بعد حال إلى أن هلكوا في الدنيا حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين﴾⁵ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين⁶، ومما وقع في حيز الزيادة في المعنى تبعاً في ذلك للصيغة، قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَنْوِيْلُنِي ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾⁷، فجاءت الصيغة (عجاب) بدل (عجيب) للدلالة على المبالغة⁸، فالعدول من صيغة فعيل إلى فعال لزيادة المبالغة، وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم يستعمل كذلك صيغة (عجاب) نحو قوله تعالى في سورة [ص]: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾⁹، وصيغة (عجيب) نحو قوله تعالى في سورة [ق]: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾⁹، وذلك أنه في سورة [ق] عجبوا أن يجيء منهم

1 الآية 97.

2 الآية 45.

3 الخطيب الإسكافي: درة التبريل و غرة التأويل - ص 166.

4 الآية 48.

5 الآيتان 55 .56.

6 سورة هود - الآية 72.

7 فاضل صالح السامرائي: الجملة العربية والمعنى - ص 239.

8 الآية 05.

9 الآية 02.

نذير، أما في سورة هود فقد كان العجب أكبر لأنه خلاف المعتاد أن تلد امرأة عجوز وعقيم، فإذا اجتمع إلى كل هذا أن بعلمها شيخ كبير كان أغرق في البعد، فأكد بزيادة إن واللام، أما في سورة [ص] فالعجب أكبر وأكبر، إذ كيف يؤمنوا بوحداية الله ونفي الشرك، وقد استسهلوا أن يحملوا السيف على التطق بهذه الكلمة، فأكد بزيادة إن واللام¹، وعدل من صيغة (عجيب) إلى (عجاب) لأن (فُعالا) أبلغ من (فَعِيل). ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ إذ استعمل الحرف (ثم) الذي يفيد التراخي وهذه الزيادة في التعبير فيها دلالة على بعد النصرة²، وكل هذه الأمثلة عن الذكر والزيادة في البناء اللغوي أو التركيب كانت ذات وظيفة أسلوبية بلاغية، وإذا كان الحذف في سياقه المطلوب بليغا فإن الذكر كذلك في سياقه المطلوب بليغا.

1 فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني - ص 38.

2 ابن حزي، أبو القاسم (741هـ): التسهيل لعلوم التنزيل - طبعه وصححه وخرّج آياته: محمد سالم هاشم - بيروت - دار

الكتب العلمية - ط 01 - 1415هـ / 1995م - ج 01 - ص 405.

13- المخالفة في طريقة الجواب والإخبار:

حين نتمعن النظر في بعض الأساليب القرآنية نلاحظ بعض المغايرة في نسق الجواب والإخبار في التعبير القرآني على غير المعهود من كلام العرب، ولهذا الأمر أسبابه وعمله، تقتضيها المقامات التي ترد فيها هذه المغايرة في طريقة الإخبار، ومن هذه النماذج ما جاء في هذه السورة في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْفُخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾¹، وواضح للعيان أن نوحا عليه السلام لم يصرح بالسؤال، وإنما جاءت الآية بلفظ التداء، إلا أن عدولا حدث في طريقة الإخبار عما كان وجاءت الآية بـ "فلا تسألن"، فإن قيل لِمَ أُسْمِيَ نداءه سؤالاً، ولا سؤال فيه؟ قيل: لأنه تضمن السؤال² وإن لم يصرح به، وهذا من خصائص تعبير القرآن الكريم، ومن عجيب المغايرة في نسق طريقة الجواب والإخبار عن قصص الأقسام الغابرة في القرآن الكريم، ومراعاة المقتضى والمقام ما جاء في قوله تعالى عن قصة هود عليه السلام من سورة "هود": ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾³، وقوله تعالى عن قصة شعيب عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئْرِهِمْ جَثْمِينَ﴾⁴، وقوله تعالى عن قصة صالح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾⁵، وقوله تعالى عن قصة لوط عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ﴾⁶، فعطفت (لما) على ما قبلها بواو النسق، في قصتي هود وشعيب عليهما السلام، وخالفت قصة صالح عليه السلام وقصة لوط عليه السلام، في الحرف المعطوف به في

1 الآية 46.

2 ابن جزري: التسهيل لعلوم التنزيل - ج 01 - ص 398.

3 الآية 58.

4 الآية 94.

5 الآية 66.

6 الآية 82.

الجملة المصدرية بحرف الوجوب: "لَمَّا" وفاء التعقيب، وذلك أن الآيتين في قصتي (صالح ولوط) عليهما السلام ورد فيهما ما يقتضي معناه أن يربط بالفاء المقتضية التعقيب فقصة صالح عليه السلام تقدمها قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدُوٌّ غَيْرٌ مَّكَذُوبٍ﴾¹، فكان قد قيل: فلما انقضت. فالموضع للفاء المقصود التعقيب، ومثله في قصة لوط عليه السلام: ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْنَا بِكَ بِقَطْعِ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾²، والمعنى لاشك يستدعي تقدير: فلما أصبح، تحقيقاً لصديق الوعيد وإعقاباً لا يتحصل بغير الفاء³، أما قصة هود وقصة شعيب فلم يرد ما يقتضي تعقيباً، بل ما قبلها يقتضي أن ينسق ما بعده بواو العطف، وهذا وجه من وجوه المعجزة القرآنية في استعمال بعض الحروف والكلمات، وتضامها مع بعض، في مواطن دون مواطن، لحاجة يقتضيها السياق، ويستدعيها المقام، كما مر معنا من تضام حرف الفاء لـ (لَمَّا) في سرد قصص تلك الأقسام بغرض التعقيب وحصول الأمر بسرعة، بخلاف إذا كانت القصة لا تستدعي السرعة والتعجيل، فتبدأ الجملة دون مضامة أي حرف من الحروف.

1 الآية 65.

2 الآية 81.

3 ابن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل الفاطم بدوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المشابهة من أي الترتيل - ج 02 - ص 656. 658.

14- التأنيث والتذكير:

لعلّ الشاهد لهذا المبحث من سورة هود هو قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِّمِينَ﴾¹ عن قصة صالح عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِّمِينَ﴾²، فوردت كلمة (أخذ) بصيغة التذكير في الآية الأولى، ووردت بصيغة التأنيث في الآية الأخرى، ولم يكن الأمر هكذا إلا ووراءه سرّ عجيب، فمن ناحية العربية يجوز أن تتصل بالفعل تاء التأنيث نحو "أخذت"، وهو الأصل، أو بدونها نحو "أخذ" إذا فصل بين الفعل والفاعل من باب (المؤث المجازي) بفاصل، وهو: "الذين ظلموا" في الآيتين، إلا أن السبب في تعرية الفعل من تاء التأنيث في الآية الأولى هو أن الألفاظ التي سبقت الفعل كانت أسماء مذكّرة [إن ربك، هو، القوي، العزيز] والجوار والتسق يقتضيان ذلك³، أما في الآية الأخرى فإن الاسم الظاهر الذي سبق الفعل كان مؤنثا (رحمة)، فكان الجوار والتسق يقتضيان هذا أيضا، وملحظ آخر هو أنه سبحانه أخبر عن العذاب الذي أهلك به قوم شعيب بثلاثة ألفاظ منها الرجفة في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْكَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِن اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ﴾⁴ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جنّمين ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾⁴ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا

سورة هود، ومنها يوم الظلّة في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾

1 الآية 67.

2 الآية 94.

3 أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن والسنة النبوية- ص 699.

4 الآيات 90- 92

إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾، فهذه الثلاثة جُمعت لإهلاكهم واحدة بعد أخرى، لأنَّ الرَّجفة بدأت بهم فانزعجوا لها عن الكنَّ عن الريح، فلَمَّا أصبحوا نال منهم حرَّ الشمس، وظهرت لهم ظلَّة تبادروا إليها، وهي سحابة سكنوا إلى رَوْح تحت ظلِّها فجاءتهم الصَّيحة فمهدوا لها²، فلَمَّا اجتمعت ثلاثة أشياء مؤنثة الألفاظ في العبارة عن العذاب غلب التأنيث في هذا المكان على المكان الذي لم تتوال فيه هذه المؤنثات.

15- الخطاب بالاسم والفعل:

لقد تحدّث عبد القاهر الجرجاني عن الخير وأضره وأنواعه، ووقف عند مطوّلا، وأضاف نوعا آخر من الخير هو ما يُعرف عند التحوين "الحال"، ويقصد به أنه خير من حيث المعنى، وبعد أن أتى على جملة من الفروق في الخير أردف كلامه على الفرق بين كون الإثبات إذا كان بالاسم أو بالفعل، إذ هو فرق لطيف تمسّ الحاجة إليه في علم البلاغة، وبيانه أن «موضوع الاسم على أن يُثبت به المعنى للشّيء من غير أن يقتضي تجدُّده شيئا بعد شيء، وأمّا الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدُّد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء»³، مستشهدا بعدة آيات من الذكر الحكيم، وبعض الأبيات من الشعر، وما يقال عن الإخبار بالاسم والفعل، يقال أيضا عن الإخبار بالجملة الاسمية والجملة الفعلية، وقد نبّه الفخر الرّازي إلى الفرق بين الجملة الاسمية والفعلية في المعنى فقال: «الاسم له دلالة على الحقيقة دون زمانها... وأمّا الفعل فله دلالة على الحقيقة وزمانها، وكلّ ما كان زمانيا فهو متغيّر، والتغيّر يشعر بالتجدّد، فإذا الإخبار بالفعل يفيد وراء أصل الثبوت كون الثابت في التجدّد، والاسم لا يقتضي ذلك، وسبب ذلك أن الاسم يكون في صحّة الإخبار أعم»⁴، ومن الذين تحدّثوا عنه أيضا ابن الأثير: «وإنما يعدل عن أحد الخطابين إلى الآخر لضرب من التأكيد والمبالغة»⁵، ومنهم العلوي حين ذكر معنيين ينقدحان في توجيه الخطاب بالجملة الاسمية والفعلية؛ «الأول من حيث الاختصاص، لأنّ الفاعل قد فعل ذلك دون غيره نحو: أنت

1 الآية 189.

2 الخطيب الإسكافي: درّة التّزليل وغرّة التأويل - ص 161.

3 دلائل الإعجاز - ص 138.

4 نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز - ص 73.

5 المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - ج 02 - ص 234.

فعلت، أنا فعلت، والآخر أن لا يكون المقصود الاختصاص، وإنما المقصود التحقق، وتمكين ذلك في نفس السامع بحيث لا يخالجه في ذلك ريب، ولا يعتريه شك.. فتصدير الجملة الاسمية بدل الفعلية فيه إرادة للتأكيد والإثبات»¹، ففي هذا المبحث نكت تخفى على من ليس له قدم راسخة في علم الفصاحة والبلاغة، ألزمتنا أن نتناول إلى معرفة القليل منها في ضوء سورة هود.

يقول تعالى: ﴿قَالَ لِمَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾²، والمعنى: هل تسلمون بعد تحققكم أن هذا القرآن من عند الله، ولم يقل: "فهل تسلمون"، وإنما قال: "فهل أنتم مسلمون" وجيء بالجملة الاسمية الدالة على دوام الفعل وثباته³، لأن حالة عدم الاستجابة تكسب اليقين بصحة الإسلام، فتقتضي تمكنه من النفوس وذلك التمكن تدل عليه الجملة الاسمية، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْقُومِ آرَاءُيُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزَلْنَاهُمْ مَكْمُومًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾⁴، إنه لما كانت البينة من الرحمة وحد الضمير فقال: "فعُمِّيَتْ" أي: فتسبب عن تخصيص بها أن أظلمت ووقع ظلامها وتسميته لها "بينة" إشارة إلى أنها لم تُعم ولا خفيت عليهم لشدة نورها، وإنما هم معاندون، أما التعبير عن ذلك بالجملة الاسمية واسم الفاعل «فإشارة إلى أن أفعالهم أفعال من كراهته لها ثابتة مستحكمة»⁵، ومن عجائب هذا الموضوع قوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾⁶، فلم يقل سبحانه: "سأغرقهم" أو: "إنهم يُغرقون" ولكنه أخرج الأمر الثابت⁶، أي كأن الأمر استقر وانتهى، ومما جاء في هذا الباب أيضا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ

1 الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز - ج2 - ص17. وينظر: كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن

وعلم البيان - ص 202. وينظر: البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي - ج4 - ص 66.

2 سورة هود - الآية 14.

3 الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير - ج11 - ص 22.

4 سورة هود - الآية 28.

5 برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ج16 - ص 272.

6 فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني - ص 22.

بِعَجَلٍ حَنِيدٍ ﴿١﴾، وقد مرّت معنا هذه الآية الكريمة في أكثر من موضع، وفي كل مرة تعرب عن أسرار ترغّب المتلقّي في هذا الكتاب العزيز، فسلام إبراهيم عليه السّلام أبلغ من سلام الملائكة في الآية، فإنه عليه السّلام مستغن عن تقدير الفعل المشعر بحدوثه بعد فاعله على ارتفاعه بالابتداء وما هو ثابت مطلقاً أبلغ مما عرض له الثبوت²، وهذا أحد مقامات الاستمرار المتصل بالاسم³ ومنه التعبير باسم الفاعل بدل الفعل⁴، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن كَانَ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿٥﴾، ليدلّ على ثبوت الجمع لذلك اليوم لأن لفظ مجموع أبلغ من لفظ (يجمع)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾⁶، لقد جيء بالفعل (ليهلك) إشارة إلى التكرّر بحسب ما يكون منهم، فلو كان في كل أمة وقرن بعد قرن من ينهى عن الفساد والظلم لما أخذوا بذوي الظلم منهم، فأشار بالفعل إلى التكرّر ولم يكن الاسم ليعطي ذلك⁷، في حين في آية أخرى من سورة القصص: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلِهَا ظَالِمُونَ﴾⁸ لما أعلم سبحانه تتابع التذكّار وتعاقب الإنذار قال (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ) وناسب هذا ذكر اسم الفاعل لأنه قصد ذكر الاتّصاف بهذا ولم يقصد التكرّر ولم يكن حاصله والآية في سورة القصص في سياق مشهد من مشاهد القيامة عمّا كان في الدّنيا، فذكر صفة الله وهو أنّه لم يهلك قوما بظلم وهم غافلون لم يُكَلِّفُوا، فالذين لم يندروا غافلون - فهو في سياق أمر

1 سورة هود - الآية 69.

2 جمال الدّين ابن الزمّلكاني: المجيد في إعجاز القرآن المجيد - دراسة وتحقيق: شعبان صلاح - القاهرة - دار غريب - ط02 - 2006م - ص 80.

3 فخر الدّين الرّازي: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز - ص 138. وعبد المتعال الصّعيدي: البلاغة العالية، علم المعاني - ص 58.

4 ابن جزّي: التسهيل لعلوم التنزيل - ج01 - ص 405.

5 سورة هود - الآية 103.

6 سورة هود - الآية 117.

7 برهان الدّين البقاعي: نظم الدرر في ناسب الآيات والسّور - ج02 - ص 672.

8 الآية 59.

ثبت واستقرّ وانتهى فجاء بالصيغة الاسمية، في حين إنّ الكلام في سورة هود على هذه الحياة وشؤونها، وذكر سنة الله في الأمم، فهو في سياق الدنيا، وسنن البقاء، فجاء بالفعلية لأنّ الأمم تتجدّد ويأتي غيرها، ثمّ فلننظر كيف أنّه جاء في الأولى بـ (لم) الدالة على المعنى لأنّ الأمر حصل وتمّ¹، وجاء ههنا بلام الجحود التي تدخل على المضارع للدلالة على الاستمرار.

16- الأفراد والجمع:

إنّ استعمال القرآن الكريم للمفرد والجمع يستدعي كثيرا من التأمل وإمعان النظر، فقد تراه يستعمل المفرد في موطن ما؛ ثمّ تجده في موطن آخر يشبهه يستعمل الجمع أو التثنية من غير أن تجد فيه أمّا أو عوجا، بل إنّ في ذلك كلّه يراعي الدقة المتناهية في استعمال الصيغ والتراكيب جمعا وإفرادا حسب ما يتطلبه المقام ويقتضيه الحال، وبودنا في هذا المبحث أيضا الاستشهاد بآية أو آيتين من سورة هود علّها تكشف عن سرّ من أسرار القرآن الكريم في أفراد الكلمات والجمل عند تضامها تارة، وفي الجمع تارة أخرى، ومن هذه الاستعمالات ما يكون عند الجمع للتعظيم نحو قول الحقّ تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَاهُ أَفَرَأَيْنَاهُ قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَبَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٤﴾ فَإِلَهِمَّ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢٥﴾﴾²، بمعنى: في مثله في الفصاحة والبلاغة، وإلاّ فما يأتون به مفترى والقرآن ليس بمفترى، أو بمعنى: مفتريات كما أنّ القرآن في زعمكم مفترى، والملاحظ في الآية هنا أنّه في الأولى أفرد في قوله: "قل" ثمّ جمع في قوله: "فإن لم يستجيبوا لكم" ومردّ هذا أنّ الخطاب للنبيّ عليه الصلاة والسلام إلاّ أنّه جمع في: "لكم" تعظيما وتفخيما له³، ومن الجمع الذي ورد في السورة السورة قوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَيْهِمْ مَّغْرُقُونَ﴾⁴ حيث نجد إثارة صيغة الجمع في خطابه تعالى لنوح عليه السلام في مثل هذا المقام؛ مقام

1 فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني- ص 24.

2 سورة هود - الآيتان 13، 14.

3 ينظر: فتح الرحمن بكشف ما يلبس في القرآن: أبو زكريا الأنصاري- ص 261.

4 سورة هود - الآية 37.

التثبيت¹، ومنه ما ورد أيضا للتعظيم في نحو قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ آدَاءُ جَحْدُوا بِأَيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾² قوله: "وعصوا رسله" أي: هودا وحده، وإنما أتى بلفظ الجمع إما للتعظيم، أو لأن من كذب برسول فقد كذب كل الرسل³، ومن لطيف ما ورد في هذا الشأن جمعا كذلك قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾⁴، لأنه لما كان الذي على بينة عظيما، ولم يكن يراد به واحدا بعينه؛ استأنف البيان لعلو مقامه بأداة الجمع بشارة لهذا النبي الكريم عليه السلام بكثرة أمته، فقال: "أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ"⁵، ومن الأفراد في السورة قول الحق سبحانه: ﴿قَالَ يَنْقُومِ أَرءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَلْأَنْزِمُكُمْ مَّوَاهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاِرِهُونَ﴾⁶، فلما كانت البينة من الرحمة، وحّد الضمير فقال: "فعمّيت" أي: فتسبب عن تخصيصي بها أن أظلمت ووقع ظلامها وتسميته لها "بينة" إشارة إلى أنها لم تُعم ولا خفيت عليهم لشدة نورها، وإنما هم معاندون⁷ ومن المغايرة بالأفراد والجمع للقصص القرآني قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَآخِذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِيْمِينَ﴾⁸، وفي سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيْمِينَ﴾⁹ وهما آيتان في قصة صالح عليه السلام، وفي قصة شعيب عليه السلام يقول تعالى في سورة هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجِيْنَا شُعَيْبًا

1 عبد الحميد هنداي: الإعجاز الصّري في القرآن الكريم- ص 114.

2 سورة هود - الآية 59.

3 ينظر: لباب التأويل في معاني التنزيل علاء الدين البغدادى الخازن - مصر - مطبعة التقدّم العلميّة - دط - دت - ج 03 - ص 195.

4 سورة هود - الآية 17.

5 شهاب الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ج 12 - ص 253.

6 سورة هود - الآية 28.

7 شهاب الدين البقاعي: السابق - ج 12 - ص 272.

8 الآية 67.

9 الآية 78.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿١٥﴾
 كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتِ ثَمُودُ ﴿١٦﴾¹، ويقول تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَقَالَ
 وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لِيَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ
 فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٢٥﴾² حيث نرى توحيد الدار في موضع وجمعها في موضع؛
 والجواب كما تفضل به الخطيب الإسكافي أن: «الله تعالى وحّد في كلّ مكان ذكر في
 ابتدائه: "إلى"، "إلى ثمود، وإلى مدين" ولم يذكر إخراج النبيّ ومن آمن معه من بينهم، فجعلهم
 بني أب واحد، وجعلهم كذلك دار أهل واحدة ورجا أيضا أن يصيروا بالإيمان فرقة واحدة، وكلّ
 موضع أخبر عن تفرقه بينهم وإخراج النبيّ ومن آمن منهم أخبر عنهم الإخبار الدالّ على تفرّق
 شملهم وتشّتت أمرهم، وذهاب المعنى الذي كان يجمعهم لأب واحد ودار واحدة، فقال في سورة
 هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا ﴿٣﴾، وقال فيها أيضا: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴿٤﴾﴾³، فإن قال قائل: فقد
 فقد جاء في قصّة شعيب عليه السّلام بتوحيد الدار، وقد خرج شعيب من بين أظهرهم ووقع
 الحكم بتفرّق شملهم، فكان ما ذهب إليه يقتضي جمع الدار فيقال: "ديارهم"، بيد أن الإسكافي لم
 يدع الأمر محلّ إشكال؛ بل سارع في الإجابة قائلا: «إنّه لم يتقدّم في هذا الموضع ذكر إخرجه من
 بينهم مع الذين آمنوا معه كما ذكر في الموضعين في قصّته في سورة هود وفي قصّة شعيب فيها، ألا
 ترى أنّه قال في قصّته في سورة الأعراف وسورة هود قبل أن أخبره أنّه نجّاه ومن آمن معه منهم:
 "وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا" مرتين فوحّد الدار فيهما، وفي الموضع الذي ذكره بقصّته مع المؤمنين منهم جمع
 الدار فيهما، وكذلك جاء في قصّة شعيب في موضعين، أحدهما جمع فيه، والآخر وحّد، والجمع
 حيث ذكر إخرجه منهم مع المؤمنين معه»⁴، وإنّ من أطف ما ذكره العلماء، في هذا المجال عند

1 الآيتان 94، 95.

2 الآيتان 90، 91.

3 الآية 66.

4 الآية 94.

5 درة التزليل وغرة التأويل - ص 115.

6 المصدر نفسه .

عند تفسيرهم سورة طه¹ هو أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبي عليه الصلاة والسلام وإن كانت عامة في المعنى، منها قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾²، وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ﴾³، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾⁴ وفي المنهيات جمعت للأمة منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾⁵، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾⁶.

ولعل في هذا القدر من الآيات إشارة إلى الدور الذي يؤديه هذا الملحظ البياني من تضام الكلم واتلافها بالجمع والإفراد، حتى يخرج كل حرف قارًا في مكانه، مطمئنًا في موضعه إلى ما يضامه من حروف وكلمات.

17- التضام الصوتي:

لا تثيرب علينا في هذا الاصطلاح، لأن ما نقصده لا يعدو أن يتجاوز حدود الاستعمال القرآني للأصوات مجتمعة، ورؤية ما يمكن أن يؤديه تضامها على مستوى المفردات أو الجمل، لأن الجملة تجدها دائما في القرآن الكريم: «مؤلفة من كلمات وحروف وأصوات يستريح لتألفها السمع والصوت والتطق، ويكون من تضامها نسق جميل ينطوي على إيقاع رائع ما كان ليتم لو نقصت من الجملة كلمة أو حرف أو اختلف ترتيب»⁷، فمن المعلوم أن للصوت حضورا عجبيا في القرآن الكريم، كما أن له دلالات وخصوصيات تؤدي بلاغة عالية، كثيرا ما أشار إليها علماء

1 ينظر: صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني - ج12 - ص 119.

2 الآية 112.

3 الآية 114.

4 الآية 115.

5 الآية 112.

6 الآية 113.

7 محمد السيد شيخون: الإعجاز في نظم القرآن - القاهرة - مكتبة الكليات الأزهرية - ط01 - 1398هـ / 1978م -

ص 86. وينظر: من روائع القرآن: محمد سعيد رمضان البوطي - ص 144.

اللغة في موروثنا العربي، وليس بوسع البحث أن يؤرّخ لهذه القضية بقدر ما يمهّد لها ثم ينتقل إلى استقراء بعض الآيات القرآنية من سورة هود محاولاً أن يعرضها في ضوء هذا البحث الذي يتناول الدلالة الصوتية للكلمات والجمل داخل سياقها الخاص.

يقول تعالى: ﴿قَالَ سَآوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَّعِصُنِي مِنَ الْمَاءِ ۗ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ ۗ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ۝﴾¹، والأمر الملاحظ هو ذلك المدّ الذي في هذه الآية الكريمة، وإذا كان المدّ في اللغة يحمل معنى الزيادة، وأنّ كلّ زيادة في المبنى هي زيادة في المعنى فإنّ المدّ الزائد عند التلاوة أيضاً له دلالة حيث يفخّم هذه الكلمة ويزيد من معناها، مثلما يستدعي أخذ اعتبار جلاله ما يقع عليه المدّ، وهذا ما نجده محققاً في الآية؛ إذ المدّ هنا يلقي بظلاله على مدى البعد المكاني، وعلوّ الجبل الذي ينشده المتكلم ليفرّ وينجو به من الطوفان فتأمل كيف شارك المدّ في التعبير عمّا في نفس ابن نوح²، ولئن كان هذا المثال عن المدّ المنفصل فإنّ مثال المدّ اللازم الكلّي المتقلّ في هذه السورة فنحو قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۗ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝﴾³، فالمدّ هنا يدلّ على الشمولية والكلية المطلقة، حيث يشمل الخلائق جميعها، كما يضمّ أصناف الأجناس ممّا يدبّ كلّها سواء أدركناه أو لم ندركه، أو علمنا بطبيعة رزقه أو لم نعلم⁴، ومن الظواهر الصوتية التي تعزّز من قيمة هذا الموضوع قضية الإمالة، إذ تعكس تناسقاً دلالياً بين البنية والدلالة، وهو ما تعرب عنه الآية في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرْسِنَهَا ۗ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾⁵ فالإمالة في "مجرِبها" ترسم الصّورة المتأرجحة للسّفينة وهي تمخر عباب البحر، والإمالة خاصيّة صوتية تنحو بالفتحة نحو الكسرة، وبالألف نحو الياء، فتغدو الفتحة في وضع نطقيّ بين الفتحة

1 سورة هود - الآية 43.

2 عبد الله الجيومى: التعبير القرآني والدلالة النفسية - ص 122. أخذنا عن: خالد قاسم بني دومي: دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم - ص 116.

3 الآية 06.

4 محمّد عليّ الصّغير: الصّوت اللّغويّ في القرآن - ص 171. أخذنا عن: خالد قاسم بني دومي: السابق - ص 120.

5 الآية 41.

والكسرة والألف في وضع نطقيّ بين الألف والياء، فهي ليست ألفا خالصة ولا ياء محضة، بل هي بين بين و"مجريها" كذلك ليست بالألف فتعتدل السفينة، وليست بالياء فتميل السفينة ميلا شديدا أما قوله: "مرساها" فالبنية الصوتية لهذه اللفظة ترسم صورة السفينة حال استقرارها على سطح مستو¹، ومن هذه الظواهر الصوتية أيضا الإدغام الذي يعني الإدخال في معناه اللغوي، والذي يعني إدخال حرف ساكن في حرف متحرك في معناه الاصطلاحي، ومن أمثله في سورة هود قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَنْتُوْحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ² وَأُمَّمٌ سَنَمْتَعُنَّهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾² والإدغام في هذه الآية يشعر بالتمازج الدلالي بين السلام وكونه من الله عز وجل، لأن السلام من أسمائه الحسنی، ولأنه تعالى هو الذي يهبه³، بيد أن أمرا آخر ورد في الآية يُعدّ من ألطف ما استدللّ به القدامى في هذا الشأن⁴؛ إنه يخصّ تتابع الميمات، حيث تدرك عند إمعان النظر «اجتماع سبع ميمات في أربع كلمات: "أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ⁵ وَأُمَّمٌ" وتزيد هذه الميمات فتصل تسعا مع التطق والقراءة التجويدية، حيث تضعف الميم الثانية في "مَّنْ" وتقلب التون ميمًا، وتدغم في الميم بعدها، حتّى ينشأ من هذا أن الكلمات الأربع تكاد تكون كلّها ميمات، والعبرة في كيفية التطق بهذه الميمات، وما يحدثه من ضمّ شديد في الصوت يصحبه ضمّ شديد متوال للشتين عند أداء هذه الميمات الملتصقة، ومن البدهي أن الآية بأدائها الصوتي تعكس ما كان عليه أصحاب نوح عليه السلام، والذين معه من اجتماع وانضمام حول مبدأ واحد وعقيدة واحدة، والاجتماع حول مبدأ والالتفات من حوله يولّد في نفوس المجتمعين إحساس الانتماء الشديد والضمّ اللصيق، وخصوصا في مثل تلك الظروف التي كان عليها أصحاب نوح - عليه السلام - في السفينة، وبهذه الأصوات والحروف نقلنا القرآن هذا المعنى المقرون بتلك الأحاسيس، وكان يمكن أن يقال: اهبط بسلام منّا وبركات عليك وعلى من أتبعك، ويكون هذا مؤدّيا للمعنى الأوّل مباشرة، ولكن ليس هذا هو مجرد ما يريده التعبير القرآني؛ إنه يريد خلق

1 خالد قاسم بني دومي: دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم - ص 116.

2 سورة هود - الآية 48..

3 خالد قاسم بني دومي: السابق - ص 133.

4 ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ابن الأثير - ج 07 - ص 177.

التجاوب النفسي مع الصّحبة المباركة، وأن يخلق الإحساس برضا الله عنهم، وأن يولد في نفس كلّ مستمع الإحساس الشّدِيد بالضمّ والالتصاق بمجرد أن يلتقط سمعه هذه الميمات المتضامة المتصقة¹، هذا هو الأسلوب الإيقاعي الفريد الذي يختصّ به القرآن الكريم، والذي ينبعث منه نغم جميل ساحر يبهر العقول و يذهب بالأسماع، ولا يكون مغالياً من زعم أن أسباب انسجام التأليف تكاد تنحصر في التّسيج الصّوتي للمفردات التي تتشكّل منها الجملة²، حيث تتكوّن الكلمة في التشكيل المنسجم من حروف ذات صفات معيّنة تتناغم مع المعنى والجوّ الذي يدور في إطاره النصّ، وهذه الميزة وإن تحققت في كلام الأدباء والشّعراء فإنّها عزيزة المنال قلّما نجدّها عند شاعر أو كاتب؛ أمّا القرآن فتحقق فيه بشكل مطّرد، حيث يتّضح فيه تخيّر التّسيج الصّوتي للكلمات بما يقرب الشّعور بالمعنى، ويعمّق الإحساس بالمضمون.

1 إبراهيم محمّد شادي: البلاغة الصّوتية في القرآن الكريم - مصر - شركة الرّسالة - ط01 - 1409هـ / 1982م - ص 52.

2 سعيد عطية علي مطاوع: الإعجاز القصصي في القرآن الكريم - ص 267.

18- الالتفات:

يتبوأ هذا المبحث في البلاغة العربية مكانا مرموقا، أهله أن يكون أحد المواضيع الرئيسة التي تتعلّق بدرس البلاغة والإعجاز في القرآن الكريم، ولقد كانت للعلماء وفتات كثيرة في هذا الشأن، وعلى الرغم من أنّ الالتفات من أساليب العرب القديمة، التي جاءت على لسان العلماء في فترة مبكرة فإنّ واحدا مثل الفراء لم يسمّه¹، وإنّما اكتفى بالتّنويه إليه، وتمتدّت تلك الفترة ليدنو المصطلح من المفهوم والاستعمال على نحو ما نجده عند أبي عبيدة الذي ذكر لنا أن: «العرب قد تخاطب فتخبر عن الغائب والمعنى للشاهد»².

ولعلّ من أوائل تلك الوقفات مع هذا المصطلح؛ مصطلح الالتفات، ما ورد على لسان الأصمعي حين سأل إسحاق بن إبراهيم الموصلي: أتعرف التفات جرير؟ فيقول له: وما هو؟ فينشده:

أتنسى إذ تودّعنا سليمي بعود بشامة سقي البشام

ليقول الأصمعي إذ ذاك: «ألا تراه مقبلا على شعر، ثمّ التفت إلى البشام فدعا له»³، وقد أنشد له عبد الله بن المعتز:

متى كان الخيام بذى طلوح سقيت الغبث آيتها الخيام

وقد أدخله ابن قتيبة في باب "مخالفة ظاهر اللفظ معناه"، متناولا إياه في آيات من القرآن الكريم⁴، وطرقه المبرّد من باب أن: «العرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب»⁵ وذكر أنّ الالتفات أوّل محاسن الكلام التي ذكرها ابن المعتز بعد

1 ينظر: معاني القرآن- ج01- 60.

2 مجاز القرآن- ج02- ص139. والبيت في ديوانه- بيروت- دار صادر- ط02- 2005م- ص417.

3 ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ابن رشيق-حقّقه وفصله وعلّق حواشيه: محمّد يحيى الدّين عبد الحميد- القاهرة- دار الطلائع- ط01- 2006م- ج02- ص40.

4 تأويل مشكل القرآن- 281.

5 الكامل في اللّغة والأدب - ج02- 572.

فنون البديع¹، ولالاتفات تسميات كثيرة في موروثنا البلاغي والتقدي، فقد سَمَّاه قوم الاعتراض وسمَّاه قوم الانصراف²، وسمَّاه آخرون الاستدراك، وهذا الأمر لا يقتصر على التراث العربي، بل يتعدى إلى الدراسات الحديثة، حيث يحظى هذا المبحث باهتمام كبير، أين يصطلح عليه بمصطلحات عديدة منها: العدول، والانحراف³، والانزياح⁴، والاختلال، والانتهاك، والتجاوز والمخالفة، واللحن، خرق السنن، والشناعة، والإطاحة، والتحريف، والذي استقر عليه بحثنا هو مصطلح الاتفات باعتباره نابعا من التراث العربي، ولأنه أقرب تلك المصطلحات إلى الدراسات القرآنية على خلاف مصطلح الانحراف أو الانتهاك مثلا، والاتفات في أبسط صور تعريفاته هو: «نقل الكلام من حالة إلى أخرى»⁵، ومن المشهور عن العرب أن نقل الكلام هذا يكون في إحدى الصور الست التالية: من التكلم إلى الخطاب، ومن التكلم إلى الغيبة، ومن الخطاب إلى التكلم، ومن الغيبة إلى التكلم، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى الخطاب، وحتى لا ينسحب بساط الموضوع في قضية النشأة أو التطور والتعريف، نشرع بحول الله بالوقوف عند آية أو آيتين من سورة هود ونحاول أن نتعرف على جزء يسير من موضوع الاتفات في علاقته بموضوع بحثنا.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝﴾⁶، فالبلاغيون قد التفتوا إلى العدول في الصيغ، واعتبروه أساسا من أسس التوظيف البلاغي، فيما أسموه مخالفة مقتضى الظاهر⁷، ومنه هذه الآية، إذ أوثر اسم المفعول على

1 المصدر السابق - ج 02 - ص 910.

2 ينظر: معجم المصطلحات التقدي: أحمد مطلوب - ص 102. ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها - ص 173.

3 لقد عقد عبد الحكيم راضي فصلا كاملا تحدت فيه عن: "المثالي والمنحرف"، وأورد فيه كثيرا من التعريفات والمصطلحات في كتابه: نظرية اللغة في التقدي الأدبي - مصر - مكتبة الخانجي - د ط - 1980م - ص 191.

4 ينظر: الأسلوبية والسلوب: عبد السلام المسدي - طبعة منقحة مشفوعة ببليوغرافيا الدراسات الأسلوبية والنبوية - الدار العربية للكتاب - ط 03 - 1962م - ص 162، 163. وينظر: مقال: المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة: تمام حسان - ص 28. وينظر: الإنزياح في التراث التقدي والبلاغي: أحمد محمد ويس - ص - 75.

5 ينظر: كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان: ابن قيم الجوزية - ص 111. وينظر هذه المفاهيم في: كتاب مفتاح العلوم: السكاكي - ص 96. و المثل السائر: ابن الأثير - ج 02 - ص 183.

6 سورة هود - الآية 103.

7 ينظر: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم: عبد الحميد هنداي - ص 159.

فعله لما من اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه لا بدّ من أن يكون ميعادا مضروبا لجميع الناس له، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة... والغرض كما يقول الزمخشري من جعل اليوم مشهودا في نفسه دون أن يكون مشهودا فيه هو وصف ذلك اليوم بالهول والعظم لتمييزه من بين الأيام¹، وعليه فإنّ في ورود هذا التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيها على تحقّق وقوعه، وأنّ ما للوقوع كالواقع، ومن الالتفات الذي وقع في خصوص صيغ التعبير بين الماضي والمضارع قوله تعالى: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضْنَا بَعْضُ الْهَيْئَاتِ بِسُوءٍ﴾² قَالَ إِنَّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُ وَأَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ³، وهو عدول أو التفات عن الأصل السياقي، لأنّ السياق يقتضي: "وأشهدكم" بصيغة المضارع، وقد مرّت معنا هذه الآية الكريمة في أكثر من موضع، وإنّما لم يقل: "وأشهدكم" ليكون موازيا له وبمعناه؛ لأنّ إشهد الله سبحانه على البراءة من الشرك صحيح في تثبيت معنى التوحيد وشدّ معاقده، على عكس إشهدهم فإنّه لا يعدوا تماونا بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم، ولذلك عدل عن اللفظ الأوّل لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر كما تقول للرجل تمكّما به واستهانة: "أشهد عليّ أنّي أحبّك"³، ومن الالتفات من الخطاب الخطاب إلى التكلّم قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾⁴ حيث عبّر عن المعنى أولا⁵ بطريق الخطاب: "واستغفروا ربّكم" ثمّ التفت فعبر عنه بطريق التكلّم فقال: "إنّ ربّي رحيم ودود".

1 الكشّاف عن حقائق غوامض التّرجيل وعيون الأفاويل في وجود التّأويل - ج3 - ص 234.

2 سورة هود - الآية 54.

3 ينظر: الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان: ابن قيم - ص 111.

4 سورة هود - الآية 90.

5 عبد الفتّاح لاشين: المعاني في أساليب القرآن - ص 218.

لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة، وهكذا، إلى أن تستقرها إلى آخرها، وأن الفضل نتائج ما بينها وحصل من مجموعها»¹، وغني عن البيان أن ما عناه بالارتباط بين الكلم، وحسن ملاقاها ليس إلا تضام هذه الكلم واجتماعها، وليس من مهمّة البحث أن يستقري كلّ التصوص التي كتبت حول هذه الآية أو أن يحصّيها بقدر ما هو عرض يحمل لبعضها انطلاقاً من كتب المفسرين واللغويين.

لقد روت لنا بعض التفاسير أن «أعرايا سمع هذه الآية فقال: هذا كلام القادرين، وأن ابن المقفع عارض القرآن فلما وصل إلى هذه الآية أمسك عن المعارضة، وقال: هذا كلام لا يستطيع أحد من البشر أن يأتي بمثله»²، وممن تحدّث عن هذه الآية وأبهره بياها الزّخشي، فقد جاء في تفسيره ما نصّه: «ولما ذكرنا من المعاني والنكت واستفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم»³، وقد تصدّى السّكاكيّ في بحث البلاغة والفصاحة لبيان هذه الخصائص في هذه الآية متقنياً كلام الزّخشي، فذكر أن النّظر فيها من أربع جهات؛ من علم البيان، ومن جهة علم المعاني، وهما مرجع البلاغة، ومن جهة الفصاحة المعنويّة، ومن جهة الفصاحة اللفظيّة، وأقرب هذه الجهات إلى موضوع التضام ما تضمّنته جهتا البيان والمعاني على أنّنا نكتفي ببعض ما يتصل اتّصالاً مباشراً بموضوعنا، أمّا من جهة البيان الذي ينظر في المجاز والاستعارة والكناية والتشبيه؛ فإنّه تعالى بنى الكلام على تشبيه المراد بالمأمور الذي لا يتأتّى منه لكمال هيئته العصيان، وتشبيهه تكوين المراد بالأمر التّافذ في تكوين المقصود تصويراً لاقتداره العظيم⁴، أيّ إنّه تعالى أراد ردّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها فكان، وأراد انقطاع طوفان السّماء وغيض الماء النّازل فحصل، وشاء إنجاز ما وعد فتحقّق وكما يرد عليهم أمره كان المأمور به متمّماً لا تلقى إشارته بغير الإمضاء دون معاناة

1 دلائل الإعجاز - ص 51.

2 ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التّزويل وعيون الأفاويل في وجوه التّأويل: الزّخشي - ج 03 - ص 203. وينظر: البحر المحيط في التفسير: أبو حيان الأندلسي - ج 06 - ص 160. وينظر: الدّر المصون في علوم الكتاب المكون: أحمد بن يوسف السّمين الحلبي (ت 756هـ) - تحقيق: أحمد محمّد الخراط - دمشق - دار القلم - دط - ص 335.

3 ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التّزويل وعيون الأفاويل في وجوه التّأويل - ج 03 - ص 203.

4 كتاب مفتاح العلوم - ص 176.

أو لغوب، ثم بُني على تشبيهه هذا نظم الكلام فقال جلّ وعلا على سبيل المجاز عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل، وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد وهو: "يا أرض" و"يا سماء" مخاطبا لهما على سبيل الاستعارة للمذكور، ومن الاستعارة استعماله "البلع" لغور الماء، إذ البلع الذهاب إلى مقرّ خفيّ، كما استعار الماء للغذاء استعارة بالكناية تشبيها له بالغذاء لتقوى الأرض بالماء، واختار لاحتماس الماء لفظ الإقلاع، ثمّ إنّه لم يصرّح بمن غاض الماء ولا بمن قضى الأمر وسوى السفينة وقال بعدا، كما لم يصرّح بقائل: يا أرض، ويا سماء؛ سلوكا في ذلك سبيل الكناية أن تلك الأمور لا تتأتى إلا من ذي قدرة¹، أمّا من جهة المعاني المنوطة بالنظر إلى كلّ كلمة منها وجهة كلّ تقديم وتأخير فيما بين جملها والتي يبني عليها موضوع التضام كما مر في المباحث السابقة؛ فذلك أنّه مثلا اختير "يا" دون سائر أخواتها لكونها أكثر في الاستعمال، وأنها دالة على بعد المنادي الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة وهو تباعد المنادي المؤذن بالتهاون، ولم تجئ الآية بالكسر "يا أرض" لإمداد التهاون، ولم يقل: "يا آيتها الأرض" لقصد الاختصار مع الاحتراز في "آيتها" من تكلف التّبيه غير المناسب للمقام، وأنّ لفظ "الأرض" اختير دون سائر أسمائها لكونه أخفّ، واختير لفظ "السماء" لمثل ما تقدّم مع قصد المطابقة، ولفظ "ابلي" دون "ابتلي" مثلا لكونه أحصر، ولجئ إلى حظّ التّجانس بينه وبين "اقلعي" أوفر، وقيل "ماءك" بالإفراد دون الجمع لما كان في الجمع من صورة الاستكثار المتأبى عنها مقام لإظهار الكبرياء والجبروت، وإنّما لم يقل: "ابلي" بدون المفعول أن لا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء بأسرهنّ نظرا إلى مقام ورود الأمر الذي هو مقام عظمة وكبرياء، ثمّ إذا بيّن المراد اختصر الكلام مع اقلعي احترازا عن الحشو المستغنى عنه، وهو الوجه في أن لم يقل: "يا أرض ابلي ماءك فبلعت... فأقلعت" واختير لفظ "غيض" على "غيض" المشدّد لكونه أحصر، وقيل الماء دون أن يقال "ماء طوفان السماء" وكذا الأمر، دون أمر نوح عليه السّلام، وهو إنجاز ما كان وعده الله به من إهلاك قومه والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك، ولم يقل "سوّيت على الجودي" على نحو: "قيل/غيض/قضي" في البناء للمفعول اعتبار بناء الفعل للفاعل مع السفينة في قوله: "وهي تجري بهم في موج" مع قصد الاختصار في اللفظ، ثمّ قيل: "بعدا" دون "ليبعد القوم" طلبا للتأكيد مع الاختصار، وهو نزول

1 المصدر السابق - ص 177.

"بعدا" مترلة "ليبعدوا بعدا" مع فائدة أخرى هي استعمال اللام مع "بعدا" الدال على معنى أن البعد حق لهم، ثم أطلق الظلم ليتناول كل نوع يدخل فيه ظلمهم أنفسهم ليزيد فظاعة على سوء اختيارهم في تكذيب الرسل، وكل هذه اللطائف قد أوردها السكاكي للاستدلال على النظر إلى هذه الآية من حيث تركيب الكلم¹، أمّا من حيث النظر إلى ترتيب الجمل فقد أظن فيه، ومن ذلك قوله مثلاً: «إِنَّه قد قَدَمَ التَّدَاءِ عَلَى الأَمْرِ فَقِيلَ: "يا أرض" دون أن يقال: "ابلعي يا أرض وأقلعي يا سماء" جرياً على مقتضى اللّازم فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التنبية ليتمكن الأمر الوارد عقبيه في نفس المنادى قصداً بذلك لمعنى الترشيح ثمّ قَدَمَ أمر الأرض على السَّماء، وابتدئ به لابتداء الطوفان منها ونزولها لذلك في القصة مترلة الأصل، والأصل بالتقديم أولى، ثمّ أتبعها قوله: "وغيض الماء لاتصاله بقصة الماء وأخذه بحجزها، ألا ترى أصل الكلام: "قيل يا أرض ابلعي ماءك فبلعت، ويا سماء أقلعي عن إرسال الماء فأقلعت عن إرساله وغيض الماء النازل من السماء فغاض" ثمّ اتبعه المقصود من القصة وهو قوله: "وقضي" أي: "أنجز الموعد"²، أيّ إنّه دلّ على ذلك بأداة البعد، بمعنى: "اجذبي من غير مضغ إلى مكان خفي بالتدرّج"³، ولأنّ في استعمال الياء دون همزة لما يدعو لاجتماعها مع همزة الأرض إلى ثقل على اللسان في التطق بهما، وإنه أوتر تكبير الأرض لما في ذلك من تصغير أمرها، باعتبار المقام الذي يستدعي هنا هذا التصغير ويستدعي الإسراع بتلبية الأمر دون التعريف المقتضي لإطالة الكلام، وعيّن المبلوع لئلاّ يعمّ، والابتلاع دون المصّ لأنّ لفظة "امتصّي" مثلاً لا تدلّ على الإسراع في التشرّب، وفي إضافة الماء إليها ما يوحي بأنّها جديرة بامتصاص ماء هو ماؤها، فكأنّها لم تُكَلِّف شططاً، وذلك البناء للمفعول يصوّر إحساس من شاهدوا هذا المنظر، فقد رأوا الماء يغيض والأمر يتمّ، حتّى يُخيّل إليهم أنّه حدث من تلقاء نفسه، وإيراد "بعدا" دون "هلاكا" مثلاً إشارة إلى أنّ هلاك هؤلاء القوم الظالمين إنّما قصد به إبعادهم عن الفساد في الأرض، ومجيء الموصوف هنا لا لإيراد الدعاء على الظالمين لاتصافهم بالظلم؛ وإنّما المراد منه الدعاء على هؤلاء القوم بالبعد لاتصافهم بالظلم، ولعلّ في استعمال

1 المصدر السابق - ص 177.

2 المصدر نفسه - ص 178. وينظر: تيسير التفسير: أحمد بن يوسف أطفيش - ج 06 - ص 404. وينظر: تفسير التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور - ج 10 - ص 80.

3 برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ج 09 - ص 292.

المصدر الذي يؤكد أنّ الفعل قد تمّ وحصل أثراً في ذلك¹، هنا تهدأ العاصفة - كما يصفها سيّد قطب- ويُخيّم السّكون، ويُقضى الأمر، ويتمشّى الاستقرار كذلك في الألفاظ وفي إيقاعها في النّفس والأذن لتختتم القصّة بجملة مختصرة حاسمة تعبّر عن جوّها أعمق تعبير²، ولم نر بداً في هذا المقام من أن نورد بعض ما أورده كثير من العلماء في شأن هذه الآية الكريمة، وأن نعيد ما ذكره ابن أبي الإصبع في كتابيه: "تحرير التّحبير، وبديع القرآن"، إذ استطاع أن يجمع من خصائص هذه الآية ما يربو عن العشرين ضرباً من ضروب البلاغة، في باب هو "باب الإبداع"³، ولا بأس أن نرتّب هذه المباحث على هذه الشّاكلة:

- المناسبة التّامة في "ابلعي وأقلعي".
- المطابقة اللفظيّة في ذكر "الأرض والسّماء"⁴.
- الاستعارة في "ابلعي وأقلعي" للأرض والسّماء⁵.
- المجاز⁶ في "يا سماء" فإنّ الحقيقة "يا مطر السّماء".

1 ينظر: من بلاغة القرآن الكريم: أحمد أحمد بدوي- ص 50.

2 في ظلال القرآن - ج 04- ص 1879.

3 يعرفه بأن: «تكون كلّ لفظة من لفظ الكلام على انفرادها متضمّنة بديعاً أو بديعين بحسب قوّة الكلام، وما يعطيه معناه بحيث يأتي في البيت الواحد، والجملة الواحدة عدّة ضروب من البديع، ولا تخلو لفظة منه من بديع، فما زاد عليه، وما رأيت ولا رويت في الكلام المنشور، والشّعر الموزون كآية من كتاب الله تعالى استخرجت منها أحداً وعشرين ضرباً من البديع وعددها سبع عشرة لفظة وهي قوله تعالى ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظّٰلِمِينَ﴾ [سورة هود- الآية 44]». ينظر: تحرير التّحبير- ص 611.

وينظر: بديع القرآن- ص 340.

4 ينظر: تفسير حدائق الرّوح والرّيحان في روابي علوم القرآن: محمّد الأمين بن عبد الله الأرمي - إشراف ومراجعة: هاشم محمّد علي بن حسين مهدي- مكّة المكرّمة- دار طوق النّجاة- ط 01 - 1421هـ/2001م- مج 13- ص 121.

5 ينظر: المصدر نفسه - مج 13- ص 121.

6 ينظر: تحرير التّحبير: - ص 458. وبديع القرآن - ص 340.

- الإشارة¹ في "وغيض الماء" فإنه سبحانه عبّر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة. لأن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء وتبلع الأرض ماء يخرج من عيون الماء فينقص الحاصل على وجه الأرض من ماء.
- الإرداف² في "واستوت على الجودي" فإنه عبّر عن استقرار السفينة على هذا المكان وجلوسها جلوساً متمكناً لا زيغ فيه ولا ميل، لطمأنينة أهل السفينة بلفظ قريب من لفظ الحقيقة.
- التمثيل في "وقضي الأمر" فإنه عبّر بذلك على هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ فيه بعداً ما من لفظ الحقيقة بالنسبة إلى لفظ الإرداف.
- التعليل لأن غييض الماء علة الاستواء.
- صحة التقسيم حين استوعب سبحانه أقسام الماء حالة نقصه، إذ ليس إلا احتباس ماء السماء، واحتقان الماء الذي ينبع من الأرض، وغييض الماء الحاصل على ظهر الأرض.
- الاحتراس في: "وقيل بعدا للقوم الظالمين" محترساً من توهم من يتوهم أن الهلاك ربّما عمّ من لا يستحقّ الهلاك، فجاء سبحانه بالدعاء على الهالكين ليُعلم أنّهم مستحقّو العذاب، فإن عدله منع أن يدعو على غير مستحقّ للدعاء عليه.
- الانفصال³؛ فإن لقائل أن يقول: "إن لفظة القوم مستغنى عنها، لأنه لو قيل: وبعدا للظالمين لثمّ الكلام، والانفصال عن ذلك أن يقال: لما سبق في صدر الكلام قبل الآية قوله تعالى: ﴿مِن قَوْمِهِمْ سَخِرُوا مِنْهُ﴾⁴، وقال سبحانه قبل ذلك مخاطباً لنوح عليه السلام: ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾⁵ فافتضت البلاغة أن يُؤتى بلفظ القوم التي آلة التعريف فيها للعهد، ليتبين

1 ينظر: تحرير التحبير - ص 202.

2 ينظر: المصدر نفسه - ص 207.

3 ابن أبي الإصبع: بديع القرآن - ص 341. وقد سماه ابن أبي الإصبع الإيضاح في كتابه: تحرير التحبير. ينظر: ص 612.

4 الآية 38.

5 الآية 37.

أنهم الذين تقدّم ذكرهم في الآية: "وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ" ووصفهم بالظلم، وأخير لسابق علمه أنهم هالكون بقوله: "وَلَا تُخَطِّبِنِي" فحصل الانفصال عن الإشكال وعُلم أن لفظة القوم ليست فضلة في الكلام.

- المساواة¹: إن لفظ الآية لا يزيد على معناها ولا ينقص.
- حسن التسق² في عطف القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب حسبما وقعت أولاً فأولاً، فإنه سبحانه أمر الأرض بالابتلاع، ثم عطف على ذلك أمر السماء بالإفلاق، ثم عطف غيض الماء على ذلك، ثم على ذلك قضاء الأمر بهلاك الهالكين ونجاة الناجين، ثم عطف على ذلك استواء السفينة على الجودي، ثم عطف على ذلك الدعاء على الهالكين، فجاء عطف هذه الجمل على ترتيب وقوعها في الوجود.
- ائتلاف اللفظ مع المعنى لكون كل لفظة لا يصلح في موضعها غيرها.
- الإيجاز لأنه سبحانه اقتصر القصّة بلفظها مستوعبة، بحيث لم يخل منها بشيء في أقصر عبارة بألفاظ غير مطوّلة.
- والتسهيم لأن من أوّل الآية إلى قوله تعالى: "أَقْلِعِي" يقتضي آخرها.
- التهذيب لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن، كل لفظة سهلة مخارج الحروف، عليها رونق الفصاحة، مع الخلو من البشاعة، والتركيب سليم من التعقيد وأسبابه.
- حسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقّف في فهم معنى الكلام ولا يشكل عليه شيء منه.
- والتمكين لأن الفاصلة مستقرّة في قرارها، مطمئنة في مكانها ولا مستدعاة³.

1 ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير - ص 198. وص 212. و بديع القرآن - ص 341.

2 تحرير التحبير - ص 425. بديع القرآن - ص 342.

3 بديع القرآن - ص 343.

• الانسجام وهو تحدر الكلام بسهولة وعذوبة سبك، مع جزالة لفظ كما ينسجم الماء القليل من الهواء، وما مجموع ألفاظ الآية من الإبداع، وهو الذي سُمِّيَ به هذا الباب، إذ كلُّ لفظةٍ بديعٍ وبديعان، لأنَّ كما تقدّم سبع عشرة لفظة تضمّنت أحدا وعشرين ضربا من البلاغة سوى ما يتعدّد من ضروبها، فإنّ الاستعارة وقعت فيها في موضعين، وهما استعارة الابتلاع للأرض والإقلاع للسّماء، والمجاز في مكانين؛ في قوله سبحانه: "ويا سماء" وفي الإشارة والتمثيل والإرداف لأنّ المجاز مجازان؛ مجاز بالحذف ومجاز بالتغيير، وقد وقعا معا¹، ولعلّ خير ما نختم به حديثنا عن هذه الآية نصّ من تفسير القرطبيّ يقول فيه: «لو فُتّش كلام العرب والعجم ما وُجد فيه مثل هذه الآية على حسن نظمها وبلاغة رصفها واشتمال المعاني فيها»².

نخاله قد تبيّن من خلال هذه المباحث التي اشتمل عليها هذا الفصل أنّ سورة هود جديرة بأن تفرد بدراسة على حده، وأنّ ما تختصّ به من معارف وفنونه كفيل بأن يؤسّس للبلاغة العربيّة معجما من شأنه أن يثري مكتبة الباحث في نظم القرآن وإعجازه، وأنّ هذه العلوم والفنون لم تكن لو لم تقترن الكلمات والجمل ويجتمع بعضها ببعض، فقد تضامت من أوّل حرف، وأعطت نصّا فريدا كاع القوم ونكصوا عن معارضته بعدما كان لهم في البلاغة القدح الفالج، وجبنوا منذ القديم أن يأتوا بمثله وفيهم من تُرضى حكومته في البلاغة والبيان.

لنتوجّه بالدّراسة إلى الشّطر الآخر من الموضوع؛ وهو دراسة التضام في سورة طه، عسى أن نقف عند أهم المحطّات البلاغية الكبرى المتعلّقة به، أو أن نعيد صياغة بعض المباحث والفصول الذي ذكرها العلماء في هذه السّورة في شكل عناصر متفرّقة تتصل بالموضوع كما مرّ معنا في هذا الفصل.

1 ابن أبي الإصبع: تحرير التّحبير - ص 212. وينظر: الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة العلوي - ج 03 - ص 126. وينظر: أنوار التّجليّ على ما تضمّنته قصيدة الحلّي: أبو عبد الله بن أبي القاسم - ج 02 - ص 367. وما كتبه التسفي: مدارك التّزويل وحقائق التّأويل - مج 02 - ص 723. والبيضاوي: أنوار التّزويل وأسرار التّأويل - ج 01 - ص 459. والقميّ التّيسابوري: غرائب القرآن وרגائب الفرقان - ج 12 - ص 35. والتّعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن - ج 02 - ص 279. وينظر على سبيل المثال بحث: الفنون البلاغية في سورة هود: ماجد بن محمّد الماجد، فقد ذكر عدا هذا ما يلي: الاتّلاف، والحذف، وإيجاز القصر، والتّصدير، والتّعريض، والتّسبيق، والتّنظير، والسّجع، والمناسبة اللفظية، والنّظم المعجز - ص 89..91.

2 الجامع لأحكام القرآن - مج 05 - ج 09 - ص 28.

الفصل الثالث

التّضامّ في سورة طه

- المغايرة في نسق الاستعمال القرآني
- التّقديم والتّأخير
- المناسبة
- الفصل والوصل
- الرّبط والارتباط
- التّكرار والإعادة
- التّضمين والتّعدية
- التّعريف والتّنكير
- الفاصلة القرآنية
- الإطناب والإيجاز
- الحذف
- الذّكر والزيادة
- مسائل متفرّقات

سورة طه، لفور ما بينهما وقربه¹، أي من حيث قوله تعالى في سورة طه: ﴿فَلَمَّا أَتَتْهَا نُودِيَ يَمُوسَىٰ ۖ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۗ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۗ﴾²، وقوله تعالى في القصص: ﴿أَن يَمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۗ﴾³، وإن اختلف محلّهما، بخلاف ذلك في سورة التمل، وغير بعيد عن هذا قول الحق سبحانه: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۗ﴾⁴، وقوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۗ أَلَا يَتَّقُونَ ۗ﴾⁵ قال رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ⁶، وقوله تعالى في سورة القصص: ﴿أَسْأَلُكَ بِدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۗ فَذَانِكَ بُرْهَنَانِ مِنَ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ۗ﴾⁶، حيث اقتصر في سورة طه على فرعون، لأنه الأصل بالنسبة إلى قومه، مع سبق سورة طه، واكتفى في سورة الشعراء بذكره في الإضافة (قوم فرعون) عن ذكره مفرداً، وجمع بينهما في سورة القصص ليوافق قوله: "فَذَانِكَ بُرْهَنَانِ" في التعدّد⁷، ومن هذا القبيل أيضاً ما جاء في الآية الكريمة: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۗ﴾⁸، في بادئ الرأي يظهر أن سرّ العدول في التعبير هو مراعاة الفاصلة القرآنية، ميد أن: «التنظرة المدققة تكشف

و وردت مادة جاء في سورة التمل ثلاث عشرة مرة منها: [فلما جاءكم - الآية 13]. [وجئتكم - الآية 22]. [فلما جاء سليمان - الآية 36]. [فلما جاءت - الآية 42]. [حتى إذا جاءوا - الآية 84]. [من جاء - الآية 89]. [ومن جاء - الآية 90]. وألحق ما في سورة القصص بما في سورة طه لقرب ما بينهما. ينظر: البرهان في متشابه القرآن: محمود بن حمزة الكرمانلي - تحقيق: عبد القادر عطا - بيروت - دار الكتب العلمية - ط 01-1406هـ/1986م - ص 126.

1 أبو زكريّا الأنصاري: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن - ص 360.

2 الآيتان 11. 12.

3 الآية 20.

4 سورة طه - الآية 24.

5 الآيتان 11. 12.

6 الآية 32.

7 أبو زكريّا الأنصاري: السابق - ص 363.

8 الآية 65.

رغبة القرآن في تصوير نفسية هؤلاء السحرة، وأنهم لم يكونوا يوم تحدوا موسى عليه السلام حائفين أو شاكين في نجاحهم، وإنما كان الأمل يملأ قلوبهم في نصر مؤزر عاجل، إنهم لا ينتظرون ما عسى أن تسفر عنه مقدره موسى عندما ألقى عصاه، بل كانوا مؤمنين بالتصبر، سواء ألقى عصاه أولاً أم كانوا هم أول من ألقى¹، ومن دقة القرآن في توارد بعض الكلمات في أماكن مخصصة قوله تعالى في هذه السورة: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ² فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ³﴾، وقوله تعالى في سورة القصص: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ⁴ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ⁵﴾، فقد قاله في الأولى بلفظ "رجعناك" وفي الأخرى بلفظ "رددناه"، وهما وإن اتحدا معني؛ فإنه خص في الأولى بالرجع لأنه أطف، بينما الرد يقتضي كراهية المردود⁶، وتصديقا لقوله: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ⁷﴾.

يقول تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّىٰ⁸﴾، ويقول في موضع آخر: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ⁹﴾، وردت الآية الأولى بلفظ "سلك" ووردت الأخرى بلفظ "جعل"، ومرد هذه المغايرة في تضام الكلمات مع طائفة معينة من التراكيب دون أخرى هو أن لفظ السلوك مع السبيل أكثر استعمالا به، لذلك خص به سورة طه، وخص سورة

1 بكرى شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن الكريم - ص 189.

2 الآية 40.

3 الآية 13.

4 محمود بن حمزة الكرمانى: البرهان في متشابه القرآن - ص 126.

5 سورة القصص - الآية 07.

6 سورة طه - الآية 53.

7 سورة الزخرف - الآية 10.

الزخرف بـ "جعل" ازدواجا للكلام، وموافقة لما قبلها وما بعدها¹، نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾²، ويصح أن يكون السبب أن (الخلق) تأتي لما لا يتكرر ويتبدل، أما (الجعل) فتأتي لما يتكرر ويتبدل، فالسبب تتغير بفعل الانسان، وكذلك الأرض المهتدة يحيلها الانسان إلى وعر أو بالعكس، أما السماوات والأرض فخلقها الله، ولا يمكن تكرار نماذج منها³، ومنه قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾⁴، وقوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ﴾⁵، وقوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾⁶، فتجد التصريح بعقدة اللسان في سورة طه لسبقها، والكناية عنها في الآية الثانية بما يقترب من التصريح، ثم في الآية الثالثة بكناية مبهمه، لدلالة تلك الكناية عنها⁷، وفيما يخص اتلاف اللفظ والمعنى وتضامهما فتجده في القرآن كله، ومنه قوله تعالى في هذه السورة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾⁸، فإنّه تعالى لم يُراع فيه مناسبة الرّي للشبع والاستظلال للبس في تحصيل المنفعة، بل روعي مناسبة اللبس للشبع في حاجة الانسان إليه، وعدم استغنائه عنه، ومناسبة الاستظلال للرّي في كونهما تابعين للبس والشبع ومكملين لمنافعهما، لأن رعاية ذلك أدخل في حسن الوعد، والامتنان بالنعمة المذكورة لما في جمع الأهمّ منها في الجملة الأولى، وعطف باقيها في الجملة الثانية من الاستمتاع؛ في مرّة للبشارة بنيل أصول النعم

1 مادة (جعل) وردت في سورة الزخرف اثني عشرة مرّة منها: [جعلناه - الآية 03]. [جعل - الآية 10]. [جعل - الآية 10]. [وجعلوا - الآية 15]. [وجعلوا - الآية 19]. [أجعلنا - الآية 45]. [فجعلناهم - الآية 56]. [وجعلناه - الآية 59]. [جعلنا - الآية 60]. وينظر: التعبير القرآني: فاضل صالح السامرائي - ص 241.

2 سور الزخرف - الآية 15.

3 محمود بن حمزة الكرماني: البرهان في متشابه القرآن - ص 126.

4 الآية 27.

5 الآية 13.

6 الآية 34.

7 أبو زكريا الأنصاري: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن - ص 363.

8 الآيتان - 118. 119.

ومن تكميلها بذكر التوابع والتميمات ما كان يفوت لو لم يفعل ذلك¹، وقد يتعلّق توارد الكلمات بصيغتها والزمن الذي ترد فيه، نحو قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾²، فنجد أساليب ودلالات مختلفة ينسجم كل منها مع الآيات التي ترد فيها الأفعال، فالفعل "أتى" في هذه الآية زمن الإتيان هو ما بعد الماضي، فكون الفعل قد أتى للدلالة على ما بعد الماضي، يدلّ على استناده إلى أصل دلالاته الإفرادية، وهي الماضي، لأن ما بعد الماضي في هذا السياق إنّما هو واقع في الماضي كذلك، وفي السورة نفسها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدًا سَاحِرًا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾³، زمن الإتيان به للحال المستمرة التي تشبه الحقائق الثابتة، فالآية عبّرت بالماضي لتأخذ منه دلالاته على التّحقّق، أي لا يفلح السّاحر مهما أتى بسحره محققاً على وجه الكمال⁴ ويقول تعالى في هذه السورة: ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَىٰ﴾⁵، ورود المصدر الجاري على غير الفعل [تنزيلاً] في هذه الآية إشارة إلى أنّه يتمهّل عليهم رفقا بهم، وأنّ هذا القرآن لا ينزل إلّا تدريجاً إزالةً لشبههم، وشرحا لصدورهم، وتسكينا لنفوسهم، ومدّاً لمدة البركة فيهم بتردد الملائكة الكرام إليهم، كما أنّه لم يهلكهم بمعاصيهم اكتفاءً بيّنة ما في الصّحف الأولى، بل أرسل إليهم رسولا لئلا يقولوا: "ربّنا لولا" كما اقتضته حكمته وتمّت به كلمته، ولما كان رجوعهم إلى الدّين على ما يشاهد منهم من الشّدّة والأنفة والشّماخة التي سمّاهم الله بها قوماً لداً في غاية البعد، شرع سبحانه يذكّر بقدرته إشارة إلى أنّ القلوب بيده يقبّنها بيده كيف شاء كما صورها كما شاء، وأنّ شأنه الرّفق والأناة، فقال ملتفتاً من التكلّم إلى الغيبة ليدلّ على ما اقتضته التّون من العظمة، مقدّماً ما اقتضى من الحال تقديمه من سكن المدعوّين المعنى بتذكّرهم وهداية

1 أبو عبد الله بن أبي القاسم: أنوار التحلي على ما تضمنته قصيدة الحلبي - أعدّه للنشر وعلّق عليه: مصطفى مرزوقى - تقديم: مختار نويوات - منشورات المجلس الأعلى للغة العربية - ط01 - 1427هـ/2006م - ج01 - ص523. وينظر: المصباح في المعاني والبيان والبدیع: ابن التاظم - ص248.

2 سورة طه - الآية 60.

3 الآية 69.

4 عبد الحميد هنداي: الإعجاز الصّرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة - بيروت - المكتبة العصرية - صيدا - د ط - 1423هـ/2002م - ص54.

5 الآية 04.

من أريد منهم (تمن خلق الأرض) المنخفضة¹، ومن دلالات الزمن التي ترتبط بالتركيب ما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾²، لما كانت الفتنة لم تستغرق جميع الزمن الذي كان بعده؛ وإنما كانت في بعضه، أدخل الجار فقال: "من بعدك"³، وما يُلاحظ في سورة طه أنها تستعرض حياة موسى عليه السلام منذ المولد إلى مراحل متقدمة من حياته، والصيغة السردية في عمومها خطابية، إذ جاء السرد يعتمد ضمير المخاطب، فالسرد هنا داخلي، وتهدي إلى ذلك بداية من الشروع في القصة بالأداة (إذ) والموقف موقف اهتداء واستئناس، ثم فجأة نورية وموقف احتمال فموقف المواجهة والاسترسال في الطلب: "امكثوا"، و"اخلع" و"فاعبدني"⁴ 10. ذلك تمامي الزمان في كينونة المطلق الممثل في الحضرة الإلهية بقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾⁵، وإلى جانب الزمن والصيغة اللذين ترد فيهما كلمة مع أخرى فإن هناك دلالة تؤدّيها المغايرة في المحكي الذي ترد فيه هذه الكلمات عند تضام بعضها مع بعض، نحو ما في قوله تعالى من هذه السورة: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾⁶، إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾⁷، وهذه المغايرة في المحكي بين ما ورد فيها وما ورد في سورة الشعراء أو سورة القصص مناسب لما بُنيت عليه سورة طه من التأنيس والبشارة لنبينا صلى الله عليه وسلم من لدن افتتاحها إلى ختامها بقوله لنبيه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا لَنْ نَرْزُقَكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾⁸، وقوله تعالى تهديدا ووعيدا لأعدائه عليه

1 برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ج16 - ص 267.

2 سورة طه - الآية 85.

3 برهان الدين البقاعي: المصدر السابق - ج16 - ص 330.

4 سليمان عشراقي: الخطاب القرآني، مقارنة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي - الجزائر - ديوان المطبوعات الجامعية - د ط - 1998م - ص 118.

5 سورة طه - الآية 14.

6 الآية 24.

7 الآية 36.

8 الآية 132.

السّلام، بخلاف ما بُنيت عليه سورتا الشّعراء والقصص¹، أمّا سورة الشّعراء فمبنية على ابتداء الرّسالة ودعائه فرعون ومراجعته إياه إلى نجاة بني إسرائيل وإغراق فرعون، أمّا سورة القصص فمبنية على ابتداء امتحان بني إسرائيل إلى خروجه عليه السّلام إلى مدين إلى أخذ فرعون وهلاكه. ومما وقع في حيز المغايرة في نسق الاستعمال ما جاء في الآية الكريمة: ﴿قَالَ ءَأَمْنَتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾²، فالتعبير القرآني هنا يفرّق بين الإذن والأمر، فإذا أمر انسان انسانا بعمل شيء، فهو يجب أن يتمّ عمل هذا الشيء، ولكن إذا أذن لأحد بعمل شيء معين فليس من الضّروري أن يكون محبًا بهذا العمل³، ففرعون لم يقل: "قبل أن آمركم"، فهو لم يأت منه أمر بهذا الشيء، لأنّه ليس على هواه ولا يحبّه، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَأَمْنَتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ﴾⁴، وقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمْنَتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ﴾⁵ وقوله تعالى في سورة الشّعراء: ﴿قَالَ ءَأَمْنَتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾⁶، وردت آية الأعراف بلفظ: "آمنتم به"، وفي الآيتين الأخريين بلفظ: "آمنتم له"، لأنّ الهاء في (آمنتم به) غير الهاء في (آمنتم له)، فالتي في (آمنتم به) لربّ العالمين، وهو الذي دعا إليه موسى عليه السّلام، وأمّا الهاء التي في (آمنتم له) فلنبيّ الله موسى⁷، والدليل أنّها جاءت في السّورتين وبعدها في كلّ واحدة منهما: ﴿قَالَ ءَأَمْنَتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾⁸، والذي جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا

1 ابن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من أي التزييل - ج 02 - ص 816.

2 سورة طه - الآية 71.

3 محمد متولّي الشّعراوي: قصص الأنبياء والمرسلين - ص 285.

4 سورة طه - الآية 71.

5 الآية 123.

6 الآية 49.

7 الخطيب الإسكاني: درة التزييل وغرة التأويل - ص 130.

8 الآية 71.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾، ومن لطائف الإشارات في استعمال القرآن الدقيق للكلمة مع جارها في السياق قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾^٢، في الآية حباً لموسى عليه السلام ممن يراه، وميل القلوب نحوه، حتى أحبه فرعون وزوجته، وهذا هو معنى الاستعارة الأولى، أما الاستعارة الأخرى ففيها اختصاص بشدة الرعاية، وفرط الحفظ والكلاءة. وجاء سبحانه بلفظ العين بدلا من ذكر الحفظ والحراسة إشارة إلى التوفر عليه بالرعاية والانصراف إليه بالمراعاة^٣، وهذا أبلغ، ومن دقة الاستعمال في توارد الكلمة مع ما يناسبها المجيء بلفظ "الجسد" في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ جِسَدًا لَهُمْ خُورًا﴾^٤ باعتبار أن الجسد يُطلق على ما لا روح فيه، بخلاف الجسم مثلا فإنه خاص بالعقل حال الحياة^٥، وبخلاف البدن الذي يطلق على العقلاء بعد الموت^٦، ومن دلالات تغير الصيغة وتجديدها ما في قوله تعالى: ﴿فَأِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾^٧، وما في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَأِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^٨، حيث جاءت الأولى بلفظ: "اتبع" على وزن "افتعل" وفي الأخرى بلفظ "تبع" على وزن "فعل"، وهذا الوزن الأخير لا يلزم مخالفة الفعل قبله أما وزن (افتعل) الذي جاء في الآية الأولى فيشعر بتجدد الفعل، وبيان قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة لفعله فجاء بـ (من تبع) أما في سورة طه فجاء بعد قوله: "ولم نجد له عزمًا" و"عصى آدم ربه فغوى" فناسب ذلك أنه يأتي (من اتبع) أي جدد قصة الاتباع^٩، وإضافة الهدى والذكر إلى الذات العلية في قوله تعالى: ﴿فَأِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾

1 سورة الأعراف- الآية 123.

2 الآية 39.

3 فتحي أحمد عامر : المعاني الثانية في الأسلوب القرآني- القاهرة- منشأة المعارف- د ط - د ت- ص 417.

4 سورة طه - الآية 88.

5 ينظر الآية 247 من سورة البقرة.

6 ينظر الآية 92 من سورة يونس.

7 سورة طه - الآية 123.

8 الآية 38.

9 أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن ولستة النبوية- ص 561.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾¹ تفيد التعظيم، وإعلاء شأن الهدى والذكر، ونبتت إلى وجوب القبول وضرورة الاتباع، فإن ذكرا وهدى ذاك شأنهما لحرَيان بوجوب التمسك بهما، وحسن الانقياد لهما، ففي هذا الفلاح كلّ الفلاح والفوز كلّ الفوز²، وفيما عداه البوار والخسران، ومما جاء أيضا في ضوء المغايرة قوله تعالى في هذه السورة: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾³، وقوله تعالى في سورة السجدة: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾⁴، وذلك أن الآية الأولى جاءت بعد ذكر موسى عليه السلام وفرعون والسامري وهلاكهم، وذكر آدم وحواء عليهما السلام فناسب ذكر (قبل) العامة لما تقدم من الزمان، وآية سورة السجدة خالية من ذلك⁵، فأتى بـ (من) المقرّبة للزمان، ومنه مغايرة الصيغ في الأفعال، نحو (أمدّ) و (مدّ)، حيث يقصر القرآن الفعل (أمدّ) على الخير دائما⁶، في حين ترد (مدّ) في الخير والشرّ، فترد في الخير إذا كان الحديث عن الإخبار عن غير الانسان⁷، وترد في المكروه إذا جاءت في سياق الحديث عن الانسان، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۗ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾⁸، وفي القرآن آيات وتعبيرات تتشابه مع تعبيرات أخرى، ولا تختلف عنها إلا في مواطن قليلة، كأن يكون الاختلاف في حرف أو حركة أو كلمة، وذلك نحو قوله تعالى في هذه السورة: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ ﴾⁹، وقوله تعالى في

1 الآياتان 123 . 124 .

2 بسيوني عبد الفتاح: من بلاغة النظم القرآني - ص 44 .

3 الآية 128 .

4 الآية 26 .

5 أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن والسنة النبوية - ص 635 .

6 ينظر الآية 132 من سورة الشعراء .

7 ينظر الآية 03 من سورة الرعد .

8 سورة طه - الآية 131 .

9 الآية 128 .

سورة السجدة: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾¹، الأولى بلفظ "أفلم" والأخرى بلفظ "أولم"، لأنه ذكر في سورة طه العقوبات في الدنيا علاوة على الآخرة، في الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾²، والآية الكريمة بعدها: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۗ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾³، فذكر المعيشة الضنك في الدنيا، بخلاف سورة السجدة، فإنه أحر الأمر إلى يوم القيامة وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾⁴، فجاء بالفاء في سورة طه لأنها تفيد التعقيب، وجاء بالوار في سورة السجدة، وملحظ آخر هو أنه في سورة طه جاء بجملة "قبلهم من القرون" وفي الآية الأخرى "من قبلهم من القرون" بدون "من"، لأنه في سورة السجدة هلاك ووفاة من هم في زمانه، فبدأ بهلاك من هو أقرب فحاء بـ"من" الدالة على ابتداء الغاية، ولم يرد مثل ذلك في سورة طه، فإنه ذكر قوم موسى وهم قبل الرسول بعمدة طويلة وليسوا من قبله، ثم ننظر كيف ختم سورة السجدة بقوله: "أفلا يسمعون" وذلك لأنهم يسمعون بما حصل للأقرب إليهم، فإن خاتمة الأقرب مما يؤخذ عن طريق السماع، بخلاف الأقدمين إليهم، وهذه إشارة تهدينا إلى خاتمة سورة طه⁵، لنذكر جلاله هذا الكلام وارتفاعه، ومن الأساليب التي تربط السورة بمضمونها العام أسلوب التهي الذي تردّد كثيرا فيها، مرة في نهي موسى عليه السلام عن الانصداد وإظهار اللين للكافرين في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾⁶ ومرة في قوله تعالى بغرض الإناس ورفع الرهبة: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۗ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا

1 الآية 26.

2 الآية 124.

3 الآية 127.

4 الآية 25.

5 فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني - ص 197.

6 الآية 16.

الْأُولَى¹، وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى²﴾، في جملة مستأنفة وجواب سؤال مقدر، وهو كثير في القرآن الكريم، وهو نهي لهما - عليهما السلام - عن الخوف وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلِكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَبِكُمْ بِعَذَابٍ³﴾، دعا عليهم بالويل ونهاهم عن افتراء الكذب عن سبيل التوجيه والإرشاد، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَيِّتِي وَلَا بِرَأْسِي⁴﴾، وهو اعتذار من هارون عند موسى عليهما السلام بسبب تأخّره عنه، وقد ترقق له بذكر الأمّ مع أنّه شقيقه لأبويه، لأنّ ذكر الأمّ هنا أرقّ وأبلغ، أي في الخنوّ والعطف، وبالتالي فأسلوب التّهي في هذه الآيات هو أسلوب يطلب به الكفّ عن شيء على طريق الاستعلاء والإلزام، وله صيغة واحدة وهي المضارع المقرون بـ (لا) التّاهية⁵، فلا شكّ في أنّ كلمة من الكلمات وُضعت في مكانها الأليق بها وضامّت ما يناسبها، وأنّ كلّ أسلوب من الأساليب مقصود، وأنّ كلّ تغيير في ذلك له بيانه وغرضه، ومن لطائف الصّيغ التي افتتح بها الله سبحانه هذه السّورة ذلك الاستفهام في بداية القصّة، وليس المراد به حقيقة الاستفهام، ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سرّ لطيف ومعنى بديع، فإنّ المتكلّم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به، وإحضار الدّهن له، صدر له الكلام بأداة الاستفهام، لتبنيه سمعه وذنه للمخبر به فتارة يصدر بـ "ألا" وتارة يصدر بـ "هل" في نحو هذه الآية المتضمّن لتعظيم هذه القصص والتّنبية على تدبيرها ومعرفة ما تضمّنته، وفيه أمر آخر هو التّنبية على أنّ إتيان هذا إليك علّم من أعلام التّبوّة، فإنّه من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك، فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا؟ أم لم يأتك إلّا من قِبلنا؟⁶ فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام وتأمل عظم موقعه من جميع مواردّه، يشهد أنّه من الفصاحة في ذروتها العليا.

1 الآية 21.

2 الآية 46.

3 الآية 61.

4 الآية 94.

5 محمود السّيد حسن: روائع الإعجاز في القصص القرآني، دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز - ص 305.

6 ابن قيم الجوزية: البدائع في علوم القرآن - انتقاء وتحقيق: يسري محمّد السّيد - بيروت - دار المعرفة - ط 01-

1424هـ/2003م - ص 434.

2- التقديم والتأخير:

أشرنا إلى هذا المبحث في الفصل السابق وقلنا إنه من مظاهر التوارد الرئيسية، وإنه ذو صلة وثيقة بموضوع التضام وقضايا البلاغة والإعجاز، وستكون لنا وقفة معه في آيات من سورة أخرى هي سورة طه.

يقول الحق تعالى: ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾¹، في القرآن ما يزيد على مئتي موضع تقدمت فيها السماء على الأرض جريا على الأصل في تقدم الأشراف، بينما تقدمت الأرض على السماوات في ثلاث عشرة آية، منها آيتان وقعت السماء فيهما فاصلة وإحداهما فقط وقعت الفاصلة مسجوعة هي هذه الآية من سورة طه²، فتقدم الأرض على السماء من المواطن التي قيل فيها إن القرآن غير فيها بين المتعاطفات لتناسب الفواصل، مخالفة للأصل من تقدم الأشراف على ما هو دونه، فقيل إن تقديمها على سبيل تحقيق السجع، وقد جاء عن بعضهم أن عشرات المرات ورد ذكر الأرض مقرونة بالسماء مفردة ومجموعة، وفي هذه المرات نجد أن السماء أو السماوات مقدّمة على الأرض إلا في مواضع قليلة جدًا قدم فيها ذكر الأرض ويتجلى في موضعين، وذلك من أجل تناسب الفواصل، منه هذه الآية، فإن فواصل الآيات على الألف ومراعاة للتناسب بين هذه الفواصل قدّمت الأرض على السماوات التي وصفت بـ"العلی" المختوم بالألف، ولذلك لما انتهى هذا الاقتضاء وجاء الجمع مرة أخرى بينهما في الآية التالية للآيات السابقة مباشرة عاد الاقتران إلى أصله، فقدّمت السماوات على الأرض³، وإذا اعتدنا بمثل هذا القول الذي يعتبر التّقدم فيه لمجرد رعاية الفواصل، فإن عشرة مواضع أخرى تقدمت فيها الأرض على السماء وليست فاصلة يصبح تقديمها عاريا من الفائدة، وهو ما لا يصحّ وقوعه بحال في بيان المعجز، على أن أحد الموضعين اللذين وقعت فيهما السماء فاصلة جاءت فاصلته بين فواصل متغايرة الروي والوزن، في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٦٥﴾ مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ

¹ الآية 04.

² السهيلي: نتائج الفكر في النحو - ص 270. وينظر: السجع القرآني، دراسة أسلوبية: هدى عطية عبد الغفار - ص 259.

³ الآية 06. وينظر: الآيتان 38. 39 من سورة إبراهيم.

الْفُرْقَانُ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَايَتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿١﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾¹، فجاءت الفواصل [الإنجيل، انتقام، السماء، الحكيم]، وفهم أسرار التلقم والتأخير يرجع معظمه إلى حصر أسباب التلقم في الزمان والشرف، فإذا لم يكن المتقدم أسبق زماناً أو أعلى رتبة فقد مرجحات تقديمه، وقد أشار السهيلي إلى أسباب عديدة للتقدم فقال: «ما تقدم من الكلام فتقديمه في اللسان على حسب تقدم المعاني في الجنان، والمعاني تتقدم في إحدى خمسة أشياء: إما بالزمان، وإما بالطبع، وإما بالرتبة، وإما بالسبب، وإما بالفضل والكمال، فإذا سبق معنى من المعاني على الخلد والفكر بأحد هذه الأسباب الخمسة أو بأكثرها سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق، نعم وربما كان ترتب الألفاظ بحسب الخفة والثقل لا بحسب المعنى كقولهم: ربيعة ومضر، وكان تقدم مضر أولى من جهة الفضل، ولكنهم آثروا الخفة لأنك لو قدمت مضر في اللفظ كثرت الحركات وتوالت، فلما أخرت وقف عليها بالسكون»² فهو يذكر خمسة أسباب للترتيب بحسب المعاني، وسبباً لفظياً جرى عليه لسان العرب في الميل إلى خفة اللفظ وسهولة جريانه على الألسنة، ثم إن هذه الأسباب تختلف في ذاتها طبقاً لمواقعها ودواعي السياق، فمثلاً التقدم في الرتبة قد ينظر إلى الفضل والشرف فيقدم الأعلى، وقد ينظر فيه إلى سياقه فيقدم الأدنى إذا كان سياقه أقرب³، وبهذا فسّر السهيلي تقدم السماء على الأرض تارة، وتقدم الأرض تارة أخرى، فقال: «أما تقدم السماء على الأرض فبالرتبة والفضل والشرف، وأما تقدم الأرض من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعَزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾⁴، فالرتبة لأنها منتظمة بذكر ما هي أقرب إليه، وهو المخاطبون بقوله: "ولا تعملون من عمل" فاقتضى حسن النظم تقديمها مترتبة في الذكر مع المخاطبين الذين هم أهلها»⁵، أما آية سورة طه فقد وقع البيضاوي على سرّ دقيق لتقدم الأرض

1 سورة آل عمران - الآيات: 02 - 06.

2 السهيلي: نتائج الفكر في النحو - ص 267.

3 محمد الأمين الخضري: من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية - ص 13.

4 سورة يونس - الآية 61.

5 السهيلي: السابق - ص 270.

يكشف عنه قوله: «تفخيم لشأن المترل بغرض تعظيم المترل بذكر أفعاله وصفاته على الترتيب الذي هو عند العقل، فبدأ بخلق الأرض والسّموات وهي أصول العالم، وقدم الأرض لأنها أقرب إلى الحسّ وأظهر عنده من السّموات»¹، فنظر في ترتيب المعاني وحصرها في الألفاظ إلى حركة العقل في توجيه لإدراك حقائق الخلق، توصلاً منها إلى الخالق، فهو يدرك ظواهر الأشياء أولاً ثم ينفذ منها إلى خوافيها، لذا كان نسق الآيات متجاوباً مع هذه الحركة العقلية فقدم القرآن بين يدي تعظيم المترل صفات الأفعال على صفات الذات، فبدأ بخلق الأرض والسّموات، والخلق صفة فعل، وهي تابعة في الوجود لصفة الذات، وهي الرّحمة التي بها كان الخلق، ثم جاء قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾² لأنه لما كان القادر قد لا يكون ملكاً، قال دالاً على ملكه مادحاً له بالقطع خيراً لمبتدأ محذوف، مفتتحاً بالوصف المفيض للتعم العامة للطائع والعاصي³ وربطاً للمحسوس بالمعقول، واهتداء بالشاهد على الغائب، ثم كان البدء بالأرض في صفة الخلق هو الأحقّ، لقربها من الانسان وظهور العلم بها، انطلاقاً إلى العلم بما هو أعظم وأخفى، فليس الترتيب هنا بين الأرض والسّموات ترتيب وجود، ولا ترتيب تعظيم، وإنما هو مسابرة لحركة العقل في إدراك حقائق الأشياء حسب قربها وظهورها بغية الاستدلال بالقرب الأظهر على البعيد الأخفى⁴، وقد ذهب الألوسي إلى أنّ تقدم الأرض بحسب المقام، فإنّ الإنعام على الناس بخلق الأرض أظهر وأتمّ وهي أقرب إلى الحسّ، وقيل لأنه أوفق بمفتح السّورة على جعل (طه) جملة فعلية أي "طأ الأرض) بقديمك، أو لقوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾⁵، بناء على أنّه جملة مستأنفة لصرفه صلى الله عليه وسلّم عما كان عليه من رفع إحدى رجليه على الأرض في الصّلاة كما جاء في أسباب النزول⁶، ففي تقدم الأرض - بين يدي مواساة الله لنيبه، وإزالة ما سببه له إعراض قومه من آلام وأحزان - تلمح الارتباط بين الشقاء وموطنه هو الأرض⁷، فكان

1 أنوار التّبريل وأسرار التّأويل - ج1 - ص 449.

2 سورة طه - الآية 05.

3 برهان الدّين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور - ج16 - ص 268.

4 محمّد الأمين الحضري: من أسرار المغابرة في نسق الفاصلة القرآنية - ص 15.

5 الآية 02.

6 روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني - بيروت - دار إحياء التراث - د ط - د ت - ج16 - ص 152.

7 محمّد الأمين الحضري: السّابق - ص 15.

البدء به هو الأليق ببلاغة النظم، ولما قدّم الأرض إعلاما بالاعتناء برحمها والترفق بسكانها ليملاها بالإيمان منهم تحقيقا لمقصود السورة وتشريفا للمرتل عليه، أتبعها محل الإنزال على سبيل الترقى من بيت العزة إلى ما كثره في خزنة العرش، وبعد ذلك لما كان الملك قد لا يكون مالكا قال: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾¹، مقدّما الأشرف على العادة؛ (له ما في السماوات) كله من عاقل وغيره، و(ما في الأرض) جميعه و(ما بينهما) و(ما تحت الثرى)². ومن أسرار التقديم والتأخير في هذه السورة قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾³ إنني أنا الله لا إله إلا أنا فأعبدني وأقم الصلوة لذكرى⁴، فالاستماع مسبب للاختيار ومرتّب عليه، فإن الاختيار من موجبات الاستماع: "لِمَا يُوحَى" للذي يوحى، أو للوحي والأمر بالاستماع أمر بالتأهب، وبعدها رتب على وحدانية الله العبادة بالفاء في قوله: "فَاعْبُدْنِي" ولزوم الصلاة خصّها بالذكر بعد ذلك تخصيصا بعد تعميم العبادة⁴، فقدّم "فاستمع" اهتماما به، ثمّ تسبّب عن ذلك وجوب إفراده بالعبادة، ثمّ خصّ من بين العبادات معدن الأنس والخلوّة، وآية الخضوع والمراقبة وروح الدين فجاء بالصلاة، وهكذا القرآن في التقديم والتأخير يعرب عن جلاله نظمه وعلو مرتلته، ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى﴾⁵ تقدّم الجار والمجرور على الفاعل من الاهتمام بالمقدّم والتشويق إلى المؤخّر، ولأنّ في المؤخّر نوع طول بما يحلّ تقديمه بجزالة النظم الكريم، وقدّم عليه السلام بيان مصلحة نفسه في قوله: "أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا" وثنى بمصلحة رعيته في قوله: "وَأَهشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي" وقيل لعلّ تقدّم التوكؤ عليها لأنّه أوفق للسؤال بما تلك بيمينك⁶، ومما يظهر جرّاء التقديم مثلا ما

1 سورة طه - الآية 06.

2 برهان الدّين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ج 16 - ص 269.

3 الآيتان 13. 14.

4 أحمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير - ج 09 - ص 129.

5 سورة طه - الآية 18.

6 شهاب الدّين الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - ج 16 - ص 176.

جاء في قوله تعالى: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٥﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٦﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٧﴾¹، فقال بعضهم إنَّ تقدم الجار والمجرور (بنا) على متعلقه (بصيرا) لمراعاة الفواصل، وكأنه رأى أن التخصيص لا يتأتى فيه، لأنَّ بصر الله تعالى لا يغيب عنه شيء من خلقه، فلا يصحَّ حصره في المتكلم، لكنك حين تنعم النظر ترى أنَّ البصر الذي عناه موسى هو ما خصَّه الله به من العناية واللطف في كلِّ أطوار حياته، منذ تعلقت إرادة له بوجوده، إلى الوقت الذي صدح فيه بهذا الدعاء، كما هو صريح قوله تعالى امتنانا عليه: ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي الثَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ لَهُ² وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي ﴿٣٨﴾²، فكان التقديم وحده هو الذي يظهر إحساس موسى عليه السلام بفضل الله عليه³، وما خصَّه من الفضل المستوجب لعظيم الشكر والذكر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي وِزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٣٩﴾ هَنُورًا أُخِي ﴿٤٠﴾ أَشَدُّ بِيَمِي أَرْزِي ﴿٤١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٤٢﴾⁴، لفظ: "وزير" هنا مفعول ثانٍ لـ (اجعل)، وقدم على الأوَّل الذي هو قوله: "هارون" اعتناء بشأن الوزارة لأنها مطلوبة، و قيل في تقدم التسيب على الذكر إنَّ التسيب تزيه عما يليق، ومحله القلب، والذكر ثناء بما يليق ومحله اللسان، والقلب مقدَّم على اللسان⁵، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافُ إِنَّنِي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٣﴾⁶، وهنا قضية تقدم السَّمع والبصر، أمَّا تقدم السَّمع على البصر فهو متقدِّم عليه حيث وقع في القرآن مصدرا أو فعلا أو اسما، ومثال الفعل نحو هذه الآية، وهذا التقدُّم للسَّمع على البصر قيل إنَّ له سببين؛ إنَّ إنكار الأوهام الفاسدة لسمع الكلام، مع غاية البعد بين السَّامع والمسموع، أشدَّ من إنكارها لرؤيته مع بعده، أمَّا الآخر فأنَّ يكون السِّياق يقتضيه، بحيث يكون ذكرها بين الصِّفتين متضمِّنا للتهديد والوعيد، كما جرت عادة القرآن بتهديد المخاطبين وتحذيرهم بما يذكره من صفاته التي تقتضي الحذر والاستقامة، والقرآن مملوء من هذا، وعلى هذا فيكون في ضمن ذلك أنِّي أسمع ما

1 الآيات 33 . 34 . 35.

2 الآية 39.

3 محمد الأمين الحضري: من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية - ص 60.

4 سورة طه - الآيات 29 . 30 . 31 . 32.

5 شهاب الدِّين الألويسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - ج 16 - ص 186.

6 سورة طه - الآية 46.

يردون به عليك وما يقابلون به رسالاتي، وأبصر ما يفعلون، ولا ريب أن المخاطبين بالرسالة بالنسبة إلى الإجابة والطاعة نوعان؛ أحدهما قابلوها بقولهم: صدقت ثم عملوا بموجبها والآخر: قابلوها بالتكذيب، ثم عملوا بخلافها، فكانت مرتبة المسموع منهم قبل مرتبة البصر فقدم ما يتعلق به على ما يتعلق بالمبصر، وتأمل هذا المعنى في قوله تعالى لموسى عليه السلام في هذه الآية السابقة: "أَسْمِعْ وَأَرْوِّ" ، هو يسمع ما يجيبهم ويرى ما يصنعه¹ ، وهذا لا يعم سائر المواضع، بل يختصّ منها بما هذا شأنه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾² ، لما كان المقام لإظهار الخوارق على يديه، فكان ربّما فهم أنه أوقعه في نفس أحد غيره، كان المقام للاهتمام بتقدم المتعلق، فقال ذلك لا مراعاة للفواصل "في نفسه" أي خاصة، وقدم ما المقام به والاهتمام به، فقال: "خيفة موسى" مثل ما خاف من عصاه أول ما رآها كذلك على ما هو طبع البشر، وللتنظر إلى الطبع عبر بالنفس لا بالقلب مثلا³ ، فتأخير الفاعل على غير ما ترسمه قواعد النحو، إلا لأمر فني هو ما يقولون: إن النفس تتشوق لفاعل "أوجس"، فإذا جاء بعد أن أخر وقع بموقع⁴ لأن أصل الكلام أن يتصل الفعل بفاعله ويؤخر المفعول، لكن أخر الفاعل هنا، فالتقدم في الآية لم يلجأ إليه القرآن لأجل مزية السجع وحدها أو لتناسب الفواصل؛ وإلا كان شأنه في هذا شأن السجع في غيره، بل من مزايا التقدم في الآيتين غير مزية السجع الاهتمام بشأن سحرهم والمبالغة في الخيفة التي حدثت في نفسه، والاهتمام بإثباتها له⁵ ، لأن التقدم للضرورة ليس من البلاغة في شيء، وما يتوهم فيه أن تقدم بعض الألفاظ على بعض لتعادل رؤوس الآي قوله تعالى في هذه السورة: ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُبْحًا قَالَوْا أٰمٰنًا بِرَبِّ هٰرُونَ وَمُوسٰى﴾⁶ ، ولقد نالت هذه الآية الكريمة عناية كبيرة من قبل الباحثين، وتكلموا فيها من حيث التقدم والتأخير وأثر الفواصل، فردّ بعضهم هذا التقدم والتأخير لموافقة رؤوس الآي في السورة، نحو ما يقوله ابن جزي: «قدم

1 ابن قيم الجوزية: البدائع في علوم القرآن - ص 235.

2 سورة طه - الآية 67.

3 برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ج 16 - ص 307.

4 بدر الزركشي: البرهان في علوم القرآن - ج 01 - ص 62.

5 عبد المتعال الصعدي: البلاغة العالية، علم المعاني - ص 86.

6 الآية 70.

هارون على موسى لتعادل رؤوس الآي»¹، وقد برّر بعضهم هذا بسبب ما يقتضيه السياق، لأن الآية بعد هذا: ﴿قَالَ ءَامَتُمْ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَبِيرٌ كُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَأَلْصِقَبَنُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾²، والضمير في (له) يعود إلى أقرب مذكور، ولهذا لم يقل: "رب موسى وهارون"، فكان لابد لإقامة السياق من الترتيب الذي عليه الآية، وأمّا الفاصلة فلأن رؤوس الآيات في السورة جاءت في الأغلب بألف المدّ المقصورة أو الممدودة³، فإذا تتبّعنا اقتران موسى وهارون عليهما السلام في القرآن فسنجده عشر مرّات، في تسع منها يتقدّم فيها ذكر موسى على هارون، وفي أربع منها في غير الفاصلة، وخمس في الفاصلة، وتقدّم ذكر هارون على موسى في موضع واحد وفي الفاصلة، تمثله هذه الآية، وهو موضع الخلاف، ومن مسوغات الابتداء بـ (هارون) هنا أن (هارون) أفصح من (موسى) عليهما السلام، وأكبر منه بثلاث سنوات، وهما ميزتان تسمحان له بتقدّمه في أحد المواضع حين يُذكران⁴، ولكن الإشكال الذي يبقى مطروحا هو لماذا هذا الموضوع دون موضع آخر؟ وهنا نعود بالمسألة إلى التراث حين أثارها الباقلاّني عند حديثه عن نفي السجع من القرآن ليتعرّض لهذه المسألة بقوله: «وأما ما ذكروه من تقدّم موسى على هارون عليهما السلام في موضع، وتأخيره عنه في موضع، لمكان السجع، ولتساوي مقاطع الكلام، فليس بصحيح، لأنّ الفائدة عندنا غير ما ذكروه، وهي أن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدّي معنى واحدا من الأمر الصّعب الذي تظهر فيه الفصاحة، وتبيّن فيه البلاغة، وأعيد كثير من القصص في مواضع مختلفة، على ترتيبات متفاوتة، وتبّهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بتمثله، مبتدأ به ومكرّرا»⁵، بيد أن جوابه هذا يبقى محلّ إشكال أيضا، لأنّه يفترض أن اختلاف الصياغات في تكرار القصص إنّما هو إظهار القدرة على إعادة القصة مع إحكام الصوغ ودقّة السبك، وهذا ممّا يصعب، وليس اختلاف الصياغة في تكرار القصة لذلك، ولا لبيان عجزهم عنها

1 التسهيل لعلوم التّزويل - ج 02 - ص 22.

2 سورة طه - الآية 71.

3 كمال الدّين مرسي: فواصل الآيات القرآنية - ص 74.

4 محمّد الحسناوي: الفاصلة في القرآن - عمان - دار عمار - ط 02 - 1421هـ / 2000م - ص 119.

5 إعجاز القرآن - ص 115.

ابتداء وتكرراً¹ أما تقدم هارون على موسى عليهما السلام في آية سورة طه، ففيه إشارة معنوية لا تكون لو أُخِّر، وذلك أن موسى وهارون عليهما السلام، وإن حُمِّلا معا أمر الله: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾²، إلا أن موسى عليه السلام هو الأصل فهو الذي خاطب: ﴿أَذْهَبْ أَنْتَ وَأُخُوكَ﴾³ وهو الذي أوتي الكتاب وأُيد بالحجة يجعل لقولهم: ﴿قَالُوا ءَأَمْنَا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ﴾⁴، معنى ليس في قولهم: "أما برّب موسى وهارون" لأنّ بدعهم بمن ليس أفضل دالّ على إظهار قوة الاقتناع بالحجة والإيمان بها، وذاك لأنّ الآية لم تظهر على يد هارون عليه السلام ولم يكن هو الغالب، وليس في تقدم موسى عليه السلام الذي لفتت عصاه ما صنعوا شيئا، بلفت لأنه هو الأصل، أما تقدم من لا دخل له في المعجزة التي عليها آمنوا فهو الأمر اللّاف لآته جاء على خلاف الأصل، ويلاحظ أنّ سياق سورة طه فيه فضل عناية ببيان حفاوة السّحرة بهذه المغالبة⁵ واحتشادهم لها احتشادا جعل موسى عليه السلام يقول لهم بعدما جعلوا موعدهم يوم الزينة: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلِكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحِتْكُم بِعَذَابٍ﴾⁶، وقد ذهب الخطيب الإسكافي إلى تفسير هذا التّقدم والحذف، إذ لم يذكر جملة: "ربّ العالمين" مثلما ذكرها في سورتي الأعراف والشّعراء، بسبب الفواصل، مراعيًا في ذلك جانب المعنى لا أداء اللفظ⁷، كما ذهب أبو بكر الرّازي إلى أنّ تقدم موسى على هارون في الآية إنّما ليقع موسى مؤخراً في اللفظ فيناسب الفواصل، يعني رؤوس الآيات، وقد وقف محمّد الأمين الخضري عند هذه الآراء وبدأ بمعن في صحتها، ومن جملة ما ذهب إليه أنّ القول بحذف "ربّ العالمين" من سورة طه - كما ذهب الخطيب الإسكافي - لمجرّد التشاكل إهمال لما بُنيت عليه هذه السّورة من الإيجاز في تصوير

1 محمّد محمّد أبو موسى: الإعجاز البلاغي، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم - القاهرة - مكتبة وهبة - د ط -

1427هـ/2006م - ص 204.

2 سورة طه - الآية 43.

3 سورة طه - الآية 42.

4 الآية 70.

5 محمّد محمّد أبو موسى: السابق - ص 205.

6 الآية 61.

7 درّة التّزئيل وغرّة التّأويل - ص 128.

هذا الحدث، كما يدلّ عليه ترتّب سجود السّحرة وإيمانهم على أمر الله لموسى بالإلقاء، دون ذكر إلقاء موسى عصاه، وهو ما تفرّدت به سورة طه. أمّا تقدّم هارون عليه السّلام على موسى عليه السلام فقد تكاثرت فيه التعليلات كانت أوهاما ما ردّ الباقلاني على القائلين بالسجع في القرآن¹، وهو أنّ «إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحدا، من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة، وتبيّن فيه البلاغة»² لأنّه يرّد عليه أنّ مخالفة الترتيب تتمّ على وجهها لو وقعت في إحدى السّورتين: الأعراف والشعراء، لمغايرتها لفواصل السّورة. أمّا أن تكون المخالفة في سورة طه التي تتحقّق بها مراعاة الفواصل، فإنّ هذا لا يُسقط حجّة المعارضين، ومثل هذا يرّد كذلك على ما قاله بعضهم من أنّ تقدّم هارون عليه السّلام لكبر سنّه، أو لدفع وهم أن يكون المقصود بربّ موسى عليه السّلام لو قدّم هو فرعون لسابق تربيته له، ويكون ذكر هارون عليه السّلام على ذكر الاستتباع. فيقال لهم: ولمّ لم يراع هذا في سورتي الأعراف والشعراء؟ وما الذي استدعى دفع هذا التوهّم في هذا الموضع خاصّة؟

وهذا نفسه يرّد على ما ذهب إليه الحسناوي من أنّ هذا التّقديم (بصور الحالة التّفسيّة التي كان عليها السّحرة لما ظهرت معجزة موسى، فألقوا سجّدا يتلعثمون بالشّهادة، فلمّ ظهر هذا التلعثم في سورة طه وحدها دون الموضعين الآخرين؟ اللهمّ إلّا أن يقال: إنّ تصوير الحدث في سورة طه بما تضمّنه من اختفاء موسى عليه السّلام بعد أن أمر الله تعالى بالإلقاء، وترتيب سجودهم وإيمانهم وقولهم هذا على الأمر بالإلقاء، وكأنّ المعركة بينهم وبين الله تعالى لا بينهم وبين موسى عليه السّلام، وما يوحيه من السّرعة في حسم المعركة وشدّة الهزيمة، وهو ما تميّزت به هذه السّورة؛ ولكنّه لم يقل هذا ولا شيئا يبرّر به هذه المغايرة.

ولعلّ أقرب الآراء إلى القبول ما ذكره محمّد أبو موسى معتمدا على وحي السّياق، وهو أنّ بدء السّحرة) بمن ليس أفضل دالّ على إظهار قوة الاقتناع بالحجّة والإيمان بها، وذلك لأنّ الآية لم تظهر على يد هارون، ولم يكن هو الغالب، وليس في تقدّم موسى عليه السّلام الذي لفتت عصاه ما صنعوا شيء يلفت، لأنّه هو الأصل، أمّا تقدّم من لا دخل له في المعجزة التي عليها آمنوا فهو الأمر اللّافت، لأنّه جاء على خلاف الأصل، ويلاحظ أنّ سياق سورة طه فيه فضل عناية

1 من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية- ص 16.

2 إعجاز القرآن- ص 115.

بيان حفاوة السحرة بهذه المغالبة، واحتشادهم لها احتشادا جعل موسى عليه السلام يقول بعد ما جعلوا موعدهم يوم الزينة: ﴿قَالَ لَهُم مُوسَىٰ وَيَلَكُمْ لَا تَقْتُلُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَبَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾¹، وتوسيعا لدائرة السياق وامتدادا لما ذكره أبو موسى يظهر هنا ملحظ آخر، تمتد فيه العناية من التركيز على احتشاد السحرة ومغالبتهم إلى إبراز دور هارون عليه السلام ومشاركته المؤثرة في الأحداث، ليكون ترتيب ذكرهما على سبيل الترتيب بعد أن كان ذكره في السورتين على سبيل التبعية، أما لماذا كان فضل العناية والاهتمام بدور هارون عليه السلام في هذه السورة وحدها فهذا ما يفصح عنه السياق، حيث جاء في دعاء موسى عليه السلام من هذه السورة: ﴿وَأَجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾² هَرُونَ أَخِي ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾³ وَأَشْرَكَهُ فِي أَمْرِي﴾⁴، فهي السورة الوحيدة التي صرح فيها بهذه المشاركة، وهي أقوى في إبراز دوره من قوله في سورة الشعراء: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ﴾⁵ وهي الوحيدة بين السور الثلاث التي طلب فيها من ربه أن يجعله وزيرا، وقال في هذه السورة: ﴿فَأَتِيَاهُ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ أَهْدَىٰ﴾⁶ فأبرز بشية الرسول استقلال هارون عليه السلام، في حين ظهرت تبعيته في أفراد الرسول من سورة الشعراء: ﴿فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ أَلْعَلَّمِينَ﴾⁷، واستمرارا لإبراز استقلال هارون عليه السلام ومشاركته المؤثرة في الأحداث وصفه قوم فرعون بما وصفوا به موسى عليه السلام من السحر، في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِن هَذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّىٰ﴾⁸، فتوالت ضمائر التثنية لتؤكد مشاركة هارون لموسى عليهما السلام في مجاهدة القوم، أما في سورتي

1 الآية 61.

2 سورة طه - الآيات 29. 30. 31. 32.

3 الآية 13.

4 الآية 47.

5 الآية 16.

6 الآية 63.

الأعراف وطه فقد أفردوا موسى عليه السلام بوصف السحر وتوارت شخصية هارون عليه السلام تماما، فجاء في سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَلَمْأَلًا مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾¹ يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون¹، وفي سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾² يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون²، كل ذلك جعل من تقدم هارون عليه السلام في سورة طه إبرازا لدوره، وتركيزا في مشاركته في الأحداث ثم جاء موسى عليه السلام بعده على سبيل الترقى من البدء بالأفضل فالأفضل³، بخلاف ذكره بعد موسى عليه السلام في مثل سياقاته فإنه يوحي بتبعيته، ويبدو في دور المساند لا المشارك.

يقول الحق تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾⁴، والتقدم في الآية في (جسد)، والمعروف أن عجلته صورة لا معنى، على قوله: "له خور" لئلا يسبق إلى وهم أنه حي، فتمر عليه لمحة على اعتقاد الباطل⁵، ومما وقع في حيز التقدم والتأخير أيضا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾⁶، فقدم (من لدنا) على طريق الاهتمام⁷، وأخر (ذكرا) للتشويق وهو القرآن الكريم، ومن لطائف ما جاء من التقدم والتأخير في هذه السورة قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾⁸، وأصل الكلام: "ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما"، ولتوضيح المعنى، علينا أن نذكر قول الله تعالى في الآية السابقة عليها، وهو قول الحق سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ

1 الآيات 109. 110.

2 الآيات 34. 35.

3 محمد الأمين الحضري: من نسق الفاصلة في القرآن الكريم- ص 17- 19.

4 سورة طه- الآية 88.

5 برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور- ج16- ص 330.

6 سورة طه - الآية 99.

7 احمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير- ج09- ص 212.

8 الآية 129.

لَأَيَّتِ لِأُولَىٰ أَلْتُهُنَّ¹، والمعنى : ألم يعتبر هؤلاء بما حدث للأمم السالفة؟ ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير العذاب إلى يوم القيامة لكان العذاب لازما وواقعا عليهم لعدم اعتبارهم وغفلتهم ويتضح أيضا أن (أجل مسمى) معطوفة على (كلمة)، وهذا الإجمال قد أتى في هذه الآية في حالة التقديم والتأخير، ومعلوم أن التقديم والتأخير لون من ألوان الفصاحة في الأسلوب، وله ما له من الأغراض البلاغية²، نحو الاهتمام بالشيء وإظهار ضرورته.

1 الآية 128.

2 السيد أحمد عبد الغفار: قضايا في علوم القرآن تعين على فهمه - ص 219.

3. المناسبة:

سورة طه تُسمى أيضا سورة الكليم، وهي سورة مكية في قول الجميع¹، كما ذكر ذلك السخاوي في جمال القراء، وكما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس، وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم أنها سورة مكية، واستثنى بعضهم² منها قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾³، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾⁴، وهناك من ردّ قول من قال إن هاتين الآيتين مدنيتان، بل انسجامهما كليًا مع السياق سبكا وموضوعا يسوغ الشك في الرواية، وفي فاتحة السورة ما يمكن أن يكون قرينة على صحة نزولها بعد سورة مريم، وأن فصول السورة مترابطة منسجمة، كما أن آياتها متماثلة في التسجيع، وأكثر مقاطعها متوازنة مقفأة، مما يسوغ القول إنها نزلت فصولا متلاحقة⁵.

هذه السورة هي الخامسة والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة مريم، وقبل سورة الواقعة، ونزلت قبل إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعُدّت آياتها في عدد أهل المدينة ومكة مئة وأربعا وثلاثين، وفي عدد أهل الشام مئة وأربعين، وفي عدد أهل البصرة مئة واثنين وثلاثين، وفي عدد أهل الكوفة مئة وخمسا وثلاثين⁶، وفي سبب نزولها قالت فرقة إنَّما هو ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحمّله من مشقة الصلاة حتى كانت قدماه الشريفتان تورّم ويحتاج إلى الترويح بين قدميه فقيل له: طأ الأرض، أي لا تتعب حتى تحتاج إلى الترويح

1 القرطبي: الجامع لأحكام القرآن- مج06- ج11- ص110. وينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية الأندلسي(ت546هـ)- عبد السلام عبد الشافي محمد- بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1422هـ/2001م- ج04- ص36.

2 ينظر: الكشف عن حقائق غوامض الترتيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري- ج04- ص63. وينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين الألويسي- ج15- ص147.

3 الآية 130.

4 الآية 131.

5 محمد عزة دروزة: التفسير الحديث- بيروت- دار إحياء الكتب العربية، عيسى الباي الحلبي وشركاه- د ط- 1381هـ/1963م- ص03- ص69.

6 الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير- ج16- ص181.

فالضمير في (طه) على هذا القول للأرض وخففت الهمزة فصارت ألفا ساكنة. وقالت فرقة وإنما سبب الآية أن قريشا لما نظرت إلى عيش رسول الله صلى الله عليه وسلم وشطفه وكثرة عبادته قالت: إن محمدا مع ربه في شقاء، فترلت الآية رادة عليهم، أي إن الله لم ينزل القرآن ليجعل محمدا شقيا، بل ليجعله أسعد بني آدم بالتعظيم المقيم في أعلى المراتب¹، وقد روى السيوطي وقال: «أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أول ما أنزل الله عليه الوحي يقوم على قدميه إذا صلى، فأنزل الله: ﴿طه﴾ مآ أنزلنا عليك القرآن لتشقى² وأخرج عبد بن حميد في تفسيره عن الربيع بن أنس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يراوح بين قدميه ليقوم على كل رجل، حتى نزلت: ﴿طه﴾ مآ أنزلنا عليك القرآن لتشقى³ وأخرج ابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس قال: قالوا لقد شقي هذا الرجل بربه³، فأنزل الله: ﴿طه﴾ مآ أنزلنا عليك القرآن لتشقى⁴»، وقد شكك بعضهم في صحة أن سبب نزولها كان بمناسبة ما كان من إجهاد النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة، والوقوف للعبادة وقراءة القرآن، بدليل أن هذا لا ينسجم مع روح الآيات بقطع النظر عن حقيقة جهد النبي صلى الله عليه وسلم لعبادة الله، مما حكته سورة المزمل، و«المتبادر أن الآيات نزلت بسبب تخفيف ما يبدو من النبي صلى الله عليه وسلم من جهد وتعب في دعوة الناس وهدايتهم»⁴، وهذا المعنى قد اختتمت به السورة السابقة بعد سلسلة من صور مواقف الكفار وأقوالهم، وما يلاحظ أن هذا المعنى قد تكرر في سورة فاطر التي سبقت سورة مريم في النزول، فكانت آيات هذه السورة تسلية له عليه السلام بعد تلك الأقوال التي تثير في نفسه أزمات حزن وغم. أما ما ينهض به هذا المبحث فبالتركيز فيه على مناسبة هذه السورة من حيث محاورها الكبرى، ووجه ترتيبها وارتباط أولها بآخرها، وارتباط ما قبلها بما بعدها، وذكر بعض المواطن الخاصة بقصة موسى عليه السلام.

1 ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ج 04 - ص 37.

2 الآيتان 01. 02.

3 ينظر: لباب القول في أسباب النزول - الجزائر - المؤسسة الوطنية للكتاب - تونس - السدائر التونسية - د ط -

1404م/1984م - ص 183.

4 محمد عزة دروزة: التفسير الحديث - ج 03 - ص 70.

تتألف السورة من مقدمة، ثم من قصة موسى عليه السلام على ثلاث مراحل، ثم فاصل ثم قصة آدم عليه السلام، ثم خاتمة، أما القضايا التي جاءت في تضاعيف هذه السورة وكُررت في عبارات مختلفة وأساليب متعددة فتفصيلها في العناصر الآتية:

- خصائص الوحي المنزل برفع الحرج ودفع المشقة، فهو رحمة وسعادة.
- الناس مع الوحي المبارك مختلفون، فتذكر الآيات قصة الوحي مع موسى عليه السلام.
- قصة موسى عليه السلام مع ربه، فكما بدأ نزول الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم في غار حراء كانت كذلك أولى الآيات مع موسى عليه السلام بالواد المقدس طوى، وأن ما خوطب به موسى عليه السلام نفسه ما خوطب به جميع الرسل.
- معجزة العصا وانقلابها حية.
- معجزة اليد وإخراجها بيضاء من غير سوء.
- نعم الله على سيدنا موسى عليه السلام قبل النبوة، وهي سنة الله في تأييد الأنبياء بالآيات.
- توجيهات الله لموسى وهارون عليهما السلام في دعوة فرعون.
- الحوار بين فرعون وموسى عليه السلام حول الربوبية.
- اتهام موسى عليه السلام بالسحر.
- جمع فرعون السحرة وتحذير موسى عليه السلام.
- بين موسى عليه السلام والسحرة وإعلان إيمانهم علناً.
- المسير ببني إسرائيل وإغراق فرعون وجنوده، ونعم الله على بني إسرائيل، ومظاهر عناية الله بالمرسلين.
- استعجال موسى عليه السلام وفتنة السامري.
- معاتبه موسى لأخيه هارون عليهما السلام، وقصة تأليه العجل.
- أخذ العبرة من قصص الماضين وجزاء المعرض عن القرآن.
- أحوال الجبال والناس يوم القيامة.

- إنزال الله القرآن عربيا وأمره نبيّه عليه السّلام بعدم العجلة بقراءته عند تلاوة جبريل عليه السّلام.
- قصّة إخراج آدم عليه السّلام من الجنّة بعد وسوسة الشيطان لهما.
- الاعتبار بهلاك الأمم الماضية، والصبر على أذى المشركين، وعدم الالتفات إلى متّعهم، وأمر الأهل بالصلاة.
- تختتم السّورة بذكر مطلب المشركين لمحمد صلى الله عليه وسلم بآية كالتّاقة والعصا. واقتراحهم الإتيان بمعجزة أخرى غير مكتفين بمعجزة القرآن.
- توعدّه سبحانه لهم بالتربص، وأمرهم بالتذكّر في أصحاب الصّراط السّويّ ومن اهتدى، فمثلما بدأت السّورة خطابا للنبيّ صلى الله عليه وسلم، تختتم أيضا خطابا له عليه السّلام ببيان وظيفته وحدود تكاليفه، إنّها ليست شقوة كتبت عليه، وليست عناء يعذب به، إنّما هي الدّعوة والتذكّرة، وهي التبشير والإنذار، وأنّ أمر الخلق بعد ذلك إلى الله الواحد الذي لا إله غيره، وبين المطلع والختام تُعرض قصّة موسى عليه السّلام كما مرّ في هذه العناصر من حلقة الرّسالة إلى حلقة اتّخاذ بني إسرائيل العجل بعد خروجهم من مصر مطوّلة ومفصّلة، وبخاصّة موقف المناجاة بين الله وكليمه موسى، وموقف الجدل بين موسى عليه السّلام وفرعون، وموقف المبارزة بين موسى والسّحرة، وتتجلّى في غضون القصّة رعاية الله لموسى عليه السّلام الذي صنعه على عينه واصطنعه لنفسه، وتعرض بعدها قصّة آدم عليه السّلام سريعة قصيرة، تبرز فيها رحمة الله لآدم عليه السّلام بعد خطيئته، وهدايته له، وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدى وأظلال بعد التذكير والإنذار، وتحيط بالقصّة مشاهد القيامة، وكأنّما هي تكملة لما كان أوّل الأمر في الملأ الأعلى من قصّة آدم عليه السّلام، حيث يعود الطّائعون إلى الجنّة ويذهب العصاة إلى النّار تصديقا لما قيل لأبيهم آدم عيه السّلام وهو يهبط إلى الأرض بعد ما كان، ومن ثمّ بمضي السّياق في هذه السّورة في شوطين اثنين: الشّوط الأوّل يتضمّن مطلع السّورة بالخطاب إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم: ﴿طه ١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَنْ يَخْشَىٰ ﴿٣﴾^١
- تتبعه قصّة موسى عليه السّلام نموذجًا كاملاً لرعاية الله سبحانه لمن يختارهم لإبلاغ دعوته فلا يشقون بها وهم في رعايته، والشّوط الآخر يتضمّن مشاهد القيامة وقصّة آدم عليه السّلام، وهما

يسيران في اتجاه مطلع السورة وقصة موسى عليه السلام، ثم ختام السورة بما يشبه مطلعها ويتناسق معه ومع جو السورة¹، وعلى نحو ما رأينا صلة سورة هود بالآيات الأولى من سورة البقرة، فإن سورة طه أيضا مشابهة لهذه الظاهرة، فهي تفصل آيات من سورة البقرة، وترتبط بها وذلك أن سورة طه تبتدئ بقوله تعالى: ﴿طه﴾ ١ مَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ٢، وتنتهي بقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ مُرْتَبَضٍ فَرَئِبُوا ٣ فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ٣﴾، لاحظ كلمة (أنزلنا) في بدايتها وكلمة (اهتدى) في نهايتها، وتأمل الآيات الأولى من سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يَأْتُونَكَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمِمَّا زَكَرْتَ وَمِمَّا نَحْوَهَا يُفِئُونَ ٤﴾، لاحظ كلمة (بما أنزلنا إليك) وكلمة (أولئك على هدى من ربهم) لتري الصلة واضحة بين سورة طه وبين الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة، وإذا نظرنا إلى مضمون السورة وإلى كونها تقص علينا من نبأ موسى عليه السلام وإلى قوله تعالى فيها: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ٥ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ٦﴾ مِّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ٥، وإلى قوله تعالى فيها: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ ٧ ذِكْرًا ٦﴾، وصلة ذلك كله بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ٧﴾ وإذا نظرنا إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ٨﴾، وصلة ذلك بقوله تعالى:

1 سيد قطب: في ظلال القرآن - ج16 - ص2326.

2 الآيات 01 . 02.

3 الآية 135.

4 الآيات 01 - 05.

5 الآيات 99 . 100.

6 الآية 113.

7 سورة البقرة - الآية 04.

8 سورة طه - الآية 123.

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾¹، وإلى قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾² وصلة ذلك بإقامة الصلاة، فإننا لم نبعد إذا قلنا إن محور سورة طه هو الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة، وبالتحديد ينصب تفصيلها على الآية الرابعة والآية الخامسة بشكل مباشر³، أي على قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾⁴ ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾⁴.

بعد هذه التوطئة يتجه الحديث إلى ترتيبها وافتتاحها بالحروف المقطعة (طه)، وارتباط فاتحتها مع خاتمة سابقتها، وفاتحتها مع خاتمتها، وخاتمتها مع فاتحة السورة التي تليها، وذكر بعض الجديد فيها وفي قصة موسى عليه السلام، وبعض اللّمسات فيها، أما وجه ترتيبها بعد سورة مريم فإن المقصود من السورة كما تقدم تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم بإعلامه بالرفق بأمتة والإقبال بقلوبهم حتى يملأوا الأرض كثرة، كما أنزل عليهم السكينة وهم في غاية الضعف والقلة وحماهم ممن يريد قتلهم، ولين قلب عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد ما كان فيه من الغلظة وجعله وزيرا، ثم حماه بعدو، وتأمينه صلى الله عليه وسلم أن يستأصلوا بعذاب، وبأنه يموت نبيهم قبلهم لا كما وقع للمهلكين من قوم نوح وهود عليهما السلام ومن بعدهم بما دلّ عليه افتتاح هذه السورة بنفي الشقاء وختم تلك يجعل الودّ وغير ذلك، والداعي إلى هذا التأمين أنه سبحانه لما ختم تلك بإهلاك القرون وإبادة الأمم بعد إنذار القوم اللد، ولم يختم سورة من السور الماضية بمثل ذلك كان ربّما أفهم أنه قد انقضت مدتهم وحلّ بوارهم، وأتى دمارهم، وأنه لا يؤمن منهم لما هم فيه من اللد، إلا من آمن، فحصل بذلك من الغم والحزن ما لا يعلم قدره إلا الله، لأن الأمر كان في ابتدائه، ولم يسلم منهم إلا نفر يسير جدا⁵، ووجه آخر هو أنه لما ذكر في سورة مريم عدّة قصص من الأنبياء وهم: زكريّا ويحيى وعيسى الثلاثة مبسوطه، وإبراهيم وهي بين البسط والإيجاز، وموسى وهي موجزة بجملة، أشار إلى بقية التبيين في الآية الأخيرة إجمالا: ﴿أُولَئِكَ

1 سورة البقرة - الآية 05.

2 سورة طه - الآية 132.

3 سعيد حوى: الأساس في التفسير - مج 04 - ص 3339.

4 الآيات 01 - 05.

5 برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ج 16 - ص 266.

الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ
وَمِمَّنْ هَدَيْتَنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿١﴾، وذكر في هذه
السورة شرح قصة موسى التي أجملها هناك، فاستوعبها غاية الاستيعاب وبسطها أبلغ بسط، ثم
أشار إلى تفصيل قصة آدم عليه السلام الذي وقع مجرد اسمه هناك في سورة مريم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ ﴿٢﴾، ثم أورد في سورة الأنبياء بقية قصص لم تذكر في
مريم كـ: [نوح ولوط وداود وسليمان وأيوب وذو الكفل وذو النون] عليهم السلام، وأشار إلى
قصة من ذكرت قصته إشارة وجيزة، كموسى وهارون وإسماعيل وزكريا ومريم عليهم السلام
لتكون السورتان كالمقابلتين، وبسطت فيها قصة إبراهيم البسط التام فيما يتعلق مع قومه، ولم
تذكر حاله مع أبيه إلا إشارة، كما أنه في سورة مريم ذكر حاله مع قومه إشارة، ومع أبيه
مبسوطاً³ وزاد الألوسي أنه ينضم إلى هذا اشترك هذه السورة وسورة مريم في الافتتاح بالحروف
المقطعة، وقد روي عن ابن عباس وجابر بن زيد رضي الله تعالى عنهم أن سورة طه نزلت بعد
سورة مريم، ووجه ربط أول هذه بأخر تلك أنه سبحانه ذكر هناك تيسير القرآن بلسان الرسول
عليه الصلاة والسلام معللاً بتبشير المتقين وإنذار المعاندين وذكر تعالى هنا نوع ما فيه من تأكيد
ذلك⁴، ومن حيث المرجعية والتماسك فإن سورة مريم في خاتمتها توجه الخطاب إلى رسول الله
صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ
قَوْمًا لُدًّا ﴿٥﴾، لتبدأ سور طه بتوجيه الخطاب إلى الرسول المصطفى صلّى الله عليه وسلّم لبيان

1 سورة مريم - الآية 58.

2 الآية 58.

3 جلال الدين السيوطي: تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور - ص 102.

4 روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - ج 15 - ص 147.

5 الآية 97.

وظيفته؛ يقول تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢﴾﴾¹، ويمكن تمثيل هذه المرجعية التي تحقق التماسك والمناسبة بين هذه السورة والتي قبلها على النحو التالي:²

مرجعية خلفية بالضمائر

الخطاب إلى رسول الله → الخطاب إلى رسول الله

الحديث عن القرآن الكريم → الحديث عن القرآن الكريم

بيان وظيفة البشر [لتنذر] → بيان وظيفة البشر [إلا تذكرة]

وقد مر معنا في الفصل السابق أثر المرجعية في تحقيق التماسك، وأن هذا التماسك قائم على هذه المرجعية، وهي خلفية، نظرا لترتيب السور، فانظر إلى عجيب هذا الترتيب وبديع هذا التأليف، وكل هذا يزيد من تضام كلمات السورة وترباطها، ويُخرج موضوع التضام كما أشرنا سابقا من مجرد توارد الكلمة مع أختها إلى مجال أوسع وأرحب؛ يبحث في تضام الكلمات على مستوى الكلمة والآية والسور بعضها مع بعض، أما وجه افتتاحها بالحروف المقطعة الهجائية (طه) وعلاقته بترتيب السور ففيه ملمح غريب ولطيف، وهو أنه لما كان مقصود هذه السورة الإعلام بإمهال المدعوين والحلم عنهم والترفق بهم إلى أن يكونوا أكثر الأمم، زيادة في شرف داعيهم صلى الله عليه وسلم، دل اسمها بطريق الإشارة لتبيين أهل الفطنة والبصارة، وذلك بما في أولها من هذه الحروف المقطعة، لأنه لما كان ختام سورة مريم حاملا على الخوف من أن تملك أمته صلى الله عليه وسلم قبل ظهور أمره الذي أمره الله به واشتهار دعوته، لقلّة من آمن به منهم ابتداءً سبحانه بالطاء إشارة بمخرجها الذي هو من رأس اللسان وأصول الثنيتين العليين إلى قوة أمره وانتشاره، وعلوه وكثرة أتباعه، لأن هذا المخرج أكثر المخارج حروفاً، وأشدّها حركة وأوسعها انتشاراً، وبما فيها من صفات الجهر والإطباق والاستعلاء والقلقلة إلى انقلاب ما هو فيه من الإسرار جهراً، وما هو فيه من الرقة فخامة، لأنها من حروف التّفخيم، وأنه يُستعلى أمره وينتشر ذكره، حتى يطبق جميع الوجود ويقلقل سائر الأمم، ولكن يكون ذلك بما تشير إليه الهاء بمخرجها من أقصى الحلق

1 الآيات 02 . 03.

2 ينظر: علم اللغة النصي: صبحي إبراهيم الفقي - ص 165.

على حدّ بُعده من طرف اللسان مع طول كبير وتماد كثير، وبما فيها من صفات الهمس والرخاوة والانفتاح والاستفال والخفاء من مخافته وضعف كبير، وهدوء وخفاء عظيم، ومقاساة شدائد كبار، مع نوع فخمة واشتهار، وهو وإن كان اشتهارا يسيرا يغلب هذا الضعف كلّهُ وإن كان قويا شديدا، وقراءة الإمالة للهاء تشير إلى شدة الضعف، وقراءة التفخيم وهي لأكثر القراء مشيرة إلى فخامة القدر وقوة الأمر، بما لها من الانفتاح، وإن رُئي أنّه ليس كذلك: "أنّه يخافه ملك بني الأصفر"، وإن كان معنى الحرفين: "يا رجل"، فهو إشارة إلى قوته وعلو قدره، وفخامة ذكره وانتشار أتباعه وعموم أمره، وإن كانا إشارة إلى وطئ الأرض فهو إلاحه إلى قوة التمكن وعظيم القدرة، وبُعد الصبّيت حتى تصير كلّها مُلكا له ولأتباعه، ومُلكا لأمرائه وأشياعه¹، ومناسبة أخرى في افتتاح هذه السورة بهذين الحرفين، هو أن الحرف الأوّل منهما وهو: (ط) تجدها أوّل حرف في مركّبات افتتحت بها أربع سور [طه، الشعراء، التمل، القصص] وكلّها انتظمها الوحي المكّي وليس غريبا في الاتفاق، لكنّها الدقّة في الدلالة أن تجد هذه السور دارت أحداثها حول الإسراف في الحزن والتوغّل في الإشفاق، ففي (طه) نجد لفت رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن هذا التأسّف لكفر قريش، إنّهُ تحمّل ليس مطلوبا منه؛ ثمّ حديث عن موسى وفرعون، وفي (طه) تجد الهاء تُعنون حديثا طويلا فيه عرضُ موضوع أمّ حنون جزعت على وليدها في أمر إلهي لا جدال فيه ولا معقّب له، وموسى يخاف من حيّة تسعى، وإله يأمره وموسى وهارون يستبدّ بهما الخوف من فرعون، ويذهب المولى عنهما هذا الخوف، ويطمئن موسى، وفي موقف آخر يجد موسى العدو وراءه مدركا والبحر أمامه مغرقا، والله تعالى منجز ما وعده، وأزمة يجدها الخوف، ثمّ هناك خوف معتمّل لدى الصّالحين: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّٰلِحٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾²، وبعد: فإنّك تجد هاء للأمر تأهب له وأعدّ نفسه لمزاولته، ولا يكون التأهب للأمر وإعداد النفس لمزاولته إن لم تكن النفس في حاجة إلى مراس، وإن لم تكن قادرة على الخوض والمواجهة دون معاناة، وكيف لا يكون الخوف وأمّ بيدها تقذف بابنها في اليمّ، وقلبيها معلق به موله عليه، والأمر نافذ والرّضا محقق، وكيف لا يكون الخوف ورسول يقف أمام من ادّعى الألوهية، ثمّ يواجه سحر السحرة، إنّها أمور تحتاج فيها النفس لإعداد العدة وتحتاج فيها العزم، لا

1 برهان الدّين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ج16 - ص 255.

2 سورة طه - الآية 112.

يتوقّر لكثير لكنّه يتوقّر لأقلّ قليل¹، وما إن انعقدت التّية تنفيذا انعقدت القدرة تعزيزاً، ومن حيث ارتباط أوّل هذه السّورة بآخرها فإنّه لما علم بهذا أنّ إيمانهم كالممتنع، وجداهم لا ينقطع، بل إنّ جاءهم الهدى طعنوا فيه، وإنّ عذبوا قبله تظلموا كان كأنه قيل: فما الذي أفعل معهم؟ فقال: ﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا² فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى³﴾، فقوله: (قل كلّ أيّ منّي ومنكم، (متربّص) أي منتظر حسن عاقبة أمره، ودوائر الزّمان على عدوّه (فتربّصوا) فإنّكم كالبهائم ليس لكم تأمل ولا تجوزون الجائر إلّا عند وقوعه (فستعلمون) أيّ عمّا قريب بوعد لا خلف فيه عند كشف الغطاء (من أصحاب الصّراط) أيّ الطّريق الواضح الواسع (السّويّ) أيّ الذي لا عوج فيه، ولما كان صاحب الشّيء قد لا يكون عالماً بالشّيء ولا عاملاً به بما يعلم منه، قال (ومن اهتدى) أيّ من الضّلالة، فحصل على جميع ما ينفعه، واجتنب ما يضرّه نحن أم أنتم؟ ولقد علموا يقيناً ذلك يوم فتح مكّة المشرفة، واشتدّ اغتباطهم بالإسلام، ودخلوا رغبة في الحلم والكرم، ورهبة من السيّف والتّم، وكانوا بعد ذلك يعجبون من توقّفهم عنه ونفرتهم منه، وهذا معناه أنّه صلّى الله عليه وسلّم ومن أتبعه هم السّعداء الأغنياء الرّاضون في الدّنيا والآخرة، وهو عين قوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى³﴾ فقد انطبق الآخر على الأوّل ودلّ على أنّ العظيم يعامل بالحلم فلا يعجل⁴، وبالتالي إذا نظرنا إلى آخر السّورة رأينا متّصلاً بأوّل اتّصلاً وثيقاً، هؤلاء الذين آذوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وملأوا بالحزن قلبه، ألا يخشون المصير الذي انتهى إليه أسلافهم؟ يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ قَالُوا لَوْلَا نُنزِّلُ الْغَمَامَ جَمِيعًا لَنَفَّخْنَا بِهِمُ الْغَمَامَ وَالسَّعِيرَ⁵﴾، إنّ المعركة محتدمة بين الحقّ والباطل من بدء الخليقة⁶، أمّا مناسبة خاتمة هذه السّورة لفاتحة السّورة التي تليها وهي سورة الأنبياء فإنّ سورة الأنبياء مقصودها الاستدلال على تحقّق الساعة وقرها ولو بالموت، ووقوع الحساب فيها على

1 محمّد بدري عبد الجليل: براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسّور - ص 273.

2 سورة طه - الآية 135.

3 سورة طه - الآية 02.

4 برهان البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور - ج 16 - ص 377.

5 الآية 128.

6 محمّد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لتفسير القرآن الكريم - ص 250.

الجليل والحقير، لأنَّ موجدَها لا شريك له يعوقه عنها، والدَّال على ذلك أوضح دلالة مجموع قصص جماعة ممن ذُكر فيها من الأنبياء عليهم السَّلام، وأنَّه لما ختمت سورة طه بإبذار العباد بأنهم سيُعلمون الشَّقِيَّ والسَّعِيدَ وكان هذا العلم تارة يكون في الدُّنيا بكشف الحجاب بالإيمان، وتارة بمعاناة ظهور الدِّين، وتارة بإحلال العذاب بإزهاق الرُّوح بقتل أو غيره، وتارة ببعثها يوم الدِّين؛ افْتِشَحَتْ هذه بأجل ذلك وهو اليوم الذي يتم فيه كشف الغطاء فينتقل فيه الخبر من علم اليقين إلى عين اليقين، وحقَّ اليقين وهو يوم الحساب، وأنَّه لما تقدَّم قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾¹، إلى قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾²، قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾³، أي لا تمدَّن عينيك إلى ذلك فإني جعلته فتنه لمن ناله بغير حق، وأيضاً فإنه تعالى لما قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾⁴ وهم الشَّدِيدُو الخِصُومَةِ فِي الباطل، ثم قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِيسُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا﴾⁵، استدعت هذه الجملة بسط الحال، فابتدأت بتأنيسه عليه الصَّلَاة والسَّلام، وتسليته، حتَّى لا يشق عليه لددهم، فتضمَّنت سورة طه من هذا الغرض بشارته بقوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾⁶، وتأنيسه بقصة موسى عليه السَّلام وما كان من حال بني إسرائيل وانتهاء أمر فرعون ومكابدة موسى عليه السَّلام لردِّ فرعون، ومرتكبه إلى أن وقصه الله وأهله، وأورث عباده أرضهم وديارهم، ثم أتبع بقصة آدم عيه السَّلام لئري نبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سنَّته في عباده حتَّى أن آدم عليه السَّلام وإن لم يكن امتحانه بذريته ولا مكابدته من أبناء جنسه، فقد كابد من إبليس ما قصَّه الله في كتابه، وكلَّ هذا تأنيس للتَّيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ

1 سورة طه - الآية 131.

2 سورة طه - الآية 135.

3 سورة الأنبياء - الآية 01.

4 سورة مريم - الآية 97.

5 الآية 98.

6 سورة طه - الآية 02.

إذا تقرر لديه أنها سنة الله تعالى في عباده هان عليه لدد قريش ومكابدهم، ثم ابتدئت سورة الأنبياء ببقية هذا التأنيس¹، وقد رد السيوطي وجه اتصالها بسورة الأنبياء إلى أنه لما قال تعالى في سورة طه: ﴿قُلْ كُلُّ مُرْتَبَضٍ فَتَرْتَبُؤًا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾² وقال قبل هذه الآية: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾³، قال في مطلع هذه السورة، سورة الأنبياء: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾⁴، إشارة إلى قرب الأجل وذنو الأمل المنتظر⁵، وأنه لما تحدثت سورة طه عن تمتي القوم في قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّنَا أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾⁶ بدأت الأخرى ببيان موقعهم عندما تأتيهم الآية⁷، كما نصت الآية الكريمة: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ دِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾⁸، وأنه لما انتهت الأولى بالإخبار في قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾⁹، وهذا سوف يكون يوم القيامة، بدأت السورة الأخرى بالحديث عن قرب الحساب، فقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾¹⁰ وهذا بالطبع يوم القيامة، ومن لطائف المناسبات في التعبير القرآني ما جاء في قوله تعالى من هذه السورة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾¹¹ وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾¹¹ فقد كان الظاهر عدم الفصل بين الجوع والظما والعري والضحو للتجانس والتقارب، ميد أنه

1 برهان البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ج16 - ص 380.

2 الآية 135.

3 الآية 129.

4 سورة الأنبياء - الآية 01.

5 تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور - ص 102.

6 الآية 133.

7 صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي - ص 166.

8 سورة الأنبياء - الآية 02.

9 الآية 135.

10 الآية 01.

11 الآيات 118 . 119.

عدل عن المناسبة المكشوفة إلى مناسبة أتم منه، وهي أن الجوع خلو الباطن والعري خلو الظاهر فكأنه قيل لا يخلو باطنك وظاهرك عما يهتَمَا، وجمع بين الظمأ المورث حرارة الباطن، والبروز للشمس وهو الضحو المورث لحرارة الظاهر، بمعنى: لا يؤلمك حرارة الباطن والظاهر، وهو سرّ بديع من أسرار البلاغة. ومما قاله الزمخشري وغيره في كتب التفسير: «إنه يُسمى قطع النظير عن النظير، وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع والضحو عن الكسوة، مع ما بينهما من التناسب والغرض من ذلك تعداد هذه التعم وتصنيفها، ولو قرن كلاً بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة، وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديماً وحديثاً»¹، إذ جمّع النظائر في الآيتين من أساليب البديع في نظم الكلام بحسب الظاهر لولا أن عرض هنا ما أوجب تفريق النظائر.

فتأمل في لطائف نظم السور وبديع ترتيبها على أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه، فهو أيضاً بسبب ترتيبه ومناسبات نظم آياته.

1 ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض الترتيل وعيون الأقاويل في وجو التأويل - ج 04 - ص 114. وينظر: التفسير الكبير: أبو حيان الأندلسي - ج 22 - ص 122. وينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين الألوسي - ج 16 - ص 272. وينظر: تيسر التفسير: أحمد بن يوسف أطفيش - ج 09 - ص 227. وينظر: تفسير التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور - ج 16 - ص 323.

04. الفصل والوصل:

لقد أجمع البلاغيون على جعل هذا المبحث باباً رئيساً من أبواب البلاغة، وقلنا فيما سبق إن الألفاظ يتحد بعضها مع بعض وتتضام لتشكّل جملاً، ويتصل بعض هذه الجمل مع بعض لتشكّل بناء كاملاً يعتمد على قوانين وضوابط تحكمه وتجعله مترابط الأجزاء، وهذه العلاقات التي تنشأ بين الكلمات والجمل مردّها إلى عوامل تتكئ عليها في بنائها، يلزم على المتكلم مراعاتها ومعرفتها، وهذه العلاقات تماسك بطرق عديدة ووسائل مختلفة، أجمع البلاغيون على دراستها تحت عنوان "الفصل والوصل"، ومن ثمّ أتجه ممّن إلى معرفة هذا الباب في سورة أخرى من سور القرآن الكريم هي سورة طه.

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ ① وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ②

وهنا يُلاحظ وجود الواو بين الجمل التي اختلفت خيراً وإنشاءً، فالواو ليست واو العطف التي تصل بين الجمل المتناسبة، وإنما هي واو الاستئناف، أو واو القصة كما يراها البلاغيون، فهي تعطف مضمون كلام على كلام آخر، أو تعطف جملة على عدّة جمل مسوقة لغرض، على جملة أو عدّة جمل مسوقة لغرض آخر²، وقد ردّ بعضهم هذه الواو واو عطف³، وكان الغرض من ذلك أن: «قفاه بقصة موسى عليه السلام ليتأسى به في تحمّل أعباء النبوة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد⁴»، حتّى ينال عند الله الفوز والمقام المحمود، لأنّه لما أتبع ذلك قصة موسى عليه السلام مصدّرة باستفهام مقترن بهذه الواو أرشد ذلك إلى أن المعنى: هل تعلم له سمياً؟ أيّ متصفاً بأوصافه أو بشيء منها له بذلك الوصف مثل فعله، ولما كان الجواب قطعاً لا، ثبت أن لا متصفاً بشيء من أوصافه، فعطف على هذا المقدر قصة موسى عليه السلام، أو يكون التقدير: هل علمت بما ذكرناك به في هذه الآيات أنا نريد ما هو علينا يسير بما لنا من القدرة التامة والعلم الشامل من إسعادك في الدارين بتكثير أجرك⁵، فأدّى العطف بين الآيتين غرضه، وجاء بقصة

1 سورة طه - الآية 02.

2 بسويي عبد الفتاح: من بلاغة النظم القرآني - ص 272.

3 برهان الدّين البقاعي: نظم التّرر في تناسب الآيات والسّور - ج 16 - ص 270.

4 الزّمخشري: الكشّاف عن حقائق غوامض التّرتيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل - ج 04 - ص 68.

5 برهان الدّين البقاعي: السّابق - ج 16 - ص 270.

موسى عقب كلمة التوحيد وأسمائه الحسنی موصولة بسبب أنه مثلما كان ابتداء أمر موسى عليه السلام حين أتى النار ليقبس أهله منها نارا أو يجد عندها هدى فمُنح بذلك من هدى الدارين والتصرة على الأعداء كما سيقص هنا ما مُنح، وهذا النبي الكرم كان ابتداء أمره أنه يذهب إلى غار حراء فيتعبد الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك اجتذابا من الحق له قبل النبوة بمدد، تدريبا له وتقوية لقلبه، ليكون فائدة الاستفهام أن يفرغ أذنه الشريفة للسمع وقلبه للوحي العظيم: "وهل أتاك" أي يا أشرف الخلق،: "حديث موسى". نادبا إلى التأسى بموسى عليه السلام في تحمل أعباء النبوة وتكليف الرسالة والصبر على مقامات الشدائد، ومن أحوال التأليف ومرامها التي جعلها ابن الزمكاني ركنا أساسا في إعجاز القرآن؛ قضية الفصل والوصل، حيث بحثها في فن خاص بها وقسمها إلى ضربين؛ عطف المفرد على مثله، وعطف الجملة على الجملة، وهذا الأخير منه عطف جملة على جملة لها موضع من الإعراب، وعطف جملة على جملة لا موضع لها من الإعراب نحو قولك: زيد أخوك وعمرو صاحبك، فإنه يعز إظهار فائدة الواو فيه بخلاف الفاء وثم لإشعارهما بالترتيب، ويمكن أن يقال: تفيد أن الثاني مناظر للأول ومساق له، ليضرب لنا شاهدا على ذلك بقوله تعالى من سورة طه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾¹، فإن مجيء الاهتداء ينبغي أن يتقدم على العمل الصالح مثلا، ولكن تفسير هذا أنها محمولة على دوام الاهتداء²، ونظير هذا في القرآن كثير منه قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾³، فلعلك تقول: كيف يصنع بهذا، فإن مجيء البأس ينبغي أن يتقدم الإهلاك، ومناسبة العطف في آية سورة طه أنه لما كان الانسان محل زلل وإن اجتهد رجاه واستعطفه بقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ أَيْ سَتَارٌ بِإِسْبَالِ ذَيْلِ الْعَفْوِ (لِّمَن تَابَ) أَيْ رَجَعَ عَن ذُنُوبِهِ مِنَ الشَّرِّ وَمَا يَقَارِبُهُ (وَءَامَنَ) بِكُلِّ مَا يَجِبُ الْإِيمَانَ بِهِ (وَعَمِلَ صَالِحًا) تَصْدِيقًا لِإِيمَانِهِ، وَلَمَّا كَانَتْ رَتْبَةَ الْإِسْتِمْرَارِ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ فِي غَايَةِ الْعُلُوِّ، عَبَّرَ عَنْهَا بِأَدَاةِ التَّرَاخِي فَقَالَ: (ثُمَّ اهْتَدَىٰ) أَيْ اسْتَمَرَ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ مَتَحَرِّيًا بِهِ إِيقَاعَهُ عَلَى حَسَبِ أَمْرِنَا وَعَلَى أَقْرَبِ الْوُجُوهِ الْمَرْضِيَّةِ، لَهُ

1 الآية 82.

2 المجيد في إعجاز القرآن المجيد - ص 139.

3 الآية 04.

إلى ذلك غاية التوجه كما يدلّ عليه صيغة افتعل¹، ومما وقع في حيز القول بالفصل والوصل قوله تعالى: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٦﴾ قِيدَ رَمَادٍ مَسْفُوفًا ﴿١٠٧﴾ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٨﴾﴾²، الواضح في هذه الآيات أنّ الجبال الشّم، المرتفعات الشاهقة على أديم الأرض مستصبح مستوية ملساء، وقد أفاد العطف (...ولا أمتا) استكمال معنى الاستواء، وظهر ووضح حينما قضى على كلّ واد وربوة في الأرض، ويورد المفسرون أنّ (عوجا): واد، وأنّ (أمتا) رابية، والأمتُ في اللغة هو المكان المرتفع والتلال الصّغيرة والارتفاع والانخفاض والاختلاف في الشّيء، والقرآن هنا يقدّم صورة واضحة للاستواء الكامل دليلا على قدرة الله التي لا تعلوها قدرة، ويسوقها في أسلوب تتضح فيه القوّة والشدّة، فمن المعروف أنّ تلك الآيات من المكّي الذي هو بالفاظ تفرع مسامع القوم لتكون رادعة زاجرة حيث المماراة واللّحاجة في القول، ولا زال القوم في جاهلية تصمّ آذانهم وتعمي أبصارهم، فمن عبادة الأصنام تارة، وإشراك بالله تارة، وإنكار للوحي، وما من شكّ في أنّ يكون البيان هنا قويا، وواضحا وشديدا، حتّى يتصدى لهذا الجوّ المملوء بالعناد والجحود³، و من أساليب العطف في هذه السورة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْنَ الذَّيْبِ يَجْزِئْهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا ﴿١٠٩﴾﴾⁴، حيث تظهر القيمة البيانية هنا في أسلوب العطف (وَلَا هَضْمًا) إذ لو جاء الأسلوب حلوا منها لما أدى إلى هذا الوضوح والبيان.

فالذي يقدّم العمل الصّالح وهو مؤمن إذ لا يقبل العمل بغير إيمان، فلا خوف عليه ولا نقصان لحقه، فإنّ كلمة [ظلمًا] تعني إنقاصا لثواب طاعته، أمّا أسلوب العطف (وَلَا هَضْمًا) فتفيد أحقيته في الثواب، لأنّ الهضم، هو التقصص، والفرق بين الظلم والهضم أنّ الظلم المنع من الحقّ كلّهُ، والهضم المنع من بعضه، والهضم ظلم، وإنّ افتراقا من وجه، والله تعالى يريد أن يبيّن حقّ المؤمن في جلاء ووضوح، وأن يقرّ له ذلك الحقّ ويطمئنه عليه، إذ لا يخاف ظلما بزيادة سيئاته

1 برهان الدّين اليفاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ج16 - ص 320.

2 سورة طه - الآيات 1054. 106. 107.

3 أحمد عبد الغفار: قضايا في علوم القرآن تعين على فهمه - ص 262.

4 الآية 112.

ولا بخسا ولا نقصا لحسناته، بل يوفى حقه كاملا لا نقصان فيه¹، وجاءت هذه الآيات عقب ذكر الظالم، فقال تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ،) ولما كان الانسان محل العجز وإن اجتهد، قال: (مِنْ أَلْصَلِحَتِ) أي التي أمره الله بها بحسب استطاعته، (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) ليكون بناؤها على الأساس وعبر بالفاء إشارة إلى قبول الأعمال وجعلها سببا لذلك الحال، فقال: (فَلَا خِخَافُ ظُلْمًا) بأن يُنسب إليه سوء لم يقترفه، لأن الجزاء من جنس العمل، (وَلَا هَضْمًا) أي نقصا من جزائه وإن كان هو لم يوف المقام حقه لأنه لا يستطيع ذلك، وأصل الهضم الكسر، أما غير المؤمن فلو عمل أمثال الجبال من الأعمال لم يكن لها وزر²، ليكون هذا مثالا من أمثلة أساليب العطف يكشف لنا أسلوب القرآن ومدى مساهمة نظمه في قضية البيان وطريقة الإحكام، فتأمل ما اشتملت عليه هذه الآيات على الذروة من حسن المعاني، فبشّرت ويسّرت، وأنذرت وحذّرت، وبيّنت الخفايا وأظهرت الخبايا، مع ما لها من جلاله السبك وبراعة التّظم.

يُحْمَلُ الخُطْبُيبُ القُزْوِينِي قُضِيَّةَ كِمَالِ الاتّصال التي مرّت معنا في الفصل الثاني في ثلاثة أمور³؛ الأوّل أن تكون الجملة الثانية مؤكّدة للأولى، والثاني أن تكون الثانية بدلا من الأولى والمقتضي للإبدال كون الأولى غير وافية بتمام المراد بخلاف الثانية، والمقام يقتضي اعتناء بشأنه لئكتة، والثالث أن تكون الثانية بيانا للأولى، وذلك بأن تُترلّ منها مترلة عطف البيان من متبوعه في إفادة الإيضاح، والمقتضي للتبيين أن يكون في الأولى نوعُ خفاء، مع اقتضاء إزالته، من هذا النوع الأخير اختار قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَقَادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾⁴ شاهدا عليه، حيث فصل جملة: (قَالَ) عما قبلها، لكونها تفسيرا وتبيينا وهو مثال حيّ على الامتراج المعنوي بين جملتين، كان «منشؤه أن الجملة الثانية شارحة وموضّحة للجملة الأولى، فجاء قوله: (قَالَ يَتَقَادِمُ) بدون واو، لأنه يوضّح الوسوسة ويبيّن عنها، ولو أنه

1 أحمد عبد الغفار: المرجع السابق - ص 260.

2 برهان الدّين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور - ج 16 - ص 350.

3 الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبدیع - ص 154.

4 سورة طه - الآية 120.

5. الرِّبْط والارتباط:

يحتل موضوع الرِّبْط والارتباط مكانة هامة في الدراسات البلاغية، حيث يبحث في تلازم الكلمات وتواردها، وإحكام صياغة الجمل وتراكيبها، واتسلاف بعضها مع بعض، ويتجاوز هذا الموضوع مستوى الكلمة والجمل إلى نطاق أوسع يشمل التراكيب والتصور، وكذا المعاني لأن المعنى الواحد إنما يكسب حيويته بالتضافر والترابط مع المعاني الأخرى المشتركة معه في جسم الموضوع¹، وقد استشهدنا في الفصل السابق بما قاله فخر الدين الرازي حول أهمية البحث في ترابط الجمل والتراكيب وطريقة ذلك، وذكرنا أنه يلخص لنا كل هذا بقوله: «اعلم أن الجمل الكثيرة إذا نظمت نظماً واحداً فلا يخلو إما أن يتعلّق البعض ببعض أو لا يتعلّق، فإن لم يتعلّق البعض ببعض لم يحتج واضع ذلك النظم إلى فكرة وروية في استخراج ذلك النظم.. وهذا النظم لا يستحق الفضيلة إلا بسلامة معناه وسلاسة ألفاظه؛ أما القسم الثاني وهو الذي تكون فيه الجمل المذكورة متعلّقا بعضها ببعض، وهناك تظهر قوة الطبع وجودة التريخ واستقامة الذهن، وكلما كان آخر الكلام أقوى ارتباطاً وأشدّ اتحاما كان أدخل في الفصاحة»²، وستكون سورة طه مجالاً تطبيقياً فسيحا نرى من خلاله هذا الموضوع.

يقول الحقّ تعالى: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾³، والشاهد في الآية أنه أعاد اللفظ، ولعلّ الأصل في الرِّبْط أن يكون بإعادة اللفظ، لأن ذلك ادعى للتذكير وأقوى ضماناً للوصول إليه⁴، وهو ما تجده في هذه الآية إذ تكرّر ذكر النار بدلا من أن يقول مثلا: «عليها»، ومن المناسبات التي يرتبط فيها الكلام بين بعض الآيات وبعض قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْؤُسَى﴾⁵، عقب الإمام ثمّ التعيين لأنه لما حصل هذا كان معه تشويق ثمّ تعظيم، ولما ارتبطت هذه ببعضها بُني للمفعول؛ «نودي» من الهادي الذي لا هادي غيره، ثمّ بين النداء بقوله: «يَمْؤُسَى»، ولما كان المقام للتعريف بالأأيادي

1 ينظر: مراعاة النظر في كلام الله العليّ القدير: كمال الدين مرسي - ص 10.

2 نهاية الإعجاز في دراية الإعجاز - ص 148.

3 سورة طه - الآية 11.

4 تمام حسان: البيان في روائع القرآن - ص 117.

تلفظاً قال مؤكداً تنبيهاً له على تعرّف أنه كلامه سبحانه من جهة أنه يسمعه من غير جهة معينة على غير الهيئة التي عهدتها في مكالمة المخلوقين¹، ليدكره بعدها بالاسم العلم، لأن هذا المقام مقامه، وحسن إثر ذلك أن ترتبط الآية بالتعقيب بكلمة التوحيد: "لا إله إلا الله" والأمر بالعبادة والذكر، ثم علل الأمر بالعبادة بأنه لم يخلق الخلق سُدى، بل لابد من إمامتهم، ثم بعثهم لإظهار العظمة ونصب موازين العدل بأن الساعة آتية، فأكد إنكارهم وعبر بما يدل على سهولة ذلك عليه جداً، لأن الساعة أعظم باعث على الطاعة، ومن لطائف المناسبات في ربط الكلام ببعضه ببعض، أنه لما كان المقام مرشداً إلى أن يقال: ما جوابك يا موسى عما سمعت؟ وكان تعالى عالماً بأنه يبادر إلى الجواب بالطاعة في كل ما تقدم، طوى هذا المقال، وعطف عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ بِمُوسَى﴾²، مريدا بعد تأنيسه بسؤاله عما هو أعلم به منه إقامة البيّنة لديه بما يكون دليلاً على الساعة من سرعة القدرة على إيجاد ما لم يكن، بقلب العصا حية بعد تحقق أنها عصاة بقرب النظر إليها عند السؤال عنها ليزداد بذلك ثباتاً ويثبت من يرسل إليهم³، ووجه الإشارة إلى العصا بالبعد مع أنها في يمينه إعظاماً لعلو قدرها، أو لدهشه عنها حتى كأنها بعيدة عنه⁴، وبعدهما أراه آية في بعض الآفاق، أراد أن يريه آية في نفسه، ولما كان النقص أبعث شيء إلى العرب، قاله بالنفي له ولغيره، ولم يسمه باسمه لأن إسماعهم له حاجة، لأن نفي الأعم من الشيء أبلغ من نفيه بخصوصه، ويقول الحق تعالى بعد هذا: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾⁵ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٢٦﴾ أَنْ أَقْذِفِي فِي الثَّابُوتِ فَأَنْدِي بِهِ فِي الْيَمِّ فَنُلْقِيهِ الْيَمَّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبِيبًا مِّنِي وَلَنُصَنِّعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٢٧﴾⁵، ولما كان إجماعاً من يد فرعون حيث ولد في السنة الذي يذبح فيها الأبناء بيد فرعون أمراً عظيماً انفتحت إلى قمة العظمة مذكراً له بذلك تنويراً لبصيرته وتقوية لقلبه، إعلاما بأنه ينجيه منه الآن، كما أنجاه في ذلك الزمان، والثابوت من التوب الذي معناه الرجوع تفاؤلاً به، والهدف بخار عن المسارعة إلى

1 برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ج16 - ص 276.

2 سورة طه - الآية 17.

3 برهان الدين البقاعي: السابق - ج16 - ص 280.

4 أحمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير - ج09 - ص 133.

5 سورة طه - الآيات 37. 38. 39.

وضعه من غير تمهّل لشيء أصلاً، إشارة إلى أنه فعل مضمون السلامة كيف ما كان، ولما كانت سلامته من العجائب لتعرضه للفرق بقلب الرّيح للتأبوت، أو بكسره لبعض الجُدر أو غيرها أو بجريه مستقيماً مع أقوى جرية من الماء إلى البحر الملح، وغير ذلك من الآفات، أشار إلى تحتم تنحيته بلام الأمر عبارة عن معنى الخير في قوله، جاعلاً البحر كأنه ذو تميز لطبع الأمر: "فَلْيَلْقِهِ" أيّ التأبوت الذي فيه موسى عليه السّلام أو موسى بتأبوته¹، ويستمرّ القرآن في سرد قصة موسى عليه السّلام إلى غاية قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكَ وَإِنَّمَا كُنَّ لِرَبِّكَ آيَاتٍ﴾²، مقابلاً لأدهم بأحسن منه، ولأنه فهم أن مرادهم الابتداء وليكون هو الآخر، فتكون العاقبة بتسليط معجزته على سحرهم فلا يكون بعدها شك، لا ألقى أنا أولاً، بل ألقوا أنتم أولاً، فانتهزوا الفرصة، لأن ذلك كان مرادهم بما أفهموه من تعبير السّياق والتصريح بالأوّل، وهكذا تلاحظ مدى ارتباط الكلام واتّحاد أجزائه ومناسبة هذا كلّ للسّياق الذي ترد فيه، ومما يرد في السّياق رابطاً للكلام قول الحقّ سبحانه: ﴿جَنَّتْ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾³، لأنه لما أرشد السّياق والعطف على غير معطوف عليه ظاهر إلى أن التقدير: "ذلك الجزاء العظيم" والتعظيم المقيم جزاء الموصوفين لتركيبتهم «عطف عليه قوله: "وَذَلِكَ جَزَاءُ" كلّ: "مَنْ تَزَكَّى" أيّ طهر نفسه بما ذكر من الإيمان والأعمال الصّالحة، وفي هذا تسليّة للصّحابة رضوان الله عليهم فيما كان يُفعل بهم عند نزول هذه السّورة إذ كانوا مستضعفين»⁴، ولما تمّت هذه القصة على ذلك الأسلوب الأعظم، والسّبيل الأقوم، متكلّفة بالدلالة على القدرة على ما وقعت إليه الإشارة من البشارة، أوّل السّورة بتكثير هذه الأمة وردّ العرب عن غيهم بعد طول التّماذي في العناد والتّكّب عن سبيل الرّشاد، إلى ما تتخلّله من التّسليّة بأحوال السّلف الصّالح والتّأسيّة، مفصّلة من أدلّة التّوحيد والبعث، وغير ذلك من الحكم، بما يعث المهم على معالي الشّيم، كان كأنه قيل: هل يعاد شيء من القصص على هذا الأسلوب البديع والمثال الرّفيّع؟ فقيل: نعم، كذلك أي مثل

1 برهان الدّين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور - ج16 - ص 286.

2 الآيات 65، 66.

3 سورة طه - الآية 76.

4 برهان الدّين البقاعي: السّابق - ج16 - ص 316.

هذا القصص العالی فی هذا التظم العزیز العالی لقصّة موسى ومن ذکر معه¹، وبعد ما تقرّر فی هذه القصّة، وما أشار إليه سبحانه فی أوّل السّورة بما هو عليه من الحلم والتأني على عباده، ومدح هذا الذکر، وذمّ من أعرض عنه، وختمه بما عهد إليه صلّى الله عليه وسلّم فی أمره نهياً وأمرًا؛ ربط ذلك كلّه بقصّة آدم عليه السّلام، تحذيراً من الركون إلى ما یسببه التسیان، وحثّاً على رجوع من نسي إلى طاعة الرحمن، لأنّه لما كان المقصود من السّورة الإعلام بالحلم والأناة والتلطّف على التّائي والقدرة على المعرض ذکر «فعلت آدم عليه السّلام فی هذه السّورة بلفظ المعصية مع التصريح بأنّها على وجه الانسان، ذکر ذلك أوّلاً بجملاً ثمّ أتبعه تفصیله لیکون ذلك مذکوراً مرّتين تأكيدا للمعنى المشار إليه وتحذيراً من الوقوع فی منهی، وإرشاداً لمن غلب عليه طبع التقصص إلى المبادرة إلى التّدم وتعاطي أسباب التوبة لیتوب الله عليه كما فعل بآدم عليه السّلام»²، ویظهر ارتباط أوّل السّورة بآخرها حين تقرب السّور على نهايتها، فحين تقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾³، تدرك أنّه لما هددهم بإهلاك الماضين ذکر سبب تأخير العذاب عنهم عاطفاً إلى ما أرشد إلى تقديره السّیاق، وهو غاية فی إكرام النبي صلّى الله عليه وسلّم، ورحمة أمته عليه الصّلاة والسّلام كما قال تعالى فی أوّل السّورة: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾⁴، ولعلّ ما يتعلّق كثيراً بموضوع الرّبط قضیة حروف العطف، فحروف العطف تربط بين المتعاطفين من جهة التّشريك أو التّرتيب أو التعقيب أو التراخي أو الإضراب أو التّشريك أو التسوية، ولكلّ معنى من معاني العطف حرف یختصّ بهذا المعنى بواسطة التّقل، فقد تدلّ "إلا" على الاستدراك نحو ما فی هذه الآية من سورة طه: ﴿إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَنْ نَحْنُ﴾⁵، فمعنى "إلا" تذكرة: لكن تذكرة⁶، إذ لا معنى للاستثناء هنا ولا وجه له، وحروف العطف التي تربط أجزاء الكلام بعضها ببعض تختلف من موضع إلى آخر، لیؤدّي كلّ منها غرضه البلاغي فی موضعه الذي

1 برهان الدین البقاعي: نظم الدرر فی تناسب الآيات والسّور - ج16 - ص 339.

2 المصدر نفسه - ج16 - ص 355.

3 سورة طه - الآية 129.

4 الآية 02.

5 الآية 03.

6 برهان الدین البقاعي: السابق - ج16 - ص 140.

حل فيه، على نحو ما نجد من تنوع في الاستعمال بين سورة الأعراف في الآية الكريمة: ﴿لَأَقْطَعَنَّ
 أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِمَّنْ خَلْفِكُمْ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾¹، وبين قوله تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ
 ءَامَنْتُمْ لَمْ قَبِلْ أَنْ ءَاذَنْ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ
 مِمَّنْ خَلْفِكُمْ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾²، وقوله تعالى في
 سورة الشعراء: ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَمْ قَبِلْ أَنْ ءَاذَنْ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ
 تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِمَّنْ خَلْفِكُمْ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾³، فجاءت الآية الأولى
 بـ"ثم" وجاءت الثانية والثالثة بـ"الواو"، ومرد هذا التنوع في الربط بحروف العطف أن السورتين
 اللتين جاء الواو فيهما بهذا اللفظ منهما هما المبتتان على الاقتصار الأكثر والبسط الأوسع، والواو
 أشبه بهذا المعنى لأنه يجوز أن يكون ما بعدها ملاصقا لما قبلها كالتعقيب الذي يفاد بالفاء ويجوز
 أن يكون متراخيا عنه كالمهمله التي يفاد بـ"ثم"⁴، ونحو هذا كثير في القرآن الكريم، إذ يراعى فيه
 فيه العلاقة بين استعمال الحروف وبناء الموضوع بسطا أو إيجازا، وارتباط كل بما يناسبه.

1 الآية 124.

2 الآية 71.

3 الآية 47.

4 الخطيب الإسكافي: درة التبريل و غرة التأويل - ص 132.

6. التكرار والتوكيد:

سبق بيان أن قضية التكرار والتوكيد المراد دراستها في ضوء موضوع التضام ترتبط بمحورين هامين، أحدهما يمسّ جانب الألفاظ والأساليب، والآخر يمسّ جانب القصص في القرآن الكريم، إذ لا يتعدى موضوعنا البحث في إعادة ذكر كلمة أو جملة أو مجموعة من الجمل والتراكيب في مواضع متعددة وبأساليب متنوعة، أو إعادة عرض قصة من القصص في أكثر من مناسبة، لما يقتضيه الموضوع وتدعو إليه الحاجة ويتطلبه الموقف من تأكيد و عناية وزيادة اهتمام.

تُفتتح سورة طه بذكر القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾¹، فجاء بلفظ: "القرآن" بدل الكتاب مثلا، لأنّ استعمالات القرآن الكريم للفظ "القرآن" في هذه السورة يتكرّر ثلاث مرّات، في حين ورد ذكر لفظ "الكتاب" في هذه السورة مرّة واحدة فكان لا بدّ من ذكر القرآن هنا لأنّه يستعمل الكتاب عندما تكون عدد استعمالاته تفوق استعماله القرآن أو أنّه لا يذكر القرآن مطلقا، ومما ورد مكرّرا ما في قول الحق سبحانه: ﴿إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى﴾²، فجاء بهذه الكلمة (يخشى) هنا في مقدّمة السورة، ويكرّرها القرآن حين يكلف المولى سبحانه موسى عليه السلام أن يدعو فرعون إلى الله قائلا له: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾³، لبيّن السياق أنّ إنزال الله القرآن على محمد صلى الله عليه وسلّم إنّما هو استمرار لسنة الله في إرسال الرّسالات، فما القرآن إلا وحي الله الذي أنزله على عبده عليه الصلّاة والسّلام، كما أنزل وحيه على غيره من الرّسل. فالرّسل أمة واحدة والوحي واحد، والمهدف واحد، والمؤمن يؤمن بوحى الله كلّهُ⁴، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ

1 الآية 02.

2 سورة طه - الآية 03.

3 سورة طه - الآية 44.

4 سعيد حوى: الأساس في التفسير - مج 04 - ص 3361.

قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿١﴾، فيكون هذا المحور من سورة طه هو محور بداية سورة البقرة كما مرّ معنا في مناسبة هذه السورة في هذا الفصل.

يقول تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿٢﴾ فَلَمَّا أَتَتْهَا نُوذِيَ بِمُوسَى ﴿٣﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿٤﴾﴾²، تبدأ الآيات باستفهام غرضه التقرير، بمعنى: يا أشرف المخلوقات، لتكون فائدة هذا الاستفهام أن يفرغ أذنه الشريفة للسمع وقلبه للوحي العظيم، و في الآية شاهد على توكيد الكلام، فإنه لما كان الإنسان مقطوعاً متيقناً حقيقه لهم بكلمة (إن) ليوطن أنفسهم، وإن لم يكن هناك تردّد أو إنكار³، ولما كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بنى الأمر فيهما على الرجاء والطمع وقال: "لَعَلِّي" ولم يقطع فيقول: "إِنِّي آتِيكُم" لئلاّ يعد ما ليس بمستيقن الوفاء به⁴، وتكرير الضمير في: "إِنِّي أَنَا رَبُّكَ" لتوكيد الدلالة، وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة⁵، ويستمرّ موسى عليه السلام في تلقي النداء العلوي، فيقول له الحق سبحانه: ﴿وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿٦﴾﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿٧﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُحْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿٨﴾﴾⁶، بعد إعلامه بالتكريم والاختيار والاستعداد والتهيؤ بخلع نعليه، يجيء التنبيه للتلقّي: "فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى" ويلخص ما يوحى في ثلاثة أمور مترابطة؛ الاعتقاد بالوحدانية، والتوجه بالعبادة، والإيمان بالساعة وهي أسس رسالة الله الواحدة⁷، وفي الآيات جميعها تأكيد وتحقيق بأكثر من مؤكّد، فقد فسّر

1 سورة البقرة - الآية 04.

2 سورة طه - الآيات 09 - 12.

3 الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض الترتيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - ج 04 - ص 69 - وشهاب الدين الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - ج 16 - ص 165.

4 الزمخشري: السابق - ج 04 - ص 69.

5 المصدر نفسه - ج 04 - ص 70.

6 الآيات 13 - 15.

7 سيد قطب: في ظلال القرآن - ج 16 - ص 2331.

المُرْحَى بأول الواجبات وهو معرفة الله تعالى، فقال مؤكدا لعظم الخير وخروجه عن العادات: "إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا"، فذكر الاسم العلم لأن هذا مقامه، إذ الأنسب للملطوف به بعد التعرّف إليه بالإكرام الإقامة في مقام الجلال والجمال، ثم قال: "إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ" مؤكدا لإنكارهم معبرا بما يدلّ على سهولة ذلك جدا¹، لأنه لا ريب في إتيانها، ومن أطف ما تجده في هذه الآيات أنه تعالى قال في هذه السورة: "إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ"، أما في سورة غافر فقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾²، أكد إتيان السّاعة بـ"إنّ واللام" في سورة غافر، وبـ"إنّ وحدها" في سورة طه، وذلك لأسباب منها؛ أنّ الكلام في سورة غافر على الكفار الذين ينكرون السّاعة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾³، أما في سورة طه فالخطاب لموسى عليه السلام وموسى غير منكر لها، ولذلك أكد مع من ينكرها، ومنها أنه قال تعقيبا على إتيان السّاعة في سور غافر "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ" فحسن أن يؤكد إتيانها بخلاف سورة طه، ومنها أن الجوّ في سورة غافر في الكلام على السّاعة⁴؛ يقول تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ لِلَّذِينَ آسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾⁵ فاقترض انقاص زيادة التوكيد في سورة غافر، والاكتفاء بما جاء في سورة طه، ومن مواطن التكرار ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوْسَىٰ﴾⁶، والمكرّر في الآية هو النداء فقد سبق نداء موسى عليه السلام وهذا التكرار أو إعادة النداء لزيادة التأنيس، والتنبيه على شأن العصا، ومن مواطن

1 شهاب الدين الألوسي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ج16 - ص 279.

2 الآية 59.

3 سورة غافر - الآية 56. وينظر: الآية 59.

4 فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني - ص 167. 168.

5 الآية 47.

6 الآية 19.

توكيد الكلام في هذه السورة قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾¹، ففي ذكر "لي" مع صحّة الاستغناء عنها زيادة ربط، وتأکید بالتلويح إجمالاً، حتّى إنّه لو لم يذكر "صدري" و"أمري" لكفى، ولو اقتصر عليها بدون "لي" لم يفده الكلام تلك الفائدة، والمراد بـ"أمري" ما يجري فيه من التبليغ وشأنه²، ومن مواطن الإعادة قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾³، أعاد "العدو" للمبالغة بذكر عداوتين إذ لم يقل: "عدو لي وله"، ولو قاله لصحّ، وليس فيه الجمع بين الحقيقة والمجاز فضلاً عن أن يخرج على عموم المجاز، لأنّ فرعون عدوّ الله حين الأخذ، وعدوّ موسى أيضاً، إذ كان يبغض الأولاد لما علم أنّ ملكه يزول على يد ولد، فلا حاجة إلى ما قيل: إنّه عدوّ الله في الحين ولموسى عليه السّلام فيما بعد⁴، ويقول تعالى في موضع آخر من هذه السورة: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾⁵ والتعليل بـ"لعل" أولى من التشبيه، والاستفهام بعيد لأنّ الآية ليست لمقام هل يتذكر أو يخشى؟ ولا لأنّ يقول له: هل تتذكر أو تخشى؟ وقال: "لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى" مع علمه أنّ لا يتذكر ولا يخشى، لأنّ التّجّي لموسى وهارون، أيّ اذهبا على رجائكما وباشرا الأمر مباشرة من يطمع أن يثمر عمله، وإلزام الحجّة وقطع المَعذرة، ليحيى بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾⁶، فقوله: "أَوْ أَنْ يَطْغَى" بمعنى يزداد طغيانا بالجرأة على حقك، وكرّر: "أن" ليستحضر بها معنى نخاف على المسلّط "أَنْ يَفْرُطَ" استحضارا قوياً، ووجه آخر زيادة على هذا التوكيد هو أنّه لما كان فرعون في غاية الجبروت، وكان حاله حال من يهلكهما إلّا أن يمنعهما الله، وأرادا علم ما يكون من ذلك: "قَالَ رَبَّنَا أَيْ أَيُّهَا الْمُحْسِنُ إِنَّا، وَلَمَّا كَانَ مَضْمُونٌ إِخْبَارُهُمَا بِالْخَوْفِ مَعَ كَوْنِهِمَا مِنْ جِهَةِ اللَّهِ، مِنْ شَأْنِهِ أَنْ لَا

1 الآيتان 25.26.

2 احمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير - ج 09 - ص 140.

3 سورة طه - الآية 39.

4 احمد بن يوسف أطفيش: السابق - ص 09 - ص 148.

5 الآية 44.

6 الآية 45.

يكون وأن ينكر، أكدًا فقالا مبالغين فيه بإظهار التّون الثالثة إبلاغا في إظهار الشكوى ليأتي الخبر على قدر ما يظهر من الكسر: "إِنَّا نَخَافُ" لما هو فيه من المكنة: "أَنْ يَفْرَطَ" أي يعجل: "عَلَيْنَا" بالعقوبة قبل إتمام البلاغ عجلة من يطفر ويثب إلى الشيء: "أَوْ أَنْ يَطْعَنِي" ليجيب مسلّيا عند قولهما: "رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ؟" بقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿١٦﴾ فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿١٧﴾¹، ليتجاوز إلى أعظم مما هو فيه من الاستكبار، ثم يعلّل بما هو مناط النّصرة والحياطة للوليّ والإهلاك للعدوّ، فقال مؤكّدا إشارة إلى عظم الخبر، وتبنيها لمضمونه لأنّه خارج عن العوائد، وأثبت التّون الثالثة على وزان تأكيدهما: "إِنِّي مَعَكُمْ" لا أغيب كما تغيب الملوك إذا أرسلوا رسلهم، "أَسْمَعُ وَأَرَى" ولما تمهد ذلك، تسبّب عنه تعليمهما ما يقولان، فقال مؤكّدا للذهاب أيضا لما مضى: "فَأَتِيَاهُ فَقُولَا" أيّ له، ولما كان فرعون ينكر ما تضمّنه قولهما، أكد سبحانه فقال: "فَقُولَا إِنَّا"، ولما كان التّبيه على معنى المؤازرة هنا مطلوبا تبيّن فقال: "رَسُولَا رَبِّكَ" الذي ربّك فأحسن تربيتك بعد أن أوجدك من العدم إشارة إلى تحقيره²، ثم فرّع الإرسال على: "إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ" بالفاء السببية للتأكيد: "قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ" وفي هذا تقرير لدعوى الرّسالة وتعليل وجوب الإرسال، لأنّه من الله، وقالوا: "مِن رَّبِّكَ" لا منه لتأكيد التقرير والتعليل، ونفي الرّبوبية عنه، وأكد بـ"قد"³، وفي تكرير مخاطبته بذلك تأكيد لتبكيته في ادّعاء الرّبوبية، ونسبته إلى كفران الإحسان⁴، وأفرد الآية ولو تعدّدت آياته، لأنّ المراد بها الأولى التي بدأه بها، أو لما ترادفت آياته كلّها على معنى واحد وهو التّوحيد عدّت واحدة، كأنه قيل: قد جئناك بما يثبت دعوانا⁵، ويقول تعالى: ﴿كُلُوا وَارْزُقُوا أَنعَمَكُمْ⁴ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى

1 الآياتان 46 . 47.

2 برهان الدّين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور - ج16 - ص 292.

3 امحمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير - ج09 - ص 158.

4 برهان الدّين البقاعي: السّابق - ج16 - ص 293.

5 امحمد بن يوسف أطفيش: السّابق - ج09 - ص 58.

﴿ ٢٩ ﴾ وذلك عندما كمل ذلك البرهان القويم الخاص بمحاورة موسى عليه السلام وفرعون، دالاً على العليم الحكيم، منبهاً على انتشار أنواره، وجلالة مقداره، ومؤكداً لأجل إنكار المنكرين: "إِنَّ فِي ذَلِكَ" أي الإنشاء على هذه الوجوه المختلفة: "لَأَيَّتِ" على مُنشئه¹، ومن مواطن التوكيد في هذا السياق أيضاً قول الحق سبحانه بعد هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَلْبَسَ²، والشاهد في الآية يندرج تحت موضوع التقييد بالتوابع، ومن أنواعه ما يكون بالتوكيد، فيكون التوكيد نوعاً من التوكيد، لا شك أن هذا لا يكون إلا حيث يدعو إلى هذا داع في الكلام وإلا كان التوكيد عبثاً لا فائدة فيه، ففي التوكيد وتكراره ما فيه من الدلالة على عظم جرم فرعون³، إذ فعل من ذلك ما لم يفعله أحد غيره بيقين، وكأنه قيل: كيف صنع في تكذيبه وإبائه؟ فجاءت الآية: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾⁴ ثم وصل به الفاء السببية قوله مؤكداً إيذاناً بعلمه أن ما أتى به موسى عليه السلام ينكر كل من يراه أن يقدر غيره على معارضته⁵. على أن من عجائب ما ذكره العلماء من جماليات أسلوب التوكيد في هذه السورة ما سبق في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾^٦ قلنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى^٦ وفي الآية تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل لغرض تثبيت قلب موسى عليه السلام وبعث الطمأنينة إليه⁷، ويذكر العلوي أن التوكيد هنا قد دلّ على طمأنينة موسى عليه عليه السلام، وعلى الغلبة بالقهر والتصر، وفي قوله: "إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى" نهاية البلاغة بدليل أمور ستة؛ أما أولاً فالإتيان بـ"إِنَّ" في أول الخطاب لتأكيد الأمر وتقرير ثبوته، وأما ثانياً فتأكيد

1 المصدر السابق - ج16 - ص 298.

2 سورة طه - الآية 56.

3 عبد المتعال الصعدي: البلاغة العالية، علم المعاني - ص 125.

4 الآياتان 57. 58.

5 برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ج16 - ص 301.

6 الآياتان 67. 68.

7 أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن - ص 114.

الضمير المتصل بالمنفصل مبالغة في تخصيصه بالقهر والغلبة، وأمّا ثالثا فإتيانه بلام التعريف في قوله: "الأَعْلَى" ولم يقل: "أعلى" ولا "عال"، لأنها دالة على الاختصاص كأنه قال: "أنت الأعلى" دون غيرك وفيه تعريض بأمرهم وهكّم بحالهم وإبطال لما هم عليه من أمر السحر وأمّا رابعا فقوله: "الأَعْلَى" إنّما جاء بلفظ: "أفعل" ولم يقل: "العالي" لأنّ مجيئها على جهة الزيادة في تلك الخصلة للمبالغة، وأمّا خامسا فتحقيق الغلبة بقوله: "الأَعْلَى" لأنّ معناه: "الأغلب" وعدل إلى لفظ "الأعلى" لما فيه من الدلالة على الغلبة بالفوقية لا بالمساواة، وأمّا سادسا فلأنه أتى بقوله: "إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى" على جهة الاستئناف ولم يقل: "فلنا لا نخف لأنك أنت الأعلى"، لأنه لم يجعل عدم الخوف سببا لكونه غالبا لهم، وإنّما نفى الخوف بقوله: "لا تخف" ثمّ استأنف الكلام بقوله: "إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى" فلا جرّم كان أبلغ في شرح صدر موسى عليه السلام، وأقرأ لعينه في القهر والاستيلاء¹، وبهذا تبين إفادة التوكيد في القرآن ومترلتها من مباحث البلاغة والإعجاز، ومن الألفاظ التي تكررت في هذه السورة لفظ "القيامة" فقد جاء في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾² خَلِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا³، والإعادة لذكر يوم القيامة لزيادة التقرير والتّهويل³ ولم يقتصر الأمر على تكرار الأساليب والعبارات وتأكيدها، بل يتجاوز إلى ملاحظة تكرار قصة موسى عليه السلام ما دام الحديث عن قصة موسى في سورة طه، فقد تكرّر ذكر موسى عليه السلام في القرآن الكريم في مئة وستة وثلاثين موضعا، جاءت في أربع وثلاثين سورة، منها سبع وعشرون سورة مكّية، على أنّ الذي تكرّر تكريرا تامّا هو اسم موسى عليه السلام، ومناسبة ذكر قصته في السور المكّية أكثر من السور المدنية يرجع إلى أنّ أشدّ الفترات إيذاء للنبيّ صلى الله عليه وسلّم كانت في مكّة، وقد تعدّدت ألوان هذا الإيذاء، ومن ثمّ احتاج رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى العون الشديد من الله، فأنزل سبحانه هذه المواقف الشديدة من فرعون وقومه وبني إسرائيل ضدّ موسى عليه السلام، وهكذا تبرز العبرة لرسول الله عليه الصلاة

1 الطراز المتضمن لأسرار البلاغة و علوم حقائق الإعجاز - ج02 - ص 78 .79.

2 الآياتان 100 .101.

3 أحمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير - ج09 - ص 213.

والسّلام، وأن أخاه موسى عليه السّلام قد أصابه الكثير من قبله في سبيل الدّعوة، لأنّ من خواصّ القرآن المكيّ أنّه قصّ عليهم من أنباء الرّسل وأمهم السّابقة، ما فيه أبلغ المواعظ وأنفع العبر، من تقرير سنّته تعالى الكونيّة في إهلاك أهل الكفر والطّغيان، وانتصار أهل الإيمان والإحسان، مهما طالّت الأيام وامتدّ الرّمن، ما داموا قائمين بنصرة الحقّ وتأييد الإيمان¹، إذ إنّ كلّ سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السّابقة فهي سورة مكّيّة عدا سورة البقرة، وهذا فرق جوهريّ بين القرآن المكيّ والقرآن المدني، إلى غير ذلك من الفروق ممّا يؤكّد أنّ هذه السور المكّيّة تعالج قضيّة الألوهية وما يتعلّق بها، ومن ثمّ يجمعها إطار دلاليّ أو أكثر ومرجعيتها تكاد تكون واحدة من حيث القضية والتناول، لذلك ترى وحدات هذه السورة متماسكة نصّيّاً²، وكلماتها متضامّة بعضها إلى بعض، إعادة وتكريرا أو تقريرا وتأكيدا.

علّما أنّ ما يشدّ انتباهنا في هذه السورة الكريمة عند دراسة موضوع التكرار هو ذلك الحضور العجيب لألفاظ الذكر والتسيان، فهذه الموادّ اللغوية تكرر ورودها في السورة في أكثر من عشرة مواضع، أوّلا في الآية الكريمة: ﴿إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى﴾³، لأنّ الوحي تذكرة وتبصرة؛ ومحو للغفلة والذهول، وثانيا في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾⁴ فلمزيّة الصلاة على ما بعد التوحيد خصّها بالذكر هنا، تخصيصا بعد تعميم العبادة لاشتمالها على ذكر المعبود وشغل القلب واللسان، أو يمكن اعتبار أنّ ذكر الصلاة سبب لذكر الله، فأطلق المسبّب على السبب، أو أوقع ضمير الله موقع ضمير الصلاة لشرفها، أو المراد الذكر الحاصل منّي، فأضيف الذكر بمعنى التذكّر لله عزّ وجلّ لأحد هذه الملابس⁵، وإقام الصلاة أدائها في جماعة تصطفّ لها، وتستعدّ بدنيا ونفسيا لتسبيح الله وتحمّته، وثالثا في قوله تعالى: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۖ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾⁶، حين طلب موسى من ربّه أن يكون أخوه هارون شريكا

1 عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن - ج 01 - ص 196.

2 صبحي إبراهيم الفقي: علم اللّغة التّصي بين التّظريّة والتّطبيق - ص 175.

3 الآية 03.

4 الآية 14.

5 احمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير - ج 09 - ص 130.

6 الآياتان 33. 34.

له في أعباء الرسالة، ورابعا في قوله تعالى لموسى عليه السلام بعدئذ: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِكَأَيِّتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾¹، وخامسا في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾² حيث يجعل الغاية من الإرسال أن يفيق فرعون من غشيته ويتوب إلى ربه، وسادسا في قوله تعالى عندما يصف موسى عليه السلام علم الله بالكائنات في الأزل والأبد: ﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾³، وسابعا في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾⁴، فكان من الطريف أن يصف السامري العجل الذي صنعه ويقول معه المخدوعون به، وثامنا في التعقيب على قصة موسى عليه السلام مع قومه، حيث يقول تعالى لنبيه: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٦﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾⁵ وتاسعا في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ بِهِمْ ذِكْرًا﴾⁶، وصفا للقرآن الكريم وسرا نزوله، وعاشرا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عِزْمًا﴾⁷، في إخراج آدم عليه السلام من الجنة بعدما كان مكرما فيها، لتختتم السورة بالمادتين اللغويتين معا ويجيء هذا الإنذار العام للأفراد والجماعات في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾^٨ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا ۗ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾⁸، فسورة طه في سياقها كله تعرض لخطورة الغفلة عن الله والبعد عن توجيهه، إذ النسيان العارض لا يخاف على صاحبه؛ فسرعان ما

1 الآية 42.

2 الآية 44.

3 الآية 52.

4 الآية 88.

5 الأتان 99.

6 الآية 113.

7 الآية 115.

8 الآيات 124 - 126.

يتذكر، في حين إنَّ المخوف أن ينسج التسيان غشاوة طامسة تعمي معها البصيرة، ويصير المرء بما حطبا لجهنم¹ وإذا تمعن المرء في هذا القصص القرآني أدرك أنه يتكرر في حياتنا كل يوم؛ فالتسيان يغلب ليجيء بعده السقوط، والجنة لا يرشح لها إلا ذاكر واضح الرقابة لله، ومن فضل الله علينا أنه فتح أبواب التوبة أمام العاثرين حتى لا يُحرّموا رضاه إلى الأبد إذا زلت الأقدام.

1 محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم - ص 249.

7. التعدية والتضمين:

إنّ ما حذا بنا إلى اختيار هذا المبحث ضمن مباحث الدّراسة التّطبيقية للتضام في إحدى سور القرآن الكريم هو البحث في القيمة الفنّية للعبارة¹، فضلا عن تركيبها الصّحيح، مثلما أشرنا في الفصل السّابق، وباعتبار هذا الموضوع يتأسّس على جملة من العوامل التي ترتبط بقضيّة رصف الجمل والكلمات بعضها مع بعض، وإمكانية تواردها مع بعض، فإنّ إدخال الحرف على غير مدخوله²، واستعمال الحروف بعضها مكان بعض³، أو نيابة بعضها عن بعض⁴؛ يتصل اتّصالا قويا به وإنّ كلّ ما من شأنه أن يدخل تحت هذه المباحث ذو علاقة بموضوع التّوارد والتضام.

يقول تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾⁵، في الآية خروج نمط الاستفهام عن معنى الطّلب إلى معان أخرى؛ منها التعجّب⁶، فـ"هل" أداة استفهام، والاستفهام طلب الفهم، ولكن الله تعالى يعلم الحكاية كلّها وليس في حاجة إلى الاستفهام من أحد، إذ؛ فهذا أسلوب تشويق⁷ وقوله: "وَهَلْ أَتَاكَ" وإن كان على لفظ الاستفهام الذي لا يجوز على الله تعالى إلا المقصود منه تقرير الجواب في قلبه، وهذه الصّيغة أبلغ في ذلك كما يقول المرء لصاحبه: هل بلغك خير كذا؟ فيتطلّع السّامع معرفة ما يرمي إليه، ولو كان المقصود هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قِبَل النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا من قِبَل الله تعالى، فالاستفهام في الآية للتّقرير⁸، وذلك بغرض تسليّة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما أودى به موسى عليه السّلام كغيره، أنّهم عراهم من أقوامهم ما عراك، وإعلانا بأنّ شأن الأنبياء القيام بالتّوحيد وأموره، ونادبا إلى التّأسّي بموسى عليه السّلام في تحمّل أعباء النّبوة وتكليف الرّسالة، والصّبر على مقامات الشّدائد، وشارحا بذكر ما في هذه

1 أحمد حسن حامد: التضمين في العربية- ص 41.

2 ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن- ص 507. وينظر: بيان إعجاز القرآن: الخطابي- ص 26.

3 ابن جني: الخصائص- ص 509-511.

4 تمام حسّان: البيان في روائع القرآن- ص 188.

5 سورة طه - الآية 09.

6 تمام حسّان: السّابق- ص 78.

7 محمّد متولّي الشعراوي: قصص الأنبياء والمرسلين- ص 251.

8 فخر الدّين الرّازي: التفسير الكبير- ج 22- ص 17. وينظر: البحر المحيط في التفسير: أبو حيان الأندلسي- ج 07-

ص 314.

السورة من سياق قصة ما أجمل منها في سورة مريم، مقررًا بما نظمه في أساليبها ما تقدم أنه مقصد السورة من أنه يسعده ولا يشقيه، بعدما سلاه عن تكذيب قومه بقوله سبحانه: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾¹، وأشار بحديث موسى وإنجائه عليه السلام على يد عدوه وإلقائه المحبة عليه وهداية السحرة دون فرعون وقومه، وعبادة بني إسرائيل العجل بعد ما رأوا من الآيات والنعم والتقم، ثم رجوعهم عنها إلى عظيم قدرتهم في التصرف في القلوب لمن كاد يبجع نفسه بكفرهم بهذا الحديث أسفا، وكذا في قصة آدم عليه السلام من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَتَسَبَّىٰ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾² وقوله: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾³، ولعل أشار بقوله: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾⁴ إلى ما أنعم الله به عليه من تيسير هذا الذكر بلسانه، وأرشد بدعاء موسى عليه السلام بشرح الصدر وتيسير الأمر وطلب وزير من أهله إلى الدعاء بمثل ذلك حتى دعا المترل عليه القرآن بأن يؤيد الله الدين بأحد الرجلين، فأيده بأعظم وزير؛ عمر بن الخطاب رضي الله عنه⁵، وقيل هو بمعنى "قد"⁶، أي: قد أتاك ذلك في الزمان المتقدم، فكأنه قال أليس قد أتاك، والظاهر خلاف هذا، لأن السورة مكية والظاهر أنه لم يكن أطلعه على قصة موسى قبل هذا، وأجاز بعضهم أن يكون هذا الاستفهام للنفي⁷ أي: ما أخبرناك قبل هذه السورة بقصة موسى، ونحن الآن قاصون قصته لتتسلى وتتأسى، أو بمعنى: لم يأتك إلى الآن وقد أتاك الآن فتنبه له⁸، وقد جمع الطاهر بن عاشور بين هذه الأقوال فقال: «والاستفهام مستعمل في التشويق إلى الخبر مجازًا، وليس مستعملًا في حقيقته، سواء كانت هذه القصة على النبي صلى الله عليه وسلم، من قبل أو كان هذا أول قصصها عليه، وأوثر

1 الآية 02.

2 سورة طه - الآية 115.

3 الآية 122.

4 الآيات 27 - 29.

5 برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب آيات والسور - ج16 - ص 272.

6 فخر الدين الرازي: التفسير الكبير - ج 22 - ص 17. وسعيد حوى: الأساس في التفسير - مج 04 - ص 3352.

7 البحر المحيط في التفسير: أبو حيان الأندلسي - ج 07 - ص 314. و ينظر: تيسير التفسير: أحمد بن يوسف أطفيش -

ج 09 - ص 124.

8 فخر الدين الرازي: السابق - ج 22 - ص 17.

حرف: "هل" في هذا المقام لما فيه من معنى التحقيق، لأن "هل" في الاستفهام مثل "قد" في الإخبار¹ إلى غير ذلك من التخرجات الخاصة بهذا الحرف وما يتضمّنه من معان، ويقول تعالى في هذه السورة: ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ² وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي³﴾، وفي الآية شاهد على التعبير بحرف دون آخر فقد عبر بـ "على" دون "الباء"، وهناك فرق في المعنى بين دخول حرف "على" وحرف "الباء" على لفظ (العين) ولحرف "على" من دلالة على المعنى ما ليس لحرف الباء، إذ حرف "على" في هذه الآية يدلّ على أن تغذية موسى عليه السلام على حال أمن وسرور، لا تحت خوف واستمرار فحرف "على" يعطي معنى الاستعلاء ويدلّ على الظهور، ومعنى: "وَلِتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي" أي تربي بأيسر أمر تربية بمن هو ملازم لك، لا ينفكّ عن الاعتناء بمصالحك عناية شديدة، "عَلَيَّ عَيْنِي" أي مستعليا على حافظيك، غير مستخف في تربيتك على أحد ولا مخوف عليك منه، أنا حافظ لك حفظ من يلاحظ الشيء بعينه لا يغيب عنها³، أما حرف "الباء" في قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا⁴﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا⁵﴾، فليس في حاجة إلى التعبير بـ "على" إذ المراد الرّعاية والحفظ فقط، وهذا يكفي في إفادته حرف الباء، ويضيف ابن قيم إضافة على ما أفاده من السّهلي⁶، وهي أن صيغة الإفراد في قوله "وَلِتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي" فيها معنى الاختصاص الذي خصّ الله به موسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي⁷﴾، وهذا مفقود في الآيتين الأخريين، ومن مواطن التعدية في هذه السورة ببعض الحروف دون بعض قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ⁸﴾، وقد مرّ في الفصل السّابق بعض الكلام عن سرّ تعدية

1 تفسير التحرير والتنوير - ج16 - ص 192.

2 الآية 39.

3 برهان الدّين البقاعي: نظم الدرر في تناسب آيات والسور - ج16 - ص 287.

4 سورة القمر - الآية 14.

5 سورة هود - الآية 39.

6 عبد الفتاح لاشين: ابن قيم وحسّه البلاغي في تفسير القرآن - ص 66.

7 سورة طه - الآية 41.

8 الآية 43.

الفعل "ذهب"، فتارة يجيء متعديا بالباء، وتارة بـ"عن"، وتارة بـ"إلى"، وقد جاء متعديا بـ"إلى" في صورتى الماضى والأمر خمس مرّات، ومرّة واحدة باسم الفاعل¹، ولعلّك لست في حاجة إلى كبير عناد في إدراك السّرّ البلاغى لتعدية فعل الذهاب بـ"إلى" في مواطن وروده، ومنها ما جاء في هذه الآية، فقد دلّ حرف الانتهاء على أنّ الله عزّ وجلّ يأمر موسى عليه السّلام أن يجعل منتهى غايته الوصول إلى فرعون لدعوته لعبادة الله سبحانه وتعالى²، ويقول تعالى في هذه السّورة: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ أَهْدَىٰ﴾³، والشاهد في الآية أنّ "على" هنا بمعنى "اللّام"، وقد ورد عكسه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللّعنةُ وَلَهُمُ السّوءُ الدّارِ﴾⁴، فقال: "ولَهُمُ اللّعنةُ" وحروف الجرّ على حدّ تعبير الألوسى كثيرا ما تتقارض⁵، وقد حسُن ذلك هنا للمشاكله، حيث جيء بـ"على" في قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾⁶، فقوله "إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا" من جهة ربّنا "أَنَّ الْعَذَابَ" الدنيوي والأخروي "عَلَىٰ مَن كَذَّبَ" بآياته عزّ وجلّ و"تَوَلَّى" أي أعرض عن قبولها، ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿مِنَّا خَلَقْتُمُ وَمِنْهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾⁷، فإثار كلمة "في" على كلمة "إلى" للدلالة على الاستقرار المديد فيها⁸، فتأمّل ما يؤدّيه استعمال هذه الحروف دون غيرها في تراكيب معيّنة، من معاني البلاغة والإعجاز.

1 يقول تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾. [سورة الصّافات- الآية 99].

2 يوسف الأنصاري: من أسرار تعدية الفعل في القرآن الكريم- ص 757.

3 الآية 47.

4 سورة غافر - الآية 52.

5 روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني- ج 16 - ص 198.

6 الآية 48.

7 سورة طه - الآية 55.

8 شهاب الدّين الألوسى: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني- ج 16 - ص 208.

يقول تعالى: ﴿فَلَا قُطْعَىٰ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾¹، وفي الآية نموذج آخر من نماذج المغايرة في تضمين بعض الحروف معنى بعض آخر، ولقد وقف جملة من العلماء على هذه الآية، وسنكتفي ببعض الآراء والأقوال، ومحلّ الشاهد هنا حول استعمال الحرف "في" بدل الحرف "على" وتخريج هذا أهو على أصله، أم أنّ في ذلك تضمينا؟ فقد صحّ عن الفراء أنّ (على) تصلح في موضع (في)، وإنّما صلحت (في) لأنّه يرفع في الخشبة في طولها فصلحت (في)، وصلحت (على) لأنّه يرفع فيها فيصير عليها²، ورؤي عن أبي عبيدة أنّ قوله: "في جدوع النخل" بمعنى على جدوع النخل³، وقد ورد هذا الشاهد عند ابن قتيبة للاستدلال على إمكانية دخول بعض حروف الصّفات مكان بعض⁴، وقد جاء في كتاب الخصائص أنّ هذا الباب-باب في استعمال الحروف بعضها مكان بعض- يتلقاه الناس مغسولا ساذجا من الصنعة، وما أبعد الصواب عنه وأوقفه دونه، وذلك أنّهم يقولون إنّ (في) تكون بمعنى (على) ويحتجّون بهذه الآية الكريمة⁵، وجمي (في) بمعنى (على) قليل، وإنّما من باب الاحتواء والاستعلاء، ومكانه صالح لهما فهو موقعهما، نحو جلس في الأرض وعليها، وعلى قول من قال: إنّ المراد بالظرف ما كان المظروف ممكنا فيه فكان (في) في الآية بمعناه، لا بمعنى (على) كما اختاره الزّمخشري، لأنّ المصلوب في الجذوع متمكّن فيه تمكّن المظروف في الظرف⁶، فقد روى هذا الأخير أنّه: «شبه تمكّن المصلوب في الجذوع بتمكّن الشيء الموعى في وعائه، فلذلك قيل: "في جدوع"»⁷، وفي الآية على تقدير ابن عطية اتّساع من حيث هو مربوط بالجذوع، وليس على حدّ قولك ركبت على الفرس⁸، وأراد بالتقطيع والتّصليب في الجذوع التّمثيل بهم، ولما كان

1 سورة طه - الآية 71.

2 معاني القرآن- ج02- ص 186.

3 مجاز القرآن- ج02- ص 23.

4 تأويل مشكل القرآن- ص 568.

5 ابن جني- ص 509.

6 عبد القاهر الجرجاني: العوامل المائة النحوية في أصول علم العربية- شرح: خالد الأزهرى الجرجاني(ت905هـ)- تحقيق وتقديم وتعليق: بدرأوى الزهران- القاهرة- دار المعارف- ط02- د-ت- ص 113.

7 الكشّاف عن حقائق غوامض التّريل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل - ج04- ص 97. وينظر: التفسير الكبير: فخر الدّين الرّازي- ج22- ص 88.

8 المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- ج04- ص 53.

الجدع مقرًا للمصلوب واشتمل عليه اشتمال الظرف على المظروف، عُدي الفعل بـ(في) التي للوعاء¹، أضف إلى ذلك أن في الآية من جانب آخر استعارة تبعية، فقد استعيرت الظرفية المستفادة من (في) للاستعلاء فحرت الاستعارة أولًا في المتعلق، وبتبعية في الحرف تنبيها على اشتمال الشجرة على مصلوب وكونها كوعاء له، تحوطه حيطة المكان الحاوي لما فيه²، ثم إن في إيثار كلمة (في) دلالة على إيقاعهم عليها زمانا مديدا تشبيها لاستمرارهم عليها باستقرار الظرف في المظروف المشتمل عليه³، فشبه إعلاءهم فيها مدة طويلة يجعلهم في داخلها لجامع التمكن استعارة أصلية واستعارة (في)، من جانب المشبه به بمعنى (على) من جانب المشبه تبعية⁴، وعلى هذا التقدير الأخير من القول بالاستعارة التبعية جاء تخريج الطاهر بن عاشور من حيث «تعديدية فعل(أصلبتكم) بحرف (في) مع أن الصلْب يكون فوق الجذع لا داخله ليدل على أنه صلب متمكن، يشبه حصول المظروف في الظرف، فحرف (في) استعارة تبعية تابعة لاستعارة متعلق معنى (في) لمتعلق معنى (على)»⁵، وبهذا تظهر مزية استعمال الحروف بعضها مكان بعض، وما تؤدبه من بلاغة في هذا الكلام المعجز، ومن شواهد التعديدية في هذه السورة قول الحق سبحانه: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا قَوْمِ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾⁶، فالفعل (وسوس) في هذه الآية تعدى بحرف (إلى)، بينما تعدى بـ(اللأم) في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ هُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَنُكُمَا رَبُّكُمَا عَن هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾⁷، والفرق في ذلك لاعتبار كيفية تعليق المجرور بذلك الفعل في قصد المتكلم، فإنه فعل قاصر لا غنى له عن التعديدية بالحرف، فتعديته بحرف (إلى) هنا

1 أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط في التفسير - ج 07 - ص 358.

2 أحمد بن محمد الحموي (ت 1098هـ): درر العبارات وغرر الإشارات في تحقيق معاني الاستعارات - تحقيق ودراسة: عبد

الحميد التلب - القاهرة - مطبعة السعادة - 1407هـ / 1987م - ص 11.

3 شهاب الدين الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - ج 16 - ص 231.

4 أحمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير - ج 09 - ص 185.

5 تفسير التحرير والتنوير - ج 16 - ص 265.

6 الآية 120.

7 الآية 20.

باعتبار انتهاء الوسوسة، وبلوغها إياه، وتعديته باللام في سورة الأعراف باعتبار أن الوسوسة كانت لأجلهما¹، وفي التعبير بـ(إلى) دلالة على أن المقام لبيان سرعة قبول هذا النوع للنقائص إن أتته من بعد، أو لأنه ما أنهى إليه ذلك إلا بواسطة زوجه، لذلك عدّى الفعل عند ذكرهما باللام² والاستفهام في قوله: "هَلْ أَدُلُّكَ" استفهام مستعمل في العَرَض³، وهو أنسب المعاني المجازية للاستفهام لقربه من حقيقته، لأن النفس شديدة الطلب لعلم ما تجهله.

1 الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير - ج16 - ص 325. وينظر: من أسرار تعدية الفعل في القرآن الكريم: يوسف الأنصاري - ص 744.

2 برهان الدّين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ج16 - ص 358.

3 تمام حسّان: البيان في روائع القرآن - ص 77.

8. التعريف والتذكير:

يحتلّ موضوع التعريف والتذكير مكانا مرموقا من بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، وسبق بيان بعض اهتمامات البلاغيين وعنايتهم به، وذكر بعض الأسرار البلاغية في الفصل السابق الخاصّ بسورة هود، وقلنا إنّ لكلّ من التعريف والتذكير خصائصَ يميّز بها عن غيره توجب على الدارس إمعان النظر والتدبّر في كتاب الله العزيز، بهدف معرفة فاعلية التعريف والتذكير في توارد الكلمة مع أخواتها، وتضام بعضها مع بعض، وغرضنا في هذا الفصل لا يخرج عمّا ورد في ذلك الفصل السابق سوى التطرّق إلى هذا الموضوع في سورة طه.

يقول تعالى: ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾¹، لتجد أنّ استعمال الاسم الموصول (مَنْ) في الآية قد أفاد معنى التّعظيم والتّفخيم، وهو ما فعله البلاغيون - وفي مقدّماتهم عبد القاهر - حين توقّفوا عند تركيب الموصول مبينين الدلالات الفنيّة كاشفين بعض الأسرار البلاغية والدلالية والأسلوبية التي يميّز بها هذا التركيب، فيؤثر على غيره من المعارف في مواضيع كثيرة من الكلام²، ومن هذه الأغراض البلاغية ما وقع من تعظيم في هذه الآية، فقله: "مِمَّنْ" تفخيم وتعظيم لشأن القرآن إذ هو منسوب تنزيله إلى مَنْ هذه أفعاله وصفاته، وتحقير لمعبوداتهم وتعريض للنفوس على الفكر والنظر، وقد حصل التّعظيم من وجهين، وذلك من حيث جريان هذه الصّفات على لفظ الغيبة والتّفخيم بإسناد الإنزال إلى ضمير الواحد المعظّم نفسه، ثمّ إسناده إلى من اختصّ بصفات العظمة التي لم يشركه فيها أحد³، لأنّ نسبة التّزليل إلى الموصول بطريق الالتفات إلى الغيبة بعد نسبة الإنزال إلى نون العظمة لبيان فخامته وتعظيمه تعالى شأنه⁴، ولأنّ التعبير بالموصول إنّما حصل لما تؤذن به الصّلة من تحمّ أفراده بالعبادة، لأنّه خالق المخاطبين بالقرآن وغيرهم ممّا هو أعظم منهم خلقا، ولذلك وُصفت "السّموات" بـ: "العلّى" صفة كاشفة زيادة في تقرير معنى عظمة خلقها، وأيضا ما كان ذلك شأن مُترل القرآن لا جرم كان القرآن عظيما⁵، وقد

1 سورة طه - الآية 04.

2 طال محمد الزّويبي: البلاغة العربية، علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين - ص 196.

3 أبو حيّان الأندلسي: البحر المحيط في التّفسير - ج 07 - ص 311.

4 شهاب الدين الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - ج 16 - ص 152.

5 الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير - ج 16 - ص 186.

قرأ ابن عبله (تتريل) بالرفع على أنه خير لمبتدأ محذوف، أي هو تتريل: (مَمَّنْ خَلَقَ) متعلق بتتريل¹ وجوز أن يكون المتعلق بمضمرة هو صفة له مؤكدة لما في تنكيره من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية²، ومما وقع في حيز القول بالتكررة في هذه السورة قوله تعالى: ﴿وَأَحْلَلْ عَقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾³، ففي تنكير العقدة- وإن لم يقل عقدة لساني- أنه طلب حل بعضها إرادة أن يفهم عنه فهماً جيداً ولم يطلب الفصاحة الكاملة، و: "من لساني" صفة للعقدة، كأنه قيل: عقدة من عقد لساني⁴، وشبهه إزالة الرتة من لسانه بحل عقدة في خيط أو نحوه، واشتق منه (احلل) على طريق التبعية التمثيلية، لأن ذلك مركب من الحل بمعنى الإزالة، ومن العقدة بمعنى الرتة، تجوزاً فيها، ثم المراد إما طلب حل العقدة كلها، ونكرها لعظمتها إلى الله عز وجل، وإما طلب حل بعضها، أي عقدة من عقد لساني⁵، وجاءت بالإضافة ليناى التنكير المشعر بأنها عقدة شديدة⁶، ومن ألوان المعارف واستعمالات الضمائر في هذه السورة قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾⁷ أن أقدفيه في التابوت فأقدفيه في اليمر فليلقه اليمر بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له⁸ وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني⁹، إذ تستعمل في مواضعها الدقيقة الجديرة بها، فيستعمل الضمير الذي يجمع بين الاختصار الشديد والارتباط المتين بين جمل الآية بعضها وبعض، لأن عادة القرآن الكريم في ضمائر الغيبة أنها تتفق إذا كان مرجعها واحداً، حتى لا يتشتت الذهن، ولا يغمض المعنى، ولذا كانت الضمائر كلها تعود إلى موسى عليه السلام، نحو هذه الآية وبعدها، وليس من قوة النظم في شيء أن يعود بعض هذه الضمائر على موسى عليه السلام وبعضها على التابوت⁸.

1 الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التتريل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - ج 04 - ص 66. و ينظر: البحر المحيط في التفسير: أبو حيان الأندلسي - ج 07 - ص 311.

2 شهاب الدين الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - ج 16 - ص 152.

3 الآية 27.

4 الزمخشري: السابق - ج 04 - ص 79. وينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية - ج 04 - ص 42. وينظر: التسهيل لعلوم التتريل: ابن جزري - ج 02 - ص 18.

5 أحمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير - ج 09 - ص 141.

6 الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير - ج 16 - ص 212.

7 سورة طه - الآيات 38، 39.

8 أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن - ص 104.

ومن مواطن التنكير في هذه السورة قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾¹، فقوله: (إِنَّ فِي ذَلِكَ) إشارة إلى ما ذكر من شؤونه تعالى وأفعاله، وما فيه من معنى البعد للإيدان بعلو رتبته وبعد منزلته في الكمال، قيل لعدم ذكر المشار إليه بلفظه، والتنكير في قوله (لَآيَاتٍ) للتفخيم كما وكيفا، أي لآيات كثيرة جليلة واضحة الدلالة على شؤون الله تعالى في ذاته وصفاته²، وقد جاء هذا التنكير في جملة معترضة مؤكدة للاستدلال؛ فبعد أن أُشير إلى ما في المخلوقات المذكورة آنفا من الدلالة على وجود الصانع و وحدانيته، والمِنَّة بها على الانسان لمن تأمل، جُمعن في هذه الجملة، وصرح بها في جميعها من الآيات الكثيرة، وكل من الاعتراض والتوكيد مقتض لفصل الجملة، وتأکید الخبر بحرف (إِنَّ) لتزليل المخاطبين منزلة المنكرين، لأنهم لم ينظروا في دلالة تلك المخلوقات على وحدانية الله، وهو يحسبون أنفسهم من أولي النهى³، ومن مواطن التعريف في هذه السورة ما تجده في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾⁴ فقوله: "إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى" فيه تقرير لغلبته وقهره، وتوكيد بالاستئناف، وبكلمة التجديد وبتكرير الضمير، وبلاد التعريف، ولفظ العلو، وهو الغلبة الظاهرة وبالتفضيل⁵، ومن دلالات التعريف الاختصاص؛ فلم يقل: "أعلى ولا عال" لأنها دالة على الاختصاص كأنه قال: "أنت الأعلى دون غيرك"، وفيه تعريض بأمرهم وهتكهم بإباطهم لما هم عليه من أمر السحر⁶، ويقول تعالى بعد هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاجِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَتَى﴾⁷، ليكون الشاهد في الآية في التعبير بالاسم الموصول لما في ذلك من الدلالة على التهويل والتعظيم، حتى كأنه قال: ألق هذا الأمر الهائل الذي في يمينك، فإنه يبطل ما

1 الآية 54.

2 شهاب الدين الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - ج16 - ص 207.

3 الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير - ج16 - ص 239.

4 سورة طه - الآية 68.

5 الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - ج04 - ص 94. و شهاب الدين

الألوسي: المصدر السابق - ج16 - ص 228.

6 يحيى بن حمزة العلوي: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق علوم الإعجاز - ج02 - ص 77.

7 الآية 69.

أتوا به من سحرهم العظيم وإفكهم الكبير¹، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى إن قلت: فلم نكرّ أولاً وعرف ثانياً؟ قلت: إنّما نكرّ من أجل تنكير المضاف، لا من أجل تنكيره في نفسه²، لأنّه لما كان المقصود تحقير هذا الجيش أفرد ونكرّ لتأكيد المضاف وتحقيره³، فقال: "كَيْدُ سَاحِرٍ" أي: كيد سحريّ، لا حقيقة له، ولا ثبات له سواء كان واحداً أو جمعا، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ - فَعَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا عَشَيْتُمْ﴾⁴ وأصل فِرْعَوْنُ قَوْمُهُ وَمَا هَدَىٰ دليل على بلاغة استعمال الاسم الموصول في مثل هذه المقامات، لأنّ من أغراض التعريف بجملة الصلّة إفادة معنى التّفخيم والتّهويل، وقد جعله الزّمخشري من باب الاختصار، ومن جوامع الكلم التي تستقلّ مع قلتها بالمعاني الكثيرة، أيّ غشيتهم ما لا يعلم كنهه إلاّ الله⁵، فالاسم الموصول (ما) في الإبهام أدّى إلى التّهويل، ولو قال غشيتهم من اليمّ أمور عظيمة هائلة ما أفاد هذا القول التّهويل الذي أفاده الاسم الموصول⁶، لترى أنّ صلة (مَا عَشَيْتُمْ) أمر مبهم بولغ فيه، وليترك العنان للخيال ليكمل الصّورة ويرسمها، إذ يريد أنّه بلغ مبلغا تقاصرت عنه العبارة عن كنهه فحذف ذاك وأقام الإبهام مقامه، لأنّه أدلّ على البلاغة⁷، وكما يكتسب الاسم التّكررة بإضافته إلى إحدى المعارف المذكورة فإنّ الإضافة تلقي بظلالها على هذا التعريف، فنجد العديد من المزايا واللّطائف البلاغية، ومن ذلك قول الحقّ تعالى في هذه السّورة: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلِمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾⁸ ومنّ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى⁹، فقد أفادت إضافة كلّ من (الهدى) و(الذكر) إلى الذات العليّة (هُدَايَ) و(ذِكْرِي) التّعظيم، وإعلاء شأن الهدى والذكر، وتبّهت إلى وجوب القبول

- 1 طالب الزّويبي: البلاغة العربية، علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين - ص 200.
- 2 الزّمخشري: الكشّاف عن حقائق غوامض التّزويل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل - ج 04 - ص 95.
- 3 برهان الدّين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور - ج 16 - ص 308.
- 4 سورة طه - الآيتان 78 . 79.
- 5 الكشّاف عن حقائق غوامض التّزويل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل - ج 04 - ص 99.
- 6 بسويبي عبد الفتّاح: من بلاغة النّظم القرآني - ص 39.
- 7 طالب الزّويبي: السّابق - ص 198.
- 8 الآيتان 123 . 124.

وضرورة الاتباع، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: "اتبعه"، ولكن أظهره وأضافه إلى الله تشريفا وتأكيدا لإيجاب الاتباع¹، فإن هدى وذكرنا ذلك شأنهما لحرّيان بوجوب التمسك بهما، وحسن الانقياد لهما، ففي هذا الفلاح كلّ الفلاح والفوز كلّ الفوز، وفيما عداهما البوار والخسران². وهكذا حال التعريف والتكبير من حيث توارد الكلمات وتضامها داخل التركيب والسياق في إفادة مزايا لطيفة ومعان دقيقة، تنبئ عن إعجاز القرآن الكريم وتعرب عن بلاغة لا تضاهيها بلاغة.

1 محمد بن يوسف أطفيش: تيسر التفسير - ج 09 - ص 232.

2 بسيوني عبد الفتاح: من بلاغة النظم القرآني - ص 44.

9. الفاصلة القرآنية:

أشرنا في الفصل السابق إلى كثرة التعريفات التي يحتملها مصطلح الفاصلة في القرآن الكريم، وذكرنا أنها تتباين حسب استعمال الدارسين، واستقرّ تعريفها على أنها حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعنى¹، وأنّ الفاصلة إلى جانب ما تضيفه من جمال وروعة في التعبير القرآني، فإنّها أيضا عامل من عوامل إظهار المعنى وبروزه، وأنّها تقع عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يبين بها القرآن سائر الكلام²، ومكانة الفاصلة من الآية مكانة القافية من البيت، إذ تصبح الآية لبنة متميِّزة في بناء هيكل السورة، وتترل الفاصلة من آيتها، تكمل من معناها، ويتمّ بها النغم الموسيقي لهذه الآية³، وقلنا إنّ وجه جعلنا إيّاها مبحثا من مباحث هذا الفصل هو عناية القرآن بانسجام الفواصل بعضها مع بعض عناية واضحة، وتأثيرها الكبير على السمع ووقعها في النفس، إذ ترى القرآن تارة يقدّم وتارة يؤخّر، تارة يحذف شيئا من الكلم لينسجم مع فواصل الآي، وتارة يبدل كلمة بأخرى، وتارة تراه يزيد للغرض نفسه⁴؛ هذا من جهة، ولأنّ الفواصل لم تكن من قبيل المنمّقات اللفظية والترصيعات البديعية التي تعنى بالشكل دون المضمون؛ ولكن من قبيل امتزاج بين اللفظ والمعنى، وتآلف لا يعصى فيه أحدهما على الآخر ولا يتمرد فيه اللفظ على المعنى أو العكس، من جهة أخرى، وكما أنّ الفاصلة تثير الانتباه داخل الأسلوب القرآني فإنّ لها أيضا دورا في تفهيم النصّ القرآني وزيادة التوضيح والتأكيد لما جاء من مفاهيم في تلك الآيات القرآنية، يقول عبد الفتاح لاشين إنّ الفاصلة: «لها قيمتها في إتمام المعنى وتوضيح الصّورة، وهي مرتبطة تماما بآياتها، ولها أثرها البالغ قدره في نظام الكلام، وأهميتها العظمى في نفسية السّامع»⁵، ثمّ إنّها توفر للقرآن على مدى إفضائه الفكري وعبر أجزائه القرآنية المتعدّدة حدّا من التماسك الداخلي الذي نزع النصّ إليه⁶، وستكون لنا في هذا الفصل وقفات عند نماذج من الفاصلة القرآنية في سورة طه.

1 أبو بكر الباقلائي: إعجاز القرآن - ص 270.

2 بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن - ج 01 - ص 53. 54.

3 أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن - ص 64.

4 فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني - الأردن - ص 217.

5 من أسرار التعبير في القرآن، الفاصلة القرآنية - ص 163.

6 هدى عطية عبد الغفار: السجع القرآني، دراسة أسلوبية - ص 206.

لعلّ أوّل ما يُلاحظ ونحن بصدد البحث في فواصل سورة طه هو تلك الاستمرارية في الفاصلة في هذه السّورة الكريمة، لأنّه مثلما يسهم الوزن والقافية في تحقيق صفة التّصية للتّصّ الشعريّ، فإنّ الفاصلة تسهم في تحقيق التّماسك له، ويتحقّق هذا التّماسك عبر تحقيق هذه الفاصلة للاستمرارية في النّص، وهذه الاستمرارية لفواصل سورة طه كانت نتيجة لما كانت عليه في سورة الإسراء، حيث انتهت كلّها بفاصلة واحدة باستثناء آية واحدة، هي الآية الأولى، وتليها سورة الكهف في التّرتيب المصحفي على الفاصلة نفسها، فأياهما كلّها على فاصلة واحدة، وتسير أيضا سورة مريم على الفاصلة نفسها باستثناء ست آيات، وكذلك هذه السّورة؛ سورة طه تنتهي آياتها كلّها بفاصلة واحدة باستثناء سبع آيات، إذا فهذه السّور الأربع كلّها على فاصلة واحدة¹ ثمّ إنّنا نلاحظ أمرا آخر هو أنّ سورة طه أيضا تتركز - مثلها مثل سورتي الكهف ومريم - على ذكر قصص مختلفة، وهذا لا يحتاج إلى شدّة في التّنويعات الصّوتية لفواصل الآي، لذلك فإنّ فواصل سورة طه هادئة في إيقاع آياتها، ودلالاتها² ومن ثمّ فواصل آياتها تميل إلى اللّين لا إلى الشدّة، وهذا كلّه مناسب لما بُنيت عليه السّورة منذ بدايتها بخطاب النّبّي عليه الصّلاة والسّلام وبيان وظيفته وحدود تكاليفه، مروراً إلى عرض قصّة موسى عليه السّلام مفصّلة مطوّلة، ثمّ ذكر قصّة آدم عليه السّلام بإيجاز، وبهذا كان لسورة طه ظلّ خاصّ يملأ جوّها كلّها، ظلّ علويّ تخشع له القلوب، وتسكن له النفوس، ثمّا ينسجم مع ذلك الإيقاع الموسيقي الذي يُستطرد في مثل هذا الجوّ من مطلع السّورة إلى ختامها رخيا شجيا ندياً بذلك المدّ الذّاهب مع الألف المقصورة³، إلى جانب ملاحظة قضيّة الطّول والقصر في هذه الفواصل، فإنّ فواصل سورة طه من حيث الطّول والقصر على خلاف ما ورد مثلا في فواصل سورتي التّمل والقصص، وتخصيص كلّ سورة من هذه السّور بما ورد فيها مقتضاه بيّن؛ إذ إنّ فواصل هذه السّورة ومقاطع آياتها مناسبة للوارد فيها، فمقاطع آي سورة طه لازمة الألف المقصورة، وعلى ذلك السّورة كلّها، وأمّا سورتا التّمل والقصص فقد اكتنف الواقع في آي هذه القصّة فيها ما مقطعه التّون الواقع قبلها الياء والواو السّاكتتان بحسب ما تقدّمها من حركتي الضّمّة والكسرة. فإن قلت: إنّ السّورتين مستويتان في هذا فما الفارق؟ قلت:

1 صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة التّصي - ص 139.

2 المرجع نفسه - ص 140.

3 سيّد قطب: في ظلال القرآن - ج 16 - ص 2326.

الإيجاز والطول¹، أما سورة التمل فأوجز في هذا المقصد، وأما سورة القصص فإن خبر موسى عليه السلام فيها يكاد يستغرق آيها كلها فناسبه طول الوارد فيهما مما فيه الكلام، وذلك غير خاف وتأمل سورة طه مخبرا عن نبيه عليه السلام، ومناسبة ذلك لما بنيت عليه السورة من تأنيسه عليه السلام وما جاء في افتتاحها يلح لك ذلك²، ومما وقع في هذا الصدد قوله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ﴾ (٣٧) قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَثْرَىٰ وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٣٨﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٣٩﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبِّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن نَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٤٠﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٤١﴾، فقد جاءت الآيات قصيرة والفواصل متآخية، والمعاني متكاملة، عدا الأخيرة منها فإنها طويلة نسبيا، وهذا راجع إلى أن فيها عتابا، والعتاب لا يكون قصيرا، ولا يكون بالإشارة⁴، ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿٤٢﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿٤٣﴾ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿٤٤﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۗ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿٤٥﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفِيعَةُ إِلَّا مَن أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿٤٦﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ۗ عَلِيمًا ﴿٤٧﴾ وَعَنْتِ الْأَوْجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۗ وَقَدْ خَابَ مَن حَمَلَ ظُلْمًا ﴿٤٨﴾﴾، فإننا نجد في الظاهرة القرآنية العالية أن الآيات القصار تختص عن غيرها بأن لها خاصية، تتمثل في الاعتبار والوقوف عند فواصلها المتقاربة غير المتباعدة، فتكون وقفة يقضي السكون عندها، فالجواب عن حال الجبال وهي أوتاد الأرض وبها تماسك بأمر الله تعالى، بأن الله تعالى ينسفها نسفا، وفي هذه الوقفة

1 ابن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل الفاطم بدوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه من اللفظ من أي التبريل - ج 02 - ص 813.

2 المصدر نفسه - ج 02 - ص 813.

3 سورة طه - الآيات 83 . 87.

4 محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى - ص 235.

5 سورة طه - الآيات 105 . 111.

الصَّامِتة يتدبَّر أمر الله في نَسْف الجبال، ويتخيَّل ذلك، فيدرك قدرة الله تعالى على الإعادة، ويتدبَّر الأرض وقد نُسفت جبالها ليس بها علوٌّ بتضاريس، ولا انخفاض بجوار علوِّ¹، وكأنَّ الله سبحانه وتعالى يدعوك إلى أن تقف لتدبَّر وتفكَّر وأنَّه لا غرابة في أن تعاد الأجسام يوم البعث والنشور وبالإضافة إلى قضية الاستمرارية في الفاصلة والطول والقصر في نسقها، فإنَّ لها علاقةً بمستويات من الدرس البلاغي، إذ ترتبط مثلاً بالمستوى اللغوي من ناحية تقديم المفعول على مفعول آخر أصله التَّقدم²، نحو قوله تعالى: ﴿لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى﴾³، إذا أعرَبنا "الكبرى" مفعولاً: "نُري"⁴، ومما وقع بين الفواصل من ربط فني قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾⁵ فقد أُخِّر ما أصله أن يُقدِّم، لأنَّ أصل الكلام أن يتصل الفعل بفاعله ويُؤخَّر المفعول. لكن أُخِّر الفاعل، وهو موسى عليه السلام، ولهذا التأخير حكمة أخرى غير رعاية الفاصلة، وهي أنَّ النَّفس تشوِّق لفاعل: "أوجس" فإذا جاء بعد أن أُخِّر وقع بموقع⁶، ومن لطائف ما يخصُّ الفاصلة في هذه السورة قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾⁷، وقد تقدَّم القول في هذه الآية في مبحث التَّقديم والتأخير من هذا الفصل، وأشرنا إلى أنَّ الرَّماني كان من أوائل من وقفوا على هذه الآية، وأنَّ الله سبحانه وتعالى قال في سورة الشعراء: ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ﴾⁸ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٨﴾، فكان من جملة ما استشهد به العلماء أنَّ تقديم هارون على موسى فيه إشارة معنوية لا تكون لو أُخِّر، وذلك أنَّ موسى وهارون

1 محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى - ص 236.

2 جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن - ج 02 - ص 435. وينظر: فواصل الآيات القرآنية: كمال الدين مرسي - ص 72.

3 سورة طه - الآية 23.

4 ينظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه: محيي الدين الدرويش - ج 04 - ص 668.

5 سورة طه - الآية 67.

6 بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن - ج 01 - ص 62. وينظر: الإتقان في علوم القرآن: المستنقب - ج 02 - ص 435.

7 الآية 70.

8 الآيات 46، 47، 48.

عليهما السلام، وإن حُملاً معاً أمر الله: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾¹، إلا أن موسى عليه السلام هو الأصل، فهو الذي خوطب: ﴿أَذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ﴾²، وهو أوتي الكتاب وأُيد بالحجة وهذا يجعل لقولهم: ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾³، معنى ليس في قولهم: "آمنّا بربّ موسى وهارون" لأنّ بدأهم بمن ليس أفضل دالّ على إظهار قوّة الاقتناع بالحجة والإيمان بها، وذلك لأنّ الآية لم تظهر على يد هارون ولم يكن هو الغالب، وليس في تقديم موسى الذي لقت عصاه ما صنعوا شيئاً يلفت لأنّه هو الأصل، أمّا تقديم من لا دخل له في المعجزة التي عليها آمنوا فهو الأمر اللّافِت لأنّه جاء على خلاف الأصل، ويلاحظ أنّ سياق سورة طه فيه فضل عناية ببيد حفاوة السّحرة بهذه المغالبة، واحتشادهم لها احتشادا جعل موسى عليه السلام بعدما جعلوا موعدهم يوم الزينة: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلِكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا فَيَسْحَاحَكُمْ يُعَذِّبُ﴾⁴، ومن آيات احتشادهم أنّهم تذاكروا خطر موسى وهارون على هيتهم في قومهم وفي أرضهم: ﴿قَالُوا إِن هَذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَىٰ﴾⁵، وهذا دافع تستفرغ به ما في النفوس ليحققوا الغلبة، وقالوا أيضا: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفَاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾⁶، ثمّ لتأمل قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾⁷، وننظر كيف واجه الحقّ حالته هذه بتلك التأكيدات المترادفة في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾⁸، ولم يكن كلّ ذلك في سورة الأعراف الذي قدّم فيها موسى على هارون عليهما السلام، وإنّما أشارت الآيات هناك إلى عناية

1 الآية 43.

2 الآية 42.

3 الآية 70.

4 الآية 61.

5 الآية 63.

6 الآية 64.

7 الآية 6.

8 الآية 68.

السحرة بالغلبة للاقتراب من فرعون وطمعا في الأجر منه، وكأنهم كانوا يعملون لصالح فرعون: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾¹، فاختلاف السياقين أمر واضح وتحفزهم للغلبة في سورة طه واضح بصورة أظهر² ما على أننا نسجل ملاحظات أخرى هي أقرب إلى موضوع الفاصلة، تنسجم مع الفرق بين القصتين في السورتين؛ فذكر هارون عليه السلام في سورة طه تكرر كثيرا، وقد جعله الله شريكا لموسى عليه السلام في التبليغ، في حين ورد قليلا في سورة الشعراء، وذلك أنه:

- لم يخصّ الذهاب بموسى فقط بل كلاهما معا، يقول تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ﴾³.
- كرر هذا في السورة في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾⁴.
- صدر الجواب منهما: ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفِنَا﴾⁵.
- طمأنهما ربهما معا، الدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾⁶.
- أمرهما معا، فقال تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا نُعَذِّبَهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾⁷.
- نُسبا كلاهما إلى السحر، يقول تعالى: ﴿قَالُوا إِن هَذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى﴾⁸.

1 سورة الأعراف - الآيات 113 . 114 .

2 محمد محمد أبو موسى: الإعجاز البلاغي، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم - ص 205 . 206 .

3 الآية 42 .

4 الآية 44 .

5 الآية 45 .

6 الآية 46 .

7 الآية 47 .

8 الآية 63 .

- ورد تخليف موسى لهارون في قومه فنصح لهم في غيبته، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾¹.
 - عوتب هارون من قبل موسى بشدة، يقول تعالى: ﴿أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِيَ﴾².
في حين لم يرد هارون عليه السلام في سورة الشعراء إلا قليلا:
 - في قوله تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونِ﴾³، وفي قوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾⁴.
 - وأن الخطاب كان موجها لموسى عليه السلام وحده في سورة الشعراء، يقول تعالى: ﴿قَالَ لِبَنِ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾⁵.
 - وأنه نسب موسى عليه السلام وحده إلى السحر، ولم ينسب معه هارون عليه السلام، يقول تعالى: ﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾⁶.
 - إنه لم يرد ذكر هارون بعد هذا.
- وعلى هذا الأساس فالقصة في سورة طه مبنية على التثنية، وفي سورة الشعراء مبنية على الأفراد⁷، ومن وجهة أخرى؛ فإنه في سورة طه ذكر خوف موسى في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾⁸، ولم يذكر حالة الخوف في سورة الشعراء، وذكرت جوانب الكمال والقوة فيها، ولم ترد حالة الضعف البشري، فاقتضى كل ذلك المغايرة في التعبير بين القصتين.

1 الآية 90.

2 الآية 93.

3 الآية 13.

4 الآية 48.

5 الآية 29.

6 الآية 35.

7 فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني - ص 222.

8 الآية 67.

علاوة على ذلك فهناك طريفة أخرى؛ هي أن سورة طه تبدأ بالحرفين الطاء والهاء وسورة الشعراء تبدأ بـ "طسم" فكلتا السورتين تبدأ بالطاء، غير أن الحرف الأخير من "طه" وهو الهاء فإنه أول حروف هارون، وليس فيها حرف من حروف موسى، والحرف الأخير من "طسم" وهو الميم، فإنه أول حروف موسى، وليس فيها حرف من حروف هارون¹، فأبي سر من أسرار التعبير هذا، وملحظ آخر فيه العجب كل العجب، يرتبط بفواتح السور وتفصيل القصص، وهو أن كل سورة تبدأ بالطاء ترد فيها قصة موسى في أوائلها مفصلة قبل سائر السور، مثل [طه، طس، طسم في سورة القصص، وطسم في سورة الشعراء]، وليس في المواطن مما يبدأ بالحروف المقطعة مثل ذلك، فالقاسم المشترك فيما يبدأ بالحرف [ط] قصة موسى مفصلة في أوائل السورة، وأن ما يبدأ بـ [طسم] تكون قصة موسى فيها أطول مما يبدأ بـ [طس] فكأن زيادة الميم إشعار بزيادة القصة، فلتأمل توارد كل كلمة أو آية مع ما يناسبها، وتضامها مع ذواتها، وما يميز القرآن عن كلام البشر، بأنه المعجزة الخالدة من لدن حكيم خبير.

1 فضل صالح السامرائي: المرجع السابق - ص 224.

10. الإيجاز والإطناب:

إنّ لكلّ واحد من الإيجاز والإطناب موضعا يكون به أولى من الآخر، لأنّ الحاجة إليه أشدّ والاهتمام به أعظم، ولقد نقلنا في الفصل الثّاني كلاما عن الرّماني فحواه أنّ الإطناب كمن سلك طريقا بعيدا لما فيه من التّزهة الكثيرة والفوائد العظيمة، فيحصل في الطّريق إلى غرضه من الفائدة على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب¹، وأنّ الإيجاز كما عرّفه السّكاكي أداء المقصود من الكلام بأقلّ من عبارات متعارف الأوساط²، وستعرّف على علاقة هذه الأساليب بموضوع التّوارد والتّضام في ضوء سورة من سور القرآن الكريم هي سورة طه.

يقول الحقّ تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ ³ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ ⁴، من باب الإطناب، إذ لو أريد الإيجاز لكفى: "عصاي"⁴، وقد ردّ ابن أبي الإصبع هذا النوع إلى التّلفيف، الذي عرّفه بقوله: «هو عبارة عن إخراج الكلام مخرج التّعليم بحكم أو أدب، لم يُرد المتكلّم ذكره، وإتّما قصد ذكر حكم خاص داخل في عموم الحكم المذكور الذي صرّح بتعليمه، وبيان هذا التّعريف أن يسأل السّائل عن حكم هو نوع من أنواع جنس تدعو الحاجة إلى بيانها، كلّها أو أكثرها فيعدل المسؤول عن الجواب الخاصّ عمّا سُئل عنه من تبين ذلك النوع، ويجب بجواب عامّ يتضمّن الإجابة عن الحكم المسؤول عنه وعن غيره بدعاء الحاجة إلى بيانه»⁵، حيث ابتداء موسى عليه السّلام ببيان الماهية بأسلوب يؤذن بانكشاف حقيقة المسؤول عنه، وتوقع أنّ توسّل لتطلّب بيان ورائه، فقال: "هي عَصَايَ" بذكر المسند إليه، مع أنّ غالب الاستعمال حذفه في مقام السّؤال للاستغناء عن ذكره في الجواب بوقوعه مسؤولا عنه، فكان الإيجاز يقتضي أن يقول: "عصاي" فلمّا قال: "هي عصاي" كان الأسلوب أسلوب كلام من يتعجّب من الاحتياج إلى الإخبار⁶، فواصل موسى عليه السّلام

1 التكت في إعجاز القرآن - ص 72 . 73 .

2 كتاب مفتاح العلوم - ص 120 .

3 سورة طه - الآيتان 17 . 18 .

4 كتاب مفتاح العلوم - ص 123 .

5 بديع القرآن - ص 123 . و ينظر: تحرير التّحبير - ص 343 .

6 الطّاهر بن عاشور: تفسير التّحبير والتّنوير - ج 16 - ص 205 .

به مستأنسا بلذيد المخاطبة قوله بيانا لمنافع هذه العصا خوفا من الأمر بإلقائها كالتعلل¹، وذلك أن موسى إنسان كرم بأن يكلمه ربه سبحانه فأراد أن يطيل أنسه بكلام الله تعالى²، فذكر هذه الصفات للعصا واستعمالاتها وفوائدها لأن الموقف صعب على موسى، فأراد الله أن يؤنسه، ومقام الإيناس إذا كان من الله لعبده فلا بد أن يستغل العبد هذا الإيناس، فلا يرد رداً مقتضياً، على الرغم من أن الله تعالى لم يسأله عن عمله بهذه العصا، وكلمة "هي" في الجواب غير مطلوبة، فلم يقل له: "لمن هذه العصا؟" ولم يقل: "ما ذا تفعل بها؟" حتى يقول له: "أتوكأ"، وما أشرنا إليه في الفصل السابق هو عينه ما يستفاد من الإطناب الذي يكون في المعاني لا الألفاظ، وبتفصيل القول لا بإجماله، كما نراه هنا إطناباً حلوا تترطب به الألسنة والأسماع³، فكان الإيجاز أن يقول غير ذلك ولكن محبة موسى عليه السلام لربه سبحانه، ورغبة في أن يطيل المحادثة، صرح بما يفهم ضمناً، ولم يقع ذلك من موسى عليه السلام إلا لأمر منها؛ بغية الشكر لله تعالى الذي رزقه تلك العصا التي وجد فيها من المآرب ما لا يوجد في غيرها، ومنها لأن المقام مقام خطاب الحبيب، وهو يقتضي البسط والإسهاب، ومنها تعظيم مساءلة ربه له عن منافعها، فابتدأه بالجواب عن السؤال المقدر قبل وقوعه أدبا مع ربه⁴، ليحمل بعد ذلك في قوله: "وَلِيَّ فِيهَا مَثَارِبٌ أُخْرَى"، وقالوا: إنما أجمل موسى ليسأله عن تلك المآرب فيزيد في إكرامه، وقالوا انقطع لسانه بالهيبه فأجمل⁵، وقيل الإجمال في هذا يحتمل أن يكون رجاء أن يسأله سبحانه عن تلك المآرب، فيسمع كلامه عز وجل مرة أخرى، وتطول المكالمة وتزداد اللذادة التي لأجلها أظن أولاً، وما ألدّ مكالمة المحبوب⁶، ومراد هذا ربّما إلى أنه لما كان أكمل أهل ذلك الزمان خاف التّطويل على الملك فقطع نفسه ما هو فيه من

1 برهان الدّين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور - ج16 - ص 280. وينظر: فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس

في القرآن - ص 362.

2 محمّد متولّي الشعراوي: قصص الأنبياء والمرسلين - ص 253.

3 محمّد أبو زهرة: المعجزة الكبرى - ص 306.

4 محيي الدّين الدّرويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه - مج04 - ص 669.

5 الزّمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التّرجيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل - ج04 - ص 75.

6 شهاب الدّين الألويسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني - ج16 - ص 176.

لذة المخاطبة كما قيل: "اجلس على البساط وإياك والانبساط"¹، وطمعا في سماع كلامه سبحانه وتعالى، فقال ذلك مجملا.

يقول تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿١٧﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿١٨﴾ وَأَخْلَلْ عُقَدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿١٩﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٠﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢١﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٢٢﴾ أَشَدُّ بِهَمِّ أَرْزِي ﴿٢٣﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٢٤﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٢٥﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٢٧﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٢٨﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٢٩﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمَمِكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٠﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِيفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴿٣١﴾ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٢﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ﴿٣٣﴾ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمَمِكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴿٣٤﴾ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَرَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴿٣٥﴾ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَأَصْطَنَعْتَكَ لِنَفْسِي ﴿٣٧﴾ ٢. بزيادة "لي"

لاكتساء الكلام معها من تأكيد الطلب لانسراح الصدر ما لا يكون بدونه، ألا تراك إذا قلت: "اشرح لي" أفاد أن شيئا ما عندك تطلب شرحه فكنت مجملا، فإذا قلت صدري عدت مفصلا وإن كان الطلب وقت الإرسال الذي هو مقام مزيد احتياج إلى انسراح الصدر لما تؤذن به الرسالة من تلقي المكاره وضروب الشدائد³، وهنا نجد في هذا الكلام إطنابا في خطاب موسى عليه السلام كليم الله تعالى لربه، فهو لا يكتفي بالملزوم حتى ينطق باللازم، لأن الخطاب محبب إلى نفسه لأنه يخاطب ربه فيسهب في القول من غير تزيد، ثم تجد بعد ذلك في كلامه إيجازا غير محل قد حذف منه ما صرح به آيات أخر من قصة موسى عليه السلام مع فرعون⁴، فذكر أن أخته قالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم، ولم تذكر أنه حرم عليه المرضع، وقد عرف هذا

1 برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ج16 - ص 280.

2 سورة طه - الآيات 25، 40.

3 الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض الترتيل وعبون الأقاويل في وجوه التأويل - ج04 - ص78. وينظر: كتاب مفتاح العلوم: السكاكي - ص 123. وينظر: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: حمزة بن يحيى العلوي - ج03

ص 178. وينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين الألوسي - ج16 - ص 182.

4 محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى - ص 307.

من الآيات الأخرى، إذ إنه لا يمكن أن يكونوا في حاجة إلى من يكفله لهم، إلا إذا احتاجوا إلى ذلك، وحذف من قبل كلام امرأة فرعون، وقد فهم ضمنا من قوله تعالى: "وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبِيبَةً مِّمِّي". وذكر هنا قتله نفسا، وطوى ذكر ما كان منه عندما بلغ أشده، ورؤيته رجلا من شيعته يستغيثه فأغاثه، وقتل الذي من عدوه، ثم طوى سبحانه وتعالى خبر الائتمار عليه ليقته المتآمرون ثم خروجه، والتقاؤه بابنتي شعيب، وسقيه لهما، ومجيء إحداهما تمشي على استحياء، ثم زواجه، على أن يكون المهر عمله ثماني حجج أو عشر، ثم إيناسه بالنار ثم مكالمة الله له، وقد ذكر كله في قوله تعالى: "فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَىٰ ﴿٦٦﴾ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي"، وهكذا نجد أن الإطناب لا يكون بكثرة الألفاظ فقط، بل بكثرتها مع كثرة المعاني، والإيجاز لا يكون بكثرة المعاني فقط، بل لابد أن يكون في الألفاظ دلالة واضحة على المعاني الكثيرة، أو أن تكون هذه المعاني ذكرت في مقام آخر من القرآن الكريم، وتما يقتضيه السياق والمشهد من إطناب وإيجاز قوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخَشَىٰ ﴿٦٧﴾ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ آيِمٍ مَّا غَشِيَهُمْ ﴿٦٨﴾¹، وقوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَجَوْرْنَا بِنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾²، نلاحظ استعمال واو العطف في سورة يونس، وفي هذا الاستعمال تعبير قطعي أن فرعون خرج مع جنوده وأتبع موسى عليه السلام، والباء في سورة طه تفيد في اللغة المصاحبة والاستعانة، وفي الآية تحتمل المصاحبة وتحتمل الاستعانة، بمعنى أمدهم بجنوده ولا يشترط ذهابه معهم، والتعبير في سورة يونس يوحي بأن فرعون عازم على البطش والتنكيل هو بنفسه، لذا خرج مع جنوده، وأراد استئصال موسى، لأن سياق الآية يفرض ذلك، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا

1 الآيات 77 . 78.

2 الآية 90.

﴿جُجْرِمِينَ﴾¹، فذكر أنهم مجرمون مستكبرون، وأن من آمن قليل، وأن فرعون عال في الأرض ومسرف وأنه يفتن قومه، ومآل الأمر في سورة يونس أن موسى عليه السلام دعا على فرعون وقومه، يقول تعالى: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾²، فذكر "بغيا" و"عدوا" مناسب لسياق الآيات التي ذكرت عذاب فرعون وتنكيله بموسى عليه السلام وقومه، ولم يذكر في سورة طه، أن فرعون آذى موسى عليه السلام وقومه ولم يتعرض لهذا الأمر مطلقا، لذا فالسياق هنا مختلف لذا اختلف التعبير، ولم يذكر "بغيا ولا عدوا" ثم إنه بعد أن ضاق قوم موسى عليه السلام ذرعا من فرعون وبطشه تدخّل الله سبحانه فتولّى أمر النجاة بنفسه، في قوله تعالى: "حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ" وكان الغرق لفرعون وإيمان فرعون عند الهلاك هو استجابة لدعوة موسى عليه السلام، يقول تعالى: "فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ" أما في سورة طه فقد جاء الأمر وحيا منه تعالى لموسى عليه السلام ولن يتولّى تعالى أمر النجاة بنفسه وإنما خاطب موسى بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾³، وبعدها ذكر غرق فرعون وقومه بقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ يَجُنُودِهِ فَعَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾⁴، وفي هذا الكثير من الاختصار الذي يُعدّ من جوامع الكلم التي تستقلّ مع قلّتها بالمعاني الكثيرة⁵، بمعنى غشيهم من اليمّ ما لا يعلم كنهه إلا الله.

1 الآية 75.

2 الآية 88.

3 الآية 77.

4 الآية 78.

5 الرّحشري: الكشاف عن حقائق غوامض التّبريل وعيون الأقاريل في وجوه التّأويل - ج 04 - ص 99.

11. الحذف:

إنّ الحذف له في البلاغة مدخل عظيم، وأكثر ما يرد في كتاب الله تعالى، وما ذاك إلاّ من أجل رسوخ قدمه، وظهور أثره، واشتهار علمه¹، كونه أحد أساليب القرآن وفنونه البلاغية² وقد ذكرنا في الفصل السابق ما وصفه به عبد القاهر الجرجاني من أنّه « باب دقيق المسلك لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسّحر، ترى به ترك الذّكر أفصح من الذّكر، والصّمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بيانا إذا لم تُبين³، وأشرنا في هذا الصّدّد إلى أنّ المحذوف « يفهم غالبا من خلال السّياق أو وجود قرينة تدلّ عليه وفي الحذف فوائد جليلة من الاختصار مع عدم الإخلال بالمعنى وهذا من خصائص النّظم القرآني⁴، وأنّ هذا الحذف والاستغناء لا يكون اعتباطا وإتّما عدولا من المتكلّم عن الذّكر إلى الحذف لأداء دلالة معيّنة أو لسرّ بلاغي⁵.

يقول تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ۖ﴾ وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿١٠٣﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَجْدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿١٠٤﴾، وفي الآيات حذف جمل متعدّدة يقتضيها المعنى بقرينة السّياق، فكأنّه قيل: "قلنا لا تخف إنّك أنت الأعلى وألق ما في يمينك فألقى عصاه فابتلعت حبالهم وعصيّهم فبهتوا لذلك وآمنوا بالله" ودليل الحذف في كلّ ذلك هو قرينة السّياق، والمحذوف من كلّ ذلك حشو لا ضرورة له ولا وجه لذكره⁷، وفي هذه الآيات ملمح بياني آخر؛ هو الجانب الخاصّ بحذف الحروف، فإنّه لما كان المعلوم أنّ الله معه، وأنّه جدير بإبطال سحرهم قال له: "تلقّف" بقوة

1 ينظر: الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة العلوي - ج 02 - ص 51.

2 ينظر: البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي - ج 03 - ص 103.

3 دلائل الإعجاز - ص 120.

4 محمود السيّد حسن: روائع الإعجاز في القصص القرآني، دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز - 2003م - ص 318.

5: ينظر: النّظم وبناء الأسلوب في البلاغة العربية: شفيع السيّد - ص 61.

6 سورة طه - الآيات 68 - 70.

7 تمام حسان: البيان في روائع القرآن - ص 384.

واجتهاد مع سرعة لا تكاد تدرك، وهو ما يشير إليه حذف حرف التاء، وكان ما وعده به سبحانه من تلقفها لما صنعوا من غير أن يظهر عليها زيادة في ثخن ولا غيره مع أن حبالهم وعصيهم كانت شيئاً كثيراً، فعلم كل من رأى ذلك أحقيته وبطلان ما فعل السحرة، فبادر السحرة منهم إلى الخضوع لأمر الله ساجدين، كآته ألقاه ملق على وجهه، ولذلك قال تعالى بعد أن ذكر مكرهم واجتهادهم في معارضة موسى عليه الصلاة والسلام، وحذف ذكر الإلقاء وما سببه من التلقف لأن مقصود السورة على تلين القلوب القاسية: "فَأَلْقَى السَّحْرَةَ"، أي فألقاهم ما رأوا من أمر الله بغاية السرعة وبأيسر أمر... وما أعظم الفرق بين الإلقاءين، فكأن قائلاً قال: "هذا فعلهم فما قالوا؟" فقيل: "قَالُوا ءَامَنَّا"¹، وهناك ملحظ في الآية الأخيرة من هذه الآيات الثلاث، هو حذف جملة: "رب العالمين" التي وردت في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ﴾ ^(١٦) قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٢﴾، وفي سورة الشعراء في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ﴾ ^(١٦) قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٣﴾ وذلك لأنه لما كان القصد حكاية المعنى في سورة طه، لا أداء اللفظ على جهته كما في سورتي الأعراف والشعراء حذفت منه: "رب العالمين" استغناء عنها بما دل عليها من قبل⁴، وقد أجاب بعضهم عن سبب هذا الحذف بأن يقال: «إذا قيل: "رب العالمين" فقد دخل فيهم موسى وهارون عليهما السلام، وهما دعوا رب العالمين، لما قالوا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁵ إلا أنه ذكر في السورتين: "رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ" ليدلّ بتخصيصهما بعد العموم على تصديقهما بما جاء به عليهما السلام عن الله تعالى، فكآته قيل "ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ" وهو الذي يدعو إليه موسى وهارون، وأما في سورة طه فلم يذكر: "رب العالمين" لأنه ما كان الكلام يتم به آية كما تم في السورتين، فيكون مقطع الآية فاصلة مخالفة للفواصل التي بنيت عليها فواصل سورة طه، فقال

1 شهاب الدين الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - ج 16 - ص 166.

2 الآيات 120 - 122.

3 الآيات 46 - 48.

4 عبد الفتاح لاشين: من أسرار التعبير في القرآن، الفاصلة القرآنية - ص 35.

5 سورة الشعراء - الآية 16.

تعالى: "ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ" وربّهما هو ربّ العالمين، وكان القصد حكاية المعنى لا أداء اللفظ على جهته¹ فردّ هذا الحذف إلى مراعاة الفاصلة، و كما أن فرعون ينكر إله موسى، وهو إله العالمين؛ فإنّه من الأليق أن تذكر الصّفة وما يتعلّق بها، لتستلقت نظر فرعون وقومه، وتتيح لفكره أن ينشط ويتهيأ إمّا للإقناع أو الاقتناع، فربّ السّموات والأرض وما بينهما وربّ آبائهم وربّ المشرق والمغرب وما بينهما فيه إشارة ذهنية وعاطفية نحو الله، ومن ثمّ آمن به السّحرة بعد إلقاء موسى عليه السّلام عصاه فإذا هي حيّة تسعى²، ومما استغني عن ذكره في هذه السّورة وحذف اسم فرعون لعنه الله، فقد جاءت الآية الكريمة من سورة طه: ﴿قَالَ ءَامَنْتُ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾³ خالية من ذكره، وكذلك سورة الشعراء لم يُذكر فيها، يقول تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنْتُ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾⁴ بينما ورد في قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾⁵، ومردّ هذا أن الذّكر العائد إلى فرعون في سورة الأعراف بعد، لأنّه جاء في الآية العاشرة من الآية التي أضمر فيها ذكره وهي قوله: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ لَمِنَ الْمُفْرَبِينَ﴾⁶ وجاء في الآية العاشرة من سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾⁷، ولم يبعد في الآيتين اللتين في سورتي طه والشعراء، لأنّ فرعون مذكور في سورة طه في جملة قومه الذين أُخبر عنهم: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَىٰ﴾⁸، وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾⁹ قال لهم موسى ويَلِكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَتَرَىٰ﴾⁹، وهذا خطابه لفرعون وضميرهم منطوٍ على ضميره إلى قوله: ﴿فَأَجْمِعُوا

1 الخطيب الإسكاني: درّة التّزويل وعرّة التّأويل - ص 129.

2 فتحى أحمد عامر: المعاني الثّانية في الأسلوب القرآني - ص 392.

3 الآية 71.

4 الآية 49.

5 الآية 123.

6 سورة الأعراف - الآية 114.

7 الآية 123.

8 سورة طه - الآية 57.

9 الآيتان 60. 61.

كَيْدِكُمْ ثُمَّ أَنْتُمْ أَصْفَاءُ ﴿١﴾، بذكر في قوله: "قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ" إنما هو السابع من الآي التي جرى ذكره فيها، وكذلك في سورة الشعراء؛ لم يبعد الذكر بعده في سورة الأعراف، ألا ترى أن آخر ما ذكر فيما اتصل بهذه الآية قوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾²، وذكره بعد ذلك في الآية الثامنة من الآية التي جرى ذكره فيها، فلما بعد الذكر في سورة الأعراف خلاف بعده في السورتين إذ كان في إحداهما في السابعة وفي الأخرى في الثامنة وهي في سورة الأعراف في العاشرة أعيد ذكره الظاهر لذلك³، وحذف ذكره في سورتي طه والشعراء، ومن أطف ما جاء في هذا السياق ما ذكره البقاعي من أن حذف كلمة: "فرعون" يرجع إلى أنه لما كان موسى عليه السلام هو المقصود بالإرسال إلى فرعون استأنف تعالى الإخبار عن فرعون عندما فحجه ذلك فقال: "قَالَ " أَي: فرعون للسهرة منكرا عليهم، وأضمر اسمه - أو حذف - هنا ولم يظهره كما في سورة الأعراف لأن مقصود السورة الرفق بالمذمومين والحلم عنهم، وهو غير متأهل لذكر اسمه في هذا المقام⁴، ومما جاء في باب الحذف في هذه الشواهد القرآنية جملة: "سوف تعلمون"، فقد حذفت من تلك الآية سورة طه في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾⁵، على أنه ورد ذكرها في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾⁶ وفي سورة الشعراء: ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ؕ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾⁷، فلم قال في سورة الأعراف: "فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ" ولم يقل في سورة طه

1 الآية 64.

2 سورة الشعراء - الآية 42.

3 الخطيب الإسكافي: درة التزليل وغرة التأويل - ص 129. 130.

4 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ج 16 - ص 311.

5 الآية 71.

6 الآية 123.

7 الآية 49.

ذلك، ولم أدخل الفاء في: "فَلَأَقْطِعَنَّ" "وأنه في سورة الشعراء أتى بـ: "فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ" مع اللام؟ والجواب عن هذا أن قوله: "فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ" من الوعيد المبهم المعرض به أي: فعلت بجهل ما تعرف من بعد نتيجته وطرحت بذر شر عند حصده تعلم نهايته، وهذا النوع من الوعيد أبلغ من الإفصاح بعذره على أنه قرن إليه بيانه، وهو: "لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ" فنطق القرآن بحكاية التعريض بالوعيد والإفصاح بالتهديد معا، فأما اختصاص سورة الشعراء بقوله: "فلسوف" وزيادة اللام فلتقريب ما خوفهم به من إطلاعهم عليهم وقربه منهم حتى كأنه في الحال موجود، واللام للحال والجمع بينها وبين: "سوف" التي للاستقبال إنما هو لتحقيق الفعل وإدناؤه من الوقوع، وقد سبق في أكثر من موضع بيان أن سورة الشعراء أكثر اقتصاصا لأحوال موسى عليه السلام في بعثه وابتداء أمره وانتهاء حاله مع عدوه، فجمعت لفظ الوعيد المبهم مع اللفظ المقرب له المحقق وقوعه إلى اللفظ المفصح بمعناه، ثم وقع الاقتصار في السورة التي لم يقصد فيها من اقتصاص الحال ما قصد في سورة الشعراء على ذكر نقص ما في موضع البسط والشرح وهو التعريض بالوعيد مع الإفصاح به، فأما في سورة طه فإنه اقتصر فيها على التصريح بما أوعدهم به وترك: "فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ" وقال: "فَلَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ"؛ إلا أنه جاء بدل هذه الكلمة ما يعادها ويقارب ما جاء في سورة الشعراء التي هي مثلها في اقتصاص أحواله من ابتدائها إلى حين انتهائها، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَأَصْلَبَنَّهُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾¹ فاللام والنون في قوله: "وَلَتَعْلَمَنَّ" للقسم، وهما لتحقيق الفعل وتوكيده، كما أتى باللام في قوله: "فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ"² لإدناء الفعل وتقريبه، فقد تجاوز ما في السورتين المقصود إلى اقتصاص الحاليين من إعلاء الحق وإزهاق الباطل.

يقول تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَعَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا عَشَيْتُمْ﴾³، وفي الآية حذف

1 سورة طه - الآية 71.

2 الخطيب الإسكافي: درة الترتيل وغرة التأويل - ص 131.

3 سورة طه - الآية 78.

من جهة المجاز¹، حيث يحسن مثل هذا الحذف ما لم يُشكل به المعنى، لقوة الدلالة عليه، والآية من باب الاختصار، ففاعل غشاهم إما الله سبحانه، أو ما غشاهم، أو فرعون؛ لأنه الذي ورط جنوده وتسبب لهلاكهم²، ليكون الحاصل من الحذف تهويل أمر العذاب بالغرق، متناسبا مع صلابة الكفر وطغيان الضلال، وادعاء الألوهية، ويكون درس اعتبار لبني إسرائيل الذين نجّاهم الله من الموت. وقد يكون المحذوف عنصرا غير نحوي، ولكن تقتضيه استقامة النص، نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْهَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ أَذَلُّوا ۗ ﴿١٦﴾ أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي ۗ ﴿١٧﴾﴾³، أي: "قال وقد أخذ بلحية أخيه ورأسه يجره إليه يا هارون ما منعك؟"⁴، ومنه ما وقع في حين حذف أكثر من جملة في هذه السورة، نحو قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ آَخْضَةٍ وَعَمَلٍ لَّا يَبْلَى ۗ ﴿١٩﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا ۗ ﴿٢٠﴾﴾⁵، لأنه بمعنى: "فاستمع إليه وأطاع وسوسته فأكلا منها"⁶ أو بمعنى: "فعمل آدم بوسوسة الشيطان فأكل من الشجرة وأكلت معه حواء"⁷، على اعتبار أن هناك تفرعا على ما قبله، وجملة محذوفة دلّ عليها العرض، ومن الحذف في هذه السورة على سبيل الاختصار أيضا ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۗ ﴿٨﴾﴾⁸، حيث ذكر المذهب إليه في الأوّل في قوله: "أذهب أنت وأخوك" اختصارا في الكلام، وقيل: أمرا أوّلا بالذهاب لعموم الناس ثمّ ثانيا لفرعون بخصوصه، وفيه بعد، بل الذاهبان متوجّهان لشيء واحد هو فرعون، وقد حذف من كلّ من الذاهبين ما أثبتته في الآخر، وذلك أنّه حذف المذهب إليه من الأوّل وأثبتته في الثاني

1 فتحي أحمد عامر: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني - ص 392.

2 الزّمخشري: الكشّاف عن حقائق غوامض التّبريل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل - ج 04 - ص 99.

3 سورة طه - الآيتان 92 93.

4 تمام حسن: البيان في روائع القرآن - ص 170.

5 الآيتان 120 . 121.

6 تمام حسن: السابق - ص 384.

7 الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير - ج 16 - ص 326.

8 الآية 43.

وحذف المذهب به وهو "آياتي" من الثاني وأثبتته في الأول¹، وهذا من عجيب التصرف في النظم المعجز، والتنوع في أفانين الكلام.

1 ينظر: الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون: السمين الحلبي - ج08 - ص 42.

12. الذكر والزيادة:

إذا كان الحذف في القرآن الكريم لا يُقصد إلا لغرض بلاغي، فإن العدول عنه إلى الذكر لا يكون أيضا إلا لغرض بلاغي، فيصبح الذكر هو الأصل، والحذف هو الفرع، وهذا ما يقصده البلاغيون بقولهم إنَّ الذكر نقيض الحذف والحالة المقابلة للاستغناء¹، أما الزيادة فإنها إحدى وسائل التوكيد لا مشاحة في ذلك؛ باعتبار أنَّ كلَّ زيادة إنما جيء بها لتأكيد المعنى كما مرَّ معنا في الفصل السَّابق، وما نرمي إليه في هذا الفصل لا يكاد يختلف عن سابقه، في كوننا نتطرق إلى قضية الذكر والزيادة في سورة من سور القرآن الكريم، ولتكن سورة طه.

يقول تعالى: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾²، وقد روى أكثر من مفسر أنَّ الظاهر أن يقول: "عليها"، إلا أنَّه جيء بالظاهر تصريحاً بما هو كالعلة لوجدان الهدى، إذ النار لا تخلو من أناس عندها، وصدرت الجملة بكلمة التَّرجي لما أنَّ الإتيان وما عطف عليه ليسا محققَي الوقوع، بل هما مترقبان متوقَّعان، وذلك إمَّا علة لفعل قد حُذف ثقة بما يدلُّ عليه من الأمر بالملكث والإخبار بإيناس الناس وتفاديا عن التصريح بما يوحشهم، وإمَّا حال من فاعله فأذهب إليها آتيكم أو كي آتيكم أو راجيا أن آتيكم منها بقبس³ واستعمل "أو" التي للتخيير هنا للدلالة على أنَّ إتيانه أمر محقق، فهو إمَّا أن يأخذ القبس لا غير، وإمَّا أن يزيد فيجد صاحب النار قاصدا الطريق مثله فيصحبه، وحرف "على" هنا مستعمل في الاستعلاء المجازي، أي شدة القرب من النار قريبا أشبه الاستعلاء⁴، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاحْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾⁵، فقد جاء بلفظ الربوبية التي تفيد الإيناس لأنَّ لفظ الجلالة الله مطلوبها عبادة وتكليف وهو المطاع فيما أمر، لكنَّ الرّبَّ عطاء ولو للكافر فخاطبه

1 ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: أحمد مطلوب - ص 492.

2 سورة طه - الآية 10.

3 ينظر: الكشف عن حقائق غوامض التزييل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري - ج 04 - ص 69. وينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين الألوسي - ج 16 - ص 166. وينظر: تيسير التفسير: المحمّد بسن يوسف أطفيش - ج 09 - ص 126.

4 الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير - ج 16 - ص 195.

5 سورة طه - الآية 12.

بصفة الربّ الذي يتولّى التربية والعطاء، ولم يقل: "إني أنا الربّ المطلق" ولكن قال له: "إني أنا ربُّكَ" أي: أنت، وذلك لأنّ الرّسل لهم تربية خاصّة تختلف عن باقي الخلق جميعاً، ولذلك قال له في آية أخرى من هذه السّورة: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي﴾¹، وقال له أيضاً: ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾² فهو سبحانه يعطيك من التّربية ما يناسب مهمّتك عنده³، ومما زيد في المبنى لغرض الزيادة في المعنى ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾⁴، فقال له: "استمع" ولم يقل له: "اسمع"؛ لأنّ الانسان يسمع ما يهّمه وما لا يهّمه، ولأنّ الأذن ليست كالعين يمكن إغلاقها عن الشّيء الذي لا تحبّ أن تسمعه، فكانت كلمة "استمع" بمعنى أن تتكلّف السّماع، وأرهف أذنك من أجله، وأن تهيبّ كلّ جوارحك لأن تسمع، وأن تجتهد كلّ حواسّك وتستحضر قلبك لتنفيذ المطلوب⁵، ومما تنوّع فيه التّنظيم بالذّكر والزيادة في مواضع دون أخرى ما ورد في هذه السّورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَحْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾⁶، وقوله تعالى في سورة غافر: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾⁷، فقد ذكر في سورة طه: "أكاد أخفيها" وورد وصفها في سورة غافر: "لا ريب فيها"، وأنّه زاد اللّام في سورة غافر: "لآتية لا ريب فيها"، وهذا الاختلاف مردّه أن الآية في سورة طه خطاب للنبيّ عليه الصّلاة والسّلام يتضمّن تأنيسه وتسلّيته عن حال كفّار قريش في توقّفهم عن الإيمان، فافتتحت السّورة بأجل التّأنيس، ثمّ تابع التعريف بتعظيم الكتاب وذكر منزلته تعالى بما انفرد فيه من ملك السّماوات والأرض وما بينهما وبين الثّرى، ووصفه بأنّه يعلم السّر وأخفى، وانفراده بأسمائه الحسنی، ثمّ عرف نبيّه عليه السّلام بابتداء أمر موسى عليه السّلام إلى هذه الآية، تعريفاً بتعظيم خفاء أمر السّاعة وتغيب كنهها عن الخلق، حتّى كأنّ أمرها لم يخبر عنه ولا وقع تعريف بشيء منه، فهو إخبار

1 الآية 39.

2 الآية 41.

3 محمّد متولّي الشعراوي: قصص الأنبياء والمرسلين - ص 252.

4 سورة طه - الآية 13.

5 محمّد متولّي الشعراوي: السابق - ص 255.

6 الآية 15.

7 الآية 59.

بفرط إخفاء أمرها، وذلك إعلام بوصف وحال من قد تقرّر بوقوعها يقينه، ولما كان هذا الخطاب والتعريف لمن جرى ذكره من تزّهه عليه السلام عن الارتياب في أمر الساعة، لم يحتج إلى نفي الرّيب، إذ مقام النبوة في الإيمان بها المقام الذي لا يُدان، فلم يكن نفي الارتياب ليلائم ولا يناسب، وإنما عُرفوا بحال وصف تابع، أما الآية الأخرى من سورة غافر في أكثر الخطاب المتقدّم قبلها من أوّل السّورة إليها فخطاب لقريش وسائر كفّار العرب، وهم المجادلون في أمر الساعة والجاهلون بكيانها، فقدّم لهم قبل ذكر الآيات قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾¹، فذكروا بما لم يمكن لأحد من المخلوقين إلا الاعتراف بعظيم أمره والعجز عنه، وهو الخلق الأعظم، ثم أتبع بنفي الرّيب الذي هو ملتبسهم وصفتهم، وأتبع بتأكيد الأخبار بدخول اللّام، نفي الرّيب في ذلك²، وهذا أوضح شيء في المناسبة فكلّ من الآيتين وارد على أتم مناسبة، ولا يمكن أن يقع الوارد في سورة غافر في سورة طه، ولا الوارد في سورة طه في سورة غافر، والشّطر الآخر من هذا التشابه والاختلاف في النّظم فإنّ الآية في سورة طه كما سبق وردت أثناء خطاب رسول الله بالتأنيس والتسليّة من مكابدة قريش وسائر كفّار العرب، وتعريفه بما جرى لموسى عليه السّلام، وظهوره على فرعون فلم يكن ليناسب ذلك تأكيد الخبر عن أمر الساعة، إذ هو عليه السّلام من أمرها على أوضح الجادة، أما الآية في سورة غافر فإنّ قبلها تعنيفا لكفّار من قريش وغيرها، وعلى ذلك استمرّت الآيات من أوّل السّورة إلى قوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾³ فناسب ذلك من حالهم تأكيد الأخبار عن إتيان الساعة بدخول اللّام، وضرورة الآية بذلك في قوّة المعبر عنه تحقيقا للأمر وتأكيدا لما في طيّ ذلك من وعيدهم بسوء ما لهم⁴، فورد كلّ من الآيتين على ما يناسب.

1 الآية 57.

2 ابن الزّبير الغرناطي: ملاك التّأويل القاطع يذوي الإلحاد. والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من أي التبريل - ج 02 - ص 814.

3 سورة غافر - الآية 59.

4 ابن الزّبير الغرناطي: السّابق - ج 02 - ص 815.

يقول تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ﴾ ^١ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿١﴾، ذكر الزمخشري علة ورود كلمة: "لي" فقال: «قد أهبم الكلام أولاً، فقيل: "اشرح لي ويسر لي" فعلم أن ثم مشروحا وميسراً، ثم بين رفع الإبهام بذكرهما، فكان أكد لطلب الشرح والتيسير لصدره وأمره من أن يقول اشرح صدري، ويسر أمري على الإيضاح الساذج، لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريقي الإجمال والتفصيل»²، أو أن تكون فائدتها الاعتراف بأن منفعة شرح الصدر وتيسير الأمر راجعة إليه وعائدة عليه³، وقد سبق في المبحث الخاص بالتكرار والتأكيد بيان أن في ذكر "لي" مع صحة الاستغناء عنها زيادة ربط، وتأكيذا بالتلويح إجمالاً؛ حتى إنه لو لم يذكر صدري وأمري لكفى⁴ ولو اقتصر عليها بدون "لي" لم يفده الكلام تلك الفائدة، ومما ورد في هذه السورة بنوع من الزيادة والتفصيل قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ۖ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ۚ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ ۚ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ۚ﴾ ^٥ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ تُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ۖ﴾ ^٥، ومثله في سورة الشعراء: ﴿فَجَمِيعَ السَّحَرَةِ لَمِيقَتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۖ﴾ ^٦ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٦﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِذْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٨﴾، على أنه سبحانه قال في سورة الأعراف: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۖ﴾ ^٧، فوجد أن المحكي في سورتي طه والشعراء أكثر من المحكي في سورة الأعراف، وذلك لأن ما في سورة الشعراء أشد اقتصاصاً للأحوال التي كانت بين موسى عليه السلام وبين عدوه فرعون لاشتماله على ذكر مبعثه إليه فجاء فيها بما لم يجيء في سورة الأعراف⁸، أما سورة طه فورد فيها ابتداء أمره

1 سورة طه - الآيتان 25. 26.

2 الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - ج 04 - ص 78.

3 محيي الدين الدرويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه - ج 04 - ص 677.

4 أحمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير - ج 09 - ص 140.

5 الآيات 57 - 59.

6 الآيات 38 - 41.

7 الآية 113.

8 الخطيب الإسكافي: درة التنزيل وجرّة التأويل - ص 126.

عليه السلام واقتصاص معظم حاله وأول ما كان من مبعثه، فناسب هذا تلك الزيادة في المحكي وذكر ما لم يُذكر في سورة دون أخرى، وملحظ آخر في هذه الصّدّد نفسه؛ هو أنه سبحانه قال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِجْرٌ عَلِيمٌ﴾¹ يريد أن تُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ² فَمَاذَا تَأْمُرُونَ³، وقال في سورة طه: ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى﴾⁴ وقال في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِجْرٌ عَلِيمٌ﴾⁵ يريد أن تُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ⁶،³ بزيادة: "بسحره" في سورتي طه والشعراء، ومرّد ذلك أنه لما أسند الفعل في الأولى إلى فرعون وحكى ما قاله: "إِنَّ هَذَا لَسِجْرٌ عَلِيمٌ" وكان أشدهم تمرّدا وأولهم تجبّرا وأبلغهم فيما يرّد به الحقّ كان في هذا القول ذكر السبب الذي يصل به إلى الإخراج، وهو "بسحره" فأشبع المقال بأن ذكر أنه يريد إخراجكم بسحره، أمّا الموضع الذي لم يذكر فيه "بسحره" فهو ما حكى من قول الملأ، والملأ لم يبلغوا ما بلغه فرعون في إبطال ما أورده موسى عليه السلام، ولم يجفوا في الخطاب جفاه فتناولت الحكاية ما قاله فرعون على جهته بتكرير لفظ السّحر بعدما أخرجه في صفته حيث قال: "إِنَّ هَذَا لَسِجْرٌ عَلِيمٌ"، بيد أنه قد يقول قائل: "فقد ذكر سبحانه في سورة طه عن الملأ أنهم قالوا: لَسِجْرَانِ؟" فيكون جوابه⁴ أنه قال تعالى في هذه السّورة: ﴿فَتَنَزَعُوا أَمْرَهُم بِبَيْنِهِمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾⁵ فهو خير عن فرعون وقومه، فلما كان في جملتهم غلب أمره على أمرهم، إذ ابتداء ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾⁶، وهذا خير عن فرعون ثم تتوالى الآيات بعد ذلك في خطاب عن فرعون ومن تبعه، فذكر قوله: "بسحره" فيما حكاها من كلام فرعون، فلذلك خلا منه الموضع الذي كان فيه الخبر عن الملأ من قومه، ومن لطائف ما جاء

1 الآياتان 109. 110.

2 الآية 63.

3 الآياتان 34. 35.

4 ينظر: درّة التّزئيل وعرّة التأويل: الخطيب الإسكافي - ص 125.

5 الآية 62.

6 الآية 56.

في هذا الموضوع من هذه السورة قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾¹، ونظير هذا قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾²، وذكر الحرف وحذفه له دوافع، والقاعدة العامة فيه أنه عندما يكون السياق في مقام البسط والتفصيل يذكر الحرف سواء كان ياءً أو غيرها من الحروف، كما هو هنا في سورة طه لأنه فصلٌ فيها³، وإذا كان المقام مقام إيجاز يوجز ويحذف الحرف إذا لم يؤد ذلك إلى التباس في المعنى، كما هو هنا في سورة الأعراف.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾⁴

وفي موضع آخر يقول الحق تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِمْ وَإِنَّا لَهُمْ كَاتِبُونَ﴾⁵، الملاحظ في الآيتين أن الأولى وردت على نسق ما قبلها بالواو والأخرى بالفاء المقتضية في مثل هذا استئناف التفصيل مع بنائه على ما قبله بمقتضى الفاء فقوله: "ومن يعمل" بواو النسق في الأولى ورد في مقابل ما تقدمه، فكان على أصله وما يقتضيه موضع الواو، ولا مدخل للفاء فيه بخلاف الأخرى، لأن فيه افتتاحاً لتفصيل أحوال الفريقين فاستؤنف هذا التفصيل بالفاء، أما الملحوظ الآخر الذي يرتبط بمبحث الذكر والزيادة ففي تعقيب الآية من سورة طه: "فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا" إذ إن فيه إفصاحاً بالتأنيس المناسب لما بُنيت عليه كما هو واضح في الآيات التي قبلها⁶، ولم تُبن آية سورة الأنبياء على ما ذكر فحسب فيها بما يناسب، دون الحاجة إلى مزيد زيادة وتفصيل، وورد كل على ما يجب، ومما زيد في مبناه لزيادة

1 الآية 94.

2 الآية 150.

3 ينظر: الآيات 86 - 93.

4 سورة طه - الآية 112.

5 سورة الأنبياء - الآية 94.

6 ابن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من أي التزليل - ج 02 -

ص 826. ذي

التأكيد عليه والتنبية إليه ما ورد في قوله تعالى من هذه السورة: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا^ط﴾¹، ف"اصطبر" جاءت في الصلاة، لأنها مستمرة كل يوم، ولأنها شديدة على النفس عظيمة التفع، والصلاة كل يوم في أوقاتها وأدائها وإتمامها يحتاج إلى صبر كبير، لذا جاءت كلمة "اصطبر" بصيغة الافتعال للدلالة على الزيادة في الصبر، في حين جاءت الصيغة بلفظها في موضع آخر من هذه السورة: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا^ط وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾²، وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم نحو قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ^ط﴾³ فناسب زيادة المبنى زيادة المعنى والاهتمام به، والدلالة على قيمة هذا الأمر وفائدته.

1 الآية 132.

2 الآية 130.

3 سورة الكهف - الآية 28.

13- المخالفة في طريقة الجواب والإخبار:

لعلّ أوّل ما يختصّ به هذا المبحث في سورة طه هو تلك الطريقة الفريدة في الحوار الذي جرى بين موسى عليه السّلام وفرعون، ومن أوائل الآيات التي تنقل لنا هذا الحوار قول الحق سبحانه: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾ ١ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٢﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٣﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ ﴿٤﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٦﴾ ﴿٧﴾ مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٨﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٩﴾ 1، فقد بدأ موسى عليه السلام ببسط مهمته الرئيسة، ولأنّ فرعون يعتزّ بألوهيته دائماً فإنّ المولى سبحانه يريد أن يردّ عليه ويبيّن له أنّ هذه التعم ليس له صلة بإيجادها وخلقها، كما أنّه لم يخلق البشر الذين يريد أن يتألّه عليهم فردّه الحقّ إلى قضية الخلق الأولى، لذلك ترى فرعون نقل هذا الأمر من قضية جوهرية إلى قضية تافهة فقال: "قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ" إلا أنّ موسى عليه السّلام أغلق أمامه هذا الباب فقال: "عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي" وبعد ذلك دخل معه في قضية أخرى تفصيلية لما سبق أن حدّثه فيه 2، ومن عجيب النظم في هذا الحوار استئناف فرعون الإخبار عن جوابه بقوله: "قال" أيّ فرعون مدافعا لهما بالمناظرة لا بالبطش، لثلاً ينسب إلى السّفه والجهل، ولم يقل: "ربّي" حيدة عن سواء النظر وصرفاً للكلام على الوجه الموضح لحزبه، ولما كان موسى عليه السّلام هو الأصل في ذلك، وكان ربّما طمع فرعون بمكره وسوء طريقه في حبسة تحصل في لسانه، أفردّه بقوله: "يا موسى". قال له موسى على الفور: "ربّنا" أيّ موجدنا ومرّيّنا ومولانا، ولما كان في إفاضة الرّوح من الجلالة والعظم ما يضمحلّ عنده غيره من المفاوطة أشار إلى ذلك بحرف التّراخي فقال: "ثمّ هدى"، وأنّه لما لم يكن لأحد بالطّعن في هذا الجواب قبل لأنّه لا زلل فيه ولا خلل، مع رشاقتة واختصاره وسبقه بالجمع إلى غاية مضمّاره صرف الكلام عنه بسرعة، خوفاً من الاتّضح بزيادة موسى عليه السّلام

1 من الآية 49 إلى الآية 56.

2 أحمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير - ج 09 - ص 161. وينظر: قصص الأنبياء والمرسلين: محمّد متولّي الشّعراوي - ص 271.

في الإيضاح، ليخبر عنه سبحانه على طريق الاستئناف بقوله: "فما"، ولما فهم عنه موسى عليه السلام ما أراد ترتب على الخوض في ذلك مما لا طائل تحته من الردّ والمطاوله، ولم تكن التوراة نزلت عليه إذ ذاك¹؛ وإنما نزلت بعد هلاك فرعون، لم يمش معه في ذلك، قال له قاطعاً له عنه: "عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي" أي: المحسن إليّ بإرسالني وتلقيني الحاج.

وإنّ من لطائف ما جاء في هذا الموضوع من هذه السورة قوله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ (AT) قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَثْرَى وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى السَّامِرِيُّ ﴿٢﴾، إنّما سأل الله تعالى موسى عليه السلام عن سبب استعجاله دون قومه، وكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن يقال: طلب زيادة رضاك أو الشوق إلى كلامك، بيد أن الجواب غير منطبق عليه واقتضى الأمر هذه الزيادة في الذكر والتعبير، لأنّ ما واجهه به ربّ العزة تضمّن شيئين؛ أحدهما إنكار العجلة في نفسها، والآخر عن سبب المستنكر والحامل عليه، فكان أهمّ الأمرين إلى موسى عليه السلام بسط العذر وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه فاعتلّ بأنّه لم يوجد منّي إلاّ تقدّم يسير مثله لا يعتدّ به في العادة ولا يحتفل به، ثمّ عقبه بجواب السؤال عن السبب³، ولقائل أن يقول: حارّ لما ورد عليه من التهيّب لعتاب الله، فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام.

14- الخطاب بالاسم والفعل:

لقد أشرنا في الفصل السابق إشارة سريعة إلى أثر هذا المبحث وأهميته في الدرس البلاغي على وجه العموم، والنظم والإعجاز على وجه الخصوص، وتقرّر عند الاستشهاد بتلك الآيات أنّ الاسم له دلالة على الحقيقة دون زمانها، بخلاف الفعل الذي له دلالة على الحقيقة وزمانها، وأنّ كلّ ما كان زمانياً من شأنه التغيّر الذي يشعر بالتجدّد، وفي ذلك يقول عبد القاهر الجرجاني: «إنّ موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدّده شيئاً بعد شيء، وأمّا الفعل

1 شهاب الدّين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ج16 - ص 294.

2 الآيتان 83، 84.

3 الرّمحشري: الكشّاف عن حقائق غوامض التّريل وعيون الأقاويل في وجود التّأويل - ج04 - ص 101. وينظر: التسهيل

لعلوم التّريل: ابن جزّي - ج02 - ص 30.

فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثلث به شيئاً بعد شيء¹، وسنكتفي للاستدلال على هذا المبحث ببعض الآيات من هذه السورة الكريمة.

يقول تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾²، بمعنى: لأننا قد أوحى إلينا من ربنا أن العذاب كله؛ إذ اللام للاستغراق أو الماهية³، وعلى التقديرين يقتضي ثبوت هذا الجنس ودوامه لما تفهمه الاسمية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾⁴ أي أضلَّ فرعون على تحذلقه قومه مع ما لهم من قوة الأجساد ومعانيها، ولما كان إثبات الفعل لا يفيد العموم، نفى ضده ليفيده مع كونه أوكد وأوقع في النفس وأروع لها⁵، فقال: "وما هدى" أي ما وقع منه شيء من الهداية، لا لنفسه ولا لأحد من قومه، فتم الدليل الشهودي على تمام القدرة على إنحاء الطائع وإهلاك العاصي، ثم في مجيء قوله: "وما هدى" مع إمكان الاستغناء عنها مبالغة وتأکید.

يقول تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾⁶، أي: لا تستمر على الخوف الذي أوجست، ليعلل له ذلك بقوله: "إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ" وهو تعليل جملي مؤكداً بالجملة الاسمية و"إن" و"أنت" والحصر بتعريف الطرفين وخروجهم عن العلو، لأن الأعلى خارج عن التفضيل، بمعنى: أنت العليّ دونهم، وهم في السفل، وهذا أولى من إبقائه على التفضيل، اعتباراً لظاهر علوهم بأن يكون المعنى: لهم علو ظاهر للتأظرين وأنت أعلى منهم⁷، فتأمل هذا النظم البديع يلح لك أنه كلام - لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها- من لدن حكيم خبير.

1 دلائل الإعجاز - ص 138.

2 سورة طه - الآية 48.

3 شهاب الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ج 16 - ص 293.

4 سورة طه - الآية 79.

5 شهاب الدين البقاعي: السابق - ج 16 - ص 318.

6 سورة طه - الآية 68.

7 أحمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير - ج 09 - ص 181.

15- الإفراد والجمع:

على نحو ما وقفنا عنده في الفصل السابق، نجدنا أيضا ملزمين بمتابعة هذا المبحث والإشادة بشيء من العلاقة التي تربطه بموضوع التضام في آيات معدودات من سورة طه.

يقول الحق تعالى: ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ¹ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي²﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ³ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمَمِكَ كَيْ تَفَرَّ عَيْنَهَا وَلَا تَحْزَنَ⁴ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا⁵ فَلَبِثْتَ سِتِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَىٰ⁶ وَأَصْطَنَعْتَكُ لِنَفْسِي¹، لتجد أن التعبير القرآني أثر صيغة المفرد، على أنه في مقامات أخرى يستعمل الجمع على نحو ما في قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا² إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ³﴾، وقوله تعالى في سورة القمر: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا⁴﴾ لأن صيغة الإفراد هنا في سورة طه تفيد الاختصاص الذي خصّ الله به موسى عليه السلام، وهذا مفقود في الآيتين الأخريين⁴، ومن الإفراد أيضا قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ⁵ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ⁶ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ⁷ مَن آتَبَعِ أَهْدَىٰ⁸﴾ أفرد الآية ولو تعددت لأن المراد بها الأولى التي بدأه بها، أو لما ترادفت آياتها كلها على معنى واحد وهو التوحيد عدت واحدة، كأنه قيل: قد جئناك بما يثبت دعوانا⁶، و الأمر الملاحظ في هذه الآية أن الآية الكريمة جاءت بالإخبار بالمشي عن المشي، في حين إنه في آيات أخر يكون الإخبار أحيانا بالمفرد عن المشي كما في قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا

1 سورة طه - الآيات 39، 40، 41.

2 الآية 37.

3 الآية 14.

4 عبد الفتاح لاشين: ابن قيم وحسنه البلاغي في تفسير القرآن - ص 67.

5 سورة طه - الآية 47.

6 احمد بن يوسف أطفيش: تيسير التفسير - ج 09 - ص 159.

رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾، وبالإخبار بالمفرد عن المفرد كما في قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾، وبالرجوع إلى سياق الآيات يتضح سبب هذه المغايرة بين الإفراد والجمع، ففي سورة الشعراء ورد ذكر لهارون مع موسى عليهما السلام، غير أن القصة مبنية على الوحدة³ حيث يستمر النقاش مع موسى عليه السلام وحده، في حين بنى الكلام في سورة طه على التثنية⁴، ليستمر الكلام على التثنية، وفيما يلي الفرق بين السياق:

في سورة الشعراء

في سورة طه

- قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّغَىٰ [الآية 45] - وَهَمَّ عَلَىٰ ذُنُبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ [الآية 14]

- قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ [الآية 47] - قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ [الآية 30]

1 الآية 16.

2 الآية 46.

3 يقول تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٦﴾ وَيَضْحِكُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿٣٧﴾ وَهَمَّ عَلَىٰ ذُنُوبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٨﴾ قَالَ كَلَّا ۗ فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا ۗ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٠﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٤١﴾ [الآيات: من 12 إلى 17] لينقل إلى الوحدة بعدها في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُزِدْكَ فِيْنَا وَلِيدًا وَلِئْتَ فِينَا مِّنْ عَمْرٍكَ سِينِينَ ﴿٤٢﴾ [الآية 18].

4 يقول تعالى: ﴿أَدْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِينَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٣﴾ أَدْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٤﴾ [الآيات 42، 43].

- وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى﴾ [الآية 63 من سورة طه] في مقابل قوله تعالى: ﴿قَالَ لِمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ [الآية 34 من سورة الشعراء].

فلما بنى الكلام في سورة طه على التثنية؛ قال: "فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولًا رَبِّكَ" بثنية الرسول ولما بنى الكلام في سورة الشعراء على الوحدة مع إشارات إلى هارون؛ قال: "فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ" بإفراد الرسالة وتثنية الضمير، ولما لم تكن آية إشارة إلى هارون في سورة الزخرف قاله بإفراد الضمير والرسول: "فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ"¹ وبذلك جاء كل جمع أو إفراد في مكانه ومستقره الذي يليق به. ومن هذه المغايرة أيضا قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾² حيث أفرد موسى بالنداء، بعد أن جمعه مع أخيه، لأنه الأصل في التبوّة، وأخوه تابع له³، وفي القرآن الكريم أمثلة رائعة في استعمال الإفراد بدل الجمع نحو قوله تعالى في هذه السورة: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾⁴ ونحو قوله تعالى من هذه السورة نفسها: ﴿فَقُلْنَا يَتَّعَدُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلَزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾⁵، إذ الصورة الحقيقية كذلك كلما كانت ماثرا للانفعالات الشعورية في بساطة ودقة وإحكام كانت مركز إجماع يدخل في نطاق السورة الأدبية⁶ وعلى هذا الأساس فلاستعمال القرآن الكريم للمفرد والجمع دواع كثيرة توجب التأمل وإمعان النظر، إذ تجده متناهي الدقة في توظيف الجمل والتراكيب بتلك الصيغ حسب ما يتطلبه المقام ويقتضيه الحال دون تكلف أو شطط.

1 ينظر: بلاغة الكلمة في القرآن الكريم: فاضل صالح السامرائي - ص 97.

2 الآية 49.

3 ابن جزى الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل - ج 02 - ص 19.

4 الآية 68.

5 الآية 68.

6 فتحي أحمد عامر: المعاني الثمانية في الأسلوب القرآني - ص 50.

16- التضام الصوتي:

إنَّ أوَّل ما يطالعنا في سورة طه هو تلك الحروف المقطّعة في بداية السّورة، ولا بأس أن نذكّر أنّه قد مرّ معنا في هذا الفصل في المبحث المخصّص للمناسبة شيء من الحديث عن بعض هذه الحروف، واستعرضنا ما جاء به شهاب الدّين البقاعي من تخريج عجيب ولطيف، ورأينا كيف استطاع أن يصل بهذين الحرفين إلى أبعد الحدود في التّفسير، متجاوزاً كلّ ما قيل، إلى الحديث عنهما من منطلق الدّلالة الصوتية التي يجملاهما معا وبمختلف القراءات الممكنة، وقد ربط سيّد قطب بين هذه الحروف وظلّ السّورة العام، فوجد أنّ للسّورة ظلاً خاصّاً يغمز جوّها كلّهُ هو ظلّ علويّ جليل، نخشع له القلوب، وتسكن له النفوس، ورأى أنّ الإيقاع الموسيقيّ للسّورة كلّها يستطرد هذا الجوّ من مطلعها إلى ختامها رخياً شجياً بذلك المدّ الذّاهب مع الألف المقصورة في القافية كلّها تقريباً، للتّبيه على أنّ هذه السّورة كهذا القرآن مؤلّفة من مثل تلك الحروف المقطّعة، ويقصران ولا يمدّان لتنسيق الإيقاع كذلك¹.

يقول تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۗ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ ۝۲﴾، فنلاحظ أنّ الآية كانت بلفظ: "فَرَجَعْنَاكَ" أيّ من مادّة: "الرجع" على أنّه في موضع آخر جاء بلفظ: "فَرَدَدْنَاهُ" من مادّة: "الردّ" وهو قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝۳﴾ واللفظان وإن اتّحدا معنى وأدياه معا؛ إلّا أنّ الرّجع خصّ بما هنا، ليقاوم ثقل الرّجع خفة فتح الكاف، والرّد بسورة القصص لتقاوم خفة الرّد ثقل ضمة الهاء⁴، وليوافق قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝۵﴾.

1 في ظلال القرآن - ج16 - ص 2327.

2 سورة طه - الآية 40.

3 سورة القصص - الآية 13.

4 ينظر: فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: أبو زكريا الأنصاري - ص 264.

5 سورة القصص - الآية 07.

17- الالتفات:

إنَّ أبرز ما لاحظته العلماء بخصوص هذه السورة عند الحديث عن الالتفات هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾¹، حيث أجمع الكثير منهم على أنَّ في هذه الآية انتقالاً في الخطاب، فقد جاء في تفسير الزمخشري أنَّ فائدة التثنية من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب غير واحدة؛ منها عادة الافتنان في الكلام وما يعطيه من الحسن والرَّوعة، ومنها أنَّ هذه الصِّفات إنَّما تسرَّدت مع لفظ الغيبة، ومنها قال أولاً: "أنزلنا"، ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع، ثمَّ تثنى بالتسببه إلى المختصِّ بصفات العظمة والتمجيد فضوعت الفخامة من طريقين²، ولعلَّ كلَّ من وقف على الآية بعد الزمخشري لا يعدو أن يكون نسج على منواله، فقد عدَّ غير واحد هذا الالتفات أيضاً تماً يحسن، إذ لا يبقى على نظام واحد وجريان هذه الصِّفات على لفظ الغيبة بإسناد الإنزال إلى ضمير الواحد المعظم نفسه³، وعللَّ البقاعي هذا الالتفات بقوله: «فقال ملتفتاً من التَّكلم إلى الغيبة ليدلَّ على ما اقتضته التَّون من العظمة، مقدِّماً ما اقتضى الحال تقديمه من سكن المدعوِّين المعنى بتذكركم وهداية من أريد منهم»⁴، وعلى نحو ما مرَّ معنا في الفصل السَّابق؛ فإنَّ في هذه المباحث البلاغية التي رأيناها في هذه السورة ما يعرب كذلك عن بعض خصائصها، ولعلَّ فيها ما يتعلَّق بموضوع التضام من حيث ارتباط الحروف والكلمات وائتلاف بعضها مع بعض، وما يكفل تأسيس معجم بلاغي من شأنه أن يثري مكتبة الباحث في نظم القرآن وإعجازه.

1 سورة طه - الآية 04.

2 الكشف عن حقائق غوامض التَّبريل وعيون الأفاويل في وجوه التَّأويل - ج 04 - ص 66.

3 ينظر: البحر المحيط في التفسير: أبو حيان الأندلسي - ج 07 - ص 311. وينظر: التفسير الكبير: فخر الدِّين الرَّازي - ج 22 - ص 09.

4 نظم الدرر في تناسب الآيات والسُّور - ج 12 - ص 267. وينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني: شهاب الدِّين الألويسي - ج 15 - ص 151. وينظر: تيسير التفسير: محمَّد بن يوسف أطفيش - ج 09 - ص 116.

الخاتمة

إنّ مرادنا من هذه الخاتمة - بعد الرحلة المباركة التي عشناها مع القرآن الكريم - هو تحديد بعض النتائج التي نزعم أنّ البحث قد حقّقها وتوصّل إليها في فصوله الثلاثة، إذ ليس من السهل بمكان أن تكون لموضوع التضام في القرآن الكريم خاتمة تحيط بجميع جوانبه، وهذه النتائج نجملها فيما يلي:

أولاً: لقد صاغ الدارسون المحدثون التّصوَصَ التّحويّة صياغة جديدة معتمدين على عنصرَيّ المعنى والمبنى، فكان لهم دور بارز في إعطاء ظاهرة التّضام لفظها الاصطلاحي وعدّها واحدة من القرائن التّحويّة الدّالة على المعنى التّحوي، كما كان لهم فضلُ تناولها في أكثر من دراسة، بعدما كانت ظاهرة متناثرة في كتب موروثنا التّحوي.

ثانياً: إنّ علاقة التّضام هي المسؤولة عن تسلسل الكلام، وترابط أجزائه، واستمرار وحداته، فتضامّ الكلمات هو الذي ينهض بالتركيب ويسمو به إلى حدّ الإعجاز، ويزيد من رونق العبارة، حتّى إذا ضامّت الكلمات أخواتها والعبارات ذواتها خرج الكلام في نسيج لغويّ متميّز ينفرد ببديع الرّصف والتّأليف.

ثالثاً: لقد كانت عناية التّحويين بموضوع التّضام واضحة، نستشّفها من خلال تلك التّصوَصَ الصّريحّة والضمّنيّة، فتارة يسمّونه باسمه أو بأحد أقسامه، وتارة أخرى بغير مصطلح معيّن كحديثهم عن تلازم الأجزاء التّحويّة وتركيبها الذي يجعلها كالكلمة الواحدة.

رابعاً: صاحبَ قضيّة التّضامّ كثير من المصطلحات والتّصوَصَ التي تناولها القدامى بالدّرس والتّحليل، ومن هذه المصطلحات المتعلّقة بالتّضامّ: التّظم، والتّعليق، والبناء، والرّصف والتّأليف وغنيّ عن البيان أنّها مصطلحات من صميم الموروث التّقدي والبلاغي، أمّا نصوصهم في التّضام فقد جاءت في عبارات كثيرة أشهرها هي قولهم: استعمال بعض الكلم مع بعض، والكلام الآخذ بعضه بأعناق بعض.

خامساً: حاز عبد القاهر الجرجاني قصب السّبِق في قضيّة التّضامّ، وفاق سابقيه من التّقاد والبلاغيّين شأنه في ذلك شأن سبقه في دلائل التّظم والإعجاز، ورأى البحث أنّه خير من أسّس

لقضية التضام في ضوء نظريته في النظم، إذ أعطاها بعدا وصل به إلى قمة شامخة من حيث المصطلح، الشمول والاكتمال.

سادسا: يُعدّ موضوع التضام من أهمّ المباحث اللغوية صلاحية للدلالة على وجوب إعادة النظر في المقولات اللسانية المعاصرة المنوطة بتماسك النص واتحاد أجزائه وترابط عناصره.

سابعا: إنّ موضوع التضام ذو بعدين لغويين؛ بعد نحويّ يهتمّ بالمسائل النحوية المعيارية الخالصة وبعد آخر بلاغي يرتبط في القرآن الكريم بعلم المعاني، ولا يكاد يتميّز في الطرح عن بحوث النظم والإعجاز، فموضوع التضام في القرآن كفيل بالكشف عن جملة من العلاقات التركيبية التي تربط بين آيات القرآن وسوره، ولعلّ أهمّ هذه القضايا التي تدور في فلك التضام قضية التقديم والتأخير والفصل والوصل، والذكر والحذف.

ثامنا: لئن كانت ظاهرة التضام في جانبها النحويّ ظاهرة شكلية كبرى تصوّر أسلوب تألف الكلمات بإعطاء المعنى العام للتركيب الكلامي؛ فإنّها في طرحها البلاغيّ تنمّ عن عوامل النبوغ وجمالية النصوص وتذوّق قيمتها الفنيّة.

تاسعا: نخالنا تأكّدا من أنّ اختيار سورتي هود وطه لم يكن وليد أسباب ذاتية فقط؛ بل تراءى لنا أنّ تلك الخصائص التي تميّزان بها دواعٍ رئيسة لتناول موضوع نحويّ بلاغي في ضوءهما، وهنا يجدر بنا التذكير أنّ موضوع التضام في القرآن الكريم موضوع مفتوح من حيث تنظير المسائل وتفريعاتها، لا تحصره شواهد دراسة أو دراستين، لذا حريّ أن نكتفّ الجهود ونوسّع البحث عسى أن نميط اللثام عن بعض جوانبه.

عاشرا: اطمأنّ البحث إلى ما قاله العلماء عن القرآن الكريم من أنّ فيه أسبابا ممدودة عن أيمانها وعن شمائلها تمتّ بها إلى الجار ذي القربى والجار الجنب، وأنّ هذا هو حال القرآن كلّه؛ تسلّم كلّ سورة منه القيادة لما بعدها في خطوات متعاقبة ومتألّفة حتّى يأتي كأنّه كلمة واحدة وظهر لنا فعلا أنّ هذا الأمر ثابت وعمام في القرآن متحقّق من أوّل حرف فيه.

وحسبنا أننا لم ندخر جهدا في ذلك، وأن هذا ما أمكننا الوصول إليه، فإن وُقِّفنا فبعون الله، وإلا فـ:

عليك أن تسعى لشيء وما عليك أن تضمن عقي التَّحاح

وليس من اليسير الاقتراب من موضوع ذي صلة بالقرآن الكريم، بل ليس من اليسير أن تكشف قراءة أو قراءتان عن الموضوع برمته، على أمل التَّهوض به في دراسات أخرى أكثر عمقا ونجاحا.

والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.

أولاً: الكتب العربية.

ابن أبي الإصبع المصري (ت654هـ):

1. بديع القرآن - تقديم وتحقيق: حفي محمد شرف - مصر - نهضة مصر - د ط - د ت.
2. تحرير التّحبير في صناعة الشّعر والنثر وبيان لإعجاز القرآن - تحقيق: حفي محمد شرف - القاهرة - د ط - 1983هـ / 1663م .
- ابن أبي القاسم، أبو عبد الله:
3. أنوار التّحلي على ما تضمّنته قصيدة الحلّي - أعدّه للنشر وعلّق عليه: مصطفى مرزوقي - تقديم: مختار نويوات - منشورات المجلس الأعلى للغة العربية - ط01 - 1427هـ / 2006م .
- ابن الأثير، ضياء الدين (ت637هـ):
4. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - قدّمه وحقّقه وعلّق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة - مصر - دار نهضة مصر - د ط - د ت .
- ابن إسحاق، محمد بن سيار (ت151هـ):
5. سيرة ابن إسحاق - تحقيق: محمد حميد الله - معهد الدراسات والأبحاث للتعريف - د ط - د ت .
- ابن الأنباري، أبو البركات (ت577هـ):
6. الإنصاف في مسائل الخلاف، بين البصريين والكوفيين - تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد - بيروت - مكتبة صيدا العصرية - د ط - 1419هـ / 1998م .
- ابن جزى، أبو القاسم الكلبي (ت741هـ):
7. التسهيل لعلوم التّزويل - ضبطه وصحّحه وخرّج آياته: محمد سالم هاشم - بيروت - دار الكتب العلمية - ط01 - 1415هـ / 1995م .

ابن جماعة، بدر الدين (ت733هـ):

8. كشف المعاني في التشابه من المثاني - تحقيق وتعليق: عبد الجواد خلف - القاهرة - دار

الوفاء - ط01-1410هـ/1990م.

ابن جني، أبو الفتح عثمان (ت393هـ):

9. الخصائص - حققه: محمد علي النجار - بيروت - عالم الكتب - ط01-

1427هـ/2006م.

10. المنصف، شرح كتاب التصريف للمازني - تحقيق: إبراهيم مصطفى - عبد الله أمين -

وزارة المعارف العمومية - إحياء التراث العربي - ط01-1973م.

ابن ذريل، عدنان:

11. اللغة و الأسلوب - مراجعة وتقديم: حسن حميد - الأردن - مجدولاي للنشر

والتوزيع - ط02-1427هـ/2006م.

ابن رشيقي، أبو علي الحسن (ت456هـ):

12. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده - قدم له: صلاح الدين الحواري - دار ومكتبة

الهلال - د ط - 2002م.

ابن الزملاكي، جمال الدين:

13. المجيد في إعجاز القرآن المجيد - دراسة وتحقيق: شعبان صلاح - القاهرة - دار غريب -

ط02-2006م.

ابن سراج، فؤاد عبد الغفار:

14. سيرة شهداء الصحابة - القاهرة - المكتبة التوفيقية - د ط - د ت.

ابن السراج، أبو بكر (ت316هـ):

15. الأصول في النحو - تحقيق عبد الحسين الفتلي - بيروت - مؤسسة الرسالة -

1405هـ/1985م.

- ابن سيده، أبو الحسن (ت458هـ):
16. المحكم والمحيط الأعظم - تحقيق: عبد الحميد هندراوي - بيروت - منشورات محمد علي بيضون - ط01-1421هـ/2000م .
- ابن طباطبا، محمد بن أحمد (ت322هـ):
17. عيار الشعر: دراسة وتحقيق وتعليق: محمد زغلول سلام - الإسكندرية - منشأة المعارف - ط03 - د ت .
- ابن عاشور، محمد الطاهر (ت1972م):
18. التحرير والتنوير - تونس، الدار التونسية للنشر - الجزائر، المؤسسة الوطنية - د ط - دت .
- ابن عبد ربّه، أحمد بن محمد (ت368هـ):
19. العقد الفريد - بيروت - مكتبة تحقيق التراث. دط - دت .
- ابن عقيل، بهاء الدين (ت769هـ):
20. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك - قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه: إميل بديع يعقوب - بيروت - دار الكتب العلمية - ط01-1418هـ/1997م .
- . شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك - تحقيق: محمد محيي الدين - بيروت - المكتبة العصرية - صيدا - ط01-1426هـ/2005م .
- . شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك - تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد - القاهرة - دار التراث - د ط - دت .
- ابن فارس، أبو الحسن أحمد (ت395هـ):
21. الصحاحي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها - علّق عليه ووضع حواشيه: أحمد حسن بسج - بيروت - دار الكتب العلمية - ط01-1418هـ/1997م .
22. معجم مقاييس اللغة - تحقيق و ضبط: عبد السلام محمد هارون - بيروت - دار الجيل - د ط - دت .
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين (ت751هـ):
23. البدائع في علوم القرآن - انتقاء وتحقيق: يسري محمد السيد - بيروت - دار المعرفة - ط01-1424هـ/2003م .

24. كتاب الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان - دراسة وتحقيق: محمد عثمان الحشن - القاهرة - مكتبة القرآن - د ط - د ت .
ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل (ت747هـ):
25. السيرة النبوية - تحقيق: مصطفى عبد الواحد - بيروت - دار المعرفة - د ط -
1396هـ / 1971م.
ابن مرداس، العباس (الشاعر):
26. الديوان - جمع وتحقيق: يحيى العبدوري - بغداد - نشر مديرية الثقافة - د ط - 1968م.
ابن المقفّع، عبد الله (ت142هـ):
27. الأدب الصغير - بيروت - دار صادر - د ط - د ت .
ابن منقذ، أسامة (ت584هـ):
28. البديع في البديع في نقد الشعر - حققه وقدم له: عبد آ. علي مهنا - بيروت - دار الكتب العلمية - ط01-
1407هـ / 1987م.
ابن منظور جمال الدين أبو الفضل (ت711هـ):
29. لسان العرب - حققه وعلّق عليه ووضع حواشيه: أحمد عامر حيدر - راجعه: عبد المنعم خليل إبراهيم - بيروت - منشورات محمد علي بيضون - ط01 - 1424هـ / 2003م.
. لسان العرب - بيروت - دار صادر - ط06 - 1417هـ . 1997م .
- ابن التّائظم ، بدر الدّين بن مالك الدّمشقي (ت686هـ):
30. المصباح في المعاني والبيان والبديع - حققه " عبد الحميد هندراوي - بيروت - دار الكتب العلمية - ط01 - 1422هـ / 2001م.
- ابن هشام ، عبد الله جمال الدّين الأنصاري (ت671هـ):
31. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك - تحقيق: محمود مصطفى الحلاوي، أحمد سليم الحموي - بيروت - مؤسسة التاريخ الإسلامي - دار إحياء التراث العربي - ط01 -
1418هـ / 1998م.
32. شرح شذور الذهب - مراجعة وتصحيح: يوسف الشيخ محمد البقاعي.
33. مغني اللبيب عن كتب الأعراب - تحقيق: صلاح عبد العزيز علي السيد - القاهرة - دار السلام - ط01 - 1424هـ / 2004م.

ابن يعيش النَّحوي، موفق الدّين (ت643هـ):

34. شرح المفصّل - بيروت - عالم الكتب - د ط - د ت.

أبو تمام، حبيب بن أوس (الشّاعر):

35. الديوان - بشرح الخطيب التبريزي - تحقيق: محمّد عبده عزام - القاهرة - د ط - د ت.

أبو زهرة، محمّد:

36. المعجزة الكبرى (نزوله، كتابته، جمعه، إعجازه، جدله، علومه، تفسيره، حكم

الغناء به) - القاهرة - دار الفكر العربي - د ط - د ت.

أبو عبيدة، معمر بن المثني (ت210هـ):

37. مجاز القرآن - عارضه بأصوله وعلّق عليه: محمّد فؤاد زكين - بيروت - مؤسسة الرّسالة -

ط01 - 1401هـ / 1981م.

الأشموني، أو الحسن علي نور الدّين (ت في حدود900هـ):

38. شرح الأشموني على ألفية ابن مالك في النحو والصرف - مصر - مطبعة السعادة -

1343هـ.

الأرمي، محمّد الأمين بن عبد الله :

39. تفسير حدائق الرّوح والرّيحان في روابي علوم القرآن - إشراف ومراجعة: هاشم محمّد

علي بن حسين مهدي - مكّة المكرمة - دار طوق التّجاة - ط01 - 1421هـ / 2001م.

أطفيش، محمّد بن يوسف (ت1332هـ):

40. تيسير التّفسير: تحقيق: إبراهيم بن محمّد طلاي - غرداية - 1420هـ / 1999م.

الألباني، محمّد ناصر الدّين:

41. صحيح الجامع الصّغير وزيادته - أشرف على طبعه: زهير الشاوش - المكتب الإسلامي -

ط03 - 1408هـ / 1988م.

الألوسي، أبو الفضل شهاب الدّين (ت1270هـ):

42. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني - بيروت - دار إحياء التّراث - د

ط - د ت.

إميل بديع، يعقوب:

43. المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية - لبنان - دار الكتب العلمية - ط01-1417هـ / 1996م.
الأندلسي، ابن عطية (ت546هـ):
44. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - عبد السلام عبد الشافي محمد - بيروت - دار الكتب العلمية - ط01-1422هـ / 2001م.
الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف (ت754هـ):
45. البحر المحيط في التفسير - طبعة جديدة بعناية الشيخ زهير جعيد - بيروت - دار الفكر - 1413هـ / 1992م.
الأنصاري، أبو يحيى زكريا (ت926هـ):
46. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن - حققه: محمد علي الصّابوني - الجزائر - ط02- 1988م.
أنيس، إبراهيم:
47. أسرار اللغة - القاهرة - مكتبة الأنجلو المصرية - ط07- 1985م..
أنيس، إبراهيم، وعبد الحليم منتصر، وعطية الصوالحي، ومحمد خلف الله أحمد:
48. المعجم الوسيط - قام بإخراج هذه الطبعة: - أشرف على الطبع: حسن علي عطية، ومحمد شوقي أمين - بيروت - دار الفكر - د ط - د ت.
الباقلاني، أبو بكر (ت403هـ):
49. إعجاز القرآن - تحقيق: أحمد صقر - ط03- مصر - دار المعارف.
50. الإنصاف فيما يجب الاعتقاد ولا يجوز الجهل به - تحقيق: محمد زاهد الكوثري - القاهرة - المكتبة الأزهرية - ط02- 2000م.
51. نكت الانتصار لنقل القرآن - دراسة وتحقيق: محمد زغلول سلام - الإسكندرية - منشأة المعارف - د ط - د ت.
البحري، أبو عبادة الوليد (الشاعر):
52. الديوان - تحقيق: حسن كامل الصّيرفي - مصر - دار المعارف - ط03- د ت.

بجيري، سعيد حسن:

53. التبعية في التحليل التحويلي - مكتبة الأنجلو المصرية - ط01- 1408هـ/1988م.

54. علم لغة النصّ، المفاهيم والاتجاهات - مصر - جامعة عين شمس - الشركة المصرية

العالمية للنشر - لوانجمان - ط01- 1997م.

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله:

55. صحيح البخاري - تحقيق: مصطفى ديب البغا - بيروت - دار ابن كثير، اليمامة - ط

03- 1407هـ/1987م.

بدري، محمد عبد الجليل:

56. براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور - الإسكندرية - مطبعة الخيزرة - د ط - دت.

بدوي، أحمد أحمد:

57. من بلاغة القرآن - مصر - نخضة مصر - د ط - مارس 2004م.

بسيوني، عبد الفتاح:

58. من بلاغة النظم القرآني: القاهرة - المطبعة الحسينية - ط01- 1413هـ/1992م.

البقاعي، برهان الدين (ت885هـ):

59. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - القاهرة - ط01- 1495هـ/1975م.

بكري، عبد الكريم:

60. الزمن في القرآن الكريم، دراسة دلالية للأفعال الواردة فيه - دار الكتاب الحديث - دط -

1421هـ/2001م.

البوطي، محمد سعيد رمضان:

61. من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عزّ وجلّ - دمشق - مكتبة

الفارابي - د ط - د ت.

البيضاوي، ناصر الدين:

62. أنوار التّزويل وأسرار التّأويل: - بيروت - دار الكتب العلمية - ط01-

1424هـ/2003م.

تمام، حسّان:

63. الأصول، دراسة ايستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، النحو. الفقه. البلاغة- الهيئة المصرية العامة للكتاب- 1982م.
64. البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني- القاهرة- عالم الكتب- ط01- 1413هـ/1993م.
65. اجتهادات لغوية- القاهرة- عالم الكتب- 1428هـ/ 2007م.
66. الخلاصة النحويّة- القاهرة- عالم الكتب- ط01- 1420هـ/2000م.
67. اللغة بين المعيارية والوصفية - القاهرة- مكتبة الأنجلو المصرية- د ط- 1958م.
68. اللغة العربية معناها ومبناها- القاهرة - عالم الكتب- ط04- 1425هـ/2004م.
69. مقالات في اللغة والأدب- القاهرة - عالم الكتب- ط1- 1427هـ/ 2006م.
70. مناهج البحث في اللغة - الدار البيضاء- دار الثقافة- د ط- 1407هـ/1986م.
- التّهانوي، محمّد علي (ت 1158هـ):
71. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون - تقديم وإشراف ومرجعة: رفيق العجم- تحقيق: علي دحروج- لبنان- مكتبة ناشرون - د ط- د ت.
- التوحيد، أبو حيان (ت414هـ):
72. الإمتاع والمؤانسة - صحّحه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين. أحمد الزين- بيروت- د ط - د ت .
- الثعالبي، عبد الرحمن:
73. الجواهر الحسان في تفسير القرآن- تحقيق: عمّار طالبي- الجزائر- المؤسسة الوطنية للكتاب- د ط - د ت.
- الجاحظ، أو عمرو عثمان بن بحر(ت255هـ):
74. البيان والتبيين:- تقديم وتبويب وشرح: علي أبو ملجم - ط01- 1408هـ/1988م.
- . البيان والتبيين- تحقيق: محمّد عبد السلام هارون- القاهرة- مكتبة الخانجي- ط07- 1418هـ/ 1998م.
75. كتاب الحيوان- بتحقيق وشرح: عبد السلام محمّد هارون- مصر- شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه- ط02- 1385هـ/1965م.

الرجاني، عبد القاهر (ت471هـ):

76. أسرار البلاغة - صحّحه وعلّق على حواشيه: السيد محمد رشيد رضا - القاهرة - مكتبة

ابن تيمية - د ط - د ت.

77. دلائل الإعجاز - اعتنى به: محمد علي زينو - بيروت - مؤسسة الرسالة ناشرون -

ط01 - 1426هـ/2005م.

78. الرسالة الشافية - ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - مصر - دار السلام - د ط -

د ت.

79. شرح رسالة الرماني لعالم مجهول كأنه عبد القاهر الرجاني - كشفه وعلّق عليه:

زكريا سعيد علي - القاهرة - دار الفكر العربي - ط01 - 1417هـ/1997م

80. العوامل المائة التحوية في أصول علم العربية - شرح: خالد الأزهرى

الرجاني (ت905هـ) - تحقيق وتقديم وتعليق: بدر اوي الزهران - القاهرة - دار المعارف -

ط02 - د ت.

81. كتاب الجمل في النحو: - شرح ودراسة وتحقيق: يسري عبد الغني عبد الله - بيروت -

دار الكتب العلمية - ط01 - 1410هـ/1990م.

82. المقتصد في شرح الإيضاح - تحقيق كاظم بحر المرجان - الجمهورية العراقية -

منشورات وزارة الثقافة والإعلام - د ط - 1982م.

جرير (الشاعر):

83. الديوان - بيروت - دار صادر - د ط - 1398 هـ / 1978م.

جلال، شمس الدين:

84. الأنماط الشكلية لكلام العرب، نظرية وتطبيقا، دراسة بنيوية - الإسكندرية - مؤسسة

الثقافة الجامعية - د ط - 2005م.

الجندي، درويش:

85. نظرية عبد القاهر في النظم - مصر - مكتبة نهضة مصر بالفجالة - د ط - 1960م.

الجوهري، اسماعيل بن حماد (ت393هـ):

86. تاج اللغة وصحاح العربية - تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار - بيروت - دار العلم

للملايين - ط04 - 1990م.

حامد، أحمد حسن:

87. التّضمين في العربية، بحث في البلاغة والتّحو-بيروت- دار العلوم- عمّان- دار

الشّروق- ط01-1422هـ/2001م.

حسن، محمود السيّد:

88. روائع الإعجاز في القصص القرآني، دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز-

الإسكندرية- ط02-2003م.

الحسناوي، محمّد:

89. الفاصلة في القرآن- عمان - دار عمار- ط02-1421هـ/2000م.

حسين رفعت، حسين:

90. الموقعية في التّحو العربي- تقديم: تمام حسان- القاهرة - عالم الكتب- ط01-

1426هـ/2005م.

حمّادي، صمّود:

91. التّفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس (مشروع قراءة) -

تونس- منشورات الجامعة التّونسية- د ط - 1981م.

حماسة، محمّد عبد اللّطيف:

92. العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث - القاهرة- دار الفكر العربي- د ط-

د ت.

93. التّحو والدّلالة، مدخل لدراسة المعنى التّحوي الدّلالي- القاهرة- دار الشّروق- ط02-

د ت.

حمدي بركات ، محمّد أبو علي:

94. البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل - عمّان - دار البشير- ط01-

1412هـ/1992م.

حمودة، عبد العزيز:

95. المرايا المقعّرة، نحو نظرية نقدية عربية: - الكويت- سلسلة عالم المعرفة- العدد 272-

- مطابع الوطن - 1422هـ/2001م.

الحموي، شهاب الدين (1098هـ):

96. درر العبارات و غرر الإشارات في تحقيق معاني الاستعارات - دراسة وتحقيق: إبراهيم

عبد الحميد التلب - القاهرة - مطبعة السعادة - 1407هـ / 1987م.

حميدة، مصطفى:

97. نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية - مكتبة لبنان ناشرون - الشركة المصرية

العالمية للنشر، لوجمان - ط 01 - 1997م.

حوي، سعيد:

98. الأساس في التفسير - القاهرة - دار السلام - ط 02 - 1409هـ / 1989م.

الخازن، علاء الدين البغدادي:

99. لباب التأويل في معاني التنزيل - مصر - مطبعة التقدم العلميّة - د ط - د ت.

الخالدي، صلاح عبد الفتاح:

100. لطائف قرآنية - دمشق - دار القلم - ط 03 - 1425هـ / 2004م.

101. وقفات مع هذه الآيات - دمشق - دار القلم - ط 01 - 1426هـ / 2007م.

الخالدي، كريم حسين ناصح:

102. نظرية المعنى في الدراسات التحوية - الأردن - دار صفاء - ط 01 - 1427هـ / 2006م.

الخصري، محمد الأمين:

103. من أسرار المغيرة في نسق الفاصلة القرآنية - القاهرة - د ط - 1414هـ / 1994م.

خطّابي، محمد:

104. لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب - 1988م.

الخطّابي، محمد بن محمد (ت 388هـ):

105. بيان إعجاز القرآن - ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - حقّقها وعلّق عليها: محمد

خلف الله، محمد زغلول سلام - مصر - دار السلام - د ط - د ت.

الخطيب الإسكافي، أبو عبد الله (ت 431هـ):

106. درة التنزيل و غرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز - اعتنى به:

الشيخ خليل مأمون شيحا - بيروت - دار المعرفة - ط 01 - 1422هـ / 2002م.

الخطيب، عبد الكريم:

107. إعجاز القرآن، الإعجاز في دراسات السابقين، دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية

ومعاييرها - بيروت - دار الفكر العربي - د ط - د ت.

الخطيب القزويني، جلال الدين (ت739هـ):

108. الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع - بيروت - دار الكتب العلمية - د ط

- د ت.

الخفاجي، ابن سنان (ت466هـ):

109. سرّ الفصاحة - بيروت - دار الكتب العلمية - ط01 - 1402هـ/1982م.

الخياط، أبو الحسن كتاب:

110. الانتصار والرّد على ابن الروندي الملحد - نقله إلى الفرنسية: ألبير نصري نادر -

بيروت - د ط - 1957م.

دراز، محمد عبد الله (ت1966م):

111. النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن - الكويت - دار القلم - د ط - 1957م.

دروزة، محمد عزة:

112. التفسير الحديث - بيروت - دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه -

دط - 1381هـ/1963م.

الدرويش، محيي الدين:

113. إعراب القرآن الكريم وبيانه - اليمامة - دار ابن كثير - بيروت، دمشق - ط07 -

1420هـ/1999م.

ذو الرّمة، غيلان بن عقبة (الشاعر):

114. الديوان - شرح أحمد بن حاتم الباهلي - رواية أبي العباس ثعلب - تحقيق: عبد

القدّوس أبي صالح - بيروت - مؤسّسة الإيمان - ط01 - 1982م.

الراجحي، عبده:

115. التّحو العربي والدّرس الحديث، بحث في المنهج - بيروت - دار النهضة العربية - د ط -

1979م.

الرازبي، فخر الدين (ت604هـ):

116. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب - قدم له: هاني الحاج - حققه وعلّق عليه وخرّج

أحاديثه: عماد زكي البارودي - القاهرة - المكتبة التوفيقية - د ط - د ت.

117. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز - دراسة وتحقيق: سعد سليمان حمودة - الإسكندرية -

دار المعرفة الجامعية - د ط - 2003 م.

راضي، عبد الحكيم:

118. نظرية اللغة في النقد الأدبي - مصر - مكتبة الخانجي - د ط - 1980 م.

الرافعي، مصطفى صادق (ت1356هـ):

119. إعجاز القرآن والبلاغة العربية - القاهرة - مؤسسة المختار - ط01 -

1423هـ/2003 م.

رضا، محمّد رشيد (ت1935م):

120. تفسير القرآن الكريم (المنار) - مصر - مطبعة المنار - د ط - د ت.

الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى (ت386هـ):

121. النكت في إعجاز القرآن - ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - مصر - دار

السلام - د ط - د ت.

رمضان، النّجار نادية:

122. أبحاث نحويّة ولغويّة؛ القسم الأوّل - الإسكندرية - دار الوفاء للنّشر - ط01 - 2006 م.

الزرقاني، عبد العظيم:

123. مناهل العرفان في علوم القرآن - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي وشركاه -

ط03 - د ت.

الزركشي، بدر الدين (ت794هـ):

124. البرهان في علوم القرآن - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة - مكتبة دار

التراث - ط03 - 1404هـ/1984 م.

زغلول، محمد سلام:

125. أثر القرآن في تطوّر النّقد العربي، إلى آخر القرن الرابع الهجري: - قدّم له: محمد

خلف الله أحمد - مكتبة الشباب - ط01 - 1982 م.

الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود (ت538هـ):

126. أساس البلاغة - حققه وقدم له ووضع فهرسه: مزيد نعيم وشوقي العربي - بيروت - مكتبة لبنان ناشرون - ط 01-1998م.

127. الكشاف عن حقائق غوامض الترتيل وعيون الأقاويل في وجه التأويل - تحقيق وتعليق ودراسة: عادل أحمد عبد الموجود. وعلي محمد معوض - شارك في تحقيقه: فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي - مكتبة العبيكة - ط 01-1418هـ/1998م.

الكشاف عن حقائق الترتيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - حققه وخرّج أحاديثه: عبد الرزاق المهدي - بيروت - ط 02-1421هـ/2001م.

الزناد، الأزهد:

128. نسيج النص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصًا - بيروت - المركز الثقافي العربي - ط 01-1993م.

الزوبعي، طالب محمد اسماعيل:

129. البلاغة العربية، علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين - بنغازي - جامعة قار يونس - ط 01-1997م.

السّاقى، فاضل مصطفى:

130. أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة - تقديم تمام حسان - القاهرة - مكتبة الخانجي - د ط - 1497هـ/1977م.

إبراهيم السّامرائي:

131. الفعل زمانه وأبنيته - بغداد - مطبعة العاني - دط - 1966م.

السّامرائي، فاضل صالح:

132. بلاغة الكلمة في القرآن الكريم - عمّان - دار عمار - ط 05-1429هـ/2008م.

133. التعبير القرآني - عمّان - دار عمار - ط 05-1428هـ/2007م.

134. الجملة العربية والمعنى - بيروت - دار ابن حزم - ط 01-1421هـ/2000م.

السّجلماسي، أبو محمد القاسم:

135. المترع البديع في تجنيس أساليب البديع - تقديم وتحقيق: علاء الغازي - القاهرة - دار

المعارف - ط 01-1401هـ/1980م.

السَّعْران، محمود:

136. علم اللّغة، مقدّمة للقارئ العربي - القاهرة- دار الفكر العربي- د ط -
1420هـ/1999م.

سعد، أحمد محمّد:

137. التّوجيه البلاغي للقراءات القرآنية- القاهرة- مكتبة الآداب- ط02-
1421هـ/2000م.

السّكاكي، يوسف بن أبي بكر(ت626هـ):

138. كتاب مفتاح العلوم - بيروت - دار الكتب العلمية- دط- دت.

سلّوم، تامر:

139. نظريّة اللّغة والجمال في التّقد العربيّ - سوريا- اللاذقية- دار الحوار للنّشر- ط01-
1983م.

السّمين الحلبي، أحمد بن يوسف (ت756هـ):

140. الدّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون- تحقيق: أحمد محمّد الخراط- دمشق- دار
القلم- دط - دت.

السّهيلي، أبو القاسم عبد الرّحمن(ت581هـ):

141. نتائج الفكر في التّحو- تحقيق: محمّد البنا- دار الرّياض للنّشر- ط02-
1404هـ/1984م.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان(ت180هـ):

142. الكتاب - تحقيق: عبد السلام هارون- ط01- 1411هـ/1991م.

السّيد أحمد، عبد الغفّار:

143. قضايا في علوم القرآن تعين على فهمه- الإسكندرية- دار المعرفة الجامعية- 1995م.

السّيد، عبد الحميد:

144. دراسات في اللّسانيات العربية، بنية الجملة العربية، التراكيب النحوية والتداولية، علم
النحو وعلم المعاني- عمان- دار الحامد للنشر- ط01- 1424هـ/2004م.

145. دراسات في اللّسانيات العربية؛ المشاكلة. التّنغيم، رؤى تحليلية: - عمان- دار
الحامد- ط01- 1425هـ/2004م.

السيد، شفيع :

146. التّظّم وبناء الأسلوب في البلاغة العربية: - القاهرة- دار غريب- ط01- 2006م.

السيوطي، جلال الدين(ت911هـ):

147. الإتقان في علوم القرآن- عناية خالد العطار- بيروت- دار الفكر- ط01- 1423هـ/2003م.

148. الأشباه والنظائر في النحو - اعتنى به: محمد فاضلي - الجزائر- أبحاث للنشر والتوزيع- ط01- 2007م.

149. تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور- دراسة وتحقيق: عبد القادر عطا- بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1406هـ/1986م.

150. جمع الجوامع، الجامع الكبير في الحديث والجامع الصّغير في الحديث وزوائده- تخريج وتعليق وضبط: خالد عبد الفتاح شبل- بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1421هـ/2000م.

151. شرح شواهد المغني- ذبيل بتصحيحات وتعليقات العلامة الشيخ محمد محمود بن التلاميذ المركزي الشنقيطي- بيروت- منشورات دار مكتبة الحياة- د ط - د ت .

152. شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان- بيروت- دار الفكر- د ط - د ت.

153. لباب النقول في أسباب النزول- الجزائر- المؤسسة الوطنية للكتاب- تونس- الدار التونسية- د ط - 1404هـ/1984م.

الشريف الجرجاني، أبو الحسن السيد (ت816هـ):

154. التعريفات - وضع حواشيه: باسل عيون السّود- بيروت- دار الكتب العلمية- ط02- 1424هـ/2003م.

الشّريف الرّضي، محمّد بن الحسين(ت406هـ):

155. تلخيص البيان في مجازات القرآن - تحقيق وتقديم: علي محمّد مقدّم- بيروت- دار مكتبة الحياة- د ط - 1984م.

الشّعراوي، محمّد متولّي:

156. قصص الأنبياء والمرسلين- بيروت- المكتبة العصرية صيدا- د ط - 1425هـ/ 2004م.

شيخون، محمود السّيد:

157. الإعجاز في نظم القرآن - القاهرة - مكتبة الكليات الأزهرية - ط01-
1398هـ/1978م.

الصابوني، محمّد علي:

158. إيجاز البيان في سور القرآن - القاهرة - مكتبة الغزالي - ط02- 1399هـ/1979م.

159. صفوة التّفاسير - بيروت - دار القرآن الكريم - ط01- 1401هـ/1981م.

160. مختصر ابن كثير: - بيروت - دار الكتب العلمية - ط01- 1420هـ/2000م.

الصادق، خليفة راشد:

161. دور الحرف في أداء معنى الجملة - منشورات جامعة قار يونس - بنغازي - د ط -
1996م.

الصّبّان، محمّد بن علي:

162. حاشية الصّبّان على شرح الأشموني، مصر - مطبعة السعادة - 1343هـ.

الصّعدي، عبد المتعال:

163. البلاغة العالية، علم المعاني - قدّم له وراجعته وأعدّ فهاره: عبد القادر حسين - المطبعة
التّمودجية - مكتبة الآداب بالجماميز - ط02- 1411هـ/1991م.

الصّعير، محمّد حسين علي:

164. تطوّر البحث الدّلالي، دراسة تطبيقية في القرآن - بيروت - دار المؤرّخ - ط01-
1420هـ/1999م.

165. علم المعاني بين الأصل النحوي والموروث البلاغي - بغداد - وزارة الثقافة والإعلام -
ط01- 1989م.

طالب الإبراهيمي، خولة:

166. مبادئ اللّسانيات - الجزائر - دار القصبه للنشر - د ط - 2000م.

الطّبري، محمّد بن جرير:

167. جامع البيان في تفسير القرآن - مصر - المطبعة الميمنية - د ط - د ت .

عامر، أحمد حسن:

168. التّضمين في العربية، بحث في البلاغة والتّحو - بيروت - الدّار العربية للعلوم - الأردن - دار الشّروق - ط01 - 1422هـ / 2001م.

عبّاس، محمّد:

169. الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني - بيروت - دار الفكر المعاصر - دمشق - دار الفكر - ط01 - 1420هـ / 1999م.

العبد، محمّد:

170. العبارة والإشارة، دراسة في نظرية الاتّصال: - القاهرة - مكتبة الآداب - ط01 - 1428هـ / 2007م.

171. المفارقة القرآنية، دراسة في بنية الدّلالة - القاهرة - مكتبة الآداب - ط02 - 1426هـ / 2006م.

172. النّص والخطاب والاتّصال - القاهرة - الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي - ط01 - 1426هـ / 2005م.

عبد العزيز، محمد عبد الدّائم:

173. النّظرية اللّغويّة في التّراث العربي - القاهرة - دار السلام - ط01 - 1427هـ / 2006م.

عبد الرّحمان، عائشة (ت1998م):

174. الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية لغوية وبيانية - مصر - دار المعارف - 1404هـ / 1984م.

عبد المجيد، جميل:

175. البديع بين البلاغة العربية واللّسانيات التّصيّة - الإسكندرية - الهيئة المصرية العامّة للكتاب - د ط - 1998م.

عبد المنعم، عبد الجليل:

176. نظرية السّياق بين القدماء والمحدثين، دراسة لغوية نحوية دلالية: - الإسكندرية - دار الوفاء - ط01 - 2007م.

العَبُود، جاسم محمد عبد:

177. مصطلحات الدلالة العربي، دراسة في ضوء علم اللغة الحديث: - بيروت - دار الكتب

العلمية - ط 01 - 1428 هـ / 2007 م.

عبيد بن الأبرص (الشاعر):

178. الديوان - بيروت - دار صادر - د ط - 1418 هـ / 1998 م.

العسكري، أبو هلال (ت 395 هـ):

179. كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر - حققه وضبط نصّه: مفيد قميحة - بيروت - دار

الكتب العلمية - 1409 هـ / 1989 م.

عشراقي، سليمان:

180. الخطاب القرآني، مقارنة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي - الجزائر - ديوان

المطبوعات الجامعية - د ط - 1998 م.

العشماوي، محمد زكي:

181. قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث - بيروت - دار النهضة العربية -

1404 هـ / 1984 م.

العلوي، يحيى بن حمزة (ت 742 هـ):

182. الطراز المتضمن أسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز - تحقيق: عبد الحميد هندراوي -

بيروت - المكتبة العصرية - ط 01 - 1423 هـ / 2002 م.

العمادي، أبو السّعود:

183. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم (على هامش تفسير الرازي) - بيروت -

دار الفكر - د ط - 1978 م.

العمري، أحمد جمال:

184. المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز، نشأتها وتطورها حتى القرن الرابع الهجري -

القاهرة - مكتبة الخانجي - د ط - 1410 هـ / 1990 م.

الغرناطي ابن الزبير:

185. ملاك التأويل القاطع بدوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المشابهة من أي التّريل -

تحقيق: سعيد الفلاح - لبنان - دار الغرب - ط 02 - 1403 هـ / 1983 م.

الغزالي، محمد:

186. نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم - الروية - منشورات بغدادية - د ط - دت.

فتحي، أحمد عامر:

187. بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ - الإسكندرية - منشأة دار المعارف - د ط - دت.

188. المعاني الثانية في الأسلوب القرآني - الإسكندرية - منشأة المعارف - د ط - دت.

الفراء، أبو زكريا (ت 207هـ):

189. معاني القرآن - بيروت - عالم الكتب - ط 03-1403هـ / 1983م.

الغزالي، الخليل بن أحمد (ت 175هـ):

190. كتاب العين - تحقيق: مهدي الخزومي وإبراهيم السامرائي - د ط - دت.

الفرزدق (الشاعر):

191. الديوان - شرح وتحقيق: كرم البستاني - بيروت - دار صادر - د ط - دت.

الفتي، صبحي إبراهيم:

192. علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية - القاهرة - دار

قباء - ط 01-1421هـ / 2000م.

الفهري، عبد القادر الفاسي:

193. اللسانيات و اللغة العربية، نماذج تركيبية - بيروت - منشورات عويدات - ط 01-

1986.

الفيروز آبادي، مجد الدين (ت 817هـ):

194. القاموس المحيط - ضبط وتحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي - إشراف: مكتب

البحوث والدراسات - بيروت - دار الفكر - د ط - 1420هـ / 1999م.

القاضي، عبد الجبار المعتزلي (ت 415هـ):

195. المغني في أبواب التوحيد والعدل - قوم نصه: أمين الخولي - القاهرة - مطبعة دار

الكتب - ط 01-1380هـ / 1960م - ج 16 - ص 199.

- القاضي، عبد العزيز الجرجاني (ت366هـ) :
196. الوساطة بين المتنبي وخصومه - تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد الجاوي - مطبعة عيسى باي الحلبي - د ط - 1386هـ / 1966م.
- القاضي عياض (ت544هـ):
197. الشفا بتعريف حقوق المصطفى - خرّج أحاديثه: أحمد بن أحمد محمد بن يحيى المعروف بالشمّني - القاهرة - دار ابن الهيثم - ط01 - 1427هـ / 2006م.
- قاسم بني دومي، خالد:
198. دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم - الأردن - عالم الكتب الحديث - ط01 - 2005م.
- قدّور، أحمد محمد:
199. مبادئ اللسانيات - بيروت - دار الفكر المعاصر - دمشق - دار الفكر - ط02 - 1419هـ. 1999م.
- القرضاوي، يوسف:
200. كيف تتعامل مع القرآن الكريم - القاهرة - دار الشروق - ط05 - 1427هـ / 2006م.
- القرطاجني، حازم (ت684هـ):
201. منهاج البلغاء وسراج الأدباء - تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن خوجة - تونس - د ط - 1966م.
- القرطبي، أبو عبد الله (ت671هـ):
202. الجامع لأحكام القرآن - بيروت - دار إحياء التراث العربي - 1405هـ / 1985م.
- القطّان، مناع:
203. مباحث في علوم القرآن - القاهرة - مكتبة وهبة - ط10 - 1417هـ / 1997م.
- قطب، سيّد (1966م):
204. التصوير الفني في القرآن الكريم - القاهرة - دار الشروق - ط07 - 1402هـ / 1982م.
205. في ظلال القرآن - القاهرة - دار الشروق - ط34 - د ت .

القمي النيسابوري، نظام الدين:

206. غرائب القرآن في رغائب الفرقان - (على هامش الطبري) - مصر - المطبعة الميمنية -

د ط - د ت.

القوزي، محمد:

207. المصطلح التحوي، نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري - - الجزائر -

ط03 - 1983م.

كثير (الشاعر):

208. ملحق الديوان - تحقيق: إحسان عباس - بيروت - دار الثقافة - ط01 - 1971م.

الكرماني، محمود بن حمزة (ت505هـ):

209. البرهان في توجيه متشابه القرآن - تحقيق: عبد القادر أحمد عطا - بيروت - دار الفكر

العلمية - ط01 - 1406هـ / 1986م.

لاشين، عبد الفتاح:

210. ابن قيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن الكريم - بيروت - دار الرائد العربي - ط01 -

1402هـ / 1985م.

211. التراكيب النحوية من الواجهة البلاغية عند القاهر الجرجاني - المملكة العربية

السعودية - الرياض - د ط - د ت.

212. المعاني في ضوء أساليب القرآن - مصر - دار المعارف - ط01 - 1976م.

213. من أسرار التعبير في القرآن، الفاصلة القرآنية - الرياض - دار المريخ - طبعة

1402هـ / 1982م.

ليبد، ابن ربيعة (الشاعر):

214. الديوان - بيروت - دار صادر - د ط - د ت

المالقي، أحمد بن عبد النور:

215. رصف المباني في شرح حروف المعاني - تحقيق: أحمد محمد الخراط - دمشق -

مطبوعات مجمع اللغة العربية - د ط - 1394هـ.

الميرد، أبو العباس (ت285هـ):

216. الكامل - حقه وعلق عليه ووضع فهارسه: محمد أحمد الدالي - بيروت - مؤسسة الرسالة - ط02 - 1418هـ/1997م.

217. كتاب المقتضب - تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة - القاهرة - د ط - 1399هـ/1979م.

محمد أبو موسى، محمد:

218. دلالات التراكيب، دراسة بلاغية - القاهرة - مكتبة وهبة - ط02 - 1408هـ/1987م.

219. الإعجاز البلاغي، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم - القاهرة - مكتبة وهبة - د ط - 1427هـ/2006م.

مختار، أحمد عمر:

220. علم الدلالة - الكويت - مكتبة دار العروبة للنشر - ط01 - 1402هـ/1982م.

المخزومي، مهدي:

221. النحو العربي، نقد وتوجيه - بيروت - دار الرائد العربي - ط02 - 1406هـ/1986م.

مداس، أحمد:

222. لسانيات النص، نحو منهج تحليل الخطاب الشعري - الأردن - عالم الكتب الحديث - ط01 - 2007م.

مرتاض، عبد الجليل:

223. في رحاب اللغة العربية - الجزائر - بن عكنون - ديوان المطبوعات الجامعية - ط01 - 2004م.

224. في عالم النص والقراءة - الجزائر - ديوان المطبوعات الجامعية - د ط - 2007م.

المرزوقي، أبو علي (ت421هـ):

225. شرح ديوان الحماسة - نشر وتحقيق: أحمد أمين، عبد السلام هارون - بيروت - دار الجليل - ط01 - 1411هـ/1991م.

المرسي، كمال الدين عبد الغني. والمصري، أحمد:

226. دراسات في الإعجاز القرآني - الإسكندرية - دار الوفاء - ط01 - 2007م.

المرسي، كمال الدين:

227. فواصل الآيات القرآنية - الإسكندرية - دار الوفاء - د ط - دت.

228. مراعاة التّظير في كلام الله العليّ القدير - الإسكندرية - دار الوفاء - ط 01 - 2005م

المسدي، عبد السلام:

229. اللسانيات وأسسها المعرفية - الدار التونسية للنشر - المؤسسة الوطنية للكتاب - دط -

أوت 1986م.

مسلم، مصطفى:

230. مباحث في التفسير الموضوعي - دمشق - دار القلم - ط 05 - 1428هـ / 2007م.

مصطفى، إبراهيم:

231. إحياء النّحو - ط 02 - 1413هـ / 1992م - القاهرة.

مصطفى، محمد صلاح الدين:

232. النّحو الوصفي في القرآن الكريم - القاهرة - مؤسسة علي جراح الصباح - دط -

دت.

مصلوح، سعد عبد العزيز:

233. في البلاغة العربية والأسلوبيات اللّسانية، آفاق جديدة - جامعة الكويت - فهرس

مكتبة الكويت الوطنية - ط 01 - 2003م.

مطلوب، أحمد (2004م):

234. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها - لبنان - مكتبة ناشرون - ط 02 - 1996م.

235. معجم مصطلحات النّقد العربي القديم - لبنان - مكتبة ناشرون - ط 01 - 2001م

مطاوع، سعيد عطية علي:

236. الإعجاز القصصي في القرآن الكريم - القاهرة - دار الآفاق - ط 01 - 2006م.

مندور، محمد:

237. النّقد المنهجي عند العرب - مصر - مطبعة دار نهضة مصر - د ط - 1969م.

نحلة، محمود أحمد:

238. في البلاغة العربية، علم المعاني - بيروت - دار العلوم العربية - ط 01 -

1410هـ / 1990م.

النسفي، عبد الله بن أحمد:

239. مدار التّزويل وحقائق التّأويل - قدّم له: قاسم الشّماعي الرّفاعي - راجعه

وضبطه: إبراهيم محمّد رمضان - بيروت - دار القلم - ط012 - 1408هـ/1089م.

نصر حامد، أبو زيد:

240. النّص والسّلطة والحقيقة - المغرب - لبنان - المركز الثقافي العربي - ط05 - 2006م.

الهدلي، أبو ذؤيب (الشاعر):

241. الدّيوان - تحقيق وشرح: سهام المصري - بيروت - دمشق - عمان - المكتب

الإسلامي - 1419هـ/1998م.

هنداوي، عبد الحميد:

242. الإعجاز الصّرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، التّوظيف البلاغي لصيغة

الكلمة - بيروت - مكتبة صيدا العصرية - د ط - 1423هـ/2002م.

ويس، أحمد محمّد:

243. الانزياح في التّراث التّقدي والبلاغي، دراسة - جامعة حلب - اتّحاد الكّتاب العرب -

د ط - دت.

ثانياً: الكتب المترجمة.

بريجيتيه بار تشت:

244. مناهج علم اللّغة، من هرمان باول حتّى نعوم تشو مسكي - ترجمة: سعيد حسن

بجيري - مؤسّسة المختار للنشر - ط01 - 1425هـ/2004م.

دومينيك مانغونو:

245. المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب - ترجمة: محمّد يحياتن - الجزائر - منشورات

الاختلاف - بيروت - الدار العربية للعلوم - ط01 - 1428هـ/2008م.

دي بوجراند، روبرت:

246. النّص والخطاب والإجراء - ترجمة: تمام حسان - القاهرة - عالم الكّتب - ط01 -

1418هـ/1998م.

كلاوس، برينكر:

247. التحليل اللغوي للتصوص، مدخل إلى مفاهيم الأساسية: - ترجمه وعلّق عليه ومهّد

له: سعيد حسن بحري - مؤسسة المختار - القاهرة - ط01-1425هـ/2005م

ثالثاً: المخطوطات [الرسائل الجامعية].

1. اسماعيل غازي، اسماعيل دويدار: قرينة التضام في القرآن الكريم. (مخطوط رسالة ماجستير) جامعة القاهرة - كلية دار العلوم - 1425هـ/2004م.
2. بانقيب، عبد الله بن عبد الرحمن أحمد: مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز من الرماني (ت386هـ) إلى عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) - (مخطوط رسالة دكتوراه) - المملكة العربية السعودية - جامعة أمّ القرى - 1429هـ/2008م.
3. بلملياني، بن عمر: المنهج النقدي في النظم والتأليف لدى ابن سنان الخفاجي (ت466هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ). (مخطوط رسالة دكتوراه دولة) - جامعة تلمسان - 1424هـ/2003م.
4. توامة، عبد الجبار: القرائن المعنوية في النحو العربي. (مخطوط رسالة دكتوراه) - جامعة الجزائر - معهد الآداب واللغة العربية - 1995م.
5. حرير، محمد: جمالية التلقي في القرآن من خلال بحوث الإعجاز. (مخطوط رسالة دكتوراه) - جامعة سيدي بلعباس - قسم اللغة العربية وآدابها - 1427هـ/2006م.
6. ديدوح، عمر: الأدوات العاملة في التراكيب العربية، دراسة لسانية صورية - مخطوط رسالة دكتوراه - قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة تلمسان - 2003م/2004م.
7. سعدي، الزبير: العلاقات التركيبية في القرآن الكريم، دراسة وظيفية (مخطوط رسالة دكتوراه دولة). جامعة الجزائر - معهد اللغة العربية وآدابها - 1410هـ/1989م.
8. عباس، محمد: منهج البحث الأدبي عند عبد القاهر الجرجاني (مخطوط رسالة دكتوراه دولة) - (جامعة وهران - 1411هـ - 1412هـ / 1991م - 1992م).
9. عطية عبد الغفار، هدى: السجع القرآني، دراسة أسلوبية. (مخطوط رسالة ماجستير) - جامعة عين شمس - قسم اللغة العربية وآدابها - 2001م.

10. عوني، أحمد محمد: ظاهرة الاقتصاد اللغوي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية - (مخطوط رسالة دكتوراه) - جامعة سيدي بلعباس - قسم اللغة العربية وآدابها - 2005م.
11. مبارك، عبد القادر: آراء تمام حسان في نقد النحو العربي. (مخطوط رسالة ماجستير - جامعة تلمسان - قسم اللغة العربية وآدابها - 2002م/2003م).
12. مبروك، زيد الخير: العلاقات الإسنادية في القرآن الكريم وأثرها في البلاغة والإعراب (مخطوط رسالة دكتوراه دولة) - جامعة الجزائر - قسم اللغة العربية وآدابها - 2007/2008م.

رابعاً: الدوريات.

1. الأنصاري، يوسف: من أسرار تعدية الفعل في القرآن الكريم - مجلّو جامعة أمّ القري لعلموم الشريعة واللغة العربية وآدابها - 15 - العدد 27 - 1424هـ.
2. بلشير، لحسن: التركيب وعلاقته بالنحو - مجلّة المصطلح - جامعة تلمسان مخبر: تحليلية إحصائية في العلوم الانسانية - ع01 - مارس 2002م.
3. تمام، حسان: اللغة العربية والحداثة - مجلّة فصول، مجلّة النقد الأدبي - مج04 - العدد 03، أبريل، مايو، يونيه - 1984م.
4. تمام، حسان: عنوان المقال: اللغة والنقد الأدبي - عنوان المجلة: فصول، مجلّة النقد الأدبي - العدد 01 - المجلد 04 - 1983م.
5. تمام حسان: المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة - مجلّة فصول - مجلّة النقد الأدبي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مج07 - العددان 03 و 04 - أبريل، سبتمبر - 1987م.
6. خليفة، عبد الكريم: وسائل تطوير اللغة العربية العلمية - مجلّة اللسان العربي - المملكة المغربية - مكتب تنسيق التعريب بالرباط - 1395هـ/1975م - مج12 - ج01.
7. الشربجي، يوسف محمد: مرصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع للإمام جلال الدين السيوطي - تحقيق - ضمن مجلّة: الأحمديّة - جامعة أمّ القري - العدد 04 - جمادى الأولى - 1420هـ.
8. عباس، محمد: المصطلح اللغوي عند تمام حسان - مدجّلّة المعتمد غب الاصطلاح - مخبر تعريب المصطلح في العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية - العدد 05 - ديسمبر 2006م.

9. عبد المطلب، محمّد: النحو بين عبد القاهر وتشومسكي - مجلّة فصول، مجلّة التقّد الأدبي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مج 05 - العدد 01 - أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر - 1984م.
10. علوي، سالم: الدرس النحوي بين التنظير والتطبيق - مجلّة اللغة والأدب - جامعة الجزائر - العدد 05 - 1994م.
11. بن عيسى، عبد الحليم: اللسانيات والنص القرآني - مجلّة الآداب والعلوم الانسانية - جامعة قسنطينة - العدد 03 - 1424هـ / 2003م.
12. الجدي، ماجد بن محمّد: الفنون البلاغية في سورة هود - المجلّة العلمية لجامعة الملك فيصل، العلوم الانسانية والاجتماعية - مج 05 - العدد 02 - 1425هـ / 2004م.
13. مسيس، رياض: لسانيات النص، حول بعض المفاهيم والمرجعيات والأبعاد. مجلّة المبرز - بوزريعة - الجزائر - عدد خاص بالملتقى الوطني حول "دور اللسانيات في العلوم الانسانية" فيفري 2002م.

خامسا: الكتب الأجنبية.

- 1- Jean-Louis CHISS; Jacques FILLIOLET; Dominique MAINGUENEA: LINGUISTIQUE FRANCAISE; initiation a la problématique structurale.syntaxe.communication.poétique – CLASSIQUES HACHETTE.PARIS.
- 2-De Saussure Ferdinand– cours de linguistique –générale :Editions Talantikit-Béjaia- 2002
- 03 - M.A.K.HALLIDAY, RUQAIYA HASSAN: Cohesion in English – Longman.
- 04- Shirley Carter Thomas : La cohesion textuelle, pour une nouvelle pédagogie de l'écrit- L'Harmattan- Paris FRANCE- Montréal-CANADA- 2000

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
كلمة شكر	
إهداء	
مقدمة	أ
الفصل الأول: التضام، أصوله وامتداداته	05
<u>أولاً</u> : مفهومه ومجالاته	05
1- التعريف اللغوي والاصطلاحي	05
2- التضام قرينة لفظية	09
3- أقسام التضام	16
- التضام المعجمي	16
- التضام النحوي	20
أنواع التضام النحوي	21
♦ الاختصاص	21
♦ الافتقار	24
التضام السلبي	27
4- التضام والتوارد والمصاحبة اللغوية	31
♦ التوارد التضام	31
♦ التوارد والمصاحبة	33

345- مظهره ومتعلقاته
35♦ علاقات التضام
37♦ القاعدة النحوية والتضام
386- عوارضه
38♦ الفصل
44♦ الاعتراض
477- قرينة التضام بين قرائن التعليق الأخرى
49 <u>ثانياً: التضام في الموروث النحوي</u>
491- أقسام الكلم
532- التضام في الأبواب النحوية
54♦ في الجملة الاسمية
58♦ في الجملة الفعلية
59♦ ظنّ وأخواتها
60♦ التعدّد في جملة النعت
60♦ التوكيد
61♦ التضام في الحروف

- 62 ❖ الجرّ بعد الحرف.
- 63 ❖ حالات متعدّدة لـ: (ما)
- 68 • التضام في كتاب "المقتصد في شرح الإيضاح" لعبد القاهر الجرجاني.
- 69 • التضام في التقسيم السباعي للكلم.
- 69 - الفعل من حيث التضام.
- 69 - الاسم من حيث التضام.
- 70 - الصّفة من حيث التضام.
- 71 - الخالفة من حيث التضام.
- 71 - الضّمير من حيث التضام.
- 71 - الظّرف والأداة.
- 72 • الترخّص في التضام.
- 74 3- صلة التضام بالدراسة التّحوية.
- 78 - علاقة التضام ببعض القرائن التّحوية.
- 80 - التضام والمنهج الشّكلي.
- 83 ثالثاً: التضام في الموروث البلاغي
- 84 1. مدخل عام.
- 86 2. مترلة التضام بين وجوه الإعجاز.

88	3. التضام في ضوء نظرية النظم.
88	❖ الجذور البلاغية لمادة (ضمم) ومعانيها.
95	❖ التضام في ضوء نظرية النظم.
102	4. أثر السياق في التضام.
107	5. التضام والمصطلح البلاغي.
108	❖ التضام ومقولات التأليف والتركيب.
110	❖ التضام ومقولات السبك والحيك.
116	❖ التضام ومقولات الرصف والتعليق.
119	• جهود أبي بكر البلاقلاني (ت403هـ) في التضام.
120	• جهود القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت415هـ) في التضام.
123	• جهود عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) في التضام.
129	<u>رابعاً: التضام في الدرس اللساني الحديث</u>
129	1- التضام والمنهج الوصفي.
131	❖ التضام والعلاقات الأفقية والاستبدالية.
135	❖ التضام والدراسة الشكلية.
138	2- التضام ولسانيات النص.

الفصل الثاني: التضام في سورة هود..... 144

- مدخل عام..... 144
- المغايرة في نسق الاستعمال القرآني..... 147
- التقديم والتأخير..... 153
- المناسبة..... 161
- الفصل والوصل..... 185
- الربط والارتباط..... 196
- التكرار والإعادة..... 202
- التضمين والتعدية..... 210
- التعريف والتكثير..... 216
- الفاصلة القرآنية..... 222
- الإطناب والإيجاز..... 229
- الحذف..... 235
- الذكر والزيادة..... 244
- المخالفة في طريقة الجواب والإخبار..... 256
- التأنيث والتذكير..... 258
- الخطاب بالاسم والفعل..... 259
- الأفراد والجمع..... 262
- التضام الصوتي..... 265
- الالتفات..... 269
- الآية 44 من السورة..... 272

الفصل الثالث: التضام في سورة طه..... 281

- المغايرة في نسق الاستعمال القرآني..... 281
- التقديم والتأخير..... 293

305.....	• المناسبة
318.....	• الفصل والوصل
322.....	• الربط والارتباط
328.....	• التكرار والإعادة
338.....	• التضمين والتعدية
245.....	• التعريف والتكثير
350.....	• الفاصلة القرآنية
358.....	• الإيجاز والإطناب
363.....	• الحذف
370.....	• الذكر والزيادة
377.....	• المخالفة في طريقة الجواب والإخبار
378.....	• الخطاب بالاسم والفعل
380.....	• الإفراد والجمع
383.....	• التضام الصوتي
384.....	• الالتفات
386.....	الخاتمة
390.....	قائمة المصادر والمراجع
414.....	فهرس الموضوعات

Résumé :

Si « Tammam Hassan » a le mérite de donner au phénomène de cohérence son énoncé conceptuel, et il a considéré l'un des liens verbaux sur le sens de la fonction syntaxique ; le sujet de recherche traite ce phénomène rétique dans deux sourates du Coran ,ce sont sourates « Hood » et « TaHa » , basé sur les données de l'héritage rhétorique, et en essayant de le suivre dans ce patrimoine toute en s'étant rassuré de l'avoir abordé dans ses dimensions et en présence de ses concepts ,en vue de l' approche de l'objet de cohérence ainsi que la théorie de composition.Ses définitions se concluent dans le sens de : l'annexion ,l'alignement et la notion de synthétique abordés par les anciens rhétoriciens et a également tenté la recherche qui révèle le nombre des relations verbaux et significatives qui relie les versions et sourates du coran concernant principalement les problèmes de l'inversion , la convenance , la dissociation, l' association, la coordination ,l'omission ,et la mention ainsi que d' autres recherches attachés à la science de signification et les questions rhétorique et l' inimitabilité du coran.

Les mots clés : cohérence, syntaxe, rhétorique, la théorie de composition, inimitabilité.

Abstract :

It is thanks to « TAMMAM HASSAN » that cohesion has got its verbal term and has been considered as one of the expression that indicate the grammatical meaning. The research treats this phenomenon from its rhetorical side in the holy Koran, exactly surate : "TAHA" and "HOUD" where we found its dimensions and presence of its concepts . Wherever this subject crosses in general with the composing theory, so we can brief the cohesion definitions in: combination, alignment ,and notion of synthetics senses which had been studied by ancient elequents. Also we aimed at reveal a set of conceptual and verbal relations that attach Koran's verses and surates; represented mainly in :The inversion, the convenance the association ,the dissociation, the combination, the omission ,the mention issues and other topics related to rhetoric, signification science and the nonimithability of Koran.

Keywords: cohesion, grammatical, rhetorical, composing theory, nonimithability.

الملخص:

إذا كان لتمام حسن الفضل في إعطاء ظاهرة التضام لفظها الاصطلاحيّ وعدّها واحدة من القرائن اللفظية الدالة على المعنى النحويّ؛ فإنّ موضوع البحث يعالج هذه الظاهرة بلاغيا في سورتين من القرآن الكريم هما سورتا هود وطه انطلاقا من معطيات التراث البلاغيّ، إذ حاول البحث تتبّعها في هذا التراث واطمأنّ إلى أنّ فيه إلما بأبعادها و حضورا لفاهيمها، حيث يلتقي موضوع التضام بنظرية النظم، وتتلخّص حدوده في معاني الضمّ والرّصف والتأليف التي تناوّلها البلاغيون القدامى، كما حاول البحث أن يكشف عن جملة من الوشائج اللفظية و المعنوية التي تربط بين آيات القرآن الكريم و سوره المتمثلة أساسا في قضايا التّقديم و التّأخير، المناسبة، الفصل والوصل، الرّبط، الحذف والذّكر وغيرها من المباحث المتعلقة بعلم المعاني ومسائل البلاغة و الإعجاز.

الكلمات المفتاحية: التضام، التحو، البلاغة، نظرية النظم، الإعجاز.